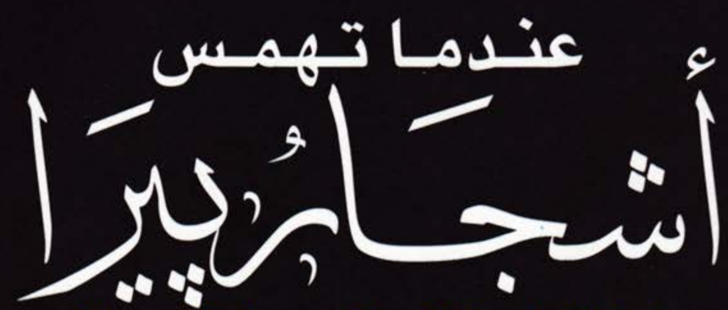
رحمة الله عليك

أحمد أوميت

AHMET ÜMIT



Beyoğlu'nun En Güzel Abisi

الحبّ يبعد رتابة الحياة، والقتل يجعل الموت غير عادي.

مكتبة ٣٤٣

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور

مكتبة | 343

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الإنكليزية عن الأصل التركي
Beyoğlu'nun En Güzel Abisi
تأليف AHMET ÜMİT

Published by arrangement with Kalem Agency
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع
Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr – Web: www.tedaproject.com
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من
Kalem Agency, Ensiz Sokak No. 2-3 Beyoglu Tunel Istanbul, Turkey
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1552-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

عندما تهمس أشجار پيرا

Beyoğlu'nun En Güzel Abisi

الحبّ يبعد رتابة الحياة، والقتل يجعل الموت غير عادي

رواية

أحمد أوميت

AHMET ÜMIT

ترجمة

معن عبد الرحمن الكشك

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

إهداء إلى الذكرى الغالية

للأشخاص الذين أُجبِروا

على ترك هذه الأرض

الحب يحمي الحياة
من أن تكون عادية
القتل يحمي الموت من الترهُّل

الظلام.... بدا الظلام أشد بسبب البرد، ومن بعيد كانت الأغاني تصل إلى مسمعه، وكذلك صرخات النساء المبتهجات وعويل السكارى المبالغ فيه. كان هناك واحد يشتم وآخر ينشج وربما ثالث يحتضر وسط هذه الأصوات المتنافرة... هذا الصخب... لكنه لم يكترث؛ إذ لم يكن يشعر بشيء سوى بالغضب الذي كان مسيطراً على كل كيانه، ويدفعه للارتعاش من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه. قد لا يعرف هذا الشارع المظلم، ولا الحي القديم الذي يعبره، ولا الحي الأثري المتروك من أيام ازدهار المدينة، ولا هذا الشارع المنسي، ولا هذا البرد أو هذه الليلة. كان يمشي دون أن يدري إلى أين هو ذاهب، وقد ملأه الحنق وأطبقت الغيرة على قلبه بمخالبها الفولاذية لتعتصره.

نادى صوت من أعماقه... النساء... لا يمكنك العبث مع النساء... تظن أنك تعبث معهن لتكتشف فيما بعد أنك أنت الدمية. بدت في الشارع وجوه النساء اللاتي التقاهنّ في حياته لتتساقط صورهن عند قدميه، واحدة تلو أخرى، وقد طأطأت كل واحدة رأسها وامتلأت عيناها أسى... كلهن متحسرات. تجاهلهن وخطا فوق صورهن كبرك ماء، لكن الصور عادت إليه مجدّداً، ونادى الصوت من جديد... النساء... لا يمكنك الهرب منهن فأرواحهن ستطاردك حتى نهاية حياتك.

أخذ نَفَساً عميقاً وطرد الأصوات من رأسه لتختفي صور النساء مع الصوت. سعل من رائحة الفحم الثقيلة التي تملأ رئتيه وصعدت الشتائم إلى حنجرته لكنه كبتها، فما الطائل منها؟ أسرع الخطى قليلاً على الرغم من كونه لا يعلم إلى أين هو متجه، ويعلم أن ذلك ليس حلاً. كانت خطواته الطويلة مجهَدَة وقبضتاه مطبقتين وعينه اليمنى ترتعش... كان ذلك كل ما يدركه وربما لهذا هو غاضب، فعينه اليمنى التي لم يتمكن مطلقاً من السيطرة عليها ترتعش دائماً حين يفقد صوابه. كم يثير الإنسان الشفقة؟!

إن تمكّن من الخروج من هذا الظلام، والوصول إلى الحشود الهائجة في شارع الاستقلال، فقد تخرجه الألوان والأنوار والأصوات من هذا اليأس المسيطر عليه... إن تمكّن من زج نفسه وسط حشود طالبي المتعة المحتفلين بقدوم السنة الميلادية الجديدة، فقد تنتهي هذه الغيرة والكراهية والفراغ المطبقة على روحه وقد تسحب الريح الرطبة كل شيء وتطرده بعيداً لتعود الأمور إلى ما كانت عليه في شبابه في زيوريخ... كالليالي التي كان يمشي فيها على شاطئ البحيرة قبل أن يأتي إلى هذه المدينة البائسة.

في هذه الأثناء سمع صوت وقع خطوات يتردّد على الأرض المعبّدة. لم يكن متأكِّداً منها مع كل هذا الضجيج... أيمكن أن يكون صوت خطواته؟ أصاخ السمع دون أن يبطئ من سرعته منصتاً للشارع والظلام والليل... كان الصوت يتردّد بين البيوت القديمة لتصبح جدرانها كشواهد القبور... لا بدّ أن أحداً ما يطارده، خطوة بخطوة، ليتبع ظلٌّ ما ظلَّه وتتزامن أنفاسه مع أنفاسه.

هل جاء اليوم؟ أكان ذلك حين أصبح كابوسه حقيقة؟ الآن؟ في هذه اللحظة؟ ومهما يبدُ الأمر غريباً فقد كان هناك بعض الرضى في داخله... نعم كان يشعر أن سعادته تزداد، ولِمَ لا؟ ربما يكون الأمر أفضل على هذا النحو، وينتهي كل هذا العذاب المستمر منذ سنوات، لينعم بالسلام ويكفِّر عن ذنوبه. شعر بالرضى من التسليم الذي سيطر فجأةً على روحه حين كان لا يتوقّعه. وحين شعر باقتراب قاتله، وهو يخرج المسدس ويضع إصبعه على الزناد، أحس بضربة، ثم سقط على الأرض وتذوّق طعم الدم في فمه، ليختفي ذلك الرضى وتعود له إرادة الحياة والغيرة والغضب والندم على الحب. لا يزال الوقت باكراً على الموت، ثم تذكر فجأة كلمات عمه التي كان يتمتم بها بصوت غريب وهو يملِّس شاربه الطويل:

- ألف عين تبكي ولا عين أمي.

فك أزرار سترته بهدوء لتصل يده اليمنى إلى حزامه، وحين لمست يده مقبض مسدسه الباردة عاد إليه الغضب الذي كان مسيطراً عليه... كان المسدس كالعادة، أي أنه لا يحتاج سوى للالتفات وإطلاق النار. دون أن ترتعش يده أو يخطئ هدفه... كما فعل مرات كثيرة... أطبق قبضته على المسدس وسحبه بهدوء

ثم استدار، لكنه لم يتمكّن من التصويب، فقد ضربت ريح قوية جانبه الأيسر فنظر إلى اتجاهها ليجد شخصاً يقف هناك في الظلام... شخصاً يعرف كل شيء... حاول الابتسام لقاتله في الظلام، وقال قبل أن ينهار على حجارة الطريق:

- كنت أعلم... كنت أعلم.

يبدو أن القاتل تصرّف بسرعة أكبر



كانت ليلة رأس السنة كابوساً بالنسبة إلى رجال الشرطة، فحين يضحك الجميع في تلك الليلة ويستمتعون بحفلات الرقص، فإننا نقضي ساعات رهيبة... كابوس مظلم لعين لا ينتهي، يبدأ بعد الظهيرة ويستمر حتى بزوغ نور اليوم الأول من السنة، فدائماً تقع حوادث في هذا الوقت إذ يقوم أحد ما بإطلاق الرصاص أو الطعن بسكين أو قتل شخص. حتى الآن كان الأمر دائماً على هذا النحو وسيستمر كذلك إلى الأبد، ولهذا تُرفض الإجازات ويتأهّب كل رجال الشرطة. ففي حين يستمتع بعض الناس ويذهبون إلى المطاعم الراقية والنوادي الليلية أو يمضي الآخرون ليلتهم في بيوتهم مع عائلاتهم وأحبتهم، نستقبل نحن رجال الشرطة السنة الجديدة باحتفالاتنا البسيطة في مراكزنا المملّة بمزاج سيئ وكلنا متيقظون بانتظار النداء الذي سيصلنا عبر الأجهزة اللاسلكية. في هذه الليلة مرّ الوقت دون أي حوادث تُذكر، باستثناء الأذيات البسيطة والإزعاجات المخزية التي تحدث كل رأس سنة في تقسيم. ربما ستكون الليلة ليلة استثنائية ولن يقوم أحدٌ بقتل أحدٍ وسيؤجل القتلة أعمالهم الليلة. وبينما كانت آمالنا تتزايد وصلنا النداء، وكان علي واقفاً يتناول كعكته بالتوت البري وكنت أحتسي قهوتي... في تلك اللحظة أعلن جهاز اللاسلكي عن جريمة القتل الأولى في السنة الجديدة، حيث تم العثور على جثة رجل في تارلاباسي.

كان من الصعب معرفة التفاصيل من الشارع المضاء بنور القمر الخافت، الذي كان يظهر ويختفي بين الغيوم البيضاء، ولولا الأنوار الزرقاء والحمراء المتوهجة

من سيارة الشرطة لما كان من الممكن رؤية الجثة ولا رجلي الشرطة الواقفين عند قدميها. وبعد أن تقدّمنا بضع خطوات أصبح المشهد أكثر وضوحاً، فقد كانت الجثة ملقاةً تحت لافتة غير مضاءة مكتوب عليها نادي تارلاباسي أمام أحد الأبنية القديمة المتهالكة في منطقة بيه أوغلو، وعلى الجانب الأيسر من صدره في مكان القلب انتشرت بقعة من الدم كوردة ضخمة على معطفه الباهت، بينما كانت يده اليمنى تمسك بمسدس بيريتا فضيّ اللون يلمع تحت أضواء سيارة الشرطة. كان الشرطيان واقفَين متأهِّبين عند وصولنا، لكن علي تجاهلهما فقد كانت نظراته مركّزةً على المسدس في يد الرجل، ودون أي تفسير انحنى على الجثة ووضع يده على الأرض، ودون أن يلمس المسدس اشتم فوهته.

تمتم دون أن يرفع نظره عالياً:

– لم تسنح له الفرصة لإطلاق النار. يبدو أن القاتل تصرف بسرعة أكبر.

ثم نظر إلى بقعة الدم على صدر القتيل وقال:

– لقد أنهى عمله بضربة واحدة.

كان الوقت باكراً جداً للوصول إلى مثل هذه الاستنتاجات، لذا التفتت إلى الشرطي الواقف أمام الجثة وقلت:

– هل أنت من وجدها؟

– نعم أنا الذي وجدتها، أيها الضابط نيفزات.

إذن هو يعرفني.

– قبل ساعة كنا نجول في المنطقة لأن حادث اغتصاب وقع هنا السنة الماضية، لذا... لكي لا يتكرر الحادث نفسه هذه السنة... لقد رأيناه ونحن نقوم بجولتنا، وظننا في البداية أنه مجرّد سكير مُغمى عليه، لكننا حين اقتربنا أدركنا أنه ميت.

كنت أفحص الجثة وأنا أنصت إلى شرح زميلي. سال سائل داكن اللون أو لعاب من طرف فمه إلى رقبته. كان رجلاً وسيماً بأنف مستقيم وحاجبين كثين وشارب داكن اللون وذقن عريضة وله لحية صغيرة. أشحت عن وجه القتيل الشاحب إلى عينَي الشرطي المرهق وسألته:

– هل رأيتَ أحداً معه؟

- لا، ولم نرَ أحداً يهرب من المنطقة، فمن سيأتي إلى هنا الساعة الثالثة بعد منتصف الليل؟

قال كلماته، واحدة تلو أخرى، دون أن يفكّر أو يأخذ نفساً.

فقلت وأنا أشير إلى الطابق الأول حيث يقع نادي تارلاباسي:

- ألم يكن هناك أحد؟
- لا.

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك في ذلك الحين لكنه تكلّم دون تردّد، كشخص واثق تماماً مما حدث.

- يغلق النادي في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.
- ما نوع هذا النادي؟
- إنه مجرد نادٍ...

حاول أن يبدو مسترخياً لكن التوتر في صوته كاد يفضحه.

- نعم فهمت ذلك، لكن ماذا يفعلون هنا؟
- يجتمع سكان الحي في الأمسيات للمرح حيث يلعبون البريدج وغيرها من الألعاب...

قال مساعدي:

- البريدج والبوكر... أي ألعاب مَيسِر.

حان دوري لأضيف شيئاً.

- أتتغاضى عن الميسر؟

تلعثم لسان الشرطي وقال:

- بالطبع لا يا حضرة الضابط. أيُّ مَيسِر هذا؟

فقال صديقه الطويل الذي جاء لنجدته.

- إنه ليس ميسراً أيها الضابط.

كان جسده غير متناسق، فساقاه قصيرتان، وصدره عريض، ورأسه كبير، كما أن بذلة الشرطة جعلته يبدو ضخماً، ما يعطي انطباعاً بأنه مثبت بين كتفيه.

- كانوا يلعبون فقط للتسلية. أتظن أننا سنسمح بالأمر لو كان ميسراً؟

أصر عليّ وهو يحشر يديه في جيبي معطفه الأزرق لحمايتهما من البرد.

- حقاً؟
- بالطبع ولِمَ قد نسمح بذلك يا حضرة الضابط؟

كان الشرطي ذو الرأس الكبير ينظر إلينا دون أن يرمش له جفن، ولم يكن خجولاً كزميله الذي كان سينهار في حال نفخت عليه.

سألتهما:

- هل وقعت حوادث مشابهة في هذا النادي؟
- جريمة قتل؟ لا أيها الضابط. بالطبع هناك مناوشات كما في أيّ مكان آخر، أما إطلاق الرصاص وما شابهه فلم يحصل.

لم تبدُ كلماته صادقة لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بالجدل فالتفتت إلى الجثة الهامدة مجدّداً.

- أيحمل القتيل بطاقة هوية؟
- نعم يا حضرة الضابط.

وناولنا الشرطي النحيل الذي بدا كأنه استعاد ثقته بنفسه مجدّداً بطاقة هوية مهترئة وقال:

- إنجين آكا.

سألته وأنا أتناول البطاقة:

- أتعرف الرجل؟

توقفا وبلعا ريقهما وتبادلا النظرات لكنهما لم يقدِّما أيّ تفسير.

- أقصد ألم يأتِ إلى مركزكما من قبل؟

ردّ الشرطي ذو الرأس الكبير:

- لا، وإن كان قد فعل فلا أذكر ذلك. هذه بيه أوغلو يا حضرة الضابط، وقد كنت تعمل هنا وتعرف الأمور التي نتعامل معها يومياً. إنه أمر مثير للجنون.

وبتصنع واضح سأل زميله:

- هل تذكره؟
- لا. قد يكون ضحية سرقة أو شيء مماثل، وقتلوه للحصول على ماله.

سأل علي:

- وماذا عن المسدس في هذه الحالة؟ أكان للزينة؟
- وكيف لنا أن نعرف؟ من يعرف لِمَ كان يحمله؟

كان علي على وشك الانفجار لكن ضجيجاً من نهاية الشارع أوقفه... صوت كمان وطبل وأغنية مرحة تتدفّق من أفواه شبابٍ مرحين:

- يا حماتي ماذا فعلتِ بنا؟ ماذا فعلتِ بنا؟ سنهرب بعيداً... سنهرب بعيداً...

لا بدّ أنهم خرجوا من مقهى قريب حيث بدوا كأن زبوناً متحمِّساً لاحتفالات رأس السنة قد جر وراءه الموسيقيين لإكمال الحفل في الشارع؛ لكن المرح لم يستمر طويلاً، فحين رأوا سيارة الشرطة هدأت الأصوات وانقطعت الأغنية... لا، لم يكونوا زبائن وإنما مجرد فتيان في سنّ السادسة عشرة أو السابعة عشرة وقد غرق أحدهم في معطف أكبر منه بقياسين على الأقل وهو يحمل كمان في يده؛ بينما حمل الآخر طبلاً وهو لا يرتدي شيئاً سوى كنزة تكاد تصل لركبتيه؛ أما الشاب الذي يرتدي سترة جلدية حمراء فلم يكن يحمل شيئاً، لكن مظهره كان الأكثر إثارة للانتباه: كانت العصبة السوداء التي تغطي عينه اليمنى ملفتة للنظر. قد تكون عينه مصابة أو أنه يضع العصبة كنوع من الزينة. لا بدّ أنه مغني المجموعة الصغيرة لكنه صمت كصديقيه. حتى في ليلة رأس السنة لم يكن مقبولاً أن يراك رجال الشرطة في الشارع وأنت تغني وترقص الساعة الثالثة بعد منتصف اليل. جمدوا في أماكنهم كأرانب خائفة وجدت نفسها مكشوفة، لكن السكون لم يستمر طويلاً فقد كان الشاب ذو السترة الحمراء الأكثر شجاعة حيث نظر إلينا واقترب منّا ليتبعه صديقاه. وكان حامل الكمان أول من لاحظ الجثة ولم يكن خائفاً، بل شقّ طريقه بفضول واضح وما إن رآها حتى صرخ بدهشة:

- إنجين! إنه إنجين آبي...

والتفت إلى حامل الطبل بهلع وصرخ:

- انظر يا كيتو! لقد قتلو إنجين آبي!

هز كيتو رأسه بتصميم وقال:

- إنه ليس هو. أتظن أن من السهل إصابة إنجين آبي؟ لا يمكن لأحد أن يلمسه.

حملق الشرطي ذو الرأس الكبير حين رأى الفتيان:

- هذا ما كان ينقصنا.

ودون أن يسألني رفع يده وقال:

- لا تقتربوا من هذا الشارع أيها الفتيان. انطلقوا! انصرفوا!

لكنهم تجاهلوا تحذيره.

- أنا أتكلّم معكم. هل تسمعونني؟

وضعت يداً على كتفه.

- دعهم فقد يكونون رأوا شيئاً.

نظر إليّ بدهشة:

- ماذا قد يرون يا حضرة الضابط؟ انظر كم هم منتشين. إنهم لا يفقهون شيئاً.

- فليكن ذلك، لكنني أرغب بالتحدث إليهم.

حين رآني الفتيان أدافع عنهم اقتربوا من الجثة وهنا صرخ الصبي المدعو كيتو:

- يا إلهي. هذا صحيح. إنه إنجين آبي.

على الرغم من صدقه لكن ذلك لم يبدُ صادقاً تماماً.

- يا إلهي لقد أطلقوا النار على إنجين آبي.

ثم نظر بخيبة أمل إلى صديقه.

- ظننت يا ماستي أنك قلت إنه يحمل تعويذة لتحميه، وإنه لا يموت ولا يتأذّى من الرصاص.

خفض ماستي رأسه وبدا عليه الشعور بالذنب كأنه هو من قتل إنجين آبي بيديه. ثم نظر إليّ وسألني:

- كيف قتلوه؟

أجبته:

- بسكين. أحد ما طعن إنجين آبي.

كنت أكذب سعياً لفتح حديث معهم.

تنفّس الصعداء كمشتبه به تمت تبرئته وقال لصديقه:

- أتسمع يا كيتو؟ لقد قتلوا إنجين آبي بسكين. التعويذة مخصّصة للحماية من

الرصاص، وليس لها أيّ تأثير على النصل...

قلت لهم بنبرة حزينة كنبرتهم:

- إذن أنتم تعرفونه.

ردّ كيتو:

- نعم بالطبع. لقد كان بمنزلة أخ كبير أو أب لنا. إنه...
- إنه رجل عاقل لن يأتي الزمان بمثله.
- من طعنه يا تُرى؟

تراجعوا ونظروا إليّ كما لو أنهم صحوا من نوم طويل، ثم بدؤوا يحدّقون إلينا، بدءاً بي ثم برجلي الشرطة بجواري، وقد امتلأت أعينهم بالخوف والتحفّظ.

- انظروا يا فتيان. اسمي نيفزات... الضابط المحقّق نيفزات من فرقة الجرائم، وليس لي أيّ شأن معكم، لكنني أريد القبض على الشخص الذي قتل إنجين. إنكم على علاقة جيدة بالرجل وبإمكانكم مساعدتي وإلا فإن دماء "أخاكم الكبير" ستذهب سدى.

نظر ثلاثتهم إلى العينين الزرقاوين المتلألئتين للجثة الملقاة على الأرض.

زمجر كيتو:

- الأوغاد... لقد نصبوا له كميناً.

هز ماستي رأسه بغضب وقال:

- لقد جاؤوه من الخلف... المنحرفون... ما كان بإمكانهم رفع سكين لو نظروا إلى عينيه.

بدا كما لو أنهم يعرفون القتلة، ما يعني أننا قد حللنا القضية.

- عمّن تتكلّمون؟ من هم الذين ما كان بإمكانهم رفع سكين؟

نظروا إلى الشرطيين مجدّداً، ثم اقترب مني المدعو كيتو ووقف على رؤوس أصابعه وهمس في أذني.

- ألستَ شرطياً من هذا الحي؟

تمتمت بصوت مطمئن:

- لا.

بدا مرتاحاً لجوابي لكنه ظل ينظر إلى الشرطيين بحذر.

قلت وأنا أشير إلى الاتجاه الذي جاؤوا منه:

- هيّا. دعونا نتمشَّ، فسنرتاح أكثر بالكلام هناك.

ومع تلاشي التوتُّر عن وجوه الفتيان ظهر الانزعاج على وجهي الشرطيين. لكنني تجاهلت ذلك أيضاً وقلت لعلي:

- ابقَ هنا. سيأتي شفيق من فرقة التحقيق بمسرح الجريمة مع المدعي العام خلال فترة وجيزة. حذار من أن يخربوا مسرح الجريمة.

حين لا يكون لدى هؤلاء الفتيان أيّ بيت أو أمل أو مستقبل



بينما كنت أمشي مع الفتيان الثلاثة خامرني شعور غريب، فقد أحسست كأنني والدهم. لو أن ابنتي أيسون لم تمت لكانت الآن في عمرهم. نظرت بحزن إلى هؤلاء الثلاثة الذين يمشون جنباً إلى جنب بجواري. لم يبدوا كمنبوذين؛ كانوا مثل قطعة من هذا الشارع القديم وأبنيته المتداعية والمتكئة بعضها على بعض، وبالكاد يمكنها الوقوف. لا، لم يكونوا كالشارع فحسب بل كانوا جزءاً من هذه المدينة التي تحطم إدراكك، وجزءاً من ليلة رأس السنة هذه حيث يتمازج الفرح والعنف.

سألني كيتو بصوت بدّد أفكاري:

- هل معك سيجارة يا حضرة الضابط؟

فكّرت بإخبارهم أنني لا أدخّن، وأنهم أيضاً ينبغي أن يقلعوا عن التدخين، لكنني أعدت النظر في الأمر حين أدركت أن تعليقي سيبدو تافهاً؛ فأخرجت عشرين من جيبي، انتزعها مني كيتو قبل أن أناوله إياها.

- أقدّر لك ذلك يا حضرة الضابط. فليباركك الله.

- هيه. المال لنا جميعاً.

كان الفتى ذو العصبة السوداء هو من تكلّم حيث أمسك بكيتو من معصمه وهزّه، فقاومه كيتو على الرغم من جسده الهزيل.

- دعْ يدي. قلتُ لكَ دعْ يدي يا بيرانا وإلا فستندم.

لم يبدُ بيرانا من النوع الذي يستسلم بسهولة.

- لا يمكنك سرقتها هكذا. الغنيمة لنا جميعاً يا فتى. لقد أعطى الضابط النقود لنا جميعاً.

كانت نظراته تشير إلى أنه يؤمن بعدالة قضيته.

قلت:

- صديقك محق، فالنقود لكم جميعاً. لكن قبل السجائر عليكم شراء بعض الطعام وتناوله.

هزّه بيرانا مجدّداً:

- أسمعت؟ انظرْ... إن استوليت عليها مجدّداً كالمرة الماضية فسأجعلك تندم...

وتلألأت عيناه كعين حيوان متوحش من المستحيل ترويضه.

- توقّفوا عن الشتائم. ألا يمكنكم التصرّف كرجال ناضجين؟
- بلى يمكننا يا حضرة الضابط، لكنك لا تعرف كيتو...
- وماذا تريده أن يعرف يا فتى؟ من يسمعك يظن أنني...

ثم كبت الشتيمة في اللحظة الأخيرة

-... يظن أنني فعلت شيئاً سيئاً بك. نحن لسنا سيئين، وإذا أساء بعضنا لبعض فإن ذلك مجرد خطأ. لذا توقف عن هذا الكلام فالنقود لنا جميعاً.

أخيراً، تمت تسوية المشكلة أو على الأقل هذا ما بدا عليه الأمر. توقّفنا تحت مصباح في الشارع أمام أحد تلك الأبنية المتهدّمة في تارلاباسي والذي ربّما كان منزلاً لأحد المواطنين من أصول أرمنية أو يونانية لكنه تهدّم بعد ذلك.

- الآن أخبروني من تظنون أنه قتل إنجين؟

أجاب كيتو من دون تردُّد:

- ومن غيره يا حضرة الضابط؟ إحسان بالطبع.

أومأ الآخران رأسيهما موافقين.

- نعم دايس إحسان.
- ومن يكون دايس إحسان هذا؟

وضع كيتو طبله بين ساقيه ونفخ في يديه الباردتين.

- ألا تعرف دايس إحسان؟ إنه أقذر لاعب ميسر في المنطقة... حثالة وجبان.
- وأين هو إحسان هذا؟

أشار بيد قذرة إلى المبنى الذي ترقد الجثة أمامه.

- هناك. إنه نادي تارلاباسي...
- ولِمَ يقوم إحسان بقتل إنجين؟

نظر ثلاثتهم إليّ بتعاطف وقال ماستي:

- أنت لا تعرف شيئاً يا حضرة الضابط. كان إنجين آبي أحد رجال نادي تارلاباسي الأصيل... أعني نادي بلاك نظام...

أحسست بالارتباك.

- مجرّد لحظة... مجرّد لحظة... ألا يُدعى النادي نادي تارلاباسي؟

ضحك ثلاثتهم سوياً.

قال كيتو محاولاً توضيح الأمر:

- هناك ناديان يا حضرة الضابط. اسم نادي دايس إحسان هو نادي تارلاباسي، أما نادي بلاك نظام فاسمه نادي تارلاباسي الأصيل، وقد قام بلاك نظام بفتح النادي لمجرد إزعاج دايس.
- لماذا؟ ماذا فعل إحسان لبلاك نظام؟

وبينما كنت أطرح السؤال أحسست ببعض القطرات الباردة على وجهي، فنظرت إلى الأعلى ورأيت السماء ملبدة بغيوم بيضاء صافية حيث كانت ندف الثلج الصغيرة تتساقط منها.

صرخ الفتيان المرحين:

- ثلج! الثلج يتساقط يا رجل. إنها تثلج!

وبدؤوا يقفزون بفرح، وأحسست أنا بإثارة لا منطقية معهم... هناك جريمة ارتُكِبت وهؤلاء الفتيان ليس لديهم أي بيت أو أمل أو مستقبل. أحسست بالسعادة بالثلج واندمجت بحماسة الأولاد ولو للحظة واحدة... للحظة واحدة فحسب لأنه كان وراءنا جثة لم نحدِّد قاتلها بعد.

قلت لأضع حداً لصرخاتهم الفرحة:

- أياً يكن الأمر دعونا نعدْ إلى عملنا الآن.
- عملنا؟ ما هو عملنا؟

نكز بيرانا صديقه بمرفقه:

- نحن نحل لغز جريمة قتل أيها الأحمق. ألم تفهم ذلك؟ إننا نساعد حضرة الضابط هنا.
- نعم بالطبع أنتم تساعدونني. أخبروني الآن لماذا كان بلاك نظام على خلاف مع دايس إحسان؟
- إنها مشاكل متعلقة بالنساء يا حضرة الضابط. كانت تلك المرأة تثير الرجلين، أحدهما على الآخر، لكنها لم تكن أي امرأة وإنما كانت سيدة ماكرة...

الله وحده يعلم بكم تكبره هذه المرأة التي دعاها بالسيدة الماكرة. لا بدّ أنه كان يظن أن كلامه مبدع أو أنه كان يظهر نفسه كرجل قوي.

تكلم كيتو كما لو أنه يتحداه:

- أتقول إنها ماكرة؟ هذه المرأة خبيثة. أولاً دايس ثم نظام... إنها ساقطة. وكما يقولون: لا يمكنك الثقة بطقس إسطنبول ولا بنسائها...

قال بيرانا ضاحكاً:

- بمن نثق؟ فكِّر أولاً بالساقطة التي ولدتك.

لاحظت كيتو يطبق على أسنانه وينفخ صدره كديك مستعد للقتال.

- ما بها المرأة التي ولدتني يا فتى؟ ماذا تريد أن تقول؟

كان هناك شيء على وشك الحدوث لكن الله وحده أعلم ما هو.

تدخّلت:

- ما الذي يحدث أيها الفتيان؟ ماذا تفعلون؟

كشّر بيرانا عن أسنانه وزعق:

- لا شيء يا حضرة الضابط. إن أم هذا الفتى تعمل في ماخور المدينة.

لم ينزعج كيتو مثلي.

- على الأقل نعرف من هي أمي يا فتى، أما أمك فلا أحد يعرف شيئاً عنها.

حاول بيرانا الهجوم، لكن كيتو كان مستعداً. فقد قفز متراجعاً إلى الخلف

واستغل الفرصة لرمي الطبل على رأس صديقه.

صرخ بيرانا:

- أووه!

لكنه استعاد توازنه بسرعة وقال:

- سأجعلك تندم.

كان على وشك القفز على كيتو الذي كان يقف متهيئاً بانتظار الهجوم المقبل لكنني أمسكت بذراعه.

وبّختهما فوراً:

- كفى. ماذا تفعلان؟ لا تزعجاني وإلا فسأعاقبكما.

- لكنه هو من بدأ يا حضرة الضابط...

- ألا تزال تثرثر؟

على الرغم من أنهما نظرا أحدهما إلى الآخر بغضب، لكنهما تراجعا حين وجدا أنني جاد.

- اسمعا، لا أريد مزيداً من الترهات. أنا سأسأل وأنتم تجيبون. مفهوم؟

باستثناء صراخ سكير من الشوارع الجانبية لم يصدر أيّ صوت آخر.

- قلت مفهوم؟

رد كيتو وهو ينحني ليتناول طبله:

- نعم... نعم يا حضرة الضابط.

حين رأى ماستي ما حصل للطبل خاف وحشر كمانه داخل معطفه قبل أن يوافق مع صديقه.

- نعم.

التفتُّ إلى بيرانا الذي كان يركل الأرض كثور هائج لأنه لم يتمكّن من ضرب كيتو.

- لم أسمعك.

تمتم:

- نعم.

نظرت إلى الثلاثة وقلت:

- جيد، إذن لدينا اتفاق. الآن أخبروني مَنْ أغوى زوجة مَنْ؟

رد بيرانا:

- ليست زوجته يا حضرة الضابط وإنما صديقته أو صاحبته... كانت المرأة مع إحسان أولاً ثم مع نظام. لكن نظام رجل عجوز، ولذا فقد عادت إلى الرجل الآخر مجدّداً. في الواقع لقد قدم بلاك نظام لإحسان كثيراً من الخدمات حيث أرسل كثيراً من الزبائن إلى مخبئه لألعاب الميسر...

تظاهرت أنني أسمع عن الأمر للمرة الأولى لأنني أردت معرفة التفاصيل:

- أي مخبأ لألعاب الميسر؟

رد كيتو بسرعة:

- لقد أخبرناك يا حضرة الضابط... تارلاباسي. ماذا تظن أنهم يفعلون في تلك النوادي؟

- يقامرون؟

ظهرت نظرة مليئة بالشفقة على وجوه الثلاثة.

- نعم. بعض الناس يخسرون ثرواتهم كلها هناك في ليلة واحدة.

ثم نظر نظرة مليئة بالاتهام إلى الطرف الآخر من الشارع حيث يقف الشرطيان قلقين بجوار علي.

- وصديقاك الشرطيان يعلمان ذلك. ألم يخبراك؟

لم أستطع أن ألقي اللوم على زملائي فقلت متجاهلاً السؤال:

- في كل الأحوال دعونا نعدْ إلى جريمة القتل هذه. أتعلمان اسم هذه المرأة التي أغواها إحسان؟

- ساقطة اسمها سيليم.

شدد بيرانا على كلمة ساقطة فالتفت كيتو إليه.

قلت:

- ألم نتفق على التوقّف عن الشتائم؟ انتبهوا للغتكم.

- حسناً يا حضرة الضابط. تلك المرأة سيليم كانت تواعد إحسان سراً، لكن بلاك

نظام كان دقيق الملاحظة فكشفها. وفي إحدى الليالي باغتهما وأفرغ رصاصه عليهما لكنه لم يستطع قتلهما. ولم يكن إحسان جباناً. فلجأ بدوره إلى استعمال مسدسه، وهكذا أمضيا جولتين دون أن يتمكن أحدهما من إيذاء الآخر أو قتله. ومنذ ذلك الحين أصبحا عدوّين حيث فتح بلاك نظام نادي تارلاباسي الأصيل في الشارع هناك مقابل نادي إحسان لتندلع كثير من المشاجرات، وقد رأيت بأم عيني الأسبوع الماضي دايس إحسان يطلق الرصاص أمام النادي.

- لم أفهم الأمر. لماذا أطلق إحسان الرصاص؟ لقد سرق حبيبة نظام منه فماذا يريد أكثر؟

كان الثلاثة متشوّقين للحديث لكن كيتو هو من سبق:

- لأن سيليم تركته وعادت إلى بلاك نظام بعد ثلاثة أيام. لقد أخبرناك يا حضرة الضابط أن هذه المرأة ماكرة...

أصبحت الأمور مثيرة للاهتمام أكثر فأكثر.

- إذن لقد استعاد نظام المرأة؟

حوّلوا نظراتهم بخزي كما لو أنهم هم من فعلوا ذلك ثم قال بيرانا:

- لو كنت مكانه يا حضرة الضابط ما كنت فعلت ذلك. أعلم أنكم كلّكم ستغضبون الآن، لكن الحق أن بلاك نظام لديه بعض الميول الشاذة...

اعترض ماستي:

- لا تقل ذلك! بلاك نظام رجل لطيف ولذلك سامح سيليم.

ولا بدّ أنه ظن أن كلامه غير مقنع بما يكفي، لأنه رفع صوته وأكمل شرحه:

- إنه يحب المرأة. ماذا يُفترض به أن يفعل يا رجل؟

وافقه كيتو:

- إنه يقول الحقيقة يا حضرة الضابط. ما كان هناك أي شيء آخر يمكن لبلاك نظام فعله، فقد كان يحب سيليم لذا سامحها لئلا ينتهي بها الأمر في الشارع. كما أن إنجين آبي قدّم له بعض النصائح...

كان بيرانا منزعجاً لأن صديقيه عارضاه.

- إنك تصر على الحديث عن إنجين آبي يا رجل حتى ليظن كل من يسمعك أنه

صالح؛ لكنه لم يكن سوى ابن ساقطة عجوز.

صرخ كيتو:

- اسحب هذه الكلمة يا فتى. لم يكن إنجين آبي من ذلك النوع من الناس.
- ماذا؟ أتقول إنها كذبة؟ ألم يكن إنجين آبي الصديق المفضّل لذلك الحلاق المحب للأطفال؟ نعم أنا أتكلم عن سكيني زيا، وقد كان يأخذك إلى متجر سكيني أيضاً...

قال ماستي:

- كفاك نكراناً للجميل! كم مرة أعطاك إنجين آبي نقوداً؟ أو أحضر لك حساء؟ لم يكن من ذلك النوع من الناس. كما أن زيا غير السوي لم يكن يجرؤ على مس شعرة من رأسنا بوجود إنجين آبي.
- لا تستمع لهذين الأحمقين يا حضرة الضابط. إنهما لا يخبرانك بالحقيقة لأن إنجين قد أعطاهما بعض العظام. لم يكن ذلك الشخص الجيد فتلك الشجاعة مجرد ترّهات. لقد رأيت دايس إحسان يبصق في وجهه بعيني ولم يقمْ بأيّ ردّ فعل...

قاطعه كيتو:

- هذا كذب. ألم يضرب إنجين رجلاً غريب الأطوار كان مع إحسان أمام متجر الشراب؟ لقد كنا هناك.

تنهّد بيرانا بانزعاج.

- لقد كنا هناك لكنه لم يكن إنجين آبي، وإنما ابن أخ نظام هو من ضرب إحسان ورجاله. حسناً... قد يكون إنجين وجّه لكمة أو لكمتين لكن ذلك كل ما في الأمر.

التفت إليّ بعينه السليمة.

- إنهما يخرّفان يا حضرة الضابط. لم يكن إنجين كما يبدو، فقد كان هناك شيء ما يجري مع ذلك الرجل... لا تسألني ما هو، لكن كان هناك شيء.
- أين يقيم إنجين؟

رد بيرانا:

- في الطرف الآخر من الشارع.
- هناك مئات البيوت.

أشار كيتو إلى نهاية الشارع وقال:

- سأخبرك يا حضرة الضابط. اسلك ذلك الطريق ثم انعطف يميناً وتوجه إلى دولابدير وراء دار العبادة في الشارع الثالث. أظن أنه المبنى رقم 1.
- نعم رقم 1. لكن لا يمكنك تجاوز هذا الشارع لأنه مسدود.
- هل كنتم تتردّدون على منزل إنجين كثيراً؟
- لا، لم نكن نتردّد عليه مطلقاً فقد كان يطعمنا ويعطينا السجائر، لكننا لم ندخل منزله.

قهقه بيرانا:

- هيا أخبره... الأمر مثير.

تجاهله الفتيان الآخران لكنني سألت:

- إذن كيف تعرفان منزله؟
- حين يغلق النادي كنا نمشي معه حتى باب بيته.
- لماذا؟
- كنا نستمتع بالحديث معه حيث يخبرنا إنجين آبي بكل ما جرى معه.

صرخ بيرانا:

- هذه كذبة أيها الضابط فقد كان إنجين يعطي هذين الولدين نقوداً. إنهما يقولان إنهما لم يدخلا المنزل لكن ذلك مجرد كذب، فأحياناً ما كانا يخرجان قبل الصباح. أخبراه بالحقيقة...

لاحظت أن كيتو كان يرتعد، لا من البرد وإنما من الغضب وربما من الخزي.

- نعم يا رجل... لقد دخلنا بيت إنجين آبي كما كنت أنت تدخل بيت الحلاق زيا. أهذه كذبة أيضاً؟ كان إنجين كأخينا الكبير ولم يكن لينظر إلينا، لكن الحلاق زيا كان يستأجرك منذ صغرك. كان يضعك في حضنه و...

لم يستطع إنهاء الجملة فقد استغل بيرانا فرصة تركيزي على سماعه ولكمه بقوة على وجهه.

- مَنْ يجلس في حضن مَنْ أيّها المغفل؟

كانت اللكمة قوية فوقع الطبل على الأرض مجدّداً.

صرخ ممسكاً بأنفه:

- آه! تباً لك!

بدأ الدم يسيل من بين أصابعه إلى معصمه، لكن حتى الدم ما كان ليهدئ من غضب بيرانا الذي كان يستعد لهجوم آخر.

صرختُ وأنا أضربه:

- كفى. هذا يكفي!

ويبدو أنني ما كنت أعرف مدى قوتي، فقد ترنّح بيرانا إلى اليسار وقد انزلقت العصبة ليظهر ثقب أسود مكان عينه اليمنى، فعدل بسرعة العصبة في مكانها في حين حاول كيتو أن يوقف النزيف بيده، بينما وقف ماستي يرتعش خوفاً. أحسستُ أنني شرير فمددتُ يدي لبيرانا.

- هيّا انهض.

حدقت عينه الوحيدة بكراهية إلى يدي الممدودة ثم وقف بحركة رشيقة وركض عبر الشارع كالسهم، دون أن ينتظر أي تعليق مني.

كان علي قد سمع صوت خطواته أيضاً فصرخ من الخلف:

- أيها الضابط. أيها الضابط؟

لم يعطِ المصباح المترجّح من العمود الكهربائي الصدئ نوراً كافياً ليستحق الأمر عناء مطاردة ذلك الفتى الشجاع الذي اختفى في الشارع المظلم، وكان من المنطقي أكثر أن نحاول وقف نزيف كيتو.

أتقول إن ذلك كان نوعاً من المبارزة



بدأ الشارع يتّشح باللون الأبيض حيث بدا الآن أكثر إضاءة، لا من الثلج الذي بدأ يتراكم، وإنما من الوهج القوي المنبعث من أنوار سيارة الإسعاف التي جاءت لنقل الجثة. وبينما قام المدّعي العام أوغوز بتدوين الملاحظات بالقرب من الضحية، وقف المحقق شفيق تحت الضوء على بعد أمتار من جثة القتيل وهو يرجّح يده اليمنى في الهواء كما لو أنه يرمي سكيناً. وبينما قام الرجلان، اللذان بديا في بذلتيهما البلاستيكيتين كعمال المنشآت النووية، بفحص المكان بدقة حول الجثة بمصباحيهما، قام الرجل القصير بالتقاط صور لمسرح الجريمة. ومع وجود شفيق فوق رأسيهما بدا الفريق كأوركسترا غير متناغمة من ثلاثة أفراد. نفضت نُدف الثلج الصغيرة المتراكمة على كتفيّ واقتربت من رئيس الأوركسترا.

- ماذا تفعل يا شفيق؟

جفل كما لو أنه استيقظ للتوّ من نومه.

- آه... ممم... كنت أنظر إلى...

كان يشير إلى حيث كان يقف.

- لا بدّ أن القاتل كان يقف هنا تقريباً وأظن أنه رمى من هنا.

واستدار لينظر إلى مسدس البيريتا في يد القتيل حيث كانت ندف الثلج تذوب ما إن تلمس ماسورة المسدس لتترك المعدن اللمّاع رطباً ثم تمتم:

- مسدس غير عادي! سكين ضد هذا المسدس. هذا ليس عادلاً. كان ينبغي أن ينتصر المسدس! لكن انظر فقد هزمت السكين المسدس على ما يبدو.

كان يتكلم عن احتمال لم يخطر ببالي.

- أتقول إن ذلك كان نوعاً من المبارزة؟
- ما كان بإمكانهما يا حضرة الضابط أن يتواجها... واحد بسكين والآخر بمسدس، وإلا فإن حامل المسدس سينتصر. لا بد أن حامل السكين قد خدع حامل المسدس. قد يكون الرجل مديراً ظهره ويناديه القاتل من الخلف، فيلتفت الرجل ويمسك بمسدسه بعد فوات الأوان لأن القاتل رمى سكينه على الهدف مباشرة.

مشى بسرعة باتجاه الضحية، وحين رأى الشرطيان المحققين يتوجهان إليهما ابتعدا عن الجثة، فانحنى شفيق على الجثة وسحب سكيناً من الجانب الأيسر لمعطف لم يكن يغطي بطنه.

تمتم وهو ينهض:

- لا بد أنه كان رابط الجأش، إذ إنه لم يشعر بالذعر بعد طعن الرجل ولم يحاول الهرب، وإنما اقترب وأخذ السكين، وحين تأكّد من أن أحداً لم يره اختفى.

حركت قدميّ المتجمّدتين محاولاً تدفئتهما.

- إذن تقصد أنه محترف؟ إذ لا يمكن سوى لشخص بارع أن ينجز ذلك دون أيّ أخطاء.
- لِمَ لا يا حضرة الضابط؟ من الواضح من المسدس في يد الضحية أنهم جماعة سيئون، كما أن الحادث قد وقع في هذا الشارع. القاتل يعرف تماماً كيف يستخدم سكيناً، وقد هاجم الضحية من بعيد دون أن يمنحه الفرصة للضغط على الزناد.

اعترض علي الذي كان يقف خلفنا بخطوة:

- وكيف عرفت أنه هاجمه من بعيد؟ ماذا لو كان القاتل بجانبه مباشرة؟ ماذا لو أنه قام فجأة بإخراج السكين وطعن الضحية؟

هزّ شفيق رأسه بهدوء.

- هذا احتمال آخر بالطبع. لكن معطفه ثقيل نوعاً ما، وقد اقتحمت السكين القماش وغاصت عميقاً... ربما إلى قلبه. سيتضح الأمر بعد التشريح. لكن

لو كان القاتل بجانب الضحية لما غاصت السكين بهذا العمق. لا بد أن القاتل رماها من بعيد وبسرعة لتغوص عميقاً. لو أن القاتل طعنه من مسافة قريبة لاضطر لفتل سلاح الجريمة حتى يموت الرجل، ولرأينا جروحاً مسنّنة في مكان دخول السكين أما هنا فالجرح نظيف. أيمكنك رؤية ذلك؟

ما قاله شفيق كان منطقياً لكن علي لم يقتنع بالطبع.

- حسناً. لكن ماذا لو كان القاتل شخصاً قوياً جداً؟ ماذا لو أنه قتل الرجل بضربة واحدة؟ ما كان ليضطر لفتل السكين في تلك الحالة.

لم يصرّ شفيق وإنما قال:

- هذا ممكن بالطبع. وسنعرف الجواب المؤكّد بعد التشريح، حين تعطينا المحقّقة زينب النتائج.

ثم نظر حوله كما لو أنه تذكّر للتوّ.

- أين هي الآن؟
- إنها في إجازة الليلة بمناسبة عيد رأس السنة....

ابتسم بتفانٍ وقال:

- جيد، فلتقضِ رأس السنة مع عائلتها.

ثم نظر إلى جثة القتيل وقال:

- يا لسوء حظك. بينما يقوم الآخرون باستقبال هذه السنة الجديدة تنتقل أنت إلى العالم الآخر.

هزّ علي كتفيه:

- وما الفرق لو حصل ذلك في يوم آخر؟ وماذا يعني رأس السنة يا شفيق؟ إنها مجرد ليلة عادية. لكن أحداً ما ابتكر فكرة أن السنة تبدأ اليوم وماشاه الناس فيها.

ربما كان كلامه هذا نابعاً من عدم رغبته في تذكّر جميع ليالي رأس السنة التي قضاها في الميتم، والآن فإن أي محاولة لشرح الصلة بين رأس السنة والثقافة الوثنية أو النصرانية أو غيرها ستبدو غير منطقية، وقد وافقه شفيق على ذلك.

- أنت محق يا علي... هناك كثير من الاهتمام بليلة رأس السنة. وقد احتشد أولئك

الناس كأسماك السردين حتى الصباح دون أن يتعبوا.

ثم صرخ كأنهم سيسمعونه.

- كفى! هذا يكفي!

جاء صوته مُتْعَباً ومتهدِّجاً... ربما لم يكن تذمُّره من الأشخاص الذين يحتفلون وإنما من عمله الذي يفرض عليه تتبُّع أثر قاتل في يوم كهذا في حين كان ينبغي عليه البقاء مع أحبابه. في تلك اللحظة رنّ هاتفي المحمول، وكان رقم المتصل غير معروف لديّ فأجبت.

- مرحباً يا حضرة الضابط! أنا زينال... أنف الولد بخير... مجرد تأذٍّ في الأنسجة حسب قول الطبيب. كما أن النزيف قد توقّف.

كان المتصل هو الشرطي ذو الرأس الضخم. فحين بدأ أنف كيتو ينزف وضعت الولدين في سيارة الدورية وأرسلتهما مع الشرطيين إلى مستشفى تقسيم للإسعاف.

- هل أخذوا له صورة أشعة سينية؟ أم أنهم اكتفوا بفحص بسيط؟ لا بد أنهم مشغولون كثيراً الليلة.

- بالطبع لا يا حضرة الضابط. لقد بقينا مع الولدين وتأكّدنا من أنهما تلقّيا العناية اللازمة، وقد قام الأطباء بإجراء صورة أشعة وفحص شامل كما ذكرت. وبكل الأحوال فإن الطبيب يعرف الولد، فقد جاء إلى المستشفى مرتين من قبل، مرة حين جُرح بنصل سكين ومرة حين تعرّض لحريق.

ثم أخذ نفساً عميقاً وسأل:

- ماذا سنفعل يا حضرة الضابط بهذين الفتيين؟

- دعهما فحسب، لكن اعرف أولاً أين يعيشان فقد نحتاج لشهادة أخرى. أفهمت؟

- فهمت.

كان يحاول أن يكون محترماً لكن صوته كان متوتِّراً وهو يفكر بسبب العناء الذي يبذلانه على هذين الحقيرين. ثم عليهما الآن أن يعرفا أين يعيش هذان المتشرّدان في هذا الوقت من الصباح وفي هذا الطقس.

حذّرته:

- زينال... كُنْ لطيفاً معهما. أتسمعني؟
- بالطبع يا حضرة الضابط.

ما كان بالإمكان قراءة أي عواطف في صوته، وإنما بدا رتيباً وجافاً كصوت آلة، وكنت أعلم أنه على الرغم من تحذيراتي فإنهما سيسيآن التصرف وسيسألانهما عمّا تكلّمنا وسيعنفانهما بقسوة. لكن على الأقل لن يجرؤا على التعامل معهما بخشونة.

قال المدّعي العام الشاب وأنا أعيد هاتفي المحمول إلى جيبي:

- كدنا ننتهي يا حضرة الضابط، وقد أنهى أصدقاؤنا عملهم. أيمكننا نقل الجثة إن كان ذلك يناسبك؟
- بالطبع يا أوغوز بيك.

وأشرت إلى الرجلين الواقفين بجوار سيارة الإسعاف يراقباننا دون أيّ اهتمام:

- يمكنكما أخذه.

أسرع الرجلان إلى العمل وفتحا الباب الخلفي بحماسةٍ وأنزلا الحمّالة ووضعا الجثة عليها. وبالمهارة والحذق نفسيهما أدخلا الجثة في السيارة كما لو أنهما كانا لا يزالان يأملان اللحاق بحفل تركاه في المستشفى. وبينما تصاعد الدخان من سيجارة شفيق انطلقت سيارة الإسعاف والمدّعي العام عبر الشارع.

قلت وأنا ألتفت إلى رجالي:

- هيا! تعالوا نتناول بعض الحساء فذلك سيبعث الدفء فينا.

مدّ شفيق يديه وقال:

- ينبغي أن نذهب يا حضرة الضابط فهنالك المعدات...
- دعْ رجالك يأخذونها.

نظر بأسى إليّ وقال:

- لا، ينبغي أن أذهب أيضاً. مرة أخرى إن شاء الله.

كان شرطياً جيداً فهو لا يرغب أن يترك رجاله وحدهم وقد احترمت رغبته.

- حسناً... إذن نراك في المركز غداً.
- إلى اللقاء يا حضرة الضابط.

بينما كان شفيق ورجلاه يحمّلان المعدات في سيارة فرقة التحقيق بمسرح

الجريمة بدأنا نمشي في الاتجاه الذي انطلقت فيه سيارة المدّعي العام، ليستقبلنا شارع أوسع وأكثر نوراً وأطول يؤدي إلى تارلاباسي. كان أحد تلك الشوارع التي تقع في قلب إسطنبول، وكان من قَبْلُ من أكثر الأحياء المحترمة، لكن بعد سنوات من إرهاق الناس، بفعل بعض المتحرشين ومحاولة أولئك الهمج نهب المتاجر ومهاجمة منازل اليونان والأرمن واليهود، أصبح مهجوراً، ليخيّم عليه الحرمان والخراب... كان أحد تلك الشوارع التي كان يلجأ الناس إليها... رجال ونساء فقراء قادمون من الحقول والقرى البعيدة. وبالطبع فقد أصبح هذا الحي مركزاً لبيع المخدرات وسوقاً للحوم المبهرجة حيث يحاول الناس البقاء على قيد الحياة من خلال بيع لحمهم... وبالوعة حيث تظهر جميع أشكال الجريمة. وسواء أكان ذلك بسبب الثلج أم لا فقد بدا لي الشارع جميلاً وهادئاً وساكناً. انتهت الاحتفالات في وقت باكر في هذا الشارع ولمعت الأنوار المتفرقة في المنازل والتي ربما تنبعث من شاشات التلفاز. لكن الصوت الوحيد المسموع هو طنين ذلك الحشد المجنون المحتفل في ساحة تقسيم. وفجأة دوّت ضحكة وقحة من نافذة بارزة، ونحن نمر، لتعكّر صفاء المشهد.

- مرحباً.

أدرنا رأسينا لنرى امرأة في الستينات تسند صدرها على حافة النافذة على الرغم من الثلج المتساقط. أما مساحيق التجميل على وجهها فكانت سميكة لدرجة أنها كانت تثير الحزن لا الرغبة الجنسية.

قالت:

- هيه... أنا أتكلّم معكما.

لكننا مضينا في طريقنا بصمت.

فردّدت:

- هيه... أنتما.

زعق عليّ:

- ماذا هناك؟ ماذا تريدين؟

- لا تغضب أيها الوسيم. لماذا أنتما جديّان؟ ألا ترغبان ببعض المرح؟

- حقّاً يا خالة؟ في هذه الساعة المتأخرة وفي هذا الطقس؟

لا بدّ أن العمل سيئ في هذه الساعة المتأخرة وفي هذا الطقس لأن المرأة كانت تبحث عن أيّ أشخاص ليكونوا زبائنها.

أصرّت المرأة:

- وماذا في ذلك؟ إنها ليلة رأس السنة والجميع يستمتع بوقته... هل هذا سيئ جداً؟ الجميع يدخلون إلى السنة الجديدة فلِمَ لا تدخلان...

احمرّ وجه عليّ من وقاحة المرأة، وكذلك وجهي؛ فصاح بها:

- تباً! نحن من الشرطة فعودي إلى الداخل.

لكنها لم تكترث بل هزّت كتفيها بلا مبالاة.

- هذا أفضل، فستسترخيان قليلاً... لا بدّ أنكما أرهقتما الليلة.

كان مساعدي يبذل كل جهده لئلا يفقد أعصابه.

قلت بلطف وصرامة:

- هيا عودي إلى الداخل يا سيدتي فلن تستفيدي منّا بشيء. اعثري على أحد غيرنا.

من يعلم كم شخصاً رفضها الليلة! فقد صفقت النافذة بغضب بعد أن تذمّرت.

- كل من في العالم أصبحوا شاذين... رجال الشرطة والسكّيرون ومدمنو المخدرات... ألم يبقَ رجل حقيقي في هذه المدينة؟

الحب الذي يشعر به الرجال الكبار
قاسٍ يا حضرة الضابط



لم يبق سوى بضع ساعات حتى الصباح، وبرغم ذلك كان طريق تارلاباسي مزدحماً بالناس، والشارع مليئاً بالسيارات المركونة بعضها بجانب بعض، والناس يمدون رؤوسهم من نوافذ السيارات، وعلى الرصيف يغني المغنّون بصخب ويبذل السكارى قصارى جهدهم ليبقوا واقفين على أقدامهم... لم أتفاجأ بأي من ذلك، لكن حين مرّ مهرج يرتدي ملابس مومضة على حصان أسود لم أستطع تصديق ما أراه، فبينما كان يبتعد اختفى الحصان الأسود وبقي المهرج يترجّح بسرعة للخلف والأمام كأنه يطير مع الريح... لقد أصبح هذا المكان سيركاً بكل معنى الكلمة وبالطبع فإن مطعم الطاهي محمد "زيست" سيشهد حصته من هذا الهرج والمرج.

تعوّدت القدوم إلى هذا المطعم خلال السنوات التي عملت فيها في بيه أوغلو حيث كان يقع عند مدخل شارع ضيق يؤدي إلى طريق تارلاباسي مباشرة مقابل المبنى الذي كان شبه فندق وماخوراً وكان يستقبل زبائنه منذ سنوات طويلة... سكان بيه أوغلو الذين يمضون الليل ساهرين. دخلنا من الباب الخفيض للمطعم تحت اللافتة المتواضعة التي لم تتغيّر منذ تأسيس المطعم، لتستقبلنا رائحة الشراب واليانسون الممزوجة مع الطعام والعطر الرخيص، لكن بعد البرد الذي يحبس أنفاسنا في الخارج لم يكن الأمر مزعجاً على الإطلاق، وحتى النور الساطع لم يضايقنا لكن المشكلة الحقيقية كانت تكمن في العثور على مكان للجلوس، فقد

كانت هناك فتاتان تجلسان على الطاولة الصغيرة في الخلف... كانت كلتاهما ممتلئة الجسم أو بالأحرى بدينة، وتتمتع إحداهما بعينين خضراوين متألقتين عنيدتين في حين بدت الأخرى مرهقة. كانت كلتاهما مفرطة في وضع مساحيق التجميل وكان أبي يقول إنه لا مهرب لهؤلاء البائسات من الطريق السيئ الذي تتوجّهن إليه مهما كان هذا الطريق. ولم تكن الفتاتان تتمتعان بشهية مفتوحة للطعام وهما تتناولان المعكرونة المخبوزة. وعلى الطاولة المجاورة كان هناك رجلان يرمقانهما بنظرات من دون أي خجل، لكن الفتاتين كانتا تعلمان أنه ما من شيء ستجنيانه من هذين الفقيرين الوسخين لذا لم تكترثا لهما. أما الطاولة على اليمين فكان يجلس إليه أربعة موسيقيين من دولابدير يرتدون السترات السوداء نفسها والقمصان البيض وربطات العنق الحمراء، وكانوا يتجاهلون الجميع وهم منشغلون بالتهام طعامهم بسرعة كما لو أن هناك أحداً سيسرق أطباقهم، وجلس وراءهم ثلاثة شباب لاهثين ربما يعملون كبوابين لمقهى محليّ منتظرين بهدوء أن يصل طلبهم. كانت هناك طاولتان موصولتان إحداهما بالأخرى بالقرب من النافذة حيث جلس أفضل رواد المطعم... مجموعة من ستة رجال يرتدون ملابس غير مناسبة لجنسهم ويصبغون شعرهم بألوان غريبة. ودون أن يظهروا أي علامة على الإرهاق، كما لو أنهم لم يمضوا الليل بأكمله في الشارع، كانوا يتناقشون بحماسة في موضوع ما بينما كانوا يتناولون حساءهم بنهم. لاحظت أن علي انزعج واستعد للشجار ككلب التقى مجموعة من القطط، لكنني لم أفترض أن هذا الاجتماع الصغير غير التقليدي سيبالي بعلي. فقد يحدث شيء كريه في أي لحظة، لذا فمن الأفضل مغادرة المكان بهدوء كما دخلنا.

نادانا صوت من الخلف:

- يا حضرة الضابط! يا حضرة الضابط...

كان هناك رجل ضخم ينادينا وهو جالس إلى إحدى الطاولات. في البداية لم أعرفه لكنني حين أمعنت النظر عرفته، فقد كان أشهر قوّاد في الحي... سليمان... المشهور باسم حريم سليمان... وهو لقب اكتسبه لكونه متزوجاً من أربع نسوة ولتشغيله هؤلاء النسوة بنفسه. كان ينادي بإصرار بينما كانت عيناه تجولان علينا

من وراء شاربه الطويل المصبوغ بالأسود الحالك والذي يغطي نصف وجهه.

- تفضّل يا حضرة الضابط إلى هنا...

التفت الجميع حين سمعوا كلمة «ضابط»، لكنهم في النهاية عادوا جميعاً إلى عوالمهم الخاصة. لم يعد من الممكن الآن مغادرة المطعم، لذا فقد شققنا طريقنا الإجباري إلى طاولة سليمان حيث كانت هناك امرأة تجلس قبالته، ليست جميلة ولا قبيحة لكنها تبدو أكبر من عمرها... امرأة متعبة ومرهقة كانت تسأله بعينين متهدّلتين لِمَ لا يذهبان إلى البيت وينامان. وقف سليمان وأغلق أزرار سترته حين اقتربنا، وكنت قد نسيت مدى ضخامته؛ لكنني حين رأيته لم أستطع منع نفسي من أن أخطو للوراء، فقد كاد رأسه الكبير أن يمس السقف كما كانت ذراعاه طويلتين بما فيه الكفاية لتمتدّان حول الطاولة.

تمتم علي:

- واو! ما هذا؟

انحنى أمامي مع كل ضخامته فقلت وأنا أسحب يدي لئلا يقبلها:

- حسناً... حسناً يا سليمان.

وربتت كتف هذا الرجل الذي كان أطول مني بكثير وأنا أقول:

- لقد مضى زمن طويل على آخر لقاء لنا.

- أنت قلتها يا حضرة الضابط. كنّا نراك مرة أو مرتين في الأسبوع لكنّك لم تزرنا منذ أن غادرت بيه أوغلو وكانت تلك آخر مرة نسمع عنك فيها.

كانت كلماته مليئة بالعتاب لكن الابتسامة التي كشفت عن سنه الذهبي قالت غير ذلك.

- أنت تعرف طبيعة عملنا يا سليمان.

هزّ رأسه بتواضع:

- أعلم ذلك يا حضرة الضابط فهو عمل شاق. كان الله في عونكم.

قلت وأنا أشير إلى الرجل الواقف أمامي مذهولاً وهو يتفحّص ضخامة سليمان:

- هذا علي. نحن نعمل سوياً.

وقف سليمان باهتمام مجدّداً وقال:

- سررت بالتعرف إليك حضرة المحقّق علي.

ردّ علي بابتسامة هادئة:

- وأنا كذلك يا سليمان.

نظرت إلى المرأة التي لم يرمش لها جفن على الرغم من وجود ثلاثة رجال يتكلّمون أمامها.

- مرحباً...

كانت عيناها السوداوان واسعتين ووجهها الصغير بعث الدفء في قلبي دون أن أعرف السبب. لكنني تخيّلت منظر تلك الخيول القديمة بعيونها الجميلة التي تجر عربات الخيول على جزر الأمراء.

- أهلاً يا سيدي.

- أتذكر ناسية يا حضرة الضابط؟

بذلت قصارى جهدي فتذكّرتها وقلت:

- بالطبع. كيف حالك يا ناسية هانم.

فتحت المرأة يديها المتعبتين من دون أن تنبس ببنت شفة أو تظهر أي إثارة أو أي دلالة على الألفة؛ كما عادت عيناها الثقيلتان إلى حالتهما السابقة، ما أزعج سليمان من قلّة اهتمام ناسية، فأومأ إلى المقعدين الفارغين بلباقة مبالغ فيها.

- ألن تجلس يا حضرة الضابط؟

- لا نريد إزعاجكما...

- كنّا على وشك القيام فناسية تكاد تنام في مقعدها.

لم يبدُ على ناسية أي انزعاج من كلام زوجها، فقد نسيت منذ زمن كيف تنزعج من إساءاته، ولم تعد تكترث لأي شيء يقوله أو يفعله؛ وأصبحت قاسية في هذا العالم الذي تعيش فيه بحيث أصبحت تتقبل كل شيء دون أدنى اعتراض. ربما لأنها كانت تعلم أنها لن تجني شيئاً من الاعتراض، ما جعلها في غاية الهدوء والثبات واللامبالاة.

بعد أن خلعنا معطفينا جلست وعلي على مقعدين متقابلين، وكانت الطاولة

ممتلئة ببقايا الوجبة المتواضعة: أربعة أطباق فارغة وكأسان إحداهما شبه ممتلئة بالماء والأخرى ممتلئة بالكولا. كما توجد بضعة أعواد لتنظيف الأسنان في طبق سليمان الفارغ.

- ما آخر الأخبار يا حضرة الضابط؟ ما الذي جاء بك إلى بيه أوغلو؟

كان سليمان يريد بصدق أن يعرف.

- لا شيء جيد، فقد قُتِل رجل في الشارع في الأسفل بالقرب من نادي تارلاباسي.

ظهر التوتُّر على وجهه وارتعش شاربه الطويل:

- من هو؟

في تلك اللحظة خطر ببالي أن سليمان لم يكن غريباً عن الميسر وقد يكون بإمكانه مساعدتنا.

- رجل يُدعى إنجين... إنجين آكا.

أشرق وجهه كما لو أنه سمع للتو خبراً رائعاً.

- إنجين التركي من أصول ألمانية؟

- لا أدري إن كانت أصوله ألمانية... إنه رجل بلاك نظام.

- هذا هو! هل أطلقوا عليه النار؟ كان لا بد من حدوث ذلك بالطبع.

ودون أن ينتظر رداً ضرب بقبضته اليمنى على راحة يده اليسرى الواسعة.

الحصول على معلومات حول جريمة قتل في مطعم كنا قد قصدناه لتناول الطعام كان ضربة حظ، لذا فقد بدأ مساعدي بالنبش كعامل منجم عثر على كنز في كهف.

- لماذا تقول هذا؟ هل لدى إنجين كثير من الأعداء؟

قطّب سليمان حاجبيه الكثين والمصبوغين وقال:

- بالطبع فقد كان يتحرش دائماً بزوجات الجميع وبناتهم.

للحظة حوّلت نظراتي إلى ناسية وتساءلت إن... لا مستحيل... كانت فكرة سخيفة.

سأله علي:

- بزوجة من تحرّش؟ أهو شخص تعرفه؟

هزّ سليمان منكبيه العريضين:

- دايس إحسان وبلاك نظام. لم يكن بإمكانه ترك النساء وشأنهن.

قاطعته:

- انتظر لحظة... لقد سمعنا أن هناك ثلاثياً من العشاق يشمل إحسان ونظام.

ضحك برقّة ليتلألأ النور على سنه الذهبي الأمامي:

- أتقصد العلاقة مع سيليم؟ لقد سرق دايس إحسان الفتاة من نظام...

- أهي كذبة؟

نظر إلي.

- وما الفرق؟ من تظن أنه قد أحضر سيليم إلى نظام.

بدت الأمور مثيرة للاهتمام.

- إنجين؟

هز رأسه ببطء وثقة.

- إنجين بالطبع. هذا الرجل مذهل فهو يثير جنون السيدات. بالطبع سيليم ليست فتاة من عائلة محترمة لم يمسها فتى من قبل، وإنما كانت عشيقة دايس. وقد عرفت أن إحسان لن يقدر على شيء وأن مستقبلها مع إنجين، فقد تكون ظنّت أنه سيتزوجها ويخرجها من الحضيض، لكنه على العكس فقد رمى بها في أعماق المجارير، وبعد إنجين دخل بلاك نظام إلى المشهد. هل رأيت نظام من قبل يا حضرة الضابط؟

- لا. إنه رجل عجوز أليس كذلك؟

- ليس عجوزاً تماماً لكنه قبيح. يقولون إن الرجل لا يكون وسيماً ولا قبيحاً، لكن نظام قبيح للغاية.

سأله مساعدي بصبر نافد:

- كان الرجل قبيحاً ولهذا خانته سيليم مع إحسان؟

- لم يكن هذا كل ما في الأمر فقد كانت سيليم تعبث أيضاً مع إنجين... مخدرات وغيرها من الموبقات وغير ذلك... وقد طلبوا مني مرة فتاة... لم تكن سيليم تتخلى عن إنجين لا حين كانت مع إحسان ولا مع نظام، ولهذا أظن أن إحسان

تخلّى عن المرأة.

قلنا معاً:

- ماذا؟

ثم صمت علي وأكملت:

- أليست هي من تخلّت عنه؟ أكان إحسان هو من هجر سيليم؟
- بالطبع إحسان. فقد تم القبض عليه لحيازته مسدساً غير مرخص وسُجِن، وخلال فترة سجنه عادت سيليم إلى نظام. لذا فحين خرج دايس ضربها وطردها إلى الشارع.

سأل علي:

- ألم يعلم نظام بكل ذلك؟
- بالطبع علم، لكنه كان واقعاً في حب سيليم، فالحب الذي يشعر به الرجال الكبار قاسٍ يا حضرة الضابط. لقد تخلّى نظام الذي يخشاه الجميع عن كبريائه وشرفه واستقبلها وقد صم أذنيه عن اعتراضات ابن أخيه.

قلت:

- هناك شيء لا أفهمه. لقد كان نظام واقعاً في حبها فلماذا أبقى على علاقته مع إنجين؟

ضاقت عينا سليمان كما لو أنه يواجه سؤالاً معضلاً.

- أقسم إنني فكرت كثيراً في ذلك لكنني لم أعرف السبب.

هل كان لا يرغب بالقول أو أنه لا يعرف السبب حقاً؟

أصررت:

- ألم تحصل على بعض التلميحات؟ ماذا يقولون في الشارع؟
- هناك كثير من الشائعات حيث يقول بعضهم إنه كان شريك نظام السري، إذ من المفترض أنه أحضر كثيراً من المال من ألمانيا وقد شارك بها نظام، وهناك مشروع ضخم يتم إنشاؤه حالياً حيث يتم تجديد جميع هذه المباني المهجورة التي تركها الأرمن واليونانيون... يقولون إنهما يقومان بهذا المشروع سوية في حين يقول آخرون إنه لا وجود لمثل ذلك وإنما قام إنجين بإنقاذ حياة نظام وإن

نظام غير قادر على ردّ جميله؛ في حين يقول بعضهم إن لدى إنجين علاقات أعلى.

- أعلى؟

- أقصد المافيا. لكن لا يمكنني تحديد إن كانت المافيا الكردية أو مافيا اللاز إلا أن لدى إنجين أرضية صلبة يستند عليها بالتأكيد وإلا ما كان نظام ليتركه على قيد الحياة.

كدت أقول إنه لم يتركه حين تشتّتت أفكاري بيد حطّت على كتفي حيث وقف ورائي محمد مالك مطعم شرائح اللحم الذي وبّخني مباشرة:

- عيب عليك يا حضرة الضابط. لماذا تختبئ هنا في الخلف في الزاوية دون أن تلقي التحية؟ أكنت تنوي التسلل خارجاً دون أن أراك؟

ارتبكت وقلت وأنا أصافح اليد الممدودة:

- أهلاً يا أسطه محمد! لقد دخلنا للتوّ ونظرت إلى مكتب المحاسب لكنك لم تكن هناك، وحين رأينا سليمان جلسنا هنا وبدأنا الكلام.

كنت أشرح له وأنا آمل أن يتركنا وشأننا لكنه لم يفعل.

- لقد كنت في المطبخ إذ إن عليّ مراقبتهم هناك أيضاً.

وقبل أن ينظر حوله بحثاً عن مقعد فارغ رمق سليمان بنظرة تشير أنه حان موعد نهوضه، ففهم سليمان - أضخم شخص من بين جميع المعربدين في شارع الاستقلال - الرسالة وقال وهو يقفز:

- تعالَ اجلس هنا يا محمد. لقد كنا على وشك المغادرة في كل الأحوال.

والتفت لينظر إلى زوجته قبل أن نتمكّن من الاعتراض وقال:

- هيا يا عزيزتي ناسية... هيا يا حبيبتي.

لم تكن سعيدة ولا متحمسة لذلك، لكنها نهضت بهدوء. وبعد أن ارتدت معطفها الفضي المتلألئ فوق ثوب أسود يظهر ساقيها الدميمتين وضعت حقيبتها الضخمة على كتفها الضعيفة، ونظرت بثبات إلى زوجها ثم قالت بصوت حاد:

- حسناً... حسناً... فلنذهب.

ليس هناك شيء مثل قاطع طريق «على الطراز القديم» أو «على الطراز الحديث»



مرّ سليمان بين الطاولات المليئة بالحشود الضجرة ممسكاً بذراع زوجته النحيلة ناسية، التي كانت تجد صعوبة في المشي بالحذاء ذي الكعب العالي الذي كانت تنتعله.

تمتم الطاهي محمد:

- حتى أفضل جواد يتعثّر أحياناً. كنت أعرفه قبل عشرين عاماً حيث لم يكنْ أقوى رجل ليجرؤ على الوقوف في طريقه. كان شجاعاً للغاية وقوياً وغير هياب... لقد رأيته مرة يطارد خمسة أشخاص هاجموه في هذا الشارع... أما الآن فانظر إلى حاله...

نظرنا ثلاثتنا إلى ذلك الزوج الغريب مجدّداً حتى غادر الرجل القوي سليمان المطعم وهو يترنّح بهدوء مع زوجته، كما لو كانا يرقصان رقصة حزينة ترافق أغنية الهزيمة.

سأل علي مع أنه كان يعرف الجواب مسبقاً:

- إنه يبيع تلك المرأة أليس كذلك؟

التزمت أنا ومحمد الصمت.

فتل الطاهي محمد شاربه وقال:

- لقد كان رجلاً صالحاً... ربما ما زال كذلك... لم يتسبب لي بأي أذى.

فوافقته:

- ولا أنا. لكن هل يجعله ذلك رجلاً صالحاً؟ لا أعرف.

اتكأت إلى الخلف في مقعدي وقلت:

- في كل الأحوال لننسَ أمر سليمان فمن نحن لنحكم عليه؟

أشرق وجه محمد المرهق وقال:

- أنت محق حضرة الضابط. لا ينبغي أن نطعن بالرجل من الظهر. ماذا ستتناولان؟

نظرت إلى مساعدي وقلت:

- حساء. أو هل ترغب بشيء آخر؟

- لا، الحساء جيد. لديكم حساء العدس أليس كذلك؟

بدا محمد متحمساً.

- بالطبع... لدينا أفضل حساء عدس ليس في بيه أوغلو وحسب، وإنما في كل إسطنبول، كما يمكن لحضرة الضابط أن يشهد.

وقبل أن ينتظر تأكيدي نادى النادل الشاب الأسود الذي كان يأخذ الطعام إلى طاولة عليها ثلاثة متبجّحين.

- نامادي... بُنَيّ... تعالَ إلى هنا...

ابتسم نامادي ليظهر صف من الأسنان البيضاء السليمة.

- حسناً يا سيد محمد... أنا قادم.

كانت تركيته مكسَّرة قليلاً لكنه يفهم جيداً، فاتخذ مساعدي سلوكاً متهكِّماً وقال:

- أتوظف العبيد السود؟

كان علي هذا ميئوساً منه، وقد كنت أفكر إن كان عليّ توبيخه مباشرة ونحن جالسان على المائدة لكن الطاهي محمد قام بعمل أكثر لباقة.

- أرجوك لا تتكلم هكذا فنامادي طيّب ووسيم... انظر إليه فحسب. لقد طلبوه حتى للظهور في عرض تلفزيوني حيث جاء مخرج إلى المطعم الأسبوع الماضي وقدم له عرضاً. لكن هذا المخلص لم يقبل الأمر مباشرة وإنما سألني أولاً إن كان بإمكانه القيام بذلك. وقد شجّعته لكنني حذرته من أن مثل ذلك

العمل مؤقّت وطلبت منه ألاّ يترك العمل في المطعم، وعرضت عليه أن أعطيه يوم التصوير إجازة فسعد بذلك. هؤلاء المهاجرون عانوا من حياة قاسية حضرة الضابط، ووضعهم أسوأ من أوضاع الفقراء من شعبنا. كما أن الأنذال في المنطقة يبحثون عنهم دائماً حيث يسعى تجار المخدّرات في دولابدير لإجبار هؤلاء المساكين على العمل في تجارة المخدّرات. وعلى الرغم من أن بعضهم يسقطون في تلك الهاوية إلا أن لدى معظمهم كرامة ويعملون بجدٍّ، فجميع من وظفتهم منهم مجدون.

التفت إلى الشاب الذي وضع طعام المتبجّحين ووقف بجانبنا خلال لحظة:

– أيمكنك يا نامادي أن تزيل هذه الأطباق أولاً؟

ظهرت الابتسامة المشرقة نفسها مجدّداً على وجهه وقال:

– بالطبع سيّد محمد.

وبحركة واحدة كدس الشاب الطويل ذو الجسد الرياضي جميع الأطباق الموجودة على المائدة.

– جيّد يا نامادي. امسحها من فضلك. الآن أحضر لنا طبقين من حساء العدس ولا تنسَ الليمون. هيا يا بني فالضابط يتضوّر جوعاً.

جفل نامادي لدى سماعه كلمة «ضابط» ولم يغب ذلك عن علي الذي استغل الفرصة مجدّداً:

– ماذا هناك يا نامادي؟ لماذا التردّد؟

اتسعت عينا الشاب السوداوان بخوف.

– ما من سبب سيدي... لا شيء.

قلت وأنا أضع يدي على يد علي:

– دعه وشأنه.

والتفت إلى نامادي الذي كان يتأملنا بعينيه الواهنتين.

– لا بأس يا نامادي. هيّا أحضر لنا الحساء.

وبينما كان يحمل الأطباق الفارغة ويبتعد بسرعة حاول عليّ أن يبرّر موقفه.

– آسف. لكنك رأيت ذلك أيضاً، فحين سمع الفتى بكلمة "ضابط" ذُعِر...

قال محمد مقاطعاً مساعدي:

- أنت شرطي أيضاً، صحيح؟

- نعم.

قلت محاولاً التخفيف من أسلوبه الفظ:

- علي مساعدي ونحن نعمل سوية.

تمتم محمد بحزن:

- فهمت. دعني أشرح لك شيئاً أيها المحقق علي. أحد هؤلاء الذين تدعوهم بالعبيد السود توفي في السجن السنة الماضية حيث ادّعى رجال الشرطة أنه كان يحاول إخراج مسدسه. لكن المهاجرين الأفارقة الآخرين لم يتقبلوا تلك الرواية وهم يظنون أن صديقهم قُتِل عمداً. لهذا جفل الفتى حين سمع كلمة "ضابط" لكنه لم يفعل شيئاً يخرق القانون ويمكنني الشهادة له بكل تأكيد.

تعكّر المزاج على المائدة فقلت مغيراً الموضوع إلى حريم سليمان كمحاولة لإصلاح الوضع:

- لكن كيف وصل سليمان للقاع هكذا؟ لقد كان ذو مجد وشهرة سليمين حين كنت أخدم هنا.

تنهّد محمد بعمق كما لو أنه من كان يسقط في الهاوية.

- لقد مضت سبع سنوات منذ أن غادرتَ يا حضرة الضابط، وهذا وقت طويل. لم يحدث الأمر بين عشية وضحاها فقد ذهبت الحريم ببطء، كما سقطت الإمبراطورية العثمانية، وفقد قوته وسلطته القديمة مع تقدمه بالسن؛ وحين ظهر هؤلاء الشباب الجدد الذين ينقصهم الضمير والتعاطف...

كان علي الذي أدرك خطأه سعيداً بتغيير الموضوع فتدخّل في الحديث بحماسة.

- لقد كان سليمان أحد أولئك الرجال الأقوياء أليس كذلك؟

- بالطبع... ربما كان الأخير من نوعه. أي شيء لديه كان يتشاركه مع الآخرين، فقد كان مشهوراً بكونه أبا الفقراء ولهذا لم يرتقِ في عمله.

ثم التفت إليّ محمد وأكمل:

- أنت تعرف ذلك العالم أفضل مني يا حضرة الضابط. فذلك الرجل القوي على الطراز القديم أصبح جزءاً من الماضي أما الشبان الجدد فلا يلتزمون بالطرائق القديمة حيث نسوا كل شيء عن اللباقة والولاء والاحترام...

صحيح أنني أعرف ذلك العالم جيداً، لكنني ومحمد لدينا آراء مختلفة. فقد كنت أكره أي شخص يحاول أن يرسم صورة جميلة عن أولئك الرجال الأقوياء كما لو أنهم نعمة للمجتمع، ولم أفهم إعجاب بلادنا بالمجرمين؛ كما أن كل ما يُقال عنهم مجرد هراء، فأخذ أموال الأغنياء وتوزيعها على الفقراء يظهر الشجاعة والبطولة و... كل ذلك مجرد كذب.

اعترضت:

- ليس هناك شيء مثل قاطع طريق على الطراز القديم أو على الطراز الحديث، فما يفعله كل منهما هو الاستئساد. لننس القصص الخيالية ونفكر في ما يمكن احترامه في الهيمنة المكتسبة بالقوة أو السلاح؟ ينبغي أن نطمح للعدل لا للنفوذ.

بدت تعابير محمد مليئة بالشك.

- أنت محق لكن حين تبتعد الدولة عن العدل فإن قطاع الطرق هؤلاء هم من يملؤون الفراغ.

كان محقّاً نوعاً ما فقد تركنا الباب موارباً ليتسلّل قطاع الطرق.

قلت معترضاً:

- بغض النظر عن ذلك فإن هذا العمل خاطئ يا محمد. لقد كان خطأً من قبل ولا يزال خطأً حتى الآن... البطولة الحقيقية في ما تفعل. منذ كم سنة وأنت هنا؟ منذ كم سنة وأنت تجني مصروفك من هذا المطعم القديم؟ مع كل هذه الكلاب المنحطة التي تدعوها بالشجعان... إنهم مجرد مجموعة مثيرة للشفقة تعيش في الخوف وتتوقع الخيانة دائماً. قد ينجحون في البدء بحياة جديدة بالنقود التي جنوها أو يتمكّنون من تحرير أبنائهم، أو ينتهي بهم المطاف موتى، وإلا فإنهم يقعون في الهاوية كسليمان.

نقر محمد بأصابعه على الطاولة ثلاث مرات.

- لا أتمنى ذلك لأحد وخاصة لسليمان يا حضرة الضابط. فحتى الموت على يدي عدوك يكسبك شرفاً وكرامة. في الأغلب سينتهي المطاف بناسية بالنوم في الشارع حين يموت.

في تلك اللحظة خطر ببالي.

- أليس لدى سليمان ثلاث زوجات أخريات؟

كاد علي يقفز من مقعده.

- لا بد أنك تمزح. أيقوم بتشغيل أربع زوجات؟

كبت محمد ضحكته وقال:

- الأخريات لسن زوجات تماماً وإنما ساقطات تابعات لفيم يحيى. أتذكر فيم يحيى يا حضرة الضابط؟ لقد كان يدير بيت دعارة في شارع كوسوك بيرم. في كل الأحوال كان نبيل من كاسيمباسا يزعجه دائماً محاولاً سرقة فتياته، فتدخّل سليمان وأصبح حارس يحيى مقابل مبلغ من المال. لذا حين لقي يحيى مصرعه طعناً في حفل كوكايين في نيسانتاسي بقيت الفتيات لسليمان. ويقول بعضهم إن الفتيات ذهبن إلى سليمان طوعاً، في حين يقول آخرون إنه أجبرهن على ذلك. كانت تلك سنوات تألق سليمان حيث لم يكن يرد على أحد، وكانت كلمته الفصل، ومهما يكن ما يرغب فيه في هذه المنطقة كان الجميع ينفذونه حتى جاء دايس إحسان وأخذ الزعامة منه حيث تحدى سليمان للقتال الذي كان جريئاً للغاية بحيث ذهب وحده. وقد أشبعه إحسان ورجاله ضرباً بالقرب من دار العبادة الآشورية، ومع ذلك لم يهوِ مباشرة. وعلى الرغم من أن دايس إحسان سافل فقد كان لديه بعض الإنسانية فلم يأخذ النساء منه، وهكذا أصبح حريم سليمان قواداً بأربع مومسات. لكن سليمان كان يبحث عن المتاعب فقد عاد إلى أسلوبه القديم... أي الميسر على أمل أن يدفع ليرة ويقبض عشرة لكن العكس هو ما حصل. ففي إحدى الليالي حصلوا على نسائه الأربع أيضاً لكنهم تركوا له ناسية لأنها لا تستطيع الإبقاء على الزبائن.

قاطعه علي:

- هل دايس إحسان هو من فعل ذلك؟

هزّ محمد رأسه بالنفي وقال:

- لا. بلاك نظام... أو كان لدى نظام تابع موثوق فعل ذلك.

قلنا سوية:

- إنجين آكا؟

هنا أدرك محمد أن هناك خطباً ما.

- كيف تعرفان إنجين؟ حقاً يا حضرة الضابط ماذا تفعل هنا في بيه أوغلو في هذا الوقت المتأخِّر من الليل؟

ما الضرر في إخباره؟

- لقد قُتِل إنجين.

لم تظهر المفاجأة عليه وإنما تنشق بصوت مرتفع.

- من عاش بالسيف مات بالسيف. من الذي قتله؟

- لا نعرف. من تظن؟

سحب يديه من مكانهما على الطاولة وقال:

- يمكن أن يكون أي شخص... نعم... أي شخص يمكن أن يقتل إنجين... دايس إحسان... رئيسه بلاك نظام... وحتى حريم سليمان أو أي شخص... لقد كان يتحرّش بزوجات الناس وبناتهم، وكما يقولون فإنه وسيم ومتغطرس وينقصه الضمير... وقد كان الجميع حذرين منه ويكرهونه. ليس الكلام عن مساوئ الموتى شيئاً جيداً لكنني لم أحبه فهو كريه، وعلى الرغم من أن وجهه محترم لكن عينيه الزرقاوين كانتا مربكتين.

- متى قدم إنجين إلى بيه أوغلو؟

فتح محمد عينيه وأغمضهما وجال بنظره حوله.

- لا أعرف تماماً، لكنني أظن من حوالى سنة أو سنتين... دائماً مع بلاك نظام... كيده اليمنى. يقول بعض الناس إنه يبحث لنظام عن فتاة وهذا ممكن، فهو باحث بارع ولديه سيارة جديدة براقة.

- أكان يعيش وحده؟

قطب حاجبيه الضيّقين وقال:

- لا أعرف، لكنني كنت أراه في الآونة الأخيرة مع فتاة شابة... فتاة بوجه صبوح لا تتخيل أنه قد يمتزج بمثل هذا النوع من العربدة... لو رأيتها لظننتها ملاكاً.

قال علي:

- سيليم؟
- لا... أعرف سيليم فهي مع بلاك نظام. وقد قدما إلى هنا مرة في منتصف الليل لتناول الحساء... أعني أربعتهم... نظام وسيليم وإنجين والفتاة... ربما كان يعيش معها.
- كان في تارلاباسي... صحيح؟
- بالقرب من دولابدير... لقد مرض مرة فطلب منا بلاك نظام أن نرسل له الطعام لثلاثة أيام متتالية في الصباح والمساء... هناك بالقرب من دار العبادة اليونانية. كان يقيم في أحد تلك الأبنية القديمة المتداعية في نهاية طريق مسدود... لم أفهم ذلك فقد كان بإمكانه العيش في مكان أفضل.

ذكرتني كلمة «متداعية» بالمشروع فسألت:

- سمعنا شيئاً عن إطلاقه شراكة مع نظام لإجراء بعض التجديدات على المنطقة؟
- لا تسأل يا حضرة الضابط فهم يدمّرون كل شيء ويقلبون المكان بأكمله رأساً على عقب تحت ذريعة إعادة كل شيء إلى سابق عهده... سينتهي المطاف بالناس في الشوارع ولن يطول الوقت قبل أن نصبح نحن أيضاً في الشارع. لقد استأجرت هذا المكان منذ ثلاثين عاماً. أيمكنك فعل شيء بخصوص ذلك يا حضرة الضابط؟

كنت أواجه طلبات مشابهة مئات المرات في عملي ولم تكن كلها بريئة. لكن حتى لو كان محقاً فإن هذه المشاكل خارجة عن سيطرتي.

- ماذا يمكننا أن نفعل يا محمد فنحن مجرد عمال مدنيين لا يمكننا فعل شيء. إن تكلمت مع البلدية قد يقومون بنقلك إلى مكان آخر.
- لقد فعلنا يا حضرة الضابط لكننا لم نفلح... هناك كثير من الباعة مثلي... الأوامر صادرة من الأعلى والجميع يحاولون السيطرة على مبنى في حين يقوم بعض الناس بالسيطرة على حي بأكمله... ممثلون تلفزيونيون... أثرياء

مشاهير... مالكو فنادق فخمة.

كان الطاهي محمد يائساً لكنني كنت أحاول حل القضية.

- أتعني أن من الممكن أن يكون إنجين وبلاك نظام قد أطلقا مشروعهما سوية لأنه لم يعد بحوزتهما كثير من النقود.

- لِمَ لا يا حضرة الضابط؟ فالنقود يسيل لها لعاب الجميع، وقد تكون لفتت انتباه نظام... إن كان بإمكانه مشاركة إنجين... أو ربما يكون إنجين أغراه... أفضل ما يمكنك فعله هو أن تتكلّم مع بلاك نظام إن قبل.

لو لم أطلق النار عليه لأطلق هو النار علينا



عندما غادرنا مطعم الطاهي محمد كانت الحشود قد تضاءلت كثيراً، وحتى إن كانت هناك سيارات في الشارع فإن الازدحام قد انتهى وتقلّص عدد الناس كما توقف الثلج عن التساقط... ربما يكون البرد القارس هو الذي دفع الناس إلى مغادرة الشارع... نعم... لقد انتهى المرح والاحتفال ولم يتبقَّ سوى قبعات ورقية براقة وقصاصات ورقية مبعثرة وورود ذاوية وزجاجات فارغة وبقايا طعام، أي أنه حين يبدأ عمال النظافة بالعمل، ويزيلون آخر لافتة عن رأس السنة، سيعود الحي القديم إلى سابق عهده. لكن بيه أوغلو أصبحت منطقة قديمة مهملة، فقد بذل الناس قصارى جهدهم لتحويل هذه المنطقة الفريدة، التي وصفها المسافرون الأجانب بكونها المرأة الأكثر سحراً في العالم، إلى عجوز متغضّنة قبل أوانها. فبجشع وهمجية قاموا بهدم أبنية يبلغ عمرها أكثر من مائة عام، وتضييق الشوارع الأنيقة، وملء الساحات الصغيرة بأبنية ذات شقق قبيحة، بحيث أصبح إبقاء المنطقة على سحرها أو صمودها عبارة عن معجزة.

لم نتكبّد عناء الوقوف بجنب مركز شرطة بيه أوغلو عند ناصية شارع كاليونكوكولوغو، وهو أحد تلك المباني التاريخية التي لم يبقَ سوى آثارها. كنت متأكداً تماماً أنه يعج بالخارجين عن القانون وأن زملاءنا لن يكون لديهم متسع من الوقت ليحكّوا رؤوسهم أو يستقبلونا... أعانهم الله. نزلنا منحدر كاليونكوكولوغو متوجّهين صوب منزل القتيل، فقد قال الطاهي محمد إنه من الممكن أن تكون صديقة القتيل تعيش معه في المنزل نفسه، وأردنا أن نعرّج عليها ونجرب حظنا، فقد

تقول لنا شيئاً يساعدنا في حل جريمة القتل هذه. في الواقع إن كنا سنلتزم بالقوانين فعلينا الحصول على إذن من المدعي العام، لكن ذلك يعني إضاعة الوقت. ولو وجدنا الفتاة هناك فقد تسنح لنا الفرصة لإلقاء نظرة على ممتلكات الضحية أو بعض الوثائق التي لا تُقدّر بثمن في التحقيق.

كان إنجين يقطن خلف دار العبادة سانت قسطنطين وهي أحد الآثار المتبقية من أيام بيه أوغلو القديمة. حين كنت أعمل في هذه المنطقة كنت أعرف دولابدير كراحة يدي، فلم تكن إرشادات كيتو وماستي هي التي ساعدتني في العثور بسهولة على شارع سيكمازي حيث يقع المنزل، وإنما كانت لديّ ذكرى سيئة للغاية في هذا الشارع، ففي أول شهر لي في الخدمة في بيه أوغلو قاموا عند شارع دوغون، مقابل المنعطف المؤدي إلى شارع كادين سيكمازي، بإحراق منزل فيه امرأة شابة ورجل وطفلان. كان الرجل تاجر مخدرات اسمه حبيب وقد قدم إلى هنا من الأناضول واستقر في ذلك المنزل الذي كان مالكوه الأصليون قد هاجروا إلى اليونان قبل سنوات عدة. في البداية امتهن مهناً عدة، لكن كان من الصعب عليه أن يعيل عائلة، فانضم إلى الفتية في الشارع حين اكتشف أن هناك طريقة سهلة لجني المال من خلال بيع الحشيش والحبوب وحتى الهيروين. عمل فترة من الزمن في بيع بضاعة وسيط الحي، وقد كان ذكياً للغاية ويمكنه تمييز رجال الشرطة المتخفين من عيونهم وخطواتهم الخفيفة، حين يظهرون من الظلام ثم يتلاشون فيه مجدّداً. وفي الأمسيات هناك في دولابدير لم يكن بإمكانه تلبية طلبات المدمنين الجالسين في سياراتهم المطفأة الأنوار. وحين أصبح يجني ما يكفيه بدأ يتساءل لماذا يأخذ الوسيط نسبة، وأصبح يشتري البضاعة مباشرة دون أن يدرك أنه يخرق قاعدة قد تؤدي إلى قتله. لكنه كان شجاعاً وغير هيّاب، كحريم سليمان كان ضخماً ومقاتلاً متمرساً. يقول الشهود الذين أدلوا بشهادتهم إنه كان يقول "أنا لا أثق سوى بربي وقبضتي وسكيني" ولم تكن لدى المسكين أي فكرة عما قد يحدث له في تلك البؤرة السوداء في قلب إسطنبول، وإلا لكان انسحب منذ التحذير الأول أو حتى بعد أن أرسل إليه الوسيط رجلين ليوسعاه ضرباً. وبسبب تنامي ثروته بدأ يضع مخططات للمستقبل ليسود في هذه المنطقة... ولِمَ لا؟ فما الذي يتمتع به أولئك

الرجال المترهّلون والضعفاء ولا يتمتع به هو؟ فببنيته الجسدية الضخمة وقوته يمكنه استخراج الماء من الصخر وزرع الخوف في قلوب الجميع ليتربع عمّا قريب على عرش التجارة في الحي. لكن ذلك لم يحصل ففي إحدى الليالي أضرموا النار فيه وبزوجته وطفليه أمام الحي بأكمله، وهم يصرخون ويستغيثون... نعم... كان القتلة يسعون إلى قتل كل من في المنزل حيث أحكموا قفل الأبواب والنوافذ لئلا يتمكن أحد من الخروج.

حين وصلنا إلى مكان الحريق وجدنا المنزل متفحماً كما عثرنا على بقايا حبيب المتفحمة عند باب غرفة الجلوس وهو ممسك بسكين في يده. أما زوجته فكانت في غرفة النوم تعانق طفليها الصغيرين. لم يخبرنا أحد من سكان الحي بحقيقة ما حدث، فقد اتفقوا جميعاً على القصة نفسها وتكلموا عن خصومة مع أقاربه، وحتى حين ضغطنا عليهم لم نصل إلى أي نتيجة. لكننا عرفنا الحقيقة بعد ستة أشهر من أحد الضباط في قسم المخدرات الذي اخترق شبكة للاتجار. إلا أننا، وبسبب عدم وجود دليل كافٍ، لم نتمكّن من القبض على قتلة حبيب. في تلك الفترة كنت أذرع الشارع جيئة وذهاباً مرات عدة، ولهذا لم يكن صعباً عليّ العثور على شارع كادين سيكمازي هذا المساء.

حين وصلت إلى مدخل الشارع غير النافذ ظننت أنني رأيت ظلاً يبتعد، لكنني لم أكن واثقاً فقد أكون مخطئاً، لأن النور الوحيد الذي كان يضيء الشارع منبعث من الثلج... تفحّصت الشارع لكني لم أرَ أحداً... لا بد أن عينيّ المرهقتين تخدعانني... وأخيراً لحق بي علي الذي كان ينظف الثلج العالق أسفل حذائه. توقف أمام جدار عليه لافتة حمراء مكتوب عليها بحروف بيضاء ناتئة "كادين سيكمازي".

تمتم:

– من المثير للاهتمام أين يعيش هذا الرجل. رجل منغمس في الملذات ويقيم في كادين سيكمازي...

كنت مشغولاً بالتحديق إلى المبنى رقم 1 حيث كان يقطن إنجين، فقد كان واحداً من أبنية الشقق ذات الطوابق الثلاثة في تارلاباسي المبنية على الطراز اليوناني

التقليدي. فوجئت حين اقتربت من المنزل... أهو مفتوح؟ الباب الخشبي في أعلى السلّم بأربع درجات؟ أم أنه بدا كذلك في الغسق؟ نظرت إلى الأرض ورأيت آثار أقدام كبيرة في الثلج تمتد نحو المبنى... آثاراً حديثة... إذ لم تكن هناك أي قطعة ثلج في الفراغ الذي خلفته. أياً يكن صاحب الأقدام فلا بدّ أنه قد دخل المبنى... إذن الظل الذي رأيته حقيقي... قد يكون لاحظ اقترابنا فذُعر ولم يغلق الباب. المثير أكثر للاهتمام هو أن آثار الأقدام لرجل... أيمكن أن يكون قاتل إنجين؟ لكن ذلك سخيف، فعلى الرغم من أنه معروف أن بعض القتلة يعودون إلى مسرح الجريمة لكن أن يقوم الجاني بزيارة منزل رجل قتله في مكان آخر فهذا يعني أنه غاية في الحماقة أو أن هناك دليلاً ينبغي إخفاؤه.

همس مساعدي الذي لاحظ آثار الأقدام:

- الباب مفتوح. هناك أحد ما في الداخل.

للحظة التقت عينانا ثم، وبعادة تشكّلت عبر السنين، سحبنا مسدسينا ووضعنهما في وضعية الإطلاق بهدوء دون أن ننبس ببنت شفة، ثم تحركنا ببطء وثقة باتجاه الباب. كنا نراقب الباب والنوافذ المظلمة لكننا لم نلاحظ أي حركة، لا عند الباب شبه المفتوح ولا من خلال النور من وراء الستائر الداكنة المسدلة. أسندنا ظهرينا على الجدار، ووقف علي على يمين الباب بينما وقفت أنا على يساره. لم يكن هناك أي صوت سوى صوت خافت جرّاء تساقط الثلج، وقد استمر علي بصبره النافد المعهود يشير لي إلى أنه سيدخل في حين كنت أشير له أن ينتظر. ثم دفعت الباب برفق فأصدر صريراً حاداً كأنه يغيظنا. رفعنا مسدسينا وأنصتنا... لا... لم يكن هناك أي صوت أو حركة... أيمكن أن نكون مخطئين؟ وبصبره النافد المعهود أيضاً حشر علي نفسه عبر الباب دون أن ينتظر إشارة مني، وقبل أن يعبر إلى الداخل فُتحت أبواب الجحيم حيث بدأ شخص بإطلاق النار علينا بكثافة.

صرخت:

- انسحب يا علي!

لكن المجنون قفز إلى الداخل. وعددت خمس رصاصات انبعثت الاثنتان الأخريان من مسدس صديقي محب الإثارة، ثم سمعت صرخة عالية.

- آه!

سقط قلبي بين قدمي، ثم سمعت صوت اصطدام... أحد ما سقط على الأرض ثم ساد الصمت... أهو علي؟ دخلت دون أن أفكّر لحظة... كان الظلام حالكاً في الداخل مقارنة بتوهُّج الثلج في الخارج وقد انتشرت رائحة البارود. لوّحت بمسدسي يمنة ويسرة دون أن أرى شيئاً... إن كان علي هو من أُصيب فستبدأ رصاصات الرجل تمطر عليَّ خلال لحظات.

قال علي ليخفّف من ذعري:

- أنا هنا يا حضرة الضابط... أنا على يسارك.

وأخيراً استطعت تمييز مساعدي المستلقي عند الباب وقد وجّه مسدسه إلى نقطة معيّنة.

- هل أنت بخير يا علي؟

- نعم يا حضرة الضابط. أنا على ما يرام.

إذن فالرجل الآخر هو من أُصيب. جالت عيناي اللتان تعوّدتا الظلام بحثاً عن زر الضوء على الجدار وراء الباب المفتوح وحين ضغطت عليه انتشر ضوء أصفر وأضاء الردهة. أمام السلم المؤدي إلى الطابق العلوي كان هناك ظل لفت نظري... كومة من الملابس بلون فرو الجرذ يتدفق منها دم أحمر قانٍ على المشمّع الأصفر. اقتربت ببطء من الظل حيث كانت الأرضية الخشبية تطقطق تحت خطواتي كما لو أنها تتألّم. كان الرجل مغطّى بالكامل بمعطفه الرمادي الداكن دون أي حراك، لكن ذلك لا يعني أن نثق به بالكامل، فتركت مسدسي مصوباً إليه وسحبت برفق المعطف إلى الخلف بيدي اليسرى. كان وجهه للأسفل لكن جبهته لم تكن على الأرض وإنما الجانب الأيمن من وجهه، ليبدو شعره المتجعّد وحاجبه الفتي وعيناه البنيتان المفتوحتان وأسنانه المصفرة من النيكوتين من بين شفتيه المفتوحتين، وبالقرب من يده اليمنى كان هناك مسدس من نوع غلوك، وقد تدفق الدم من تحت جسده الساكن الجاثم على سلاحه.

حين ركلت المسدس بقدمي سأل عليّ:

- أهو ميت؟

كان صوته أجشّ لكن مسدسه لا يزال مصوباً على الرجل المستلقي على الأرض. وضعت إصبعين من يدي اليمنى على معصم الرجل الأيسر لكنني لم أحس بأيّ نبض.

- يبدو كذلك.

لم يبعد عليّ ناظريه عن الرجل المستلقي، ليختفي الشرطي المندفع والمحب للشجار دون أي أثر.

- إنه ليس خطأك. هو أطلق النار أولاً.

لم يسمعني وإنما استمر ينظر إلى الرجل على الأرض. لقد شارك عليّ في كثير من الاشتباكات وأطلق النار على كثير من الرجال لكن لم يكن من السهل إنهاء حياة إنسان. فبغض النظر عن هويته وعن الأسباب، فإن قتل شخص ما يعني أن تحمل عبء العالم بأكمله على كتفيك، وكما كان يقول أحد أصدقائي القدامى:

- قتل شخص ما يعني أنك تخالف تعاليم الله.

وكان صديقي يواجه عواقب مخالفته لهذه التعاليم.

- هل أنت بخير يا بُنَيّ عليّ؟

لكنه لم ينبس ببنت شفة وإنما بقيت عيناه الواسعتان تحدّقان إلى الدم الذي أهرقه.

مشيت نحوه لكنه لم يرني. فأمسكت به من كتفيه وهززته.

- كفاك يا عليّ.

- ماذا؟

تضاءل الندم في أعماق عينيه لكنه لم يختف تماماً.

- لم يكن أمامك خيار آخر، فلو أنك لم تطلق النار عليه لأطلق هو النار علينا.

بلع ريقه ورمش ثم أخذ نفساً عميقاً وأعاد مسدسه إلى قِرابه وقال بصوت متهدّج:

- أنت محقٌ يا حضرة الضابط. لو لم أطلق النار عليه لأطلق هو النار علينا.

الحب أفضل عذر في العالم



بينما كانت شمس الشتاء الضعيفة تذيب الثلج عن نوافذ مركز الشرطة القذرة، بدأ لغز الرجل في منزل إنجين ينكشف. فقد أظهر لنا جهاز الحاسوب جميع أفعاله واحداً تلو الآخر. كان اسمه طارق سيبيركي لكنه مشهور باسم تايدي، وهو قاتل مأجور، مجرّد ذكر اسمه يجعل كل من يسمعه يرتجف خوفاً، إذ لم ينجُ حتى الآن أحد من المدرجين على قائمته، ولم يكن يعمل لحساب أحد وإنما كان يعمل لحسابه الخاص؛ وكان المال سيده الوحيد إذ كان يقتل لحساب من يدفع له الثمن الأعلى. ومع ذلك فقد كان رجلاً ذا مبادئ ولا يترك أي عمل دون أن ينهيه، كما أنه لم يكن دائماً الصياد فقد وجد نفسه مرتين يواجه فوهة مسدس. في المرة الأولى نجا دون أن يُصاب سوى ببضع خدوش، أما في المرة الثانية فقد كاد أن يلقى حتفه. وبعد أن أمضى أسبوعاً في غيبوبة فتح عينيه مجدّداً، واستمتع بإجازة لشهر آخر في المستشفى؛ ثم تم احتجازه كمشتبه به في أربع جرائم قتل، لكنه لم يُدن إلا في جريمة واحدة كان فيها الضحية هيزير كيفديت مالك حانة تركية تبث موسيقى شعبية في شارع بالو. كان ذلك خطأ اقترفه حيث ترك آثار أقدام ملطّخة بالوحل على طرف سجادة الرجل الذي قتله بطلقة واحدة في الجبهة، ودفع ثمن عدم حذره في موقع الجريمة ذاك حُكماً بالسجن وصل إلى خمس وعشرين سنة. لكن بفضل العفو العام تم إطلاق سراحه بعد ثلاث سنوات وسبعة وعشرين يوماً. وهكذا فإن قدمي طارق الضخمتين هما اللتان تدمّرانه. وهذه المرة كانت آثار قدميه في الثلج هي التي قضت عليه، لكن هذه المرة ليس برحلة إلى السجن وإنما

برحلة إلى الآخرة.

حين أدرك عليّ أن الرجل الذي أطلق عليه الرصاص قاتل استرخى قليلاً وخاصة بعد أن قال المدعي العام أوغوز إن من الواضح أن الأمر حدث دفاعاً عن النفس. لكن كلما دخلت زينب إلى مكتبي كان الوغد يستعيد سروره السابق ويحاول إخفاء قلقه كأنه لم يفقد أعصابه أو يتأثر بما حصل على الإطلاق.

- لا شيء يستحق الذكر يا زينب فقد أطلق الرجل النار علينا واضطررت للرد فأصيب.

كانت عالمة الجرائم قلقة، ووجهها الجميل يحمل علامات الإرهاق من سهرة رأس السنة. فعلى الرغم من زوال الخطر إلا أن احتمال أن علياً كاد أن يُصاب بالرصاص كان كافياً لإثارة أعصابها.

- كفاك يا عليّ. لقد تفاديت رصاصة.

ثم تذكرتني فجأة والتفتت إلي:

- آمل أنك بحال أفضل حضرة الضابط فأنت أيضاً نجوت بأعجوبة.

لم أكترث لنسيانها لي فالحب أفضل عذر في العالم.

- شكراً يا زينب. لكن علياً هو من كان في خطر حقيقي.

ونظرت إليه نظرة استياء وقلت:

- لقد قفز عبر الباب دون أن يتوقّف ليفكّر في الأمر لحظة... لحسن الحظ لم يحصل شيء لعلي. كان من الأفضل لو أن الرجل لم يُقتل... لكان ذلك أفضل من جميع النواحي... وكنّا لنعرف أشياء كثيرة عن مقتل إنجين... يا للأسف.

ظن عليّ أننا نلومه ولم يعرف كيف يتعامل مع الأمر فنهض من مقعده وخطا خطوتين ثم قال:

- لم يكن هناك ما يمكنني فعله فقد ضغطت على الزناد دون أن أرى إذ كان الظلام مخيّماً. لقد رأيت ذلك أيضاً يا حضرة الضابط. لقد صوبتُ باتجاه النار. لو أنني تمكّنت من رؤية الرجل لربما أطلقت عليه الرصاص في كتفه وجرحته فقط ثم قبضنا عليه، لكن الظلام كان حالكاً للغاية.

حملقت زينب وفتحت فمها الصغير كما لو أنها تتخيّل لحظات التوتر، وكأنها قد عاشت لحظة الصراع تلك بنفسها:

- هل أنت بخير يا عليّ؟ أقصد الآن.

كانت نبرة صوتها ناعمة.

- هذا ليس بالأمر السهل وينبغي ألاّ تخاف من طلب المساعدة إذ لا يمكنك التعامل مع الأمر لوحدك... لا يمكن ذلك لأحد... اسمعني... أنا...

وهنا تذكرت رئيسها مرة أخرى.

- أقصد نحن... نحن هنا معك. إن شعرت أنك لست على ما يُرام فليس عليك سوى أن تخبرنا.

عض عليّ على شفته السفلى ودمعت عيناه فهو لم يكن متعوِّداً على كل هذا الاهتمام. كم امرأة اهتمت به حتى الآن؟ كم شخصاً؟ كانِ على وشك أن ينهار ويبدأ بالبكاء لكنه سيطر على نفسه.

قال وهو يحاول ألاّ تلتقي عيناه أعيننا وأن يبدو صوته مليئاً بالثقة:

- أنا بخير. ولِمَ لا؟ هذه ليست أول مرة أشارك فيها بإطلاق النار... لقد مررنا بذلك من قبل. لقد أطلق الرجل الرصاص علينا فرددت عليه ثم توقفت المسدسات ومات أحدهم. هذا كل ما في الأمر.

كانت زينب تعلم أن هذا ليس كل ما في الأمر.

- ربما عليك مراجعة طبيب نفسي. اسمعني، آيتين هانم بارعة جداً... ربما من الأفضل أن تتكلم معها. إن كبتت الأمر الآن ستسوء الأزمة مع مرور الزمن.

- لماذا الطبيب النفسي؟ وأي أزمة هذه؟ قلت إنني بخير يا زينب، فتوقّفي عن تضخيم الأمر... أنا على ما يرام.

كان عليَّ أن أصر أنا أيضاً على مراجعة طبيب نفسي لكن ما كان الأمر ليجدي أي نفع، فعلي ليس من النوع العقلاني. فإن ضغطت عليه فربما يذهب لكنه لن يخبر الطبيب النفسي بما يفكّر أو يشعر به.

فجأة قال بأسلوبه محاولاً تغيير الموضوع:

- لم نجد السكين. لقد وجدنا مفاتيح المنزل، وبعد عثورنا على مسدس غلوك

ظننت أننا سنجد السكين معه أيضاً.

لاحظ عدم اكتراث صديقته فحاول أن يشرح:

- إنني أتكلم عن السكين التي قتلت إنجين. فشركة غلوك تصنع سكاكين القتال أيضاً كما تعلمين يا زينب... أتذكرين الأسبوع الماضي حين شاهدنا بعض السكاكين في كتيّب الشركة؟ سكاكين القتال؟ وبوجود المسدس والسكين ظننت أن لدى الرجل مجموعة أسلحة من الشركة نفسها.

ردّت زينب وهي تقف مقابل عليٍّ وقد باعدت بين ساقيها وكأنها على وشك القتال:

- لا أذكر أيّ سكين. أظن أن الوقت قد حان للتوقف عن التفكير في الأمر. لقد نجوت من الموت للتوّ وقتلتَ شخصاً، لذا فإنك غير مؤهّل على الإطلاق لتقييم الوضع تقييماً صحيحاً.

كان زميلاي المقرّبان أو صديقاي المقرّبان في وضع الاستعداد. كان حبهما أحدهما للآخر هو ما دفعهما للجدال، لكنني كنت قلقاً من أن يقوم أحدهما بالتفوّه بشيء سيئ ويجرح مشاعر الآخر بشكل لا يمكن إصلاحه. لكن عليّاً قام بفعل لم أكن أتوقّعه فقد انحنى ببطء وأمسك بيد زينب وقال بصوت عذب:

- أعرف أنك تفكرين بمصلحتي. شكراً. أنت محقّة فأنا لستُ على ما يُرام. لكن الوضع سيكون أسوأ إن لم أعد للعمل، لذا دعيني وشأني لو سمحتِ.

لم تعرف الفتاة الحكيمة ما تقول، فقد امتلأت عيناها بالمشاعر ومال رأسها قليلاً إلى اليمين وهبط كتفاها وسحبت يدها للخلف بعجز لكنها لم تستسلم.

- قُلْ شيئاً حضرة الضابط. ألا ترى أنه على حافة الهاوية.

ولكوني شهدت مرة تلو أخرى أن مثل هذا النوع من المشاكل لا يحل بالتهويل، فقد حاولت أن أبدو كأنني لا أكترث.

قلت وأنا أضع يدي على المكتب:

- حسناً يا زينب... لا تهوِّلي الأمر. لقد انتهى عملنا عند هذه النقطة في كل الأحوال فقد بقينا نعمل لأربع وعشرين ساعة لذا فسنسلّمك الراية ونذهب للنوم قليلاً. قومي بتحضير ملف عن إنجين وطارق بينما نرتاح... مفهوم؟

والتفتت إلى عليٍّ الذي كان ينظر إليَّ بريبة كما لو أنه مستعد:

- سنجتمع الليلة ونضع خارطة الطريق. مفهوم؟

ظل واقفاً ينظر إليّ غير واثق مما سيقوله فقلت:

- لا تنظر إليّ هكذا يا عليّ. ستذهب مباشرة إلى المنزل فأنا بحاجة لرجال شرطة متنبّهين ذهنياً ولا يمشون كالأشباح. هل ما قلته واضح؟

رد عليٌّ على مضض:

- نعم حضرة الضابط.

قلت وأنا ألتفت إلى عالمة الجرائم:

- الآن يا زينب دعيني أطلعك على ما حصل.

- لقد أخبرني شفيق بينما كنت تتكلم مع المدّعي العام. الرجل الذي أطلق عليه عليٌّ الرصاص...

وهنا أدركت أنها اختارت الكلمات الخطأ فسارعت لتصحيحها:

- أقصد الرجل الذي جرّ عليّاً إلى المواجهة هو الشخص الذي قتل إنجين أمام نادي تارلاباسي؟

وتراءت لي صورة تايدي طارق في معطفه من فرو الجرذان وقد تمرّغ وجهه بالدم الداكن اللون.

قلت وأنا أحاول تناسي تلك الصورة غير السارة:

- لا نعرف ذلك يا زينب. في الواقع الأمر مشكوك فيه. لماذا سيذهب إلى منزل الرجل بعد أن قتله بساعات؟ هذا عمل غير احترافي. ألن يقلق من أن يلتقي شخصاً آخر في المنزل؟ أو أن رجال الشرطة سيذهبون إلى المنزل بعد أن يعرفوا بمقتل إنجين؟ مثل هذا الخطأ ليس بالأمر السهل بالنسبة لقاتل خبير كطارق. دعينا نقول أنه كان يسعى للحصول على وثيقة مهمة ولهذا فقد ذهب إلى المنزل. لكن لماذا أطلق النار علينا دون أن يحاول أولاً أن يعرف من نحن؟

قال عليٌّ وهو يحكّ رقبته:

- بصراحة حضرة الضابط لست متأكداً لكنني أظن أن طارق كان ينتظر مالك المنزل ليقتله. أتذكر ما قاله صاحب المطعم؟ كان الجميع أعداء لإنجين.

ونظر إلى زينب مبتسماً ابتسامة خفيفة وقال:

- لقد كان الرجل يلاحق النساء ويتحرّش دائماً بزوجات الجميع وبناتهم...

لم أكن أعتقد أن الأمر بهذه البساطة.

- لا أصدق كل ما يقوله الطاهي محمد فهو يعرف هؤلاء الناس عن بعد، وقد يكون هناك سبب آخر غير النساء.

- لا تسئ فهمي حضرة الضابط فأنا لا أصرّ على أن الأمر متعلّق بالنساء. فقد قال محمد أيضاً إن إنجين كان قاسياً وتسبّب للناس بكثير من الألم والمعاناة، كما أن مشروع التحديث المدني هذا مثير للاهتمام، فهم يقولون إنه جلب معه النقود من ألمانيا ربما لأجل المشروع في تارلاباسي... أنت تعلم أن هناك أرباحاً طائلة يمكن جنيها من مثل هذه الصفقات.

الآن بدأ يتعامل مع القضية بمنطق أكبر، فعلى الرغم من سلوك الرجال القاسين، وكل الحديث عن حفظ ماء الوجه والشرف، فإن أكثر ما يهم هو المال، إذ إنه أهم من الحب أو الشجاعة أو الاحترام، لأن المال يعني النساء والحياة الرغيدة والبقاء واقفاً على قدميك... المال يعني شراء المسؤولين عند الحاجة، وحين تفقد المال تفقد كل شيء كما حصل مع حريم سليمان.

قاطعت كلمات عليٍّ سلسلة أفكاري:

- نعم، قد يكون الحصول على الأراضي وجني الأرباح سبب مقتل إنجين، وقد يكون ذلك سبب استئجاره تايدي طارق.

التفت إلى زينب التي كانت تحاول البدء بالعمل.

- لا تستهيني بقضية التحديث المدني التي تكلم عنها عليّ، فهم يقولون إن قطاع البناء هو الشيء الوحيد الذي يبقي اقتصاد البلاد صامداً. بينما تدرسين قضية إنجين تحقّقي إن كان له علاقة بمشروع البناء في تارلاباسي. المعدات الألمانية مهمة أيضاً بالطبع. ابحثي جيداً وحاولي الوصول إلى معارف إنجين خارج البلاد. وهناك بلاك نظام الذي يظهر اسمه كل مرة فهو أيضاً من ذلك العالم وكان إنجين يعمل لحسابه. كما يوجد شخص يدعى دايس إحسان، وهو مقامر ومنافس لبلاك نظام، وكانت بينهما بعض المشاكل بسبب امرأة حسب

ما يقولون. لكن سيكون من الجيد أن تتمكّني من معرفة التفاصيل.

- كما تشاء حضرة الضابط.

نظرت إلى عليّ الذي كان على الرغم من عدم نومه طوال اليوم وعلى الرغم من قتله شخصاً قبل بضع ساعات، يبدو وقد تخطّى عقدة الذنب ومستعداً للعودة إلى العمل... بالطبع لن يقوم بذلك، ومع ذلك فقد كنت سعيداً من حالته إذ بدا أن الفريق قد استجمع قواه.

قلت دون أن أحاول إخفاء سعادتي:

- أنت مصيب هنا يا عليّ. قد يكون طارق أطلق النار علينا بعد أن جاء لأجل إنجين... من المثير للاهتمام أن مفاتيح المنزل كانت في جيبه، ما يعني أن من استأجر طارقاً، كائناً من كان، كان مقرباً للغاية من إنجين ليتمكن من الحصول على مفتاحه. لا بد أن طارقاً كان ينتظر ضحيته وربما ظن أنك إنجين ولم ينتبه لي حتى، ولهذا بدأ بإطلاق النار قبل أن يطرح أي أسئلة، وهكذا فمن غير المحتمل أن يكون طارق هو القاتل. كما أن السكين التي قتل بها إنجين لم تكن بحوزته مما يدعم هذا الاحتمال.

قالت زينب وهي تبعد شعرها الكستنائي الذي نزل على وجهها وعيناها البنيتان تتلألآن، ما أكّد لي أنها تعمل على هذه القضية بكامل جهدها:

- إذن طارق ليس قاتل إنجين، فطارق يمتلك مسدس غلوك وما من سبب يدعوه لاستخدام سكين وبحوزته مسدس من هذا النوع وخاصة أن إنجين كان يصوّب مسدسه باتجاهه...

توقفت حين خطر ببالها احتمال آخر ثم قالت:

- هذا إن لم يكن طارق بارعاً في رمي السكين، فكما تعلم يا حضرة الضابط لدى الرجال من أمثاله نفسية غريبة إذ قد يكون يستمتع بالقتل بسكين.

جاء الاعتراض من عليّ:

- لكنه لم يستخدم السكين في أيٍّ من جرائمه السابقة وإنما كان يستخدم مسدساً دائماً... هذا مكتوب في سجله الجنائي... لقد تم استخدام مسدس في جميع الجرائم التي تم اتهامه بها... وجميعها مسدسات غلوك... ورصاصات عيار

تسعة ميلليمتر.

شحب وجه زينب ربما لأن فكرة أنه كاد يُردى قتيلاً خطرت ببالها مرة أخرى.

قالت باضطراب وهي تتنهد:

- ماذا لو أصابتك تلك الرصاصات لا سمح الله. علي...

ابتسم كقطٍ إنكليزي وقال:

- إن الرصاصة التي ستصيبني لم تنطلق بعد يا زينب.

نظرت إليه لأفهمه أن لا أمل منه لكنه تجاهل الأمر.

- هل هذه كذبة يا حضرة الضابط؟ أخبرني هل تم إطلاق الرصاص عليّ؟

- المقابر مليئة برجال الشرطة الشباب الذين كانوا يظنون مثلك يا عليّ، وقد كان معظمهم أكثر شجاعة وسرعة ومهارة منك. لكنهم، لسوء الحظ، لن يسمعوا الجواب عن هذا السؤال.

لأن بعض الحقائق لم تكن مفيدة لأحد



أسوأ شيء في الليالي التي لا تنام فيها وتقضيها في الشارع هو العودة إلى منزل فارغ. حين وصلت إلى الباب حتى كلب شارعنا خالي البال باهتيار كان بعيداً عن الأنظار مع أنه كان متعوّداً على انتظاري على عتبة بابي، وكنت قد مددت له سجادة قديمة تحت النافذة الناتئة لئلا يبرد... ربما يكون أحد الأشخاص الخيرين قد أخذه إلى منزله... فسّرت الموضوع على نحو إيجابي ودخلت.

صمت أقسى من البرد... كان الصمت الذي استقبلني ملموساً لكنني كنت أعلم أن الهمسات تختبئ في صمت الأثاث، وما إن تجد الفرصة حتى تبدأ بملء أذنيّ بأصوات الموتى الذين لم يرحلوا. كانت هذه الذكريات المؤلمة تظهر غالباً في لحظات كهذه حين أكون مرهقاً... لا طريق للعودة ما إن تسيطر عليّ تلك العواطف ليستمر العذاب حتى يستسلم عقلي للنوم. كانت الفكرة تكمن بتقصير الفترة بين اليقظة والسهاد. ربما ينبغي عليّ أن أخرج مباشرة من المنزل وأشغل ذهني بجريمة القتل تلك، وأبتعد عن اللحظات الجنونيَة في الحياة لأتمكّن من الهروب من الوحدة والبرد والفراغ الوحشي... كان ذهني وجسدي بحاجة للتعب الشديد لئلا تتبقى لديّ أي قوة لأتذكّر أو أشعر أو أفكر... كان ذلك جيداً؛ لكن هل من المقبول أن أعود إلى المركز بعد الخطاب الذي ألقيته على علي المسكين؟ هل عليّ أن أذهب إلى مكان آخر؟ لكن إلى أين؟ إفجينيا... نعم، يمكنني الذهاب إليها مباشرة لكن تاتافلا يغلق في وقت متأخر. فقد كانت تلك الليلة ليلة رأس السنة وقد يكونون سهروا طوال الليل، وهي الآن متجهة إلى منزلها لتنام أيضاً. كان

بإمكاني شم رائحة الخزامى المنبعثة من بشرتها الدافئة... لا... ما من داعٍ لتعذيب نفسي... هذه حياتي ولا يمكنني أن أقضيها بالهروب. وبخطوات واثقة صعدت السلم وغسلت وجهي ويديّ وتوجّهت إلى الخزانة ونظرت إلى نفسي في المرآة... رجل عجوز مُتْعَب ومهلهل. كانت عملية خلع الملابس شاقة لكنني قمت بها. مهما يكن ما فعلته حتى تلك اللحظة فإنني سألتزم بالروتين نفسه حيث سأرتدي منامتي وأستلقي في السرير البارد وأحاول النوم، وسألتزم بتلك العادات البسيطة التي تبقينا على قيد الحياة. خلعت ملابسي وأنا أرتعش من البرد، واتجهت نحو منامتي المطوية عند أسفل السرير وهي عادة اكتسبتها من غوزيد... ما كان بإمكاني اكتسابها لوحدي بالطبع وإنما يعود الفضل إلى الحاجّة التي تنظف لي المنزل والتي أرسلتها لي إفجينيا، فقد كانت تذهب إلى منزلها مرتين في الأسبوع، وكانت إفجينيا قد أخبرتني أنها امرأة شريفة ومجدة ومهتمة وكان كلامها صحيحاً. وقد قالت لي إنها ستبقى في المنزل وتقوم بالطهو، لكن نهاري وليلي لم يكونا منتظمين وما كنت أدري أين سأتناول الطعام في كل ليلة، وهكذا فسيتم رمي كل ذلك الطعام الشهي.

كان السرير كالثلج فندمت على عدم تشغيل التدفئة لكن من الصعب النوم في الحرارة أيضاً، وبينما كنت أفكر إن كان عليّ التوقّف عن التكاسل والنهوض، بدأ الهاتف على الطراز القديم بجانب السرير يرن. إفجينيا؟ لم يكنِ هناك كثير من الناس الذين يعرفون رقم هاتف منزلي. رفعت السماعة وأنا آمل ألاّ يكون هناك خطب ما.

قال صوت ذكوري مألوف:

- ألو. مرحبا يا نيفزات.

كان صوتاً ودوداً ومألوفاً أعرفه جيداً لكنني لم أستطع تذكره.

- ألو...؟

أحس بتردّدي فقال:

- عيب عليك يا حضرة الضابط. لقد نسيتنا إذن...

- لا. أعني...

لحسن الحظ لم يستمر كثيراً فقد قال:

- هذا أنا كمال.

العينان الزرقاوان المتلألئتان والشارب الأشيب المصفر من التدخين وسبّحة العنبر التي لا تفارق يده... الأنيق والمخلص دوماً... نعم كان هذا كمال... رجل قوي تآخيت معه لسنوات لكن لم تتبق أي قوة لديه. كان لديه مقهى في شارع هاكوبولو حيث كنت، أثناء عملي في بيه أوغلو، أعرّج عليه كثيراً لندخن الشيشة ونلعب النرد. كما كان يساعدني كثيراً. لم يكن مخبراً ولم يشِ بأحد، لكن القصص التي كان يخبرني بها كانت مفيدة للغاية.

قلت بابتهاج:

- واو يا كمال. آسف لكنني لم أستطع تحديد الصوت لدقيقة. إنني أتقدم في السن.
- ماذا تعني بأنك تتقدم في السن يا نيفزات؟ هل يمكن للأخ الكبير في بيه أوغلو أن يتقدم في السن؟

بدأ الألم يتسلّل إلى قلبي ويعتصره ثم لاحت في ذاكرتي عينان داكنتان لجثة شابة.

لم يكن كمال مدركاً للوضع الذي كنت فيه، فقد دوت ضحكة على الطرف الآخر من الخط.

سألني كمال بنفاد صبر لتمسح كلماته الوجه البائس في ذهني:

- أتذكر؟ أليس كذلك؟ من الذي دعاك بهذا الاسم؟ إنها مدام أناهيد يا صديقي. لقد كانت أول من استخدم هذا اللقب.

كان مخطئاً لكنني لم أرغب بإخباره إذ إن بعض الحقائق لم تكن مفيدة لأحد.

- كيف لي أن أنسى؟ مدام أناهيد!
- رحمها الله. لا يمكنني أن أنسى ذلك اليوم حين كنا نحتسي الشراب في الظهيرة.

تضاءل الوخز في قلبي وانتعش دفء الذكريات الجميلة.

قلت وأنا أتكئ على مسند السرير الخشبي:

- نعم في مطعم هزار.
- كان السيد كافيت يقف فوق رؤوسنا ويقول: "أحضر لسيادته شراباً!" حين

أشارت مدام أناهيد إليك وصحّحت له: "إنه ليس سيادته... إنه أفضل أخ كبير في بيه أوغلو» فربت أزرار آلته الموسيقية وعزف نغماً بسيطاً على شرفك. كنت قد حللت لها مشكلة أو...

حقاً ما الذي فعلته لها؟ لا بد أنني أنقذت ابنها أو أخ صديقتها. قُتِلت امرأة عجوز في إحدى الشقق في شارع عمر الخيام وتم احتجاز الفتى الذي كان أرمنياً يقوم بالتسوّق وتقديم الخدمات للمرأة، وقد اشتبه رجال الشرطة بهذا الفتى إذ كان بإمكانه دخول المنزل والخروج منه بسهولة بالغة، وقاموا بضربه على أسفل قدميه وحين لم يعد بإمكانه الاحتمال أكثر صرخ: "أنا قتلتها!" وتحمل العواقب. أظن أن اسمه كان عيسى، وكان وجهه ملائكياً. وحين ألقينا نظرة أخرى على ملفه وبحثنا وراجعناه ظهرت الحقيقة، فقد كان القاتل عامل إصلاح الهاتف الذي دخل لإصلاح هاتفها ورأى النقود التي تدّخرها، فخنق المرأة المسكينة. كان بإمكانه النجاة بفعلته لو أنه لم يأخذ سوى المال لكنه طمع وأخذ كل ما وقعت عليه يداه، فقبضنا عليه وهو يبيع قطعة فضية أثرية في سوكوركوما. كان ذلك سبب امتنان مدام أناهيد لي، ولهذا فإن الإطراء...

السكين الحادة مجدّداً... الألم المنسي... الاختناق في صدري.

فكرت بأن أقول إن الأعمال الصالحة لا تنتهي دائماً بنتائج إيجابية، لكنني لم أقلها. فقد كان كمال مخلصاً ويحبني بحق لذا ما من داعٍ لأحزنه أو أحزن نفسي.

قلت محاولاً التخلص من الذكريات السيئة في ذهني:

- لا تبالغ يا كمال. لقد كنت أقوم بعملي فحسب. ما آخر أخبارك؟ كيف حالك منذ آخر مرة التقينا فيها؟
- أنا بخير يا نيفزات. لكنني سأكون بحال أفضل لو أن أصدقائي اتصلوا ليطمئنوا عليّ.

كان توبيخه ممزوجاً بالدعابة. كم مرة اتصل بي الرجل؟ كنت في كل مرة أخبره أنني سأعرّج عليه عما قريب ثم أنسى الأمر لا بسبب عدم الإخلاص وإنما لنقص الوقت.

- سأعرّج عليك عما قريب يا كمال. لقد وقعت بعض الحوادث في تارلاباسي

الليلة وأرغب بمناقشتها معك...

بعد أن لفظت العبارة أدركت خطئي، فقد أخبرت الرجل للتو أنني سأزوره لأنني بحاجة لخدمة فبدأت بالاعتذار حين قال:

- لهذا اتصلت بك أيضاً.

فاسترخيت وأنصت للرجل القوي.

ودخل كمال في الموضوع مباشرة:

- دايس إحسان ليس مسؤولاً عن موت إنجين... نعم إحسان بريء... الأمر مدبّر، فقتل إنجين أمام نادي تارلاباسي مجرد خدعة إذ إنهم أرادوا الإيقاع به.
- من؟
- لا أدري. أحد ما لديه مشاكل معه.
- صديقك دايس لديه مشاكل معه فقد تشاجرا...

ضحك بعصبية.

- لا تقل ذلك يا حضرة الضابط. دايس ليس صديقي.
- أنا أعرفك يا كمال، فأنت لن تتصل بي لتتكلم عن جريمة قتل بدون سبب وقبل أن يجف دم الضحية... لديك صلة مع إحسان أو أنك تكلمت معه على الأقل.

لم يحاول إخفاء الأمر.

- هذا صحيح. لقد جاء إحسان إلى المقهى قبل ساعة مذعوراً وقال: "أنت الوحيد الذي يمكنه مساعدتي يا رجل. إنهم يحاولون الإيقاع بي... إنها مؤامرة... يكاد رأسي ينفجر". فطلبت منه أن يهدأ وأجلسته بجانبي وشرح لي الأمر بالتفصيل... هناك مشاكل بينه وبين بلاك نظام أولاً بسبب النادي وبسبب منافسة على امرأة، وكان بلاك نظام يرسل إنجين لمهاجمة إحسان في كل مرة لكنهما مهما حاولا لم يتمكنا من النيل منه، لذا فقد قام نظام الآن بالتخلص من رجله وهو يحاول أن يلقي اللوم على إحسان.

حتى لو كانت هناك بعض الحقيقة فيما قال فإن اتهامات إحسان مشكوك فيها.

- ولماذا يفعل ذلك؟ سمعت أن إنجين كان موظفاً قيماً وأن بينهما شراكة أو شيئاً من هذا القبيل.

- لقد قال إحسان ذلك أيضاً. كان الاثنان يجمعان الأبنية في تارلاباسي فكما تعلم يتم الآن إعادة إعمار الحي... لدى إنجين بعض المعارف في ألمانيا وأظن أنه يجلب مبالغ مالية طائلة. لم يشرح لي الأمر جيداً لكن يبدو أن الأمر متعلق بتجارة المخدرات، وقد قال إحسان إن ذلك قد يكون السبب. إن قام إنجين بالإيقاع برئيسه فإن نظام سيضرب عصفورين بحجر واحد حيث سيتخلص من الرجل الذي خذله وفي الوقت نفسه يلقي اللوم على إحسان.

كان ذلك ممكناً.

- أيستطيع إحسان إثبات ما يقوله؟
- وكيف يمكنه ذلك؟

كنت أعرف مسبقاً أنه لا يمكنه ذلك. وإلاّ لجاء إلينا مباشرة بدلاً من كمال. لكن هدفي الحقيقي هو إلقاء بعض الضوء على النقاط المظلمة من جريمة قتل الليلة الماضية.

- لقد وقع الحادث خارج ناديه. ألم يروا القاتل؟ لقد كان النادي مفتوحاً في وقت وقوع الجريمة أليس كذلك؟

لم يدرك أنني كنت أحاول استدراجه وأكد لي بصراحته المعتادة.

- لقد كان مفتوحاً لكن أحداً لم يره فذلك الوقت من الليل يشهد أكثر اللحظات المحمومة في القمار حيث تخطر ببال المقامرين جميع أنواع الخدع الشريرة، ويركز الجميع سمعهم على الطاولة. فمن الذي سيشعر بالفضول وينظر خارجاً؟ لقد رأى أحد الزبائن جثة إنجين وهو يغادر إلى منزله فأخبر إدارة النادي فاتصلوا بالشرطة.
- إحسان اتصل بالشرطة؟
- لا. كان إحسان في ماخور في تاليمهان. كانت ليلة رأس السنة وكان قد خرج مع أصدقائه وبعض الفتيات الأجنبيات أيضاً. يمكنهم الشهادة على ذلك إن أردت. لا بد أن رجال إحسان هم من اتصلوا برجالك.

رجالي... رسمت صورة ذهنية للشرطيين اللذين التقيناهما في الليلة السابقة... زينال ذو الرأس الضخم وصديقه القصير الضعيف... كنت واثقاً أن

إحسان يرشوهما... كنت أعلم أن من غير الممكن التحكّم في فضائح مثل هذه: إنه الفساد المتعلِّق بمهنتنا ما لم يكن الأمر متعلقاً بجريمة القتل بالطبع... أردت البحث أكثر لأفهم.

- لكننا حين وصلنا لم نر أحداً من نادي تارلاباسي وإنما مجرد شرطيين بالقرب من الجثة.

خيم الصمت لوهلة. أفترض أن كمال كان يحاول تخمين ما لم يخبره به إحسان.

- لا أعرف يا حضرة الضابط. إنني أخبرك فقط بما قاله لي إحسان والرأي لك أنت كالمعتاد.

هل أحس بالاستياء؟ لم أكن أنوي جرح مشاعره.

- شكراً يا كمال. لقد ساعدتني كثيراً في الواقع. لقد أوضح هذا بعض الأسئلة التي كانت تجول في رأسي. إذن ماذا تعرف عن إحسان؟

- إنه ليس شخصاً سيئاً فقد كنت أعرف والده أيضاً. كان عثمان مقامراً لكنه كان طيباً معي ووقف بجانبي في أسوأ أيامي. وإحسان يمشي على خطا والده فقد كان لديه نادٍ في طارابيا لكنه لم يستطع الصمود هناك فانتقل إلى بيه أوغلو...

- وكيف عرف أنني أنا من يعمل على هذه القضية؟

خيّم الِصمت مجدّداً. أظن أن كمال أدرك أنه وقع في مأزق وبدأ يندم على الحديث معي، لكن أوان التراجع كان قد فات بالنسبة إليه.

- أظن أن الرجال رأوك لكنك تقول إنهم لم يروك. لا أعرف كيف عرفك. سأتحقّق لك من الأمر... سأسأل وأعرف.

- شكراً يا كمال. سأعرّج عليك لاحقاً اليوم، أو غداً، فقد مر زمن طويل منذ أن لعبنا النرد سوية آخر مرة.

- أرغب في ذلك يا حضرة الضابط. لقد مر زمن منذ أن دخّنت الشيشة أيضاً. سنتشارك شيشة على شرفك.

عاد الدفء القديم إلى صوته فأغلقت الخط وأنا مرتاح البال وقد بدأت عيناي تحرقانني، وبينما كنت أعركهما غفوت.

أرجوك، التزم بجرائم القتل في روايتك



ربما كان من الأفضل لو أنني لم أنم، فقد أحسست بازدياد التعب والتشويش وكأن جفنيّ عليهما جبال، وقد فاحت في أنفي رائحة التفسّخ وانتشر في فمي طعم التعفّن، ما لا تجده سوى في أقبية أبنية تارلاباسي التي يبلغ عمرها قروناً... لم أتمكن من التخلّص من الرائحة القذرة حين نهضت من السرير. استحممت وحلقت ذقني ونظفت أسناني فاختفت الرائحة، لكن رأسي لا يزال يؤلمني. حضّرت القهوة السوداء بدون سكر لكنها لم تجدِ، ثم ارتديت ملابسي وأنا أفكر بالعودة إلى حياتي الطبيعية أو العودة إلى الركض وراء جرائم القتل المروّعة... نعم كان ذلك الواقع: التصرفات نفسها التي تنهي حياة شخص ما، كانت بالنسبة إليّ الحياة كلها... لم يكن ذلك تناقضاً وإنما عملي... جرائم القتل... فحيث ينتهي عمل القاتل يبدأ عملي. كنت أحس بشعور أفضل حين أكافح، مع جرائم القتل هذه، الجانب المظلم من الإنسانية... لكن أسوأ ما في الأمر أنك تحاول التعوّد على الأمر فتقسو وفقاً لما قاله المفوض رؤوف قبل بضع سنوات حين بدأت بالعمل في هذا السلك:

- مواجهة جثث القتلى تصبح سهلةً كما يشعر المدرس بالارتياح حين يبدأ بتدريس صف جديد. ستلقي نظرة على دماغ رجل مهشّم ثم تذهب لتناول العشاء.

كنت قد بدأت القيام بجزء مما قاله، على الأقل كما حصل الليلة الماضية حيث توجهنا من مسرح الجريمة لتناول الحساء، على الرغم من أني حين كنت

أمام الجثة لم أشعر بأنني مدرس سيبدأ بتدريس صف جديد، وحتى لو كان هناك جانب تعليمي في جرائم القتل، فإن الموت مأساوي دوماً. والأسوأ من ذلك أن الأمر معدٍ ولا يمكنك حماية نفسك منه. الليلة الماضية أُصيب عليّ بالعدوى حيث واجه معضلة قاسية... إما أن تَقتل أو تُقتل.

وقع نظري على صورة ابنتنا مبتسمة لأبيها كما لو أنها لم تمت، وأنها على وشك فتح باب غرفة نومها وإلقاء التحية عليّ... نعم... لقد تسلّل الموت إلى منزلنا وأخذ مني زوجتي وابنتي كما لو أن هذا البلاء يقول إنه سيجعل كل من يعبث معه يدفع الثمن باهظاً... "ما كان ينبغي لك الاقتراب مني يا نيفزات!" لكن الجزء الأسوأ هو أنه لم يعد من الممكن الهروب منه. كانت إفجينيا تتحايل عليّ قائلة:

– دعنا نغادر هذه المدينة إلى جزيرة غوك ونبدأ حياة هادئة ومسالمة من الصفر.

لم أستطع أن أشرح لها سبب رفضي، فتلك الحياة الهادئة التي تعني بالنسبة إليها التقدم في السن على أصوات الأمواج بين الرياح الرطبة الدافئة كانت بالنسبة إليّ جحيماً، فالكوابيس التي يمكنني السيطرة عليها في العالم الحقيقي، ستسيطر عليّ بالكامل خلال تلك الحياة الكسولة والليالي الطويلة والهادئة. كنت واثقاً من الأمر لأنني مررت به من قبل، حيث كنت أستيقظ غالباً على الكوابيس. سأجعل من حياة إفجينيا جحيماً أيضاً وليس حياتي فحسب. كانت الطريقة الوحيدة للتعامل مع الكوابيس بمواجهتها خلال اليقظة، وبهذه الأفكار غادرت منزلي.

كان منزل كلب الحي العجوز والوفي باهتيار، الذي صنعته من صندوق من الورق المقوى، لا يزال فارغاً؛ والطعام الذي وضعته له في الصباح السابق كما هو... أين ذهب ذلك الكلب؟

قال صوت جعلني أجفل:

– باهتيار معنا. الجو بارد يا نيفزات بيك وخفنا أن يتجمّد فأعددت له مكاناً صغيراً في شرفة منزلي. حفيدنا يحبه ويمكننا إبقاؤه حتى تمر موجة البرد.

كان المتحدث الروائي البوليسي الذي رفع نظارته إلى أعلى أنفه ثم أكمل عبارته.

– إن كنت لا تمانع بالطبع...

- هذا جيد. على الأقل لن يمرض المسكين.

كان الروائي البوليسي غريب الأطوار حيث اشترى منزل ميهال جارنا المتوفى الذي يقطن على بعد منزلين من منزلي وجدّده بالكامل، وكان شديد الاحترام لي حيث كان يحدق إليّ دائماً بشغف كما لو أننا مقرّبان أحدنا من الآخر... ليس بالحب وإنما بالتفاهم، كما لو أنني صديقه المفضّل أو فرد من عائلته. في مناسبات سابقة ضبطته وهو يراقبني وأنا أغادر المنزل، وهو غارق في التفكير ويعد خطواتي واضعاً يده اليمنى على لحيته البيضاء كفنان ينظر إلى لوحة أكملها، ولم يكن يشعر بالإحراج حين أراه وإنما يلوّح لي بابتسامة جريئة تظهر أسنانه البيضاء. هناك أمر غريب في هذا الرجل لكنني لم أستطع تحديده، إلا أنني لم أظن أنه سيؤذيني. كما أن زوجته لطيفة للغاية ومؤدبة ومرحة ومهتمة. لكن ألطف أفراد العائلة هو الحفيد روزغار الذي لم أر أباه أو أمه، وأظن أنهما لا يأتيان إلى هنا كثيراً، فقد يكونان حذرين من الروائي الغريب. لكن الحفيد كان يزورهما في كل عطلة نهاية أسبوع. في إحدى المرات التقينا روزغار في متجر رجب للبقالة فسألنا:

- هل رجال الشرطة طيّبون؟

لم أعرف يومها بما أجيبه فتمتمت شيئاً مثل:

- الأمر متوقِّف على رجل الشرطة.

وهنا عادت أفكاري إلى الكاتب، فالرجل قد أخبر حفيده عني. وحين لاحظت إفجينيا الأمر أيضاً قالت:

- ربما سيكتب رواية عنك يا نيفزات. هل هذا سيئ للغاية؟ سيعرفك الجميع ويتعلمون كم أنك رجل بحق.

لكنني لم أكن أرغب في أن يعرفني الجميع. كما كنت أعرف ذلك النوع من الكتاب، فهم يبالغون دائماً في حديثهم عن الأشخاص والأحداث... دم أكثر ومكيدة أكبر وأبطال أفضل وأوغاد أسوأ... أحداث لا تحصل في الحياة الحقيقية وأشخاص غير موجودين... وكيف يمكن لشخص آخر أن يتكلم عني في حين أنني أنا لا أفهم نفسي؟

سألني الكاتب مشتّتاً أفكاري:

- كيف يجري التحقيق؟ هل اعتقلت أيَّ مشتبه به؟

كان يفعل الشيء نفسه مجدّداً... يطرح أسئلة عن تفاصيل يومي كما لو أنه يعرف كل لحظة من حياتي. نظرت إليه ببرود وقلت:

- أيُّ تحقيق؟ لا أعرف عمّ تتكلم.

لم يأخذ الأمر على محمل شخصي وإنما حافظ على أسلوبه المتعاطف وأصر قائلاً:

- أتكلّم عن جريمتي القتل في تارلاباسي. أنت المسؤول عن التحقيق أليس كذلك؟

كانت ذراعاه مشبوكتين على صدره ورأسه مائلاً قليلاً إلى اليمين مظهراً ثقته الزائدة.

سألته بصوت حاد:

- كيف عرفت بجريمتي القتل في تارلاباسي؟
- من التلفاز... نشرة الأخبار تعيد مراراً وتكراراً تفاصيل جريمتي القتل منذ الصباح. كما قالوا إن جريمتي القتل متعلِّقتان إحداهما بالأخرى. هل هذا صحيح؟

في الواقع لا يمكنني توبيخ الرجل. كان ينبغي بي إخباره أن يهتم بشؤونه، لكنه كان جاري، ولهذا فالأمر مستحيل.

قلت كابتاً غضبي:

- صحافيو وسائل الإعلام غير مسؤولين. إنهم ينتظرون أمام المشرحة ليقوم أحد بقتل آخر، فينشرون الخبر.
- لا بد أنك وجدت طرف الخيط.

كنت أفكّر عمّا يسعى إليه هذا الرجل حين أضاف:

- لا أظن أنك تشعر بهذا الشعور تجاه وسائل الإعلام فأنت من نوع رجال الشرطة المتعاطفين.
- وكيف عرفت أنني متعاطف؟ أتظن أنك تعرفني؟

رفع يده بلطف وقال:

- آسف. أظن أنني تجاوزت حدودي.

لم تكن لديّ أي نية في التراجع فقد تجاهلت أصول المجاملة بين الجيران.

- نعم... قليلاً. لا يمكنك وضع افتراضات مسبقة حول الناس الذين لا تعرفهم، وحتى لو كنت تعرفهم لا ينبغي أن تخبرهم بذلك مباشرة.

- أنت محق. لقد...

لا، لم أكن أنصت له فقد كنت أنتظر هذه الفرصة منذ زمن وسألقنه درساً... هذا الكاتب الذي يحشر أنفه في كل شيء.

- لا أريد أيّ تبريرات يا سيدي فأنا لست شخصية تخلقها. هناك أشخاص حقيقيون هنا... موت حقيقي... ألم حقيقي... أرجوك، التزم بجرائم القتل في روايتك إذ لا يمكنك التعامل مع الجرائم في العالم الواقعي.

كنت أتكلّم بقسوة نوعاً ما، لكن بغض النظر عما كنت أفعله لم يستطع مسح تلك الابتسامة المتعاطفة عن وجهه. مهما يكن ما قلته لم يغضب الرجل. لم أكن أظهر مثل هذا الصبر حتى لابنتي أيسون... لقد كان غريب الأطوار. كانوا يقولون إن الكتاب شبه مجانين لكنني لم أصدقهم، إلا أن الأمر بدا كما لو أنه صحيح.

- أدرك أنه لا يمكنني التعامل مع جرائم القتل الحقيقية يا نيفزات بيك، وأعرف مدى صعوبة عملك، لكنني كنت أسأل بدافع الفضول فقط.

لا... ليس الفضول. لقد كانت لديه دوافع أخرى لم أتمكّن من فهمها. كنت أفكر بالطلب من زينب أن تتحقق من أمره، وفي تلك اللحظة رن هاتفي.

قال وهو يبتعد عند سماعه الهاتف الذي رنّ في وقت ملائم لئلا أتمكن من التعامل بفظاظة أكبر:

- بكل الأحوال لن أعطّلك.

ومع ذلك لم يتمكّن من المضي دون قول كلمتين أخيرتين.

- عمل صعب. قضية معقّدة بجريمتي قتل عليك حلهما... حظاً موفقاً.

إنه يتمنّى لي حظاً موفقاً كما لو أنه رئيسي، وكأن الجميع ينتظرون أمنياته الطيبة. نظرت إلى هاتفي دون أن أشكره ورأيت أن المتصل هو علي فأجبت بمزاجي الراغب بالشجار:

- نعم يا علي. ما الأمر؟

توقف للحظة إذ لم يكن يتوقع مثل هذه الفظاظة مني.

- ممم... أنا أزعجك يا حضرة الضابط على ما أظن.

شاهدت الكاتب وهو يمشي بعيداً وأجبت:

- لا يا علي. لقد كنت أتجادل مع شخص غير لبق.

- يمكنني الاتصال فيما بعد إذا أحببت.

- قلت لك إنه لا مشكلة لديّ يا علي. أنا أسمعك...

دخل في الموضوع مباشرة وقال:

- لقد حاولوا إحراق نادي تارلاباسي.

- نادي دايس إحسان؟

- نعم حضرة الضابط.

- الأمور تتسارع بشكل محموم.

- نعم يا حضرة الضابط. لا بدّ أن بلاك نظام هو من فعل ذلك. يبدو كأنه يحاول الانتقام لإنجين.

فكّرت في نفسي... أو أنه يحاول أن يجعل الأمور تبدو كذلك.

- هل تم القبض على الجناة؟

- لا حضرة الضابط. كان الشارع هادئاً في تلك الساعة وما من شهود. لقد رمى أحدهم قنبلة مولوتوف.

- قنبلة مولوتوف؟ كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها أن المافيا يستخدمون المولوتوف.

- أمات أو تأذّى أحد؟

بعد أن قتل شخصاً في الليلة السابقة أصبح فارسنا أكثر حساسية.

قال وقد أظهر صوته ابتهاجه:

- لحسن الحظ لا. لقد أصيب البواب إصابات طفيفة.

لم أكن متفائلاً بقدره إذ بدا الأمر كما لو أن هناك تسوية دموية للمشاكل... قتيلان وجريح... لنرَ ماذا سيحصل بعد ذلك.

- أظن أن الوقت قد حان للتعريج على نادي بلاك نظام.
- لقد حاولت يا حضرة الضابط لكن نادي تارلاباسي الأصيل مغلق، وتركوا لافتة على الباب تقول "في جنازة".
- حسناً، أين أنت الآن؟
- في مسرح الجريمة. أقصد في نادي تارلاباسي.
- حسناً يا علي. أنا في طريقي إليك.

كان هناك شيء سحري في هذه المرأة



بدا أن هذا اليوم سيشهد مزيداً من العوائق، فقد تعطلت سيارتي الرينو القديمة المخلصة، التي كنت متعوّداً على أنينها في البرد القارس. ربما بسبب انزعاجي من الكاتب لم أحتمل صديقتي القديمة، وقررت أن أحاول مرة أخيرة قبل أن أتوجّه إلى حنيفي في الشارع الأسفل، إذ يمكنه أن يفهم مشكلة صديقتي. لكنني لحسن الحظ لم أضطر لذلك.

- هيا يا فتاة. لا تتسبّبي لي بمزيد من المشاكل.

وبدأت بالعمل... من يعلم ربما بعد كل هذه السنوات التي قضيناها سوية بدأت بتقدير كل ما فعلته لها وتعلمت ألاّ تخذل صديقها، وحين امتلأ أنفي برائحة البنزين ضغطت على الدوّاسة، وقدت السيارة عبر المدينة التي بدأ الليل يخيّم عليها. لم يتبقَّ من الثلج الذي تساقط الليلة الماضية سوى قليل على الأسطح، ولم يكن هناك كثير من البرك في الشوارع. تقدمت بمحاذاة القرن الذهبي الذي بدا كبركة ذهبية تحت آخر شعاع من ضوء الشمس. كانت مجرد رؤيتك لهذا المنظر كافيةً لتبتهج، لكن كأي حلم حلو اختفى المنظر برمشة عين من دون أن يمنحني الفرصة للاستمتاع به. بدأ هاتفي بالرنين ولم أستطع التعرف إلى الرقم، فتساءلت إن كان الأمر متعلقاً بجريمتي القتل في الليلة الماضية.

- ألو. كيف يمكنني مساعدتك؟

- مرحباً حضرة الضابط. أنا إردينك من فيراي.

هذا صحيح. كنت أتناول العشاء مع إفجينيا حيث نلتقي دائماً في اليوم الأول من

السنة، ليس في تاتافلا وإنما في مكان مختلف كل مرة، إذ لا يمكن لأيٍّ منا الاستمتاع أو مقابلة الآخر في ليلة رأس السنة، لذا فقد كنا نحتفل بعد الجميع بيوم حتى أصبح الأمر عادة بالنسبة إلينا. ماذا يمكننا أن نفعل؟ في الواقع كنت قد نسيت أنني سألتقيها. فقد اتصلت بإردينك قبل أسبوع لحجز طاولة، لكن ما حصل معي منذ الليلة الماضية أنساني كل شيء. لو لم يتصل إردينك فإن اتصال إفجينيا كان سيأتي بعد قليل... بل من الغريب أنها لم تتصل بعد. أهي غاضبة لعدم سماعها شيئاً مني؟ كان يجب عليّ التصرف على نحو أسرع وإخبارها أنني حجزت مكاناً، لكنني أردت تأكيد الأمر أولاً.

- لقد رتبت لنا مكاناً يا إردينك؟ لقد حصلت لنا على النافذة الناتئة... صحيح؟
- بالطبع حضرة الضابط... كما طلبت بالضبط. كما رتبت للتدفئة أيضاً.
- هذا عظيم. شكراً! الأمر مهم لأن إفجينيا تشعر بالبرد دائماً.
- لا تقلق. سيكون دافئاً ومريحاً، وستتمكن إفجينيا هانم من الاستمتاع بسحر النافذة الناتئة.

كانت النافذة الناتئة المعلّقة أفضل مكان في فيراي ميهان حيث يقع شارع الاستقلال كلّه تحتك ويمر الناس عبر الأضواء المنبعثة من واجهات المحلات... أناس من المدينة والريف ومن أنحاء العالم كافة... كل ليلة دون استثناء... يمشون بأعداد متزايدة في هذا الشارع الأكثر ازدحاماً في العالم... من كل الأعراق وكل الألوان... رجال ونساء... يمسك بعضهم بأيدي بعض... من كل الثقافات... معظمهم ثملون ويرتدون ملابس أنيقة... بعضهم شبه عراة... وآخرون يغطون رؤوسهم. كان معظمهم سعداء وبعضهم غاضبين وأحياناً غارقين في التفكير... أحياناً تردد المجموعات أناشيد كرة القدم وأحياناً تتظاهر ضد الحكومة... أحياناً يملؤهم الأمل... أحياناً يحزنهم الهجر... أحياناً يتبادلون القُبل... أحياناً يتشاجرون... كل الحالات الإنسانية ستمر أمام أعيننا. يمكنك أن تجلس هنا كل ليلة من الأسبوع وتشاهد الناس يمرون دون أن تمل من المشهد. لهذا اخترت هذا المكان لتتمكّن إفجينيا من رؤية هذا النهر الملوّن من الأشخاص.

قلت لإردينك الذي كان لا يزال ينتظر على الخط:

- شكراً جزيلاً. سنكون هناك حوالى الساعة الثامنة.
- نحن بانتظارك حضرة الضابط.

لم أعد الهاتف إلى جيبي بعد إغلاق الخط فقد كان عليَّ الاتصال بإفجينيا مباشرة. أوقفت السيارة، وقبل أن أتمكّن من الاتصال بدأ هاتفي بالرنين مجدّداً. ربما يكون إردينك نسي شيئاً... لا... كانت تلك عالمة الجرائم.

- نعم يا زينب؟
- مرحباً حضرة الضابط. أنا في منزل الضحية... إنجين آكا في تارلاباسي في مبنى الشقق في شارع كادين سيكمازي، لكننا لم نعلم بعد أين يقيم طارق سيبيركي. فقد ترك الشقة في أتاسيهير التي استأجرها قبل ثلاثة شهور ولم يسجل لنفسه أي مكان إقامة آخر.

لم يكن ذلك مفاجئاً وإنما يعني أن لدى طارق حياة سرية.

- وماذا وجدتم في منزل إنجين؟ لم نقم نحن بتفتيشه بعد إطلاق النار على طارق.
- لقد وجدنا خزنة فولاذية حضرة الضابط في الطابق الثاني. إنها من النوع المثبت في الجدار وليست من النوع الكبير. لكننا لم نجد المفتاح. أتساءل إن وجدتم مع إنجين الليلة الماضية أي شيء يشبه مفتاح خزنة.

لم أتذكر أي مفاتيح فقلت:

- قد يكون في أحد أكياس الأدلة؟ هل طلبتِ منهم أن يلقوا نظرة؟
- نعم لقد بحثوا لكنهم لم يجدوا شيئاً.
- هذا يعني أنه مخبأ في مكان آخر... مكان أكثر أماناً... ربما في المبنى.
- لقد بحثنا حضرة الضابط ولم نجد شيئاً. آمل أن القاتل لم يأخذه بعد أن قتل إنجين.

ربما يكون هذا هو السبب الذي دفع تايدي طارق للذهاب إلى المنزل... للحصول على بعض الوثائق القيّمة أو النقود في الخزنة، وحين رآنا... لكن لم انتظر كل هذا الوقت؟ لقد مرت بضع ساعات بين مقتل إنجين وتوجهنا إلى المنزل في كادين سيكمازي.

- إذن فأنتم لم تجدوا مفتاح الخزنة مع تايدي طارق؟

- لا... وجدنا مفاتيح المنزل فقط.

هنا تلاشى حماسي بسرعة. فالأمر ليس كما ظننته، وطارق لم يأتِ لأجل محتويات الخزنة وإنما كان دافعه الوحيد موت إنجين... ربما يكون المفتاح مع بلاك نظام حين يقوم إنجين بالأعمال القذرة له. ينبغي أن أتكلم مع الفتيان المشرّدين فهم يعرفون كل من يتعامل معه إنجين. تذكرت فجأة ما أخبرني به كيتو عن تعويذة يحملها إنجين وفكرت أين يمكن أن يكون قد خبّأها.

قلت بعد أن عاد الاهتمام إليّ:

- أيمكنكِ أن تتذكري يا زينب؟ هل وجدتِ قلادة أو أيَّ شيء حول عنقه أو ربما في جيبه؟

- بالطبع. إنه يضع قلادة عليها مثلث فضي كبير حول رقبته طولها بوصة ونصف وربما اثنتان، وسماكتها أقل من بوصة واحدة وفي داخلها تعويذة.

- هل فتحتها وألقيتِ نظرة؟

- أوه، لا حضرة الضابط. لقد تجاهلناها. في تلك المرحلة لم نكن نعلم بأمر الخزنة. سأتصل بالمركز مباشرة وأطلب منهم التحقُّق منها. أنت محق فقد يكون المفتاح في داخل المثلث الفضي.

- هذا ممكن يا زينب. مهما يكن محتوى الخزنة فهو مهم للغاية لذلك لن يبعد مفتاح الخزنة عن ناظريه. إنني في طريقي إلى تارلاباسي. لا تغادري المبنى فأنا قادم إليك.

انطلقت وضغطت بقوة أكبر على دوّاسة البنزين فهناك خطب ما. لم أستطع تحديد ما سيحصل، لكن مع جثتين في لَيلة واحدة فلا بد أن هناك أمراً هائلاً ليتم استخدام قاتل، ثم يقوم أحد بإحراق وكر القمار... افترضت أننا وصلنا إلى حرب مافيا القمار... هؤلاء الرجال سيمزّقون بعضهم بعضاً. كنت قلقاً من عدم توقف جرائم القتل عند هذه النقطة. بدأ هاتفي بالرنين قبل أن أصل إلى مصنع كيبالي القديم للتبغ... إفجينيا! نعم لقد توقفت قبل قليل لأتصل بها لكن مكالمة زينب جعلتني أنسى أمرها فرددت على الهاتف محرجاً.

- ألو إفجينيا. كل عام وأنت بخير. آسف لأنني لم أستطع الاتصال بك الليلة

الماضية.

- وأنت بخير يا نيفزات.

وبعكس توقعاتي كان صوتها مبتهجاً.

- لا تقلق وأنا أيضاً لم أستطع الاتصال بك. لا... استطعت لكنني لم أتصل... أتذكر السنة الماضية حين اتصلت بك وكنت واقفاً إلى جانب جثة في كوكا مصطفى باشا؟ لا أريد أن أجري محادثة مشوّشة كتلك مرة أخرى. لذا فقد انتظرت حتى اليوم.

استرخيت فهي غير منزعجة.

- أنتِ محقة إفجينيا. رأس السنة هذا كان أيضاً سيئاً للغاية، لكن لا تقلقي، فلن أدخل في التفاصيل الآن. أظن أنك كنتِ منشغلة أيضاً. هل كان المطعم مزدحماً جداً؟

- للغاية. لقد كان مكتظاً. زبائن قدماء وجدد... لكن الأمر كان مرحاً فقد زارني أقاربي اليونانيون زيارة مفاجئة وجاءت ابنة عمي من أثينا... أنجيليكي مع عمتي فوفو.

كنت أسمع الاسم للمرة الأولى:

- واو... هذا عظيم. هل أنتم مقربون بعضكم من بعض؟

- كثيراً. ألم أحدّثك عنهم من قبل؟ أنجيليكي كأختي وقد وُلِدت بعد أن هاجر عمي نيكو وعمتي فوفو إلى اليونان لكنها لا تزال تعشق إسطنبول. إننا نعرف إحدانا الأخرى منذ كنا صغاراً إذ كان أبي يأخذني إلى أثينا كل سنة قبل أن يتوفى. أنجيليكي ملاك وعمتي فوفو جذابة للغاية، فهي فريدة من نوعها. إنها يا نيفزات تقارب الثمانين لكنها لا تزال كالمراهقين، ففي منتصف الليل بدأت ترقص الرقص اليوناني. أيمكنك تخيّل ذلك يا نيفزات؟

كانت الإثارة تملؤها وهي تخبرني بذلك... لا بد أنها كانت سعيدة للغاية الليلة الماضية وقد سعدت لأجلها.

- لم يكن السبب الشراب وإنما المرح هو الذي كان يثيرها. كنت معتوهة لأنني حاولت حمايتها لكنها عبست في وجهي مقطبة حاجبيها الأسودين ووبختني

قائلة: «على من تظنين أنك تلقين دروساً في الشراب؟ لقد كنت أنا وعمك نيكو نشرب في حي پيرا حتى قبل أن تولدي وكان دائماً ما يدعو حي بيه أوغلو باسمه القديم پيرا"، فصمتت وجلست. لكن شيئاً لم يحصل للعمة فوفو فقد كانت كأنها تشرب الماء. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وقفت وألقت التحية علينا وتوجهت إلى سريرها وكأن شيئاً لم يكن.

بينما كانت إفجينيا تتكلّم انتقل ابتهاجها إليّ وأحسست بأنني بحال أفضل فقد كان هناك شيء سحري في هذه المرأة... شيء يجعلك تشعر كأن العالم مكان يستحق أن تعيش فيه. يمكنني التحديق إلى عينيها الخضراوين أو الحديث معها على الهاتف دون أن أرى وجهها، لأمتلئ بالفرح وتتلاشى جميع الأفكار السوداء من رأسي لمجرد سماعي صوتها.

- وفي الصباح الباكر بينما كنت لا أزال نائمة أنا وأنجيليكي بدأت بتشغيل البواب رمزي أفندي المسكين حيث أرسلته إلى متجر البقالة واللحم لتكمل ما كان ناقصاً في المنزل، وحضّرت وجبة إفطار ملوكية... البيض المقلي وجميع أنواع الجبن والنقانق والمربّى والقشطة... كل شيء باستثناء لبن العصفور. إنها لا تأكل كثيراً لكنها تستمتع بتحضير الطعام وإطعام من حولها... تخيل ذلك يا نيفزات... إنه أمر لا يُصدّق... أليس كذلك؟
- إنه لا يُصدّق! لكنك حين تصفين وجبة الإفطار تجعلينني أشعر بالجوع. كيف يمكنني الانتظار حتى الساعة الثامنة؟

خيم صمت قصير فقد صمتت إفجينيا فجأة ثم قالت:

- نيفزات...
- نعم إفجينيا. ما الأمر؟
- ممم... أردت أن أسأل. هل ستنزعج إن أجلنا عشاءنا الليلة؟

وفهمت الموضوع. فقد كانت ترغب بتخصيص الليلة لضيفيها وينبغي أن أسعد لذلك، فلديّ تحقيق صعب، وعلي ينتظرني في نادي تارلاباسي وزينب في منزل الضحية، وكنت أشك أنني سأصل إلى فيراي في الموعد المحدد؛ ومع ذلك فقد أحسست بشعور غريب... لم أكن مدركاً لذلك من قبل، لكن هذا العشاء كان

مهماً للغاية بالنسبة إليّ... ليس العشاء بحد ذاته وإنما رؤية إفجينيا إذ مضى أسبوع على آخر مرة رأيتها فيها. كنا قد اتفقنا على اللقاء في تاتافلا يوم الإثنين، ولكن كانت لديّ بعض الوثائق لأرسلها إلى المحكمة، تتضمّن قضية امرأة أمريكية تم العثور على جثتها في سراي بورنو، ولم أستطع الذهاب إلى المطعم. فجأة أدركت كم أنا مشتاق لإفجينيا... لرائحة الخزامى... للدفء... للنور الغريب الذي يظهر في عينيها حين تنظر إليّ. لم أعد أريد مزيداً من التحقيقات الجنائية... ولا مزيداً من الأصدقاء الذين ينتظرونني... كل شيء اختفى. فكرت أن أقول لها لا بأس ويمكننا ألا نلتقي هذا المساء لكن دعيني آتي وأراكِ لدقيقة فقط... دعيني أمسك بك لدقيقة فقط... وأتنشق رائحتك... لكنني غيّرت رأيي. فإفجينيا الآن مع أقاربها واللقاء الذي أتخيّله لن يتم إطلاقاً أمامهم... لا... ليس لديّ أي حقّ لأشعر هكذا.

حاولت أن أجعل صوتي يبدو غير مكترث وأنا أقول:

– ولماذا أنزعج يا حبيبتي؟ لديك ضيوف من أثينا. يمكننا اللقاء فيما بعد.

وخيّم صمت آخر.

– لكن صوتك يقول غير ذلك. لسنا مضطّرين لتأجيل الأمر إن كنت لا ترغب في ذلك، فأنا لست مضطرة للذهاب معهما لأنهما ذاهبان إلى مطعم تملكه صديقة الطفولة لعمتي فوفو، وقد أصرت أن أذهب أيضاً. لكن يمكنني التملّص من الذهاب فهو ليس ضرورياً للغاية. أنت تعلم أنني لن أفكر أبداً في إزعاجك.

– ولماذا أنزعج يا إفجينيا؟ سنلتقي غداً أو في وقت آخر، فأمامنا متسع من الوقت. يمكنك الاهتمام بضيفيكِ بضمير مرتاح.

لكن كلماتي لم ترحها فقد قالت بنبرة تملؤها خيبة الأمل:

– هل أنت واثق من ذلك؟

– نعم. سأذهب لتناول العشاء مع الأطفال، فقد كنت أفكر بأخذهم في نزهة.

لم يصدر أي صوت من الطرف الآخر من الخط.

– أنا أعني ذلك يا إفجينيا. الأمر ليس مشكلة بالنسبة إليّ. إن كنتِ سعيدة فأنا سعيد. مفهوم؟

– مفهوم. شكراً يا نيفزات على تفهُّمك.

- استمتعي بوقتك يا إفجينيا. سنتكلم لاحقاً.
- إلى اللقاء يا نيفزات.

بعد أن أغلقت الخط انتشر الحزن في داخلي وخيّم عليّ إحساس بالهجران، كما لو أن الشمس المنعكسة على المياه تنطفئ وزرقة السماء تقتم... يا له من ليل يخيّم على المدينة بسرعة كبيرة!

أنا معروف في أرجاء بيه أوغلو باسم فلي نيسمي



لم تكن هناك أي دلائل على ارتكاب جريمة في هذا الشارع الليلة الماضية، فقد غسل ماءُ الثلج الذائب الدمَ من أمام نادي تارلاباسي، فلم تبقَ ولا بقعة صغيرة على الأرض، وباستثناء عامل يوبّخ مساعده المسكين وهما يغيّران نافذة النادي يمكن القول إن الهدوء يخيّم على المكان؛ فقد بدا الشارع في ضوء النهار متداعياً وأبنيته متصدعة. كنت قد قرأت مرة أن الليل ثوب مخمليّ أسود يستر عيوب المدن القديمة، لكنني لم أتذكّر الكتاب أو المؤلف... كانت ذاكرتي مرهقة ومهترئة كهذه الشوارع. بدا المبنى الذي يقع فيه نادي تارلاباسي أسوأ في ضوء النهار أيضاً، فقد كان طلاء الجدران البني متشققاً وحجارة الطوب تحته جرداء، كما تساقطت أجزاء من إطارات النوافذ الضيقة. وكانت هناك قطع رخامية على الجدار إلى يسار مدخل هذا المبنى الذي كان له مجد غابر، وكان مطلياً باللون الأبيض لكن الأحرف اليونانية لا تزال واضحة وهي تظهر اسم المعماري اليوناني: فاسيلاكي كيليانتيس. كانت الشقة متداعية، وباستثناء النافذتين المكسورتين على أرض نادي تارلاباسي لم يكن هناك أي دليل يوحي باندلاع حريق هنا. فاحت رائحة حريق لاذعة وأنا أدخل عبر الباب الحديدي الضخم، زادتها رائحة التعفّن الثقيلة سوءاً. أكملت عبر الممر تحت الأنوار الساطعة حتى وصلت إلى سلّم رخامي عليه سجادة خمرية بدأت تهترئ من أطرافها، لكنني أشك أن يكون أولئك الذين يأتون ليقامروا

يلاحظون ذلك... من يعبأ بتاريخ هذه المدينة ليقوم المقامرون بمحاولة حماية هذه الأبنية الثمينة؟ وكان الأسوأ منها الباب الفولاذي الأحمر في آخر السلّم. لو أن المعماري رآه لعاد المسكين إلى قبره. ما إن ترى عيناك هذه الكومة المعدنية حتى تدرك أنك لست في مكان آمن، ولم تكن هذه مشكلة للزبائن لأن كل من يدق هذا الباب يُعرف لماذا هو هنا. ضغطت على زر الجرس لتصدح تغريدة عصفور... جرس بصوت عصفور... في وكر قمار؟ ولِمَ لا؟ ظهر ظل من وراء الباب ثم قال صوت أجش:

- من هنا؟
- الضابط المحقّق نيفزات.

لا مزيد من الأسئلة وإنما صوت فوري لقفل ثم فتح الباب... إذن كانوا يتوقّعون حضورنا. عند فتح الباب تزايدت رائحة الاحتراق ثم قال الصوت الأجش:

- أهلاً حضرة الضابط. لقد كنا بانتظارك.

ما هذا؟ كنت أتوقّع رؤية رجل ضخم، لكن كان يقف أمامي رجل لا يزيد طوله على المتر والنصف بدون شعر أو لحية وإنما رأس لامع وشارب طويل وحاجبان كثيفان. لكن جسده كان متناسقاً ومنكباه عريضين، وكان يقف أمامي دون أي انزعاج. كنت أكبت نوبة ضحك إلا أن القزم ذا الشارب الطويل كان جدياً للغاية.

- تفضّل حضرة الضابط. سآخذك إلى مكتب السيد إحسان.

عبرنا الردهة بأضوائها الزرقاء إلى غرفة بسقف مرتفع. كانت الغرفة تضيق بقطع الجص من الأقواس وطبقات الأسقف المستعارة، وكان الجدار الوحيد الذي لا توجد عليه أي صور مخصّصاً لرفوف المشروبات حيث تصطف زجاجات ملونة تحوي كل الأنواع وكان هناك كأسان على المنضدة ربما حاولوا إضرام النار فيهما. كان هناك ثلاثة رجال يجلسون على المقاعد المرتفعة أمام المنضدة، وقد وقفوا احتراماً حين رأونا، وبإشارة من يد مرافقي عادوا إلى أماكنهم. كيف يمكن لهؤلاء الرجال الضخام أن يعملوا لحساب رئيس قصير كهذا الذي بجانبي؟ بدا لي أن الأفضل هو احترام صديقي الذي يبدو أطول بقليل من أكبر الأقزام السبعة. في المساحة الواسعة بين النافذتين المكسورتين والرجال الضخام كانت هناك ست

طاولات مغطاة بأغطية خضراء، وكانت الطاولة الوحيدة التي لا يوجد عليها غطاء هي الطاولة الموجودة بالقرب من النافذة إلى اليسار. حين نظرت عن كثب رأيت الغطاء الأخضر شبه محترق وملقى على الأرض.

تمتمت:

- أظن أنه لا يوجد كثير من الأضرار. كنت أتوقع أن الوضع أسوأ.

تفحّص الغرفة كأنه يراها للمرة الأولى وقال:

- لقد حمانا الله حضرة الضابط.
- أظن أن أحداً ما قد أُصيب؟
- نعم. نظيف أفندي. إنه يعتني بالمطبخ وكان يقوم بأعمال التنظيف في الداخل... لولاه لانتشر الحريق، فحين دخل لإخماده أحرق يديه، فحرائق البنزين لا تُخمد بسهولة لكن إصابته ليست خطرة حتى أن الأطباء لم يبقوه في المستشفى وقالوا إنه سيتحسّن خلال بضعة أسابيع.

بينما كان الحارس الشخصي يتكلم كانت عيناي تجولان على الزجاج أمام النافذة. كان هناك عامل بشعر بنيٍّ لم ينتبه لدخولنا، وكان يضع المعجون حول إطار النافذة وهو يشتم مساعده في الوقت نفسه.

- لو لم آتِ في الوقت المناسب لتهاوى هذا الزجاج الضخم. ماذا عساي أفعل بك؟ ماذا سيقول المدير؟ لقد قلت لك كيف يجني الرجل نقوده. ماذا لو كان هناك أحد ما يسير ووقع الزجاج على رأسه؟ سيلقون بنا في السجن، ولن يحصل لك شيء لأنك صغير وإنما أنا من سيقع في ورطة...

كان الصانع بالكاد يبلغ الرابعة عشرة من العمر، وجهه شاحب لكن عينيه عصبيتان، وكان يبعد رأسه خوفاً من أي لكمة مفاجئة.

- انظر إلى هذا أيها الأحمق. ألديك الجرأة لتحملق بي؟

أبعد المساعد رأسه للخلف متفادياً لكمة، بينما بقيت يد العامل مرفوعة في الهواء كأنه يفكر إن كان عليه صفعه أم لا.

قال مرافقي:

- هذا يكفي. أنت لم تسكت منذ أتيتَ إلى هنا وحتى بعد أن وصل حضرة

الضابط، وهذا شيء معيب. لقد حل المساء ولم تنتهِ بعد.

خفض العامل رأسه واحمر وجهه:

- حسناً يا أخي لكن...
- لا تقل شيئاً فهذا يكفي. كفاك توبيخاً للصبي، فالزجاج لم يسقط ومثل هذه الأمور تحدث. هيا أصلحه ثم امضِ في طريقك.

وجّه العامل إلى مساعده نظرة حاقدة كأنه يقول: "انظر ماذا حصل لي بسببك». ثم تنهد بعمق وبدأ العمل على الزجاج.

قال القزم ذو الشارب الطويل:

- آسف حضرة الضابط فهو لا يعرف من يدخل ويخرج.
- لا عليك. ما اسمك؟
- نيسمي. لم أكن في الحي حين كنتَ هنا لكنك قد تكون سمعت عني؟ أنا معروف في أرجاء بيه أوغلو باسم فلي نيسمي، وأعرف كمال بيك جيداً فقد علمني. أعني أنك إذا احتجت إلى مرجعٍ فيمكنك سؤاله حضرة الضابط.

وظهرت على وجهه ابتسامة رضا عن اسمه.

ردّدت:

- فلي نيسمي؟ فلي نيسمي... لا أذكره. ذلك يعني أنه ليست لديك أي سوابق.

على الرغم من أنه حاول عدم إظهار ذلك لكن ابتسامته تلاشت، كما لو أنني شوّهت سمعته. ومع ذلك فقد قال ما عليه قوله.

- لا سمح الله حضرة الضابط. أي سوابق؟ إننا نحاول أن نكسب لقمة عيشنا هنا فحسب.

كان فلي نيسمي يتكلم بثقة كشخص ليس لديه ما يخفيه، وكأنه واثق من أنني لن أؤذيه. هل ظن أنني واحد من رجال الشرطة الذي يقبلون رشوة؟ ربما أخبره دايس إحسان ألاّ يقلق، وأن كمال قد تكلم معي، وأن كل شيء على ما يُرام... سأرى. فإن كان هذا ما يظنه يمكنني استغلال سوء الفهم هذا.

- أكنتَ هنا الليلة الماضية يا نيسمي؟

توقّف. بالطبع كان هنا، لكن ما المفترض به أن يقول؟

- آسف حضرة الضابط. لم أفهم.
- هل كنتَ هنا الليلة الماضية؟

وتوقَفت عن المشي لأشير له أنني سأبقى واقفاً حتى يجيب:
- إنكم تفتحون حتى وقت متأخّر.

تلألأت عيناه السوداوان.
- أنت تعلم أن شخصاً ما قُتِل خارج النادي؟
- نعم. لقد حصل الأمر بعد أن أغلقنا.
- في أي وقت أغلقتم؟
- في السنة الجديدة أي بعد منتصف الليل. أظن في حوالى الواحدة والنصف.
- هل أنت من أغلق النادي؟
- نعم، لكنني لم أرَ أيّ جثة أو أيّ شيء في الشارع. لقد قتلوا إنجين بعد أن غادرنا.

كنت آخذه إلى حيث أريد.
- إذن أنت تعرف القتيل.

تغيّرت ملامحه كما لو أنه يتصوّر شيئاً قذراً.
- الجميع هنا يعرفه، لكنه لم يكن صديقاً طيباً وإنما مجرد منحرف رخيص.

فكرت إن كان إنجين قد آذى هذا الرجل القصير أيضاً.
- هل عبث مع حبيبتك أيضاً؟

توقّعته أن يغضب لكنه ضحك بهدوء كما لو أنني طرحت موضوعاً مسلياً.
- الناس من نوعه يعرفون مع من يمكنهم العبث ومع من لا يمكنهم، يا حضرة الضابط. ما كان ليعيش حتى البارحة لو أنه اقترف مثل هذا الخطأ.

كان من الصعب معرفة إن كان جاداً أو أنه يتبجّح فاستمررت بالضغط.
- لا تبدو حزيناً على موته؟
- لن أكذب لمجرد أنه ميت يا حضرة الضابط. بالطبع لن أذهب وأهنئ القاتل، لكن إنجين لم يكن محبوباً هنا.
- وقد تقاتلتم على ما أظن.

- لقد كان رجلاً فاسداً يا حضرة الضابط، ويتردد على أماكن منحطّة أخلاقياً، وفي تلك الحالة يمكن للمرء أن يواجه جميع أنواع المشاكل. كان بقاؤه مع بلاك نظام مشكلة بحد ذاتها على الرغم من وجود جانب جيد في الأمر، إذ يمكن للجميع أن يروا من هو. وفي كل الأحوال توقفنا بعد ذلك عن التعامل معه.
- وما كان نوع ذلك التعامل بالضبط؟ القمار؟!

تلاشى الصدق في تعابير وجهه كما تهشمت نافذة وكر القمار حين ضربتها قنبلة المولوتوف. كان يفكر كم هو مخطئ بشأني، أو إن كان دايس إحسان قد زوّده بمعلومات خاطئة لكنه استعاد توازنه بسرعة.

- لا يا حضرة الضابط. أيّ قمار؟ هذا نادٍ يتردّد عليه الرجال والنساء والعائلات بأكملها ليلعبوا الورق لمجرد التسلية لكن دون أي رهان، فنحن لا نسمح بذلك. وحتى لو حاولنا فلن يسمح لنا زملاؤك بالتنفس.
- وبالنسبة لحادثة قنبلة المولوتوف؟ من سيرغب بإحراق وكر التسلية البريء هذا؟

لاحت ابتسامة عريضة على فمه الواسع وقال:

- وكيف لي أن أعلم يا حضرة الضابط؟ هذه بيه أوغلو... سرير الشيطان ومائدة الجن. قبل يومين في هذا الشارع، ضُرِب رجل ضرباً مبرّحاً ودخل المستشفى من أجل عشرين ليرة. يمكنك العثور هنا على جميع أنواع المنحرفين نفسياً... قد نكون منعنا أحد الأنذال من الدخول فأخذ الأمر على محمل شخصي ورمى القنبلة.

وأومأ إلى النور الأحمر في الممر المظلم.

- سآخذك إلى السيد إحسان الآن فقد يكون يعرف من الذي رماها. إنه ينتظرك مع المحقّق علي.

بلاك نظام يشتري تارلاباسي بناء تلو آخر



في الممر الضيق المضاء بنور أحمر باهت كانت هناك ثلاثة أبواب بنية فاتحة. كان الباب في الطرف الأيسر مفتوحاً على مصراعيه ليبدو المطبخ بتجهيزاته البيضاء، أما الباب المقابل له فقد كان مغلقاً بالكامل كما لو أن فيه كنزاً وربما كان مقفلاً؛ في حين كان الباب في نهاية الممر موارباً قليلاً ليتسرب منه نور أزرق اللون على شكل زاوية طويلة ورفيعة. ما إن خطوت على طرف هذه البقعة الزرقاء حتى سمعت صوت مساعدي.

- لم يستطع أن يرى؟ النوافذ كبيرة كالحمار، وكل ما عليك أن تمد رأسك لتجد الشارع أمام عينيك.

كان علي متأهباً من جديد.

- لم يستطع النظر إلى الخارج يا حضرة المحقق فالرجل كبير في السن.

كان صوت المتحدث لطيفاً كأنه يريد تسوية الأمور دون أي مشاكل... لا بد أنه يعرف القاعدة الذهبية التي يلتزم بها جميع الموجودين في العالم السفلي: مهما فعلت لا تترك نفسك في الصف المعاكس للشرطة.

- لقد أخبرتك أنه كان يحاول إطفاء الحريق في تلك اللحظة، ولم يخطر بباله حتى أن ينظر إلى الخارج. المسكين لا يعرف كيف بدأ الحريق فقد كان يظن أن غطاء الطاولة اشتعل من عقب سيجارة وقعت خارج منفضة السجائر... لقد كان مذعوراً للغاية.

- حسناً. ماذا تقول إذن؟ من الذي فعل هذا؟

حين طرقت أصابع فلي نيسمي على الباب أجل الإجابة التي كان علي ينتظرها.

قال بلطف:

- تفضّل.

فتح نيسمي الباب وتنحّى جانباً باحترام لأخطو إلى وسط الضوء الأزرق حيث بدا لي الأمر كأني أدخل إلى نادٍ ليلي لا إلى مكتب، وما إن رآني علي حتى وقف على قدميه، وبعد لحظة من الحيرة فهم الرجل الجالس مقابلي سبب تصرف مساعدي فارتسمت ابتسامة مبالغ فيها على وجهه.

قال وهو يمد يده:

- إحسان. إنه لشرف لي حضرة المحقّق.

كان شعره البنيّ الغزير قد بدأ يغزوه الشيب حول صدغيه، وعيناه بلون القرفة تحت حاجبين رفيعين. كان وسيماً كإنجين مع أنني لم أكن قد تخيّلته بهذه الصورة... لا تسألوني كيف تخيّلته لأنني لا أستطيع تحديد ذلك، لكن ليس هكذا.

قلت وأنا أصافح اليد الممدودة الناعمة كيد امرأة:

- أهلاً يا إحسان. لديك مكان جميل هنا.

أسعدته كلماتي وتلألأتِ عيناه بالرضى.

- شكراً لك حضرة الضابط.

نظرت إليه لأسأله لم يشكرني لكنه لم ينظر إليّ وإنما أومأ ببشاشة إلى مقعد جلدي وراء طاولة مكتب خشبية.

- تفضّل حضرة الضابط... تفضّل بالجلوس هنا.

كان يرتدي بذلة بنيّة داكنة ويضع ربطة عنق قصيرة ملفوفة حول قبة قميص أصفر فاتح بحيث بدا كمندوب مبيعات أكثر منه مالك نادٍ، وكان هناك وراء المكتب الذي أشار إليه صورة كبيرة لفتت انتباهي... كلبة ضخمة بنيّة اللون مع خمسة جراء صغيرة متجمعة حولها لترضع منها. كان الصفاء على وجه الكلبة بوجنتيها المتهدلتين وعينيها تستحقان الرؤية... أعجبتني الصورة لكن ذلك لا يعني أنني سأجلس حيث أشار إحسان.

قلت وأنا أؤدي دور رجل الشرطة المتفهّم:

- هذا مكانك. سأجلس مقابل علي.
- لا يمكن أن أسمح لك بذلك.

لكنني تجاهلته وجلست حيث أريد فاضطر للتنازل.

- حسناً حضرة الضابط... كما تشاء.

وقبل أن يعود إلى مقعده الجلدي أسود اللون الأكبر بقليل من مقعدينا سألنا:

- ماذا تشربان؟ إن كنتما جائعين يمكنني طلب الطعام.
- لا شكراً لقد أكلت للتو كما شربت القهوة قبل مغادرة المنزل.
- كما ترغب حضرة الضابط.

والتفت إلى علي:

- وماذا عنك؟ أما زلت مصراً ألاّ أحضر لك شيئاً؟

تمتم صديقي:

- لقد تناولت كفايتي من الشاي والقهوة اليوم.

التفت إحسان إلى هرقل الصغير الحجم الواقف أمام الباب المفتوح وقال:

- لا أريد أن يقاطعنا أحد يا نيسمي.
- بالتأكيد يا سيد إحسان.

وحين خرج نيسمي نظرت إلى مساعدي الذي بدا ككتلة من الأعصاب وكأنه لم ينسَ بعد أحداث الليلة فقلت:

- كيف الحال؟

استجمع قواه على الفور وقال:

- بخير حضرة الضابط.

لا، لم يكن يحاول إخفاء الأمر وإنما تمكن من تجاوز الصدمة وإلا لما ابتسم هكذا.

قلت بتعاطف:

- عظيم. يبدو أن الراحة قد أفادتك.

اتسعت ابتسامته لتملأ وجهه:

- شكراً حضرة الضابط.

نظرت مجدّداً إلى الصورة التي على الجدار حيث استمرت الكلبة بإرضاع جرائها.

- إنها موالا. إنها تنجب جراءً كل عام... إنها جراء أصيلة. يمكننا إعطاؤك أحدها إن كنتَ مهتماً.
- إذن أنتَ تحب الكلاب.

استرخى وهو يمد ذراعيه على الطاولة:

- أعشقها حضرة الضابط. إنها حيوانات وفية.

انسابت الكلمات برقة من شفتيه كما لو أنه يداعب الكلبة في الصورة. لكن ذكرياته انقطعت حين تدخل علي البليد قائلاً:

- إذن سيليم ليست وفية بما فيه الكفاية؟

جفل إحسان كأنه تلقّى صفعة على وجهه لكن الأمر لم يطل فقد استعاد توازنه وسأل:

- وما علاقة الأمر بسيليم؟
- ماذا تظن؟ لقد قتل الرجل خارج ناديك... أقصد إنجين. وكانت سيليم حبيبته السابقة.

لم يكن يكترث بموت إنجين لكنه لمجرد سماع اسم سيليم انزعج. ارتعش جسده وحارت عيناه.

- ليست سيليم... هاسر... نعم اسمها الحقيقي هاسر. كان والدها يعمل معنا... ماشيت راغب. كان ذلك قبل عشر سنوات... لقد كان اليد اليمنى لأبي رحمه الله، وكان يعتني بكل شيء. لكنه قبل ثلاث سنوات شارك في شجار في الشارع وتم إطلاق النار على ظهره لينتهي به المطاف مشلولاً، ومنذ ذلك الحين لم يغادر راغب سريره... لديه ثلاثة أطفال... سيليم وأخواها. لقد قدمت له أنا ووالدي كل الدعم الممكن وهكذا التقيت بسيليم حيث عملت لديّ كسكرتيرة فقد كانت فتاة ذكية. لكن شيئاً فظيعاً قد حدث... هنا... نعم هنا في هذه الغرفة... تم العثور على مسدس في هذا الدولاب هنا، وبالطبع تحملت اللوم بشأنه، لكن كانت لدي مسبقاً قضية قديمة. لذا فقد تم اعتقالي لامتلاك سلاح

ناري غير مرخّص. وهنا قام ذلك التافه إنجين بإغواء الفتاة إذ إنه كان خبيراً في ذلك، وحين خرجت من السجن تم شرح الوضع لي فأرسلت لها الدعم.

أصبح عاطفياً... هل من الممكن أنه لا يزال يحبها؟ حتى إن كان الأمر كذلك فإن مساعدي عديم الصبر. لم يكن يريد شيئاً سوى حل جريمة القتل بأسرع ما يمكن ولم يكن في مزاج يسمح له باحترام الحب السابق.

– ليس هذا ما سمعناه. فقد سمعنا أن سيليم ذهبت إلى نظام بملء إرادتها وأنها تركتك.

جرحت الكلمات كبرياء إحسان المجروح مسبقاً.

– هذه كذبة! لقد تخلّصتُ من سيليم لأنها كانت تتجسس عليّ لصالح إنجين. أظن أنهما كانا يلتقيان قبل أن أدخل السجن وقد تكون لها يد في قضية السلاح غير المرخص تلك. هل أنا غبي لدرجة أن أسمح باكتشاف مسدس غير مرخّص في ناديّ... في طاولة مكتبي؟

سأل علي وهو يتفحص مالك النادي بعينين شبه ساخرتين:

– فضربتَ الفتاة؟

– لا... لست أنت.

– لنكن عادلين، فأنت لا تبدو من النوع الذي يضرب الفتيات الجميلات. هل قام مساعدك القزم بذلك؟ أعني صاحب الرأس الأجرد الذي كان هنا للتو؟

ظننت أنه سينكر الأمر، لكنه لم يفعل. وإنما قال بصوت يملؤه الندم:

– كان ذلك خطأً. لقد شعرت بالأسف الشديد بعد ذلك. أنا لا أقول هذا لأبرئ نفسي لكن ما حصل قد حصل ولنسمِّها لحظة غضب.

وبالطبع لم يفوت علي الفرصة على نفسه.

– ماذا لو أن أولئك الأوغاد في الغرفة الأخرى استجابوا للحظة غضب وقاموا بقتل إنجين؟ أليس ذلك ممكناً؟ إذا كان الرؤساء لا يمكنهم السيطرة على أنفسهم ويضربون فتاة شابة، فليس من المستغرب ألاّ يجدوا حرجاً في إرسال أي شخص يعتبرونه عدواً إلى العالم الآخر؟

سحب إحسان يديه عن الطاولة كأنه لمس موقداً حاراً.

- لا لم يفعلوا أي شيء من هذا القبيل ولو فعلوا لعلمت بالأمر.

وحين لاحظ نظراتنا المليئة بالريبة أكمل:

- هل تشكان بي؟ بالله عليكما لماذا أقتل إنجين؟

لوّح علي بيده اليمنى بحيوية:

- أووه. أتبحث عن سبب؟ هناك كثير من الأسباب. كان إنجين رجل بلاك نظام، وبلاك نظام غريمك أليس كذلك؟

هنا انضممت إلى مساعدي وسألت:

- صحيح. ما الذي بينك وبين بلاك نظام؟ كانت علاقتكما جيدة في البداية فكيف تدهورت الأمور بينكما؟

لم يجبني على الفور، وإنما اتكأ إلى الخلف على كرسيه وبدت على وجهه علامات الخيبة.

- كان نظام صديق والدي حضرة الضابط، ولم أكن أعرفه جيداً بصراحة لكنه وقف بجانبي. كان نادينا في طارابيا في أيام والدي، وحين تدهور عملنا قبل أربع سنوات جئنا إلى هنا. لن أنكر الأمر فنظام هو من وجد لنا هذا المكان وكان يقول لي: "كان أبوك رجلاً صالحاً وأنت مثل ابن أخي وغير ذلك من الترهات". لكن لم يكن من الممكن لي أن أحكم على كتاب من غلافه إذ كانت حسابات الرجل ونواياه مختلفة، فحين انتعش عملي طلب مني أن يصبح شريكاً لكنني لم أقبل إذ لا يمكن لبطلين أن يجتمعا في ساحة واحدة. كما أن طمع نظام معروف، فهو يريد كل شيء لنفسه وإذا تحققتم من سجلّه ستعرفوا ذلك... من القتل، إلى السرقة، إلى امتلاك الأراضي المشبوهة، إلى المخدرات... ما من عمل قذر إلا وقد ساهم فيه. أنا أمقت المخدّرات... أمقت من يتعاطاها ومن يتاجر بها، وفي كل الأحوال حضرة الضابط حين رفضت انفتحت أبواب الجحيم... التهديد... الضرب... إطلاق النار خارج النادي... وحين لم يجد أي شيء نفعاً معه قام بفتح نادي تارلاباسي الأصيل وسلم إدارته لإنجين.

قال مساعدي:

- فقمتم بقتل إنجين.

حدق دايس إليه بعينين يملؤهما التلميح:

- لِمَ لا تظن أن الأمر بالعكس؟ ماذا لو أن بلاك نظام هو من قتله؟
- ولِمَ قد يفعل ذلك؟ لِمَ قد يرغب بالتخلّص من رجله؟

نظر إليّ كما لو أنني لم أفهم بعد.

- لأن إنجين كان يضع عينه على مكان نظام... نعم... كان يريد أن يصبح الرئيس... كانت تلك نواياه... أن يكون الرأس الأكبر. كان نظام هدفه وليس أنا، ولهذا نصب شركاً لسيليم أيضاً... لكي يوقع بيننا... لأصطدم أنا ونظام وتخلو له الساحة.

قلت باستهزاء:

- لكن نظام كشفه ولهذا قتله. أهذا ما تحاول قوله؟

لم يلاحظ التلميح في صوتي فقد كان منفعلاً للغاية.

- نعم بالضبط، لقد قام الوغد بقتل رجله محاولاً إلصاق التهمة بي. من هو إنجين بالنسبة إليّ؟ إنه ليس عدوي والشجار معه خارج إطار تفكيري.
- ومع ذلك يقول الجميع إنكما تشاجرتما قبل حوالى أسبوعين. هناك شهود على ذلك.

ضاقت عيناه البنيّتان، وبينما كان يفكر فيما سيقول استفزّه علي.

- ليس شجاراً حضرة الضابط وإنما قام صديقنا هنا بضرب إنجين ضرباً مبرِّحاً. هل هذه كذبة؟ في الواقع كان معك شخص آخر من رجالك.

قطّب حاجبيه وارتعشت ذقنه غضباً.

- أولاً لم يضرب أحد أحداً فقد كان هناك آخرون معي أنا وإنجين. ما كان ينبغي أن يحصل ذلك لكنه حصل حيث ضرب بعضنا بعضاً. لقد كنا مالكي نوادٍ لسنوات عدة ونعرف كيف نحمي أنفسنا.

وأخيراً بدأ زعيم المافيا يظهر من تحت الكلمات المعسولة والبذلة الأنيقة، حيث أخذ نفساً عميقاً وحاول أن يهدأ. لكنه لم يفلح فحوّل نظراته الغاضبة إليّ.

- ألم يتصل بك كمال حضرة الضابط؟
- بلى. صحيح... من أين تعرف كمال؟

أحس بالراحة قليلاً لاهتمامي بالرجل الذي يدعمه.

- لقد كان كمال صديق والدي وجزءاً من طفولتي.

قلت محاولاً ألاّ أسمح له بالراحة كثيراً:

- يبدو أن الجميع أصدقاء والدك. ماذا كان اسم والدك؟

- عثمان.

وحين لم يرَ على وجهي أي علامة أنني عرفته أكمل.

- معروف باسم دايس عثمان.

لم يذكرني الاسم بشيء لكن علي بدأ يضحك.

- دايس إحسان ابن دايس عثمان. إذن أنت الجيل الثاني في تجارة القمار؟ أو الجيل الثالث؟ أكان هناك جيل آخر قبل والدك؟ لنقل دايس سلمان؟ حقّاً هل لديك جدّ كان يعمل في تجارة القمار؟

احمر وجه إحسان وقال:

- أنت مضحك أيها المحقّق علي. سأخبرك شيئاً آخر على الرغم من أنك لن تصدقه أيضاً لكنني لم ألمس حجر نرد في حياتي... هذه هي الحقيقة المطلقة حضرة الضابط. اسأل كمال إن كنتَ لا تصدقني... لا حجر النرد ولا ورق اللعب...

كان الرجل ينظر إلى عينيّ ويكذب وهو يعرف جيداً أننا ندرك كذبه. لقد كان وقحاً بشكل لا يُصدّق ولا يرى أيّ مشكلة في الاستمرار بالكذب.

اكتفى علي وتهيأ لقول شيء لكن إحسان أكمل:

- حسناً. أعترف أن أبي كان مقامراً حضرة الضابط وكان يحب حجر النرد ويقول إنه لا يمكنه العيش بدونه... لن تصدّقا كم خسر من الشقق والأراضي على طاولة القمار. كانت أمي المسكينة تبكي بحرقة وهذا ما أدّى بي إلى رد فعلٍ معاكسٍ حيث أقسمت لها أنني لن أقامر على الإطلاق. والحمد لله أني لم أفعل حتى هذا اليوم.

لم يعد هناك أي أثر للرجل العصبيّ الذي كان من قبل، وإنما حلّ محله شخص مخادع؛ لكن المضحك في الأمر هو أنه صدق كذبته. وعلى الرغم من جريمة القتل خارج ناديه، والهجوم بقنبلة المولوتوف، فإنه استطاع أن ينهي يومه

بسلام حين صدمه علي بحقيقة أخرى.

- ربما لم تجلس على الطاولة لكنك أجلست غيرك عليها؟

بلع إحسان ريقه مجدّداً... في كل مرة يفتح فيها علي فمه كان الدم يندفع إلى رأس إحسان. لكن الحق يُقال إنه كان يكافح بقوة لئلا يظهر ذلك.

- ماذا حضرة الضابط؟ لا أفهم.
- أنت تعرف تماماً ما أعنيه. أنت لا تلعب لكنك تدفع الآخرين للعب.

ضحك إحسان ليخفي حنقه.

- اسمعني حضرة الضابط. أنت تنظر إلى الأمر بطريقة خاطئة.

لم أسمح له أن يكمل.

- اسمع أنت يا إحسان. لا يهمني إن كنت تلعب أم لا فنحن من قسم جرائم القتل لا من قسم القمار والأخلاق... مفهوم؟ وهدفنا لا أن نحدّد إن كنت تقامر أم لا، وإنما أن نعرف من قتل شخصاً اسمه إنجين آكا. هذا أمر خطير؛ وأنت تعلم أن قتل شخص جريمة لا يمكن التساهل فيها ولا يمكنك التملّص من الأمر بهذه السهولة.
- أقسم باسم أمي أن لا علاقة لي بالأمر. بلاك نظام هو من سلّط إنجين علينا، لكن ليست لي أي يد في جريمة القتل تلك... لا أنا ولا رجالي.
- إذن لماذا أغلقتم النادي؟

للحظة فكر في أن يكذب ثم أدرك أن ذلك غير منطقي.

- تباً لذلك الأحمق نيسمي، فقد ملأه الذعر وقام بإغلاق النادي.
- دون أن يسألك؟

هزّ رأسه بندم.

- لقد اتصل حين كنا نحتفل برأس السنة على الرغم من أنني أتمنى لو أننا لم نحتفل... في نادي سيريبوم في تاليمهان. كيف لي أن أسمع رنين هاتفي مع كل هذا الضجيج؟ لست وراء مقتل إنجين... أقسم لك. أخبرتكما أنهم يحاولون توريطي؛ وهذا الحريق جزء من المؤامرة. أنتما لا تدركان أن هناك قتالاً هائلاً للاستيلاء على الأراضي، وأن بلاك نظام يشتري تارلاباسي بناء تلو

آخر. اسمعني... هو الذي يقف خلف مقتل إنجين... ربما بسبب الإيجارات؛ ولهذا اتصلت بكمال وإلا فلماذا أزعجكم؟

- لتحصل على ضمان لنفسك، فأنت في تعاون وثيق مع الشرطة هنا... صحيح؟ حسناً ولتشكِّل تحالفاً معنا أيضاً.

رفع مالك النادي يديه بعصبية.

- لا يا حضرة الضابط. أقسم بالله. لماذا لا تصدقونني. إنني أقسم بالله.

حذّره علي:

- توقّف عن التلويح بيديك ولا ترفع صوتك.
- حسناً. أعتذر عن أي إساءة؛ لكن ليس لي أي علاقة، لا من قريب ولا من بعيد، بجريمة القتل هذه.
- جيّد. هل تعرف تايدي طارق؟

في البداية تفاجأ ثم ظهرت على وجهه تعابير الاستغراق في التفكير وقال:

- بالطبع أعرفه. ومن لا يعرفه؟ الجميع في عالم القمار يعرفونه فهو مهووس. كان يتردد كثيراً على النادي لكنني لم أستطع أن أطلب منه ألاّ يأتي، إذ ما من مغزى من أن تكسب مزيداً من الأعداء. لقد قُتِلَ أيضاً أليس كذلك؟ والآن إذا قلت لكما إنني لست حزيناً عليه فستقولان أنني وراء قتله أيضاً.

نظرت إليه بريبة وسألته:

- ومن أخبرك أن تايدي طارق قُتِلَ أيضاً؟ كيف سمعت بالأمر؟

أرجع رأسه للخلف بهدوء وقال:

- أرجوك حضرة الضابط. هذا حيّنا... إذا انكسرت نافذة أو أُصيبت قطة في الشارع فإننا نعلم بالأمر. الأمر الوحيد الذي لم أفهمه هو لماذا ذهب تايدي إلى ذلك المنزل.
- كان إنجين يتسكّع مع فتاة بوجه بريء ونظيف، وكانت تقيم في منزله؟
- ليس لديّ أدنى فكرة عن الأمر يا حضرة الضابط. فكثير من الفتيات يدخلن بيت إنجين ويخرجن منه، ومن يدري أي واحدة منهن؟ الغريب في الأمر هو أن طارق كان هناك، لأن أحداً منهما لا يحب الآخر. فما السبب الذي يدفعه

للتوجه إلى هناك؟ ألم يتم القبض على قاتل تايدي؟ أو أن تلك الفتاة التي تحدثتما عنها هي التي قتلته؟

أحقاً لا يعرف أن تايدي قُتِل على يد شرطي أو أنه يتظاهر؟ سنعرف فيما بعد لكن ليس الآن.

- سألته مغيراً الموضوع:
- أين يعيش طارق؟
- إنه يقيم في الفنادق... فندق مختلف لكل ليلة. فالرجل قاتل مأجور وقد آذى أناساً كثيرين ويعرف أنه سيأتي يوم يؤذيه فيه أحد ما. لم يكن يرغب بالإقامة في عنوان معروف، ولا يقيم سوى في فنادق تضع كاميرات مراقبة على أبوابها إذ لا أحد يرغب بإطلاق النار على أحد أمام هذه الكاميرات كما تعلم.
- لماذا لا تضع كاميرات مراقبة؟

ومرة أخرى كان سؤال علي محرجاً لإحسان.

- وماذا يمكنني أن أقول يا حضرة المحقق عليّ؟ الزبائن... إنهم لا يرغبون بوجودها.

كان علي سعيداً مثل قطٍّ يلهو بفأر محاصر.

- لِمَ لا؟

ابتسم الآخر.

- يأتي إلى هنا أناس من كل نوع... أعضاء سابقون في البرلمان ومدّعون عامون وحكّام سابقون... وحتى وزراء سابقون... هؤلاء الناس لا يرغبون بأن يتم تصويرهم.

ضحك علي.

- لديك زبائن مضحكون. لماذا هم خجولون إلى هذه الدرجة؟ هذا يجعلك تظن أن الناس يقامرون هنا. لكنه مجرد نادٍ... من الذي يشعر بالإحراج من تردّده على نادٍ؟

ابتسم إحسان بوقاحة.

- بالطبع هم لا يشعرون بالإحراج لكن ماذا يمكنني أن أقول؟ الزبائن دائماً على حق ولا يمكننا الاعتراض عليهم.

لا للاستيلاء على أراضي تارلاباسي



مع حلول الليل عاد الثلج للتساقط. كنت أرتعش وأنا أغادر نادي تارلاباسي حيث رفعنا، أنا وعلي، ياقتي معطفينا. وبينما كنا نشاهد ندف الثلج البيضاء تتطاير في الهواء، توجهنا إلى شارع ساكيزاغاكي حيث كان مشروع التجديد قائماً. أُزيلت الأبنية والشقق القديمة من الشارع المؤدّي إلى دولابدير وتمتِ تغطيتها بألواح معدنية رقيقة لامعة. ووقفت المنازل الفارغة التي فقدت نورها بصمت في الظلام كمرضى في هنغارات بانتظار الموت.

سألني علي:

- أكان هناك يونانيون يعيشون هنا في السابق حضرة الضابط؟ كانت غوزده من هذا الحي. أليس كذلك؟

كنت أحب أسلوب مساعدي في طرح الأسئلة حيث يملؤه فضول طفل.

- نعم يا علي. معظم السكان من اليونان وهناك بعض الأرمن أيضاً. في الواقع هذا ليس حياً ثرياً؛ فالناس الذين يعملون في المتاجر في بيه أوغلو يقطنون هنا. أنت تعلم ماذا نسمي الطبقة العاملة. يعيش مالكو المتاجر في شارع الاستقلال بينما تقيم الطبقة المتوسطة في تارلاباسي.

تغضّن جبينه وقطّب حاجبيه:

- لكن أليسوا أجانب؟

هذه الحقيقة البسيطة التي لم يستطع أيّ منا أن يتجاهلها أثارت تفكير هذا المحقّق الشاب.

- لا، هم ليسوا أجانب. فقد كانوا السكان المحليين لهذه المنطقة... تعود أصول اليونانيين الأتراك إلى الرومان فهؤلاء الناس كانوا يعيشون هنا حين جاء العثمانيون.

تلاشت النظرة المتسائلة من عينيه.

- إذن هم من أخذ منهم السلطان محمد الفاتح المدينة؟
- يمكنك قول ذلك، على الرغم من أنهم أصبحوا فيما بعد عثمانيين.
- واو. الناس يأتون ويذهبون. أي حياة كانت في هذه المنازل؟ أما الآن فهي بأيدي حثالة المجتمع... دايس إحسان من جهة وبلاك نظام من جهة أخرى. يا له من عار!
- بالمناسبة ما رأيك في ما قاله إحسان؟

قبل أن يجيبني فكّر في الأمر.

- في الواقع لقد فاجأني مدى منطقية الأمر، إذ يمكن أن يكون إنجين قد قُتِل على يد رئيسه إذا اكتشف نظام أن لدى رجله دوافع خفية، ونشأت الغيرة بينهما. ألم يقل حريم سليمان إن سيليم كانت على علاقة بالمقتول؟ لو أن نظام أدرك أيضاً...

يمكننا القول ذلك لو كانت الصورة لدينا مكتملة ولكن لدينا بعض القطع الناقصة، فعلى سبيل المثال لم تكن لدينا أدنى فكرة عمّا كان يفعله طارق في منزل إنجين. وإذا كان ينتظر هناك ليقتل إنجين، وهو الأرجح، فمن الذي استخدمه؟

أكمل مساعدي:

- وهناك أيضاً قضية الأراضي المستملكة ظلماً. فقد يكون إنجين حاول خداع نظام في خطتهما، وكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير.

كانت هناك احتمالات أكثر من تلك التي ذكرها علي وكانت كافية لتربكنا. وإذا فكّرنا بها كلها فإننا نخاطر بألاّ نرى الحقيقة.

قلت وأنا أضع يدي في جيبي:

- ما لا أفهمه هو كيف يكون لسيليم الجرأة لتضع ذلك المسدس في دولاب إحسان. أليست خائفة من إحسان؟ هؤلاء الرجال من المافيا... كم تساوي

امرأة بالنسبة إليهم في ذلك العالم؟ سيقتلونها دون أن يطرف لهم جفن.

نظر إليّ مساعدي باهتمام وهو يفكر إلى أين قد تتجه هذه المحادثة.

- والمعنى؟

- المعنى هو أنني أظن أن دايس إحسان يكذب.

ضرب بقدميه الباردتين على الأرض بسرعة.

- لا أعرف، لكنني متأكد من أنه لا يزال يحب تلك المرأة. ففي كل مرة ذكرنا فيها اسم سيليم كان وجهه تكسوه تعابير مضحكة كأنه منزعج للغاية من ضربها.

لم يستطع إنهاء عبارته فقد ظهرت سيارة أجرة فجأة في الشارع المظلم متجهة نحونا، وفي آخر لحظة قفزنا جانباً وأنقذنا نفسينا لتمر السيارة الصفراء بمحاذاتنا بالضبط.

صرخ علي:

- خفّفِ السرعة أيها الحيوان فهناك أناس هنا!

لكن الحيوان لم يكترث له وإنما اختفى بسرعة في الشارع الضيق.

- أرأيت هذا حضرة الضابط؟ هؤلاء هم القتلة الحقيقيون ولم أصادر رخصة قيادته...

بينما كان علي يتذمّر وهو يبحث عن فرصة لمهاجمة أحد سمعت همهمة... نغماً بعيداً... ما هذا؟ أغنية شعبية أو ترنيمة؟ وحين التفت لأنظر باتجاهها لاحظت بعض الظلال القادمة من أسفل التلة وهي تمشي ببطء من الظلام باتجاه النور. وحين اقتربوا ميّزت امرأة تقود المجموعة وقد تركت شعرها المتموّج يتطاير، وهي تصعد الشارع الضيق بخطوات واثقة في حين كان الآخرون يتبعونها. إذا وقفت المرأة وقفوا كلهم ساكنين. وكان الحشد وراءها يحمل لافتات قماشية ولصاقات ورقية وأعلاماً صغيرة يحمل أحدها عبارة... "لا للاستيلاء على أراضي تارلاباسي" وكُتب على لافتة أخرى بالأصفر "لا يمكنهم الاستيلاء على خبزنا أو منازلنا". لا بد أنهم سكان الحي الذين يعانون من تبعات تدمير المباني، كالطاهي محمد مالك مطعم زيست. للحظات بحثت عيناي عن محمد بين الحشد لأن المفترض بالرجل الذي طلب مساعدتنا في إنقاذ مطعمه أن يشارك بمظاهرة كهذه. لكنني لم أره إذ

من الصعب عليّ تمييزه من بين كل هؤلاء الناس، وخاصة في الظلام.

حين رأى علي الحشد تمتم:

- الآن فهمت لماذا كان سائق سيارة الأجرة مسرعاً فالانتظار وراء هؤلاء المحتجين المهووسين صعب للغاية على السائق.

كان الناس الذين أشار إليهم على أنهم محتجون مهووسون هم أولئك الناس المساكين الذين يواجهون فقدان منازلهم، ويكافحون وهم لا يدرون أين سينتهي بهم المطاف، وأين سيقطنون إذا غادروا هذا المكان. كان مساعدي ينظر إليهم بمرارة... لماذا؟ لأنه كان يقارن نفسه بهم... أو بدقة أكبر، فإن هذه المجموعة من المحرومين ذكّرته بنفسه وبوحدته وحرمانه حين ترعرع في الميتم.

- إنهم يسدّون الطريق حضرة الضابط... انظر إليهم... وكأن هذا الشارع ملك أبيهم. أنا أتفق الآن مع سائق سيارة الأجرة؛ فماذا يُفترض به أن يفعل حين يراهم مندفعين إلى الشارع كقطاع طرق.

لم أوافقه الرأي... ليس في هذا الوقت من الليل... وفي هذا البرد... وفي هذا الحشد.

- لا تقلق يا علي. انسَ أمرهم ودعنا نمشِ.

لبّى طلبي وبدأنا نشق طريقنا بعكس اتجاه الحشد بالطبع، حيث ظهرت قبالتنا فتاتان تحملان لافتتين أرجوانيتين واضطررنا لأن نفسح لهما الطريق.

استهزأ علي:

- هذا احتلال. هذا لن يجدي نفعاً. اسمعاني، فأنا أتكلم معكما... أنتم تزعجون باقي المواطنين.

لا بد أن الفتاتين لم ترغبا بالعبث معنا لذا فقد مرّتا دون أن تردّا علينا، لكن علي أكمل:

- حسناً هذا عظيم... اذهبوا واجمعوا ثمانين أو مائة شخص وانزلوا إلى الشوارع وستجدون أعذاراً كفقدان بيوتكم...

وبّخته:

- توقف يا علي. هذا يكفي.

التفت إليّ متفاجئاً وسأل:

- ما هذا حضرة الضابط؟

خفضت صوتي قدر الإمكان لئلا يفهموا أننا نتجادل.

- قلتُ كفى. توقّف عن هذا!

بلع ريقه والتقت أعيننا. لكنه كان واثقاً من نفسه فلم يبعد نظره.

- أنا لا أفعل شيئاً. لا أفهم ما تعنيه. أتقول إن هؤلاء الناس محقّون؟

قاطعته.

- نعم. أقول إنهم محقون. ضع نفسك مكانهم وقل لي ماذا كنت ستفعل لو كنت ستفقد منزلك؟

ابتسم المغفّل بخبث ورد:

- ليس لديّ منزل.

- هذا ما أعنيه بالضبط. عليك أن تفهم هؤلاء الناس أكثر من أيّ شخص آخر.

رفع يديه بيأس.

- ألا ترى يا حضرة الضابط؟ الأمر ليس متعلقاً بالمنازل أو ما شابهها، فنوايا هؤلاء الناس سيئة. إنهم يحاولون تعكير الأمور. انظر إلى هذا الجمع فهم ليسوا بريئين.

ومن بين هذه المجموعة من غير البريئين لفتت نظري امرأة تضع على رأسها وشاحاً، وتعرج بقدمها اليسرى، وإلى جانبها فتاة بعمر خمس سنوات. وكانت تحاول أن تبقى مع الحشود لكنها تفشل.

تمتمت بسخرية:

- إذن تلك المرأة العجوز المسكينة مذنبة؟ دعنا نلقِ نظرة عن كثب. ما دمت قادراً على معرفة الناس من وجوههم بسهولة فربما يمكنك أيضاً إخباري بِمَ هي مذنبة؟ هيّا... ألقِ نظرة عن قرب. آمل أنها ليست القاتل المتسلسل الذي قتل كل أولئك الأطفال... هذه المرأة التي تنتعل الحذاء الصيفي في برد الشتاء القارس... ربما تكون الوحش الذي يخدعنا دائماً.

فهم أنه أخفق فغيّر نبرته:

- لقد فهمتني خطأ يا حضرة الضابط. ليس هذا ما قصدته. فأنا لا أقول أن الجميع هنا مذنبون لكنك تعرف ما يحصل هنا... ما مر به رجالنا هنا قبل أن نتمكّن من القضاء على جميع المجرمين... ولم ينتهِ الأمر بعد. لا يمكن أن تأتي فرقة مكافحة المخدرات إلى هنا بدون قوات خاصة تدعمها.

بدأ الحشد يتضاءل، وكان آخر من مرّ بنا ثلاثة صبية سود أقصرهم في الوسط يحمل لافتة تحمل شعار "الشرطة قتلت فيستوس أوكي" مكتوباً بأحرف ضخمة.

قال علي وهو يرفع صوته مجدّداً:

- انظر. ماذا قلتُ لك؟ الآن سيعادينا كل هؤلاء الناس كما لو أنه ليست لدينا مشاكل تكفينا. كل الخارجين عن القانون هنا.

قلت بحدّة أكثر مما قصدت:

- وخطأ من هذا؟

لا... لم يفهم الأمر. لا بدّ أن أكاديمية الشرطة بحاجة لصف لتدريب أصدقائنا الشباب ليكون لديهم تعاطف أكبر وضمير أفضل، وحين لم يستطع علي أن يكتشف الطرف المذنب رمش وسألني:

- من يا حضرة الضابط؟

أخذت نفساً عميقاً من الهواء البارد لأستعيد هدوئي.

- حسناً لنعد صياغة السؤال. أهو خطأ هؤلاء الناس المساكين والضعفاء أن يصبح هذا الحي متداعياً أم أن الحكومة هي من يتحمّل المسؤولية؟

تلألأ بريق في عينيه كما لو أنه بدأ يفهم لكنه لم يجب.

- اسمعْ يا علي. لقد خرجنا للتوّ من وكر للقمار وكلانا يعرف بصراحة أنهم يقامرون بأموالهم. لكن لو أن رجالنا لم يكونوا يتغاضون عنهم فهل سيتمكّن دايس إحسان من الاستمرار في تارلاباسي؟ هل سيكون هناك عصابات مخدّرات في دولابدير لو أن رجالنا كانوا حازمين؟

حدق علي إلى ندف الثلج وهو يصغي باهتمام.

- لا يا علي. لقد فهمت الأمر خطأ. هؤلاء الناس المساكين وحتى الأطفال هنا في الشارع وفي الثلج وفي الشتاء لنسمع أصواتهم... إنهم ليسوا عدواً. أنت

محق. هذا المكان قذر وأنت محق... غالباً ما تنشأ الجريمة في أماكن كهذه. لكن هؤلاء هم شعبنا وحتى لو لم نحبهم فإن علينا أن نفهم.

لم أستطع إيجاد الكلمات اللازمة فقد جالت عيناي على نوافذ المنازل التي لم تفرغ بعد.

- ما أقصده هو كما أن على المزارع أن يعرف التربة لكي يزرع القمح، فإن علينا أن نعرف هؤلاء الناس الفقراء جيداً لنكافح الجريمة. لكن من الخطأ أن نعتبرهم مذنبين منذ البداية؛ فهم ليسوا مختلفين عنا. لا تنظر إليّ باستغراب هكذا. كم شخصاً في هذا الحشد ميسور الحال؟ وكم عدد الرجال الأثرياء في الشرطة؟ كم واحداً من أصدقائنا يقول: "أبي يملك الملايين لكنني ألاحق القتلة بدافع الفضول"؟ ما هو الراتب الذي نتقاضاه؟ أو ما هو الراتب الذي يتقاضاه رئيس الشرطة؟ كم هي التعويضات التي تتقاضاها عائلات رجال الشرطة الشهداء؟ لا يا بني، فأنت تنظر إلى الأمر على نحو خاطئ. لا ينبغي أن نلوم هؤلاء الناس. إن كنت تسعى للوم أحد فعليك البحث أعمق.

عرفت أنني قد أطلت الكلام حيث نصحته كأب يوبّخ ابنه؛ فمعظم الناس في بلدنا يفكرون بعقلية علي على الرغم من أنهم مثله تماماً. لم يكن هناك ما يمكنني فعله لهم؛ لكن حين ارتكب صديقي المقرب، الذي أعتبره كابني، الخطأ نفسه فقدت أعصابي.

لم تخرج أيّ كلمة من فم علي. أكان ذلك بدافع الاحترام الذي يكنه لي؟ لم أستطع أن أعرف. هل الصمت علامة جيدة؟ لم أكن واثقاً من ذلك. هل قبل ما قلته أم أن هذا يعني أنه لن يتّفق معي إطلاقاً؟ كان من المستحيل الفهم. خطر لي أن أسأل لكنني غيرت رأيي، إذ ما من جدوى من فتح الموضوع، فلديه كامل الحق بالتفكير كما يشاء. وضعنا أيدينا في جيوبنا ومشينا باتجاه منزل إنجين في شارع كادين سيكمازي.

من هؤلاء النسـوة؟



أصبح الدم حيث سقط تايدي طارق داكناً أكثر حيث تحول للون القاني. حدّقنا إلى البقعة الداكنة التي انتشرت وراء الخطوط البيضاء المرسومة لتحديد مكان الجثة قبل إزالتها منذ بضع ساعات، وامتدت حتى أقدامنا.

- لم أسمح لهم بتنظيفها حتى ننجز عملنا يا حضرة الضابط.

رفعت رأسي لتلتقي عيناي المتعبتان بعالمة الجرائم التي وقفت بثبات على السلم الخشبي.

- أهلاً زينب.

أشرق وجهها الهادئ.

- أهلاً حضرة الضابط.

كان ذلك كافياً تجاه رئيسها العجوز. فاهتمامها الحقيقي مصبوب على الرجل الواقف بجواري.

- ما الأخبار يا علي؟ كيف حالك؟

كان رد علي الجلف لاهتمامها المليء بالحب، وصوتها الحلو الذي يجذب كثيراً من الذكور مجرّد كلمة «جيد» وهو يبعد عينيه عن بقعة الدم. لكن تعابير وجهه بقيت ضبابية.

- أنا بخير.

أكان منزعجاً من محاضرتي التي ألقيتها عليه؟ نظرت إليه بطرف عيني لأرى إن كان على ما يرام فالتفت إليّ.

- ليس لك علاقة بالأمر يا حضرة الضابط. فقط أحسست أن قدومي إلى هنا مضحك.

كان محقاً، فمن الطبيعي أن يتأثّر. لكنه لا يستطيع الاستمرار بالحياة مع هذا الشعور بالذنب، وعليه التغلّب عليه.

قلت بحزم:

- لنرمِ هذا الأمر وراء ظهرينا يا علي ونبدأ العمل.

والتفت إلى زينب وقلت لها:

- نعم. ماذا لدينا هنا؟

كانت عالمة الجرائم سعيدة بأسلوبي الحازم، حيث تلاشت سحابة القلق من عينيها البنيتين، وقالت بحماسة.

- تعالا إلى الأعلى.

تحركنا باتجاه السلّم حذرين لئلا ندوس على بقعة الدم وصعدنا السلّم الخشبي المتداعي، أنا في المقدمة وعلي خلفي.

أكملت زينب:

- من الصعب تصديق أن إنجين لم يكن متزوجاً، فالمنزل نظيف ومنظم حتى أنك لن تصدق أن من يقطن هنا مدير وكر قمار وليس امرأة عجوزاً موسوسة.

كان لديّ الانطباع نفسه حين أتينا إلى هنا هذا الصباح. لكننا لم نبحث جيداً في المبنى بسبب الجثة المستلقية على الأرض. حين وصلنا إلى حيث تقف زينب شرحت لها حدسي.

- ربما تكون حبيبته الجديدة هي من تقوم بالتنظيف... تلك الفتاة التي لا نعرف اسمها.

- ربما حضرة الضابط. لكن أشياء إنجين الشخصية مرتبة أيضاً، وكل أوراقه مرتبة في مجلدات كما لو أنه يعمل في الأرشفة. وهناك كثير من الأوراق في الخزنة وهو أمر مفاجئ.

بدا كأنني سأحصل على بعض الأخبار الجيدة.

- هل فتحتم الخزنة؟

لاحت ابتسامة النصر على شفتيها.

- نعم. لقد كنتَ محقاً، فمفتاح الخزنة موجود في التعويذة حول عنق إنجين. لقد كان مهماً للغاية.

سألتها ما إن وصلت إلى الطابق:

- ماذا وجدتم في الخزنة؟

لكن زينب أرادت أن تتذوّق طعم انتصارها، فأشارت لنا بيدها اليمنى المكسوة بقفاز إلى غرفة بابها الواسع مفتوح.

- تعالا. كل شيء على الطاولة.

كانت الغرفة التي أرتنا إياها كغرفة جلوس صغيرة مفروشة على الطراز العصري، حيث توجد على الأرضية الخشبية سجادة مصنوعة آلياً عليها أشكال هندسية بيضاء وحمراء وفي الوسط توجد طاولة كبيرة حمراء... نعم... مهما يكن ذوق الرجل فقد وضع طاولة حمراء في وسط الغرفة وطاولتين جانبيتين صغيرتين باللون نفسه. كانت هناك مجموعة من الأثاث تتكون من أريكة، وكرسيين لونهما بنيّ فاتح، وتلفاز بشاشة مسطحة على الجدار بدا كثقب أسود.

- كانت الخزنة مخفية وراء التلفاز حضرة الضابط.

توجهت إلى الجدار الذي كانت تشير إليه زينب حيث وجدت خزنة بارتفاع قدم وعرض قدم ونصف القدم وبابها مفتوح.

- انظر لقد صنعوا لها غطاء معدنياً بلون ورق الجدران يُفتح بلمسة خفيفة.

كان التلفاز معلّقاً بحيث يتحرك إلى الأمام والخلف لقدم ونصف القدم بكلا الاتجاهين، بحيث كان بإمكان إنجين فتح الخزنة بسهولة كلما أراد.

- من هاتان المرأتان؟

كان علي من طرح السؤال حيث كان منحنياً على الطاولة يتفحّص صورتين.

أجابت زينب:

- لا بد أنهما حبيبتا القتيل فنحن نعلم أنه كان زير نساء.

اتجهت إلى الطاولة المغطاة بالملفات والوثائق، ووضعت نظارتي على طرف أنفي، ونظرت إلى الصورتين الموضوعتين على دفتر أسود. لم تكونا قد اصفرّتا

بعد، وكان إنجين في كلتا الصورتين ينظر إلى الكاميرا بالابتسامة الباردة نفسها، وتعابير عينيه نفسها، دون أن يظهر مشاعره. وفي كلتا الصورتين كانت هناك امرأة إلى جانبه. لكن المرأة في الصورة الأولى كانت أجمل وأصغر إلا أنها تضع كثيراً من مساحيق التجميل وترتدي ملابس بالية. وكانت النظرة المرسومة على وجهها تبدو بريئة وعيناها السوداوان الواسعتان تنظران بخجل بحيث تجعل المرء يرغب بمساعدتها وحمايتها.

- لا بد أن هذه حبيبته الجديدة.

أكّد علي:

- أنت محق فوصف الطاهي محمد ينطبق عليها.

كانت المرأة في الصورة الثانية جميلة أيضاً لكن مساحيق التجميل التي تضعها قليلة، وملابسها جميلة، وشعرها مصبوغ بذوق باللون البلاتيني. كما يمكن قراءة كبرياء تلوح في عينيها الخضراوين أو العسليتين.

أرته زينب التواريخ على الصور الرقمية:

- لقد كان يواعد كلتا المرأتين في الوقت نفسه. انظر فكلتا الصورتين تم التقاطهما في أغسطس الماضي والفارق بينهما ثلاثة أيام فقط. لا أدري إن كانت المرأتان تدركان ذلك.

عرفت ما تفكّر فيه زينب.

- أتشيرين إلى أن الدافع وراء جريمة القتل هو الغيرة؟

- لِمَ لا.

نظر نحن الثلاثة إلى الصورة مجدّداً.

قال عليّ وهو يرفع رأسه:

- لا أظن ذلك، فما من امرأة جريئة بما فيه الكفاية لتقتل رجلاً هكذا.

هزّت زينب كتفيها.

- لماذا؟ نحن لا نعرف هاتين المرأتين إذ قد تكونان جزءاً من هذا العالم أيضاً. أليس ذلك ممكناً؟ حسناً لنقل إن المرأة الصغيرة لا يمكنها فعل ذلك، لكن ماذا عن هذه المرأة؟ أتذكران حنة مريم؟ أقصد المرأة التي ارتكبت جريمة قتل

الآشوريين...

لم يكن علي أيضاً يعتبر ذلك ممكناً.

أشار إلى الملفات التي على الطاولة وقال:

- سنرى ما هذه؟

- صكوك مُلْكية.

ورفعت زينب السجل إلى الأعلى وفتحت الغلاف الأزرق وأخرجت منه تسع وثائق متشابهة.

- صكوك مُلْكية لتسعة منازل منفصلة في تارلاباسي جميعها باسم إنجين آكا، وجميعها تم شراؤها خلال الأشهر الستة الأخيرة.

تلألأت عينا علي كعامل منجم عثر على الذهب.

- انظر إلى هذا! إذن إنجين هو من كان يشتري تارلاباسي جزءاً تلو آخر وليس بلاك نظام.

قلت:

- ربما كان يشتريها لبلاك نظام.

لكن زينب قاطعتني:

- لا حضرة الضابط فقد اشترى بلاك نظام كثيراً من المنازل هنا باسمه. اثنان وعشرون صك مُلْكية تحمل اسمه.

وحين رأتنا ننظر حولنا متوقعين أن ترينا صكوك الملكية هذه ابتسمت.

- إنها ليست هنا لكنني اكتشفت أمرها هذا الصباح. ألم تطلب مني أن أبحث بشأنه؟ وقد توصلت إلى هذه المعلومة مباشرة.

حدّقت إليها بإعجاب وسألت:

- إذن من هو بلاك نظام؟

- رئيس مافيا عصري تقليدي. إنه متورط في كل الأعمال القذرة، من السطو إلى انتزاع الشيكات وصكوك الملكية عنوة، إلى استيفاء الرسوم بصورة غير قانونية على ركن السيارات في الشارع... عشرات السجلات الإجرامية... عشرات الشكاوى ضده: قتل وهجوم وتحريض... كما أنه شارك في تجارة المخدرات

لفترة من الوقت، حيث ساهم في صفقة ضخمة للهيروين تم ضبطها في نابولي، لكن لم يتم تجريمه لنقص الأدلة. ومؤخراً أصبحت تارلاباسي أكبر اهتماماته. وقد يكون نزاعه مع دايس إحسان ومسألة نادي تارلاباسي الأصيل مجرد عذر، والمشكلة الحقيقية هي الاستيلاء على الأراضي. وبالمناسبة نسبته هي بلاك أي أن اسمه نظام بلاك وليس بلاك نظام.

قال علي مبتسماً:

- برأيي بلاك نظام مناسب أكثر. وقد يكون بلاك نظام قتل إنجين لأجل صكوك الملكية التسعة هذه التي أخفاها عنه لأنه كان يخطط لشيء من وراء ظهره، كما تكلمنا في طريقنا إلى هنا، أو لمنع إنجين الذي أصبح ثرياً من إطاحته وأخذ مكانه كزعيم. أعتقد أن دايس إحسان كان يقول الحقيقة يا حضرة الضابط.

قالت زينب وهي تهزّ رأسها:

- نعم دايس إحسان. اسمه الحقيقي إحسان يلديزيلي، وهو رجل مافيا من الدرجة الثانية يسير على خطا والده. لكنه لا يقامر فحسب وإنما يوظف كل وسائل الغش والخداع ليغرق الناس الأثرياء بالديون على الطاولة ثم يستولي على ممتلكاتهم، وفي حال لم يتنازلوا عنها طواعية فإنه يلجأ للعنف، إذ إن له سجلاً حافلاً أيضاً حيث دخل السجن وخرج مرات عدة بتهم السرقة والهجوم والاعتداء. لكنه لم يتورط في مشاكل أخرى إذ إن جميع جرائمه متعلقة بالقمار.

التفت لأنظر إلى الوثائق على الطاولة مجدّداً.

- ماذا وجدتم أيضاً في الخزنة؟

أخرجت زينب جواز سفر بنيّ اللون من تحت الملف الأزرق.

- هناك جواز سفر إنجين حيث قدم إلى تركيا قبل عامين. كان يعيش خارج البلاد لسنوات، وغالباً في إيطاليا. وهناك كثير من أختام الدخول إلى إيطاليا، لكن أختام الخروج معظمها من سويسرا.

سألتها لأتأكد:

- ألم يعد إلى إيطاليا؟

- لا يا حضرة الضابط. لم يغادر البلاد منذ عامين... لا إلى إيطاليا ولا إلى أي

دولة أخرى.

فهم علي في ما أفكّر:

- أتظن أن الأمر متعلّق بتجارة المخدرات؟
- لِمَ لا؟ قد تكون علاقته ببلاك نظام مرتبطة بالمخدرات أيضاً، فقد كان الرجل يشحن المخدرات إلى نابولي بالشاحنات. وقد تكون شرطة مكافحة المخدرات الإيطالية بدأت بمراقبته، لذا هرب إلى تركيا وانضم إلى بلاك نظام حيث اقترح نظام أن يخفي إنجين مقابل الشراكة في عمله بتجارة المخدرات.

كانت زينب لا تزال متشكِّكة.

- هذا ممكن بالطبع. لكن شحنة المخدرات إلى نابولي كانت قبل ثلاث سنوات، ومنذ ذلك الحين لم يتم اتهام بلاك نظام بأي قضية متعلقة بالمخدرات، إذ يبدو أنه لم يتورط في ذلك المجال مجدّداً. كما يوجد هذا يا حضرة الضابط.

ومن تحت الملف الأزرق أخرجت مغلفاً أصفر اللون وأخرجت منه صورة أخرى وورقة بيضاء عليها رسومات:

- هناك مخطّط وصورة امرأة ثالثة في الداخل.

نظرت إلى الصورة أولاً... امرأة يتدلى شعرها المموج على كتفيها وعيناها الواثقتان تنظران من تحت جبهتها العريضة ووراءها أناس...

قال علي بحماسة:

- إنها تلك المرأة أليس كذلك؟ نعم... تلك المرأة التي كانت تمشي أمام الحشد قبل قليل...

دقّقت النظر... كانت المرأة نفسها التي تقود المظاهرة.

وافقته:

- لا بدّ أنها التُقِطت في مظاهرة احتجاجية أخرى. هناك لافتة.
- نعم لقد تم التقاطها في مظاهرة... إنها اللافتة نفسها التي رأيناها اليوم. انظر يا حضرة الضابط. إنها تقول "لا للاستيلاء على أراضي تارلاباسي".

وعلى الرغم من تدقيقي النظر لكنني لم أستطع تمييز الحروف.

- أرى كلمة تارلاباسي لكنني لست واثقاً من باقي العبارة، ومع ذلك فأنت محق

إذ إنها مظاهرة. أترى الغضب في وجوه الناس؟

كانت زينب تشعر بالفضول. وبينما كانت تحاول أن ترى الصورة تماسّ شعرا الشابين فسحب مساعدي رأسه مباشرة إلى الخلف محاولاً إخفاء إثارته.

- حسناً، لكن ماذا تفعل صورة هذه المرأة هنا لدى إنجين؟

التفت لأنظر إلى الورقة البيضاء في يد زينب.

- تقولين أنه مخطط؟ أتعرفين ما هو؟

- نعم، إنه مبنى. المداخل والنوافذ ومخرج للحريق تمت إضافته وباب الخدمة الخلفي... اسم المبنى مكتوب هنا أيضاً.

نظرت إلى الورقة لتتأكد من صحة ما قالته.

- مركز فرحات سيراج الثقافي. انظر... إنه المبنى عند الزاوية بين ساكيزاغاكي وتافلا.

لم يكن يبعد سوى بضعة شوارع. لا بد أننا مررنا به في طريقنا إلى هنا.

تمتم علي:

- مركز فرحات سيراج الثقافي. لا بد أن ذلك حيث كان الحشد مجتمعاً قبل قليل. نعم... لا بد أن هناك عداوة بينهم يا حضرة الضابط إذ إن من الواضح أن المرأة تعيق عملهم وربما كانوا يفكرون في إخافتها أو ربما قتلها. ربما يكون إنجين قد دعى تايدي طارق إلى منزله لأجل ذلك.

- لا أحد يدعو قاتلاً مأجوراً إلى منزله يا علي أو على الأقل بالنسبة إلى شخص متورط في هذا العمل كإنجين. كما أن طارق قد وصل إلى المنزل حين وصلنا وكان الباب موارباً.

لاحظنا أن هناك رجل شرطة مقبل باتجاهنا... كان الشرطي البدين المناوب على الباب وكان المسكين مرهقاً من صعود السلّم القصير.

قال وهو يحاول تهدئة أنفاسه المتسارعة:

- هناك رجل هنا حضرة الضابط وهو يريد الدخول. لقد أخبرته أنه لا يمكنه ذلك، لكنه مصرّ على التحدّث إليك.

إذا كنت لا تريد أن تعطي ملاك الموت ذخيرة فعليك أن تحدّ من عدد أحبّائك في هذا العالم



إن كان من المفترض شرح معنى القبح، فيكفي أن تظهر وجه بلاك نظام. شعره مصبوغ باللون الأسود ويصل إلى منتصف جبهته الضيقة، وعيناه سوداوان غائرتان وأنفه كبير مسطح، وفمه كشق يتوسط وجهه، وبشرته مليئة بالأخاديد كأرض صخرية. ووسط كل ذلك تتلألأ أسنانه البيضاء الناصعة كحبات اللؤلؤ. ابتسم الرجل ابتسامة متألقة ليخفي قبحه أو شكله المثير للاشمئزاز.

سألني بأدب:

- ماذا ترغب أن تشرب؟ القهوة التركية هنا ممتازة... حتى أفضل من قهوة مانداباتماز.

كنت حتى ذلك اليوم لم أتذوّق أفضل من قهوة ماندباتماز في أوليفيا سيكمازي، وهي أفضل حتى من القهوة التي تصنعها إفجينيا.

- حسناً، فلنشرب بعضاً من قهوتك يا بلاك.

قال مساعدي قبل أن يسأله نظام:

- لا أريد شيئاً.

تحت شارع كادين سيكمازي، عند التقاطع بين شارعين طويلين، جلسنا على أفضل طاولة في المقهى المطل على مساحة مفتوحة صغيرة. وكان الزبائن الوحيدون هناك ثمانية أشخاص على طاولتين يلعبون الورق. أخذ النادل طلباتنا

وعاد إلى الموقد في الخلف. فكرت في تلك الأيام حين خدمت في الأناضول، وذكرني هذا المكان المهمل وغير المنظّم بالساحات العامة في بلدات الأناضول المنسية، حيث يوجد متجر بقالة، وحلاق، ونجار يصنع مفروشات رخيصة، ومتجر خردوات يعرض بضائعه على الرصيف، وطابور من مكاتب تذاكر العربات بأسماء لم أسمع بها من قبل. وبالطبع هذا المقهى الذي يتوسّطها كلها. قدمنا إلى هذا المكان بناء على طلبي لا بناء على إصرار الرجل العجوز القبيح ذي الابتسامة الجميلة إذ ليس من المناسب إدخال بلاك نظام وابني أخيه إلى منزل إنجين.

في المقعد المقابل لمقعدي جلس بلاك نظام متّكئاً للخلف على الجدار البنيّ في حين جلس علي في مقعد على يميني بحيث يمكنه رؤية الباب وكلا الحارسين... كان ابنا أخ نظام، حارساه الشخصيان، يجلسان على الطاولة إلى يسارنا وقد أدارا وجهيهما بعيداً عنا. كان الأخوان نسخة أحدهما عن الآخر بدون أي مبالغة إذ إن «مدحت» و«قدرت» توأمان يرتديان الملابس نفسها، ما جعل مظهرهما مضحكاً. لكن الطريقة التي جلسا فيها بجدية جعلت من المستحيل الضحك.

قال نظام مكملاً المحادثة:

- لم يكن لنا شرف اللقاء من قبل، فقد كان مكتبنا في لاليلي حين كنت تخدم هنا. لكنني أعرفك من سمعتك من خلال كمال فهو يتكلّم عنك كثيراً إلا أن علاقتنا تدهورت مؤخراً. لقد كان يقول "المحقّق نيفزات مختلف تماماً عن باقي رجال الشرطة الذين تعرفهم".

كانت يده صغيرة كيد امرأة لكنها مكسوة بالشعر كيد قرد، حيث نقر بها على غطاء الطاولة الأزرق وهو يتكلم.

- كيف علمت أنني أترأس هذا التحقيق؟

كان صوتي بارداً ومرتاباً.

- تارلاباسي مكان صغير حضرة الضابط. هذا حيّنا... إذا انكسرت نافذة أو أصيبت قطة في الشارع فإننا نعلم بالأمر.

لم أستطع كبت ضحكتي.

شرحت له:

- لقد استخدم دايس إحسان كلماتك نفسها... لا بد أنها عبارة شهيرة في تارلاباسي هذه الأيام.

تلوّن وجهه... فلا بدّ أنني ضربت على عصب حسّاس.

- لقد أخذها منّا ذلك النذل. لا يمكنني أن أنسى أننا من جلب ذلك القاتل إلى تارلاباسي.

كنت على الطريق الصحيح فقد بدأت أضايقه.

ردّدت مؤكداً على جهلي:

- قاتل؟ من الذي قتله إحسان؟

رفع يديه الغاضبتين بسرعة عن الطاولة.

- كأنك لا تعلم. من تظن؟ إنجين... بالطبع لقد طلب من كمال أن يتصل بك ليغطي على جريمة القتل... لقد كان والده عثمان صديق كمال المقرب، وحين كان عثمان على فراش الموت وعده كمال أن يعتني بابنه، والآن كلما وقع في مأزق فإنه يلجأ إلى كمال على الفور.

ردّ علي:

- وما شأننا بكمال؟ أتظن أننا نسأل من هو القاتل ونقرر بناء على ذلك؟
- لا، لقد فهمتني خطأ حضرة المحقق. أعني أنكما لا تفعلان ذلك. لكن النذل...

لكنه لم يكن بإمكانه جعل مساعدي ينصت حتى ولو كانت حياته متوقفة على ذلك.

- إننا نجري الآن تحقيقات رسمية لذا أبقِ تعليقاتك البذيئة لنفسك.

عدّل نظام من جلسته في مقعده.

- آسف، فأنا لم أقصد أن أقلل من احترامكما. لكن من الواضح أن إحسان يكذب عليكما.
- إذن تقول إننا أحمقان لا نفهم، لذا فإنك بحاجة لأن توضح لنا الأمور.

ماذا بإمكان الرجل أن يقول الآن.

- لا حضرة الضابط. لن تكون لديّ الجرأة لقول مثل هذا الكلام إطلاقاً لكنني

ظننت أن بإمكاني المساعدة.

تدخّلت بأسلوبي الهادئ والمتعاطف قائلاً:

- ما الذي يجعلك تظن أن دايس إحسان قد قتل إنجين؟

بدا كأنه ارتاح حيث أعاد يديه إلى الطاولة.

- لقد ضربه إنجين ضرباً مبرِّحاً ولم يعد بإمكانه إظهار وجهه للعامة لأيام، وذلك قبل عشرة أيام أو ربما خمسة عشر يوماً.

تظاهرت بالاهتمام وكأني أسمع القصة للمرة الأولى.

- لماذا؟ لماذا قام إنجين بضرب إحسان؟

استرق النظر إلى مساعدي ليتأكد من أنه لن يقاطعه قبل أن يبدأ شرحه بحماسة.

- لدى إنجين حبيبة... جيل هانم... مؤدّبة للغاية وثرية. لكن إحسان الوضيع تكلّم عن إنجين بالسوء ونعته بالكلب والكريه وسيئ السمعة فتركت المرأة إنجين، وهو ما جرحه بالطبع فأخذ مدحت وقدرت معه وضربوا إحسان أمام الجميع ضرباً مبرِّحاً. لو كنت مكانه لما أظهرت وجهي أمام الناس مجدّداً.

أخرجت كيس الأدلة الذي أحضرته معي من بيت الضحية ووضعته على الطاولة وأريته الصور الثلاث للنساء من وراء النايلون الشفّاف وسألته:

- أيهن جيل؟

سحبها إليه وانزلقت يده إلى داخل الكيس فحذرته:

- لا تلمس هذه الصور.

تجمّدت يده في مكانها.

- بإمكانك أن تلمس الكيس من الخارج، لكن لا تخرج الصور إذ إننا لم نأخذ البصمات بعد.

ظهر الارتياب على وجهه كأنه يتوقع مفاجأة غير سارة لكنه لم يسحب كيس الأدلة وإنما استقرت عيناه على صورة المرأة التي رأيناها بين المتظاهرين.

- هذه ليست جيل وإنما نازلي... نازلي المجنونة... المرأة التي تقود المخربين. لديهم بعض الأبنية هناك وهم يبذلون قصارى جهدهم لإثارة المشاكل،

كالشجار مع رجال الشرطة واحتلال المباني وتهديد المواطنين ومهاجمتهم... وهم لا يخشون أحداً... لا الحكومة ولا الناس ولا حتى الله. إنهم في الشوارع ليل نهار حاملين زجاجات البنزين بأيديهم ويحرقون ما يشاؤون كلما طاب لهم ذلك.

لا بد أنه يعني بزجاجات البنزين قنابل المولوتوف.

تدخل مساعدي:

- انتظر لحظة. أتقصد أن عصابة هذه المرأة نازلي هي التي هاجمت نادي تارلاباسي وليس أنت.

اتسعت عيناه دهشة.

- هل هاجموا نادي دايس؟
- لا تحاول أن تخبرني أنك لم تسمع بالأمر.
- لا. أقسم بكل ما تريد أنني لم أكن أعلم.

ظهرت تعابير السخرية على وجه مساعدي الوسيم.

- ماذا حصل لعبارة إن انكسرت نافذة أو أصيبت قطة في الشارع؟ بعض الرجال رموا قنبلة مولوتوف في وضح النهار وأنت لا تدري شيئاً عن الأمر؟ كيف حصل هذا؟

بدا نظام محرجاً فحاول أن يشرح:

- لقد كنت خارج إسطنبول لبضعة أيام في أولوداغ لأسباب شخصية، وكنت أخطط للبقاء فترة أطول لكنني عدت بسرعة حين سمعت بما حصل لإنجين. لم أعد إلى تارلاباسي إلا قبل بضع ساعات ولهذا فالخبر جديد علي، ومع ذلك أؤكد أنه في حال تم استخدام المولوتوف أو أيّ شيء مشابه فإن هذا عمل نازلي.

لم يكن علي مستعداً لتجاهل الأمر.

- لكن ليس هذا ما يقوله دايس.

صرخ نظام دون أن ينتظر ليسمع نهاية الجملة:

- بالطبع فهو يغطي على جريمة القتل التي ارتكبها.

كاد النقاش يخرج عن المسار المطلوب فقلت مشيراً إلى الصورة الثانية في الكيس محاولاً إعادة السيطرة على الأمور:

- في كل الأحوال دعونا نكمل. هل هذه جيل؟

لكن نظام كان مشحوناً واستمر بالتذمّر كأنه لم يسمعني.

- لا لن نكمل يا حضرة الضابط. من يدري ماذا كان ذلك الوغد يقول عني.
- سنعود إلى هذا يا نظام، لكن أجب على سؤالي أولاً. هل هذه جيل هانم؟
- هذه عزيزة. إنها فتاة طيبة... مضيفة في نادٍ ليلي. كما أنها تغني.
- أين تعمل عزيزة؟
- في نيسي بافيون. عزيزة الوردة الوحيدة في مركز القذارة ذاك.

كان هناك بعض السخرية في عبارته الأخيرة.

هل سيفوت علي الفرصة؟

- إذن أنت تستخف بالفتاة لأنها قبيحة؟

فهم التلميح واحمر وجهه.

- لا سمح الله حضرة الضابط! إنني لا أستخف بأحد من خلق الله. عزيزة ليست قبيحة. ما أقصده... سامحني حضرة الضابط، لكنك تعرف أن بعض النساء لديهن ميزات تلفت نظرك؟ هذه الفتاة ليس لديها شيء من ذلك ولا يمكنك أن تحدّد إنْ كانت امرأة أم طفلة.... صدرها كاللوح من الجلد والعظام... لكن صوتها لطيف ومؤثّر.
- يبدو أن إنجين لا يشاطرك الرأي.
- لديه بعض الميول الغريبة. في الواقع النساء يحببنه، فقد كان وسيماً وكسب عدداً من النساء والفتيات اللاتي لا أعرف أسماء معظمهن. لكنه كان مهتماً للغاية بعزيزة. هوى القلب البشري أمر في غاية الغموض.

إذن، الآن وجدنا الحبيبة ذات الوجه البريء. لكننا بحاجة إلى التفاصيل.

- هل كانت الفتاة تقيم في منزل إنجين؟

بدا كأنه وجد السؤال غريباً.

- إنجين يعيش وحيداً، فهو لا يرغب ببقاء أحد بالقرب منه. وهو متعوّد على

العيش وحيداً منذ أن كان في سويسرا.

كان عمله خارج البلاد نقطة أخرى تحتاج إلى التوضيح، لكنني سألت عن المرأة في الصورة الأخيرة للانتهاء من هذا الموضوع.

- حسناً ومن هذه؟

- هذه هي جيل هانم... المرأة التي تسبّبت بالشقاق بين إنجين وإحسان.

قال علي مجدّداً بأسلوب لا هوادة فيه:

- لكن ليس هذا ما سمعناه. سيليم هي التي تسبّبت بالشقاق بينهما وليست جيل.

حين سمع نظام باسم سيليم اصفرّ وجهه الداكن، لكنه سيطر على نفسه وأمسك لسانه.

- ما الأمر؟ هل أكل القط لسانك؟ ألا تعرف سيليم؟

تغضّنت جبهته لكنه لم يتجنّب السؤال.

- أعرفها. هي ليست سيليم وإنما هاسر... هاسر هانم. إنها زوجتي.

هنا حان دورنا لنتفاجأ إذ لم يقل أحد شيئاً عن أي زواج. هل كان نظام يكذب؟ بالتأكيد لا يبدو عليه ذلك، فقد تخلّى عن أسلوبه الغامض وأصبح مقنعاً للغاية حين حدّق إلى مساعدي بجرأة كما لو أنه يقول إنه ليس خائفاً منه، وأصبح قبحه مروّعاً للمرة الأولى. لكن علياً كان قد التقى بعشرات الرجال مثله في حياته المهنية فلم يقم بأي رد فعل.

سأل:

- هل هو زواج من النوع الديني غير الرسمي عند شيخ؟ كم زوجةِ لديك؟

- واحدة. كم زوجة يمكن أن يكون لدى الرجل؟

مع صوته المرتفع لاحظ ابنا أخيه أيضاً التوتّر بيننا فانزلقت يداهما إلى خصريهما محاولين ألاّ يلفتا انتباهنا حيث كانا يحاولان أن يحدّدا المسافة بين أصابعهما وبين مسدسيهما. وقد فهم مساعدي أيضاً الوضع لكنه لم يأبه فهو يستمتع بمثل هذه اللحظات الخطيرة.

قال علي مستمراً باستفزازه:

- بالطبع أي رجل عادي ستكون لديه زوجة واحدة. أما في هذه الأيام فبعض

الأفراد يتزوجون من أربع زوجات ظناً منهم أن ذلك يجعلهم رجالاً حقيقيين.

- حسناً، أنا لست منهم.

ورجع نظام إلى الخلف تاركاً يده اليسرى على الطاولة لكن يده اليمنى نزلت بهدوء كَيَدَي ابني أخيه إلى حيث لا يمكننا رؤيتها.

قلت باحترام:

- تهانينا. أتمنى لك زواجاً سعيداً ومباركاً.

لم تكن هذه الكلمات التي كان نظام يتوقع سماعها فقال:

- شكراً حضرة الضابط.

كان من الواضح أنه لم يكن يرغب بإثارة أي مشاكل معنا أيضاً.

- لا بد أنك تزوجت مؤخّراً.

اختفت النظرة الباردة عن وجهه وكاد يضحك.

- لقد تزوجنا البارحة... نعم... البارحة... في أولوداغ، وكما قلت، لو لم يُقتل إنجين لبقينا هناك مدّةً أطول.

وحين ظننت أن الهدوء قد عاد بيننا هزت كلمات علي الطاولة مجدّداً.

- أعلم أنه لا ينبغي لي أن أسأل لكن... ما هو رقم هذه الزوجة؟

نظر نظام إلى مساعدي نظرة تحذيرية:

- هذا ليس من شأنك... حياتي الشخصية ليست من شأنك. إنني أكن لك بالغ الاحترام حضرة الضابط. لكن إذا أردتما الاستمرار هكذا فسأضطر لإكمال المحادثة بحضور محامٍ.

كان محقاً لكنني لن أوبّخ مساعدي أمامه.

- ليست غايتنا أن نسيء إليك يا نظام. أنت محق فحياتك الشخصية خاصة بك لكن الأسئلة التي يطرحها المحقق متعلِّقة بجريمة القتل إذ ليست لدينا أيّ نية لنحكم على علاقاتك وليست لدينا أي سلطة لنفعل ذلك. ما نسمعه على هذه الطاولة سيبقى سراً ما دام لا يتعلّق بجريمة القتل، وحتى لو كان له علاقة فلن يتسرّب إلى وسائل الإعلام... أعدك بذلك.

حدق إليّ بعينين متردّدتين ورأيت الفرصة في صمته فسألته بصوت ودود:

- هل هاسر هانم أولى زوجاتك حقاً؟

ضربت على وتر حساس مجدّداً فظننت أنه سينهض ويمشي لكنه أشار إلى جيبه الجانبي وسأل:

- أيزعجكما أن أدخن؟
- ليست لدي أي مشكلة، لكن مالك المقهى هو من سيدفع الغرامة.

ضحك ضحكة قصيرة مقتضبة.

- لا تقلق بهذا الشأن حضرة الضابط، فهذا ميداننا.

ومن الجيب الذي أشار إليه أخرج علبة سجائر فضية اللون وولاعة ذهبية واستغرق وقتاً في فتح غطاء العلبة. وبينما كان يسحب سيجارة من نوع لا أعرفه قرأت النقش على الغطاء "أنا لك حتى يفرقنا ملك الموت" ومكتوب تحتها "هاسر". لا بدّ أنها هدية من الزوجة الجديدة. وضع السيجارة بين شفتيه وأشعلها بالولاعة الذهبية ليمتلئ الهواء فجأة برائحة التبغ المحترق.

- كانت زوجتي الأولى قمر هانم. لقد كانت ابنة عمي، وكان الزواج متّفقاً عليه منذ أن كنا صغاراً في المهد حيث ترعرعنا في القرية نفسها؛ لكننا تزوجنا في إسطنبول حين كنت في التاسعة عشرة من العمر وكانت هي في السادسة عشرة، واستمر زواجنا لثلاث سنوات ثم وقع حادث وماتت قمر. ماذا يمكننا أن نقول؟ هذه مشيئة الله... ولم أتزوج بعدها. إذا كنت لا تريد أن تعطي ملاك الموت ذخيرة فعليك أن تحد من عدد أحبائك في هذا العالم... لا زوجة... ولا طفل. وقد بقيت على هذا النحو حتى الآن لكنني التقيت بهاسر ولم نكن نفكر بالأمر على الإطلاق... حدث الأمر هكذا.

سألته مباشرة لئلا أعطي علياً الفرصة ليخرّب الوضع مجدّداً:

- لماذا هاسر؟ ما الذي يجعلها مختلفة عن باقي النساء؟ هل تشبه زوجتك الأولى؟
- في الواقع ما من شبه، لكنها تذكرني بقمر التي أحببتها... ليس من السهل نسيان الأمر. لقد منحني الله فرصة ثانية مع هاسر.

بدأت بالقول:

- إذن إحسان...

قال بغضب:

- ليس لذلك النذل علاقة بالأمر فهاسر تنحدر من عائلة فقيرة، وأبوها راغب كان يعمل لديهم. ربما تكون قد سمعت أنه أصيب بالشلل بعد مشاركته في شجار؟ وكالغريق الذي يتعلّق بقشّة، فحين احتاجت العائلة إلى المال قصدت دايس إحسان. كيف كانوا سيعرفون أن لدى الرجل نوايا سيئة؟ في كل الأحوال لنقل إنها مجرّد قسمة ونصيب فنحن لا نحصل إلا على ما هو لنا.

بدا كأنه يغلق الموضوع. لكنني حين تذكرت كيف كان وجه إحسان يتلوّن كلما ذكرنا سليم علمت أن هناك شيئاً آخر فقلت بامتنان:

- فهمت. إذن متى انضم إليكم إنجين هنا؟

قبل أن يجيب التفت إلى ابني أخيه.

- مدحت، يا بني. خذ هذه وارمِها في الخارج.

كان يناوله عقب السيجارة الذي سحقه بالأرض.

- ينبغي ألاّ نوسخ المكان. لقد التقيت بعمه دوردو من قبل. لن أكذب عليك، فدوردو كان يتاجر بالبودرة أي يبيع المخدرات بصفقات ضخمة... ضخمة للغاية. لقد كان شريكاً مع المافيا الإيطالية من صقلية لكن مركزهم كان في ميلانو.

قاطعه علي:

- وقد شاركتَ في ذلك وفتحوا تحقيقاً معك... لقد كنتَ تهرّب المخدرات عن طريق البحر.

- كذب. كذب واضح. لقد تم الإيقاع بنا في هذه الصفقة عن طريق دوردو لكنه كان قد قدم لنا كثيراً من الخدمات أيضاً. في كل الأحوال هذه قصة طويلة. ولحسن الحظ انتصر العدل وتمت تبرئتنا.

وأدار عينيه الصغيرتين إليّ مجدّداً.

- لا أحب مدمني المخدرات لأحب التجار، ولا أتغاضى حتى عن الماريجوانا حضرة الضابط. وقد ضربت كثيراً من الشباب الصغار لتدخينهم الحشيشة في

هذه الشوارع.

كانت محاولاته لتبرئة نفسه ستستمر بلا نهاية لو لم أتدخل.

- هل كان عم إنجين هو من ورّطه في هذا العمل؟

- بالطبع. كان دوردو سبب وجود إنجين في أوروبا. فقد توفيت والدة إنجين وتزوج والده، ولم يكن لدى دوردو أي أبناء فرباه حين كان في العاشرة من عمره ليترعرع هناك ويتقن اللغات الإيطالية والألمانية والإنكليزية. وقد كان دوردو ذكياً فترك إنجين جانباً ولم يرغب بخسارته، لأنه كان سيخدع الأجانب ويعلن مملكته الخاصة. لكن الإيطاليين ليسوا مغفلين؛ ففي إحدى الليالي قبل ثلاث سنوات اختفى دوردو ولم يتم العثور على جثته. وبعد ذلك بدأوا بتصفية الرجال واحداً تلو الآخر وبالكاد تمكّن إنجين من أن يفرّ بحياته حيث قدم إلى تركيا لا يحمل معه سوى سترته وحقيبته، وأتى إلينا خائفاً ومرعوباً. ماذا يمكننا أن نفعل؟ لقد كان دوردو كأخ لنا وهناك احترام متبادل بيننا. كما أننا لا نخذل من يلجأ إلينا، لهذا فتحنا له بابنا.

ذكّرتنا المافيا الإيطالية بشيء آخر.

- ألا يمكن أن يكون أولئك الأجانب هم من قتلوا إنجين؟ أعني تجار المخدرات؟

هزّ نظام رأسه بثقة:

- لن يتكبّدوا كل هذا العناء لأجل إنجين. كما أنهم أرسلوا رسالة واضحة وصريحة بأن أوروبا أصبحت حراماً عليه، وأنّ عليه أن يبقى في بلده من الآن فصاعداً.

- من الذي أوصل هذه الرسالة؟

فريق دوردو القديم من أقارب إنجين، حيث بدأ بعضهم بالعمل لحساب الإيطاليين. فالحياة قاسية حضرة الضابط والزعماء يتغيّرون، لكن العمل لا يتغيّر.

فكّرت بالقاتل المأجور في منزل إنجين.

- أتعرف تايدي طارق؟ لقد كان ينتظر في منزل إنجين هذا الصباح حاملاً بيده مسدساً.

لم تظهر أي علامات استغراب على وجهه.

- لقد سمعت عن الأمر. طارق هو الكلب المأجور الذي يعمل لأي شخص يدفع له، لكنني أشك أن الإيطاليين هم من استخدموه. فهم لن يمسوا إنجين ما دام في تركيا. لماذا يثيرون المشاكل بلا أيٍّ سبب؟

قال علي:

- ماذا لو كان إنجين يفكّر في مغادرة البلاد، إن كان لدى دوردو أموال في مكان ما أو مخزون من المخدرات؟

رمى برأسه للوراء برفق.

- ليس لديه هذا النوع من المال ولا حتى المخدرات... ولو كان لديه لعرفت فقد أخبرني بكل شيء. لقد أخذ الرجال كل ما لديه. وإنجين كان سعيداً بحياته هنا وما كان يرغب بالمخاطرة. فلماذا يعود للسفر إلى خارج البلاد؟

سألته:

- ماذا كان يفعل هنا؟ كيف كان يساعدك في أعمال الإنشاء؟

سألني وهو مرتاب بمدى ما أعرفه:

- الإنشاء... آه، أتقصد هذه المباني الجديدة التي سيتم إنشاؤها في تارلاباسي؟ لم يكن الأمر مقتصراً على ذلك، فإنجين كان يدي اليمنى. كما أن عملنا متنوع يا حضرة الضابط، فلدينا معرضان لتأجير السيارات وثلاثة حمامات وساونا وخمسة متاجر كباب أحدها في شارع إيبيك... ينبغي عليك أن تجربه... الطاهي من غازي عنتاب...

لم يعد مساعدي قادراً على الصمت أكثر وتحمّل هذا التحقيق البطيء.

- لقد كان إنجين يخطِّط لشيء من وراء ظهرك، فقد اشترى مجموعة من الأبنية في تارلاباسي.

- ماذا؟

بدا متفاجئاً تماماً.

- اشترى بعض الأبنية؟ لا يمكن لإنجين فعل ذلك. هل هذا ما أخبركم به إحسان؟

- لقد رأينا صكوك الملكية.

كان يستمع غير مصدق.

- نعم كلها باسم إنجين. قد يكون يستثمر الأموال التي تركها له دوردو.

بدا مشوشاً وبدأ يذكر بعض المعلومات التي كان ينبغي إبقاؤها سرية.

- ما كان بإمكانه الوصول إلى أموال دوردو، إذ إن عليه الذهاب إلى سويسرا للحصول عليها وعندها سيقتله الإيطاليون قبل أن تطأ قدماه البلاد. لقد حاول من قبل لكنه لم ينجح، وبدون تلك الأموال ما كان بإمكانه شراء كوخ في سيرناك فما بالك بمبنى كامل في تارلاباسي.

ابتسم علي بسعادة لكونه محقاً:

- لكنه اشتراها.

كان نظام يتعلق بيأس بثقته بصديقه إذ إنه لم يستطع تحمّل أن يتم خداعه.

- لا... أشك في الأمر. صكوك الملكية هذه مزوّرة... لا بد أن إحسان يخطِّط لشيء ما. نعم... في البداية قتل إنجين ثم زوّر هذه الصكوك ووضعها في مكان تجدونها فيه ليبدو الأمر كما لو أن إنجين قد خذلني ليخلق شعوراً أن هناك مشاكل بيننا، وهكذا سيكون لديّ الدافع لأقتل إنجين أو على الأقل ستعتقدون ذلك. أترون كيف يهيمن هذا الرجل على كل شيء؟

بدا كأنه صدّق ما كان يقوله فتساءلت للحظة إن كان صحيحاً. أيمكن أن يكون إحسان قد خطّط لكل هذا؟ لم يكن هناك أي جدوى من التفكير في الأمر، فمجرّد التحقُّق من صكوك الملكية سيكون كافياً.

- سنرى يا نظام. إن كنتَ محقاً فستصبح الأمور أسهل. لكن لا تغادر المنطقة لبضعة أيام.

- لا يمكنني المغادرة حضرة الضابط، فقد قتلوا صديقي وعليّ حضور الجنازة. لن نستطيع الاستمرار بالحياة حتى نضمن أن يرقد إنجين بسلام.

- حسناً... كما ينبغي على هاسر ألاّ تغادر أيضاً حتى تدلي بشهادتها.

بدا الاستياء على وجهه لكنه لم يعترض.

- ماذا يمكنني أن أقول. نحن نحصل على ما نستحق.

- بالمناسبة أين نيسي بافيون حيث تعمل عزيزة؟

- الأمر سهل حضرة الضابط. إنه في الطريق الرئيسي على صف المقاهي حيث كان موقف الحافلات، وهناك تنزل سلّماً قصيراً. لكن بماذا تهمك الفتاة؟

لقد وضع السؤال للحصول على بعض المعلومات مني، لكنني تجاهلته واحتسيت حسوةً من القهوة وأنا حائر في ما سأفعله مع بلاك نظام. فقد كان من الصعب تحديد إن كان واحداً من أولئك الكبار سريعي البديهة أم أنه مجرد رجل ودود يحاول مساعدتنا في العثور على قاتل صديقه. لكن الشيء الوحيد الذي أعرفه هو أنه لم يكن يكذب بشأن أمر واحد... كانت القهوة جيدة بالتأكيد.

لماذا تخرج مسدسك
إن لم يكن لديك الجرأة على إطلاق النار...



استمر الثلج يتساقط ببطء وتكاسل، ودون توقف، وكان النور المنعكس من المقاهي الليلية خارج مواقع الإنشاء في الشارع يلون ندف الثلج بألوان مختلفة، لكن كل ذلك لم يكن كافياً ليقضي على حالة اليأس السائدة في الشارع. فحين تقارن هذا الشارع بشارع الاستقلال تجد أن المساكين في هذا المكان الذين يعانون من ضربات سوء الحظ من حراس ضعفاء، ونُدل ماكرين، ونساء يبعن أنفسهن، وزبائنهن النهمين، وتجار مخدرات فطنين، ونشالين خفيفي الحركة، وصبية متسولين، وثملين واهنين، وزبائن مبكرين، كلهم يتسكّعون في الطريق أمام المحلات كما لو أنهم يحاولون منع الثلج من التراكم. وفجأة وجدنا أنفسنا وسط شجار حيث كان هناك ثلاثة أشخاص يتضاربون، ويتبادلون الشتائم والكلمات البذيئة.

- أليس ذلك مجرمك القديم؟

كان علي يشير إلى رجل يحاول لكم الشابين اللذين يدوران حوله كذئبين جائعين، وكان الثلج يشوّش المشهد فلم أستطع أن أرى. وحين اندفعت لإبعادهما عنه تعرّفت إليه... إنه حريم سليمان. ولم يكن الشابان اللذان كان يتشاجر معهما خائفين. ثم قام أحد الشابين الذي يرتدي سترة فضية مهترئة بحمل برميل صغير من أمام باب مقهى ورماه على رقبة سليمان الذي ترنّح على قدميه. فاستغل خصمه

الفرصة وكاد أن يرمي البرميل مرة ثانية حين قفز المجرم بسرعة غير متوقعة وتفاداه، فتعثر الخصم للأمام، وحينها سدّد سليمان ضربة قوية أوقعت الشاب على الأرض مصدراً صوتاً كما لو أن رأسه ارتطم بالحافة، ثم تدحرج البرميل باتجاه وتدحرج الشاب باتجاه آخر. وحين شهد الشاب الآخر مصير صديقه توجّه إليه فأمسك سليمان بقبضة مهاجمه في الهواء بيده اليسرى وبدأ يسحق القبضة براحة يده كدمية فقد كان أطول من الشاب وأكبر منه بثلاث مرات على الأقل. وحين واجه الشاب المرعوب عدوه الضخم حاول أن يحرّر يده لكن بلا جدوى. ثم حدث شيء لم نتوقعه فقد نهض الشاب الذي يرتدي السترة بسرعة وأمسك بالبرميل مجدّداً ورماه على سليمان فارتخت أصابعه ليستغل الشاب المحتجز الفرصة ويحرّر يده من قبضة العملاق ويهرب. هنا التفت سليمان إلى الآخر الذي كان يحمل برميل الجعة ويرفعه بكلتا يديه لكن يبدو أنه لم يستعد قوته بالكامل لأنه لم يستطع منعه من رميه مجدّداً؛ لكن لحسن الحظ لم يصب الشاب هدفه ووقع البرميل من يده وتدحرج على الأرض. حدق سليمان إليه كأنه يقول "لنرَ ما ستفعل الآن" فارتسمت تعابير الهزيمة على وجه الخصم واضحة جلية. وبعد توقف قصير قام بحركة ذكية كصديقه وهرب، ولم تكن لدى سليمان الطاقة الكافية ليلاحقه. لكن يبدو أن الكراهية في عينيه لن تخبو عما قريب، فبخبرة سنوات مد يده إلى معطفه وأخرج سكين صيد.

صرخت:

- لا تفعل!

لكنه لم يسمعني ورمى السكين على الشاب. لكن لحسن الحظ كان الشاب قد سمعني فرمى نفسه على الأرض لتطير السكين وتتجاوزه وتنغرس بلافتة خشبية على حافة الطريق كُتب عليها: «شعرنا المستعار كالشعر الطبيعي». رأى الشاب الأداة الحادة تهتز هناك وبقي بلا حراك للحظة كأن الدم تجمّد في عروقه، ثم التفت إلى سليمان ونظر إليه بعينين تملؤهما الكراهية ومد يده إلى خصره، لكنه لم يستطع إخراج ما يريد، وفي النهاية نجح وصوّب مسدساً صغيراً إلى سليمان.

- الآن ستندم.

لم يخف سليمان على الإطلاق، فمن يعلم كم مرة حدّق إلى فوهة مسدس خلال حياته التي تقارب نصف قرن.

- من الأفضل أن تطلق النار وإلا فأنت من سيندم.

ومشى باتجاه المسدس ليتحوّل الغضب المتأجج في عيني الشاب تردّداً ثم توجّساً وخوفاً. وبدأ المسدس يرتعش.

- هيا أطلق. لماذا تخرج مسدسك إن لم يكن لديك الجرأة على إطلاق النار أيها النذل الصغير؟

صرخت:

- كفى، توقّف.

مع تحذيري سحب مساعدي مسدسه وصوبه إلى الشاب. توقف سليمان وحدق إلينا متفاجئاً وهو يفكر من أين أتينا. استغللت الفرصة لألتفت إلى المراهق الذي كان يرتجف على الرغم من المسدس الذي بيده.

- ألقِ بسلاحك الآن.

كان الشاب لا يزال غير واثق من نحن.

صرخ علي وهو يمسك مسدسه بكلتا يديه:

- الشرطة، ارمِ مسدسك على الأرض.

تحوّل الخوف على وجه الشاب راحةً ورمى مسدسه على الأرض.

قال مساعدي وهو يلتقط المسدس:

- شاب صالح، لقد فعلتَ الصواب وإلا كنتَ ستلقى حتفك.

التفت إلى العملاق الذي كان مستعداً للهجوم على الشاب مجدّداً.

- قف يا سليمان. قف حالاً.

كبت الرجل غضبه ووضع يده اليمنى على قلبه.

- حسناً، حضرة الضابط كما تريد.

لكنه مع ذلك لم يستطع كبت غضبه، فصرخ على المسكين المحتمي وراء مساعدي.

- اشكر حظك السعيد لأن حضرة الضابط هنا أيها النذل الصغير، وإلا لأدخلت

كل الرصاصات في ذلك المسدس في رأسك.

وقفت أمامه وأومأت له لأحسم الأمر.

– حسناً يا سليمان. هذا يكفي.

توقف وأحنى رأسه.

– لا يا حضرة الضابط. سأتوقف الآن، لكني لست أنا من يتحمل اللوم. فهذا القذر هو من بدأ الشجار هو وذلك السفاح.

التفت لأنظر إلى حيث يشير فوجدت على بعد بضع ياردات، أمام الحشد المتجمع، الشاب الآخر الذي هرب فصرخ الشاب:

– أيها القذر كم مرة قلنا لك ألاّ توقف تلك المرأة هناك؟

وأشار إلى متجر الهواتف المحمولة في أعلى الشارع.

– إنه يسوق امرأته أمام متجرنا. جميع مالكي هذه المتاجر شهود.

لكن أحداً لم ينبس ببنت شفة. ففقد أمله في الحشد وأدرك أن عليه أن يحل مشكلته بنفسه.

– إننا نجني لقمة عيشنا من هذا المكان يا حضرة الضابط، والمرأة تقف هناك منذ العاشرة صباحاً كل يوم... هذا يشوه سمعة الشارع. لا يمكننا جني المال هكذا. لقد فتح والدنا المتجر لي ولأخي.

وأشار إلى شريكه في القتال الواقف خلف علي.

– والدنا حجّي لذا لا يمكنه القدوم إلى المتجر. لقد طلبنا منها أن تقف في مكان آخر، ووضعنا وسيطاً، وأرسلنا رسائل. لكنه يرفض أن يسمعنا.

قاطعه سليمان:

– هذا صحيح. أنا لم أسمع وتجاهلت الأمر. هذا حيي أيها المعتوه... أتفهم؟ أنا هنا منذ مائة عام. أتظن أن بإمكانك طردي بأجرة ألف ليرة.

وكان خطأً أن لا أحذّره.

– انتبه لما تقوله يا سليمان. الشارع ليس ملكاً لأحد.

– حسناً حضرة الضابط. إن كان هذا ما تقوله فمهما تكن العقوبة سأتحمّلها، لكن مشكلتي مع هذين النذلين. من يظنان نفسيهما ليضربا امرأة ضعيفة؟

حين قال ذلك التفت لينظر باتجاه موقف الحافلة القديم. حينذاك رأيت زوجته ناسية تحدّق إلينا دون أي غضب أو خزي، كما كانت في الليلة السابقة في المطعم، وكان طرف معطفها الأسود ملطخاً بالوحل من الأعلى إلى الأسفل. لكنها كانت تقف تحت الثلج المتساقط كأنها تريد أن تبقى خارج ما مرّت به... خارج الزمن... خارج حياتها... كشجرة بدأت تيبس.

- حين سمعتُ صوت ناسية كانا يركلانها حضرة الضابط. لقد كنت في ساري ميهان، وآسف على فظاظتي، لكنني كنت في دورة المياه ولم أكن مدركاً لما يحصل. نادتني نادلة ساري لآتي بسرعة فهما سيقتلان ناسية، فجئت بسرعة. كان عليك أن ترى كيف كانا يضربانها... الخسيسان...

كان علي الأكثر تأثّراً بكلماته فهو يكره الرجال الذين يرفعون أيديهم على النساء.

صرخ كأنه هو من كان يتشاجر مع الشابين:

- هل كنتما ستقتلانها؟ أنا أتكلم معكما. هل كنتما تخطِّطان لقتلها؟
- لقد شتمتنا...

انفجر سليمان قبل أن يتعقّل مساعدي الذي ظن أن من البراعة التصرف بناء على عواطفه لا عقله.

- أيها الكلب الكاذب!

وحين لم يستطع تجاوزي لوّح بإصبعه في الهواء.

- أنت رجل كبير فقل الحقيقة. ناسية لا تفتح فمها لتتكلم، وتقول إنها شتمتك؟
- قد لا تفتح فمها لتتكلّم لكنها تفتحه لحوالى خمسين شخصاً في اليوم...

صرخ به علي:

- اخرس. أما زلت تثرثر؟ شيء لا يُصدّق.

لم يكن شيئاً جيداً أن يتحيّز مساعدي بهذا الوضوح، فما مغزى تعقيد الأمور. قلت:

- حسناً... حسناً... فهمت.

والتفتُّ إلى الشاب الذي كان حريصاً على إبقاء مسافة بينه وبين سليمان

وقلت:

- اسمعني... إن كانت لديك شكوى فهناك مركز شرطة في آخر الشارع. لا يمكنك ضرب امرأة لتصل إلى ما تريد. قدّم الشكوى ودعْ أصدقاءنا يهتمون بالأمر.
- لقد فعلنا لكن شيئاً لم يحدث. فالجميع يعرفون هذا الرجل، وقد استدعوه للاستجواب مرة ومرتين وانتهى الأمر.
- إنهم متواطئون معه. لست أنتَ ولكن بعض رجال الشرطة هناك...

كان علي على وشك الهجوم ولم يكن بإمكاني السماح له بذلك.

- إذن ارفعوا دعوى ضده. ما من سبيل آخر.
- لكن يا حضرة الضابط...

صرخ مساعدي:

- لا تعترض. قل لي هل لديك رخصة لهذا الشيء؟ ولوّح بالمسدس الذي يحمله.
- نعم بالطبع. ما الذي يفترض بنا فعله حين لا تقوم الحكومة بأداء عملها؟ نحصل على مسدس... ورخصة.

قلت وأنا أؤدي دور الشرطي المسيطر:

- حسناً... لديك شكوى لنأخذها إلى مركز الشرطة.

تكدّر وجها الشابين فمركز الشرطة يعني الاستجواب ما يعني كثيراً من المشاكل، كما انعقد لسان سليمان أيضاً. من الواضح أنه لم تكن لدى أحد النية بدخول المركز، لذا فعليّ الآن أداء دور الشرطي الأبوي.

- حسناً. ما رأيكم بإغلاق الموضوع؟ دعْ صديقينا هنا يا علي يريانك رخصة مسدسهما فإن كانت سليمة ما من مشكلة.
- بالطبع ما من مشكلة يا حضرة الضابط، فلم نفعل أي شيء غير قانوني. تعالَ إلى المتجر وسنريك.

ناديت مساعدي وهو يتبع الأخوين إلى متجر الهواتف المحمولة.

- أخرج السكين من تلك اللافتة أيضاً. لا تتركها هناك.

- حسناً حضرة الضابط.
- لن تصادر السكين أليس كذلك؟

كان سليمان يتوسّل ويناشدنا ألاّ نتركه أعزل من السلاح وسط ميدان الحرب هذا فوبخته:

- احمد الله على أننا لم نعتقلك. لقد كنتَ على وشك قتل الشاب.

حين أدرك أنني جاد صمت وخفض رأسه فالتفت إلى الحشد الفضولي حولنا.

- هيا يا أصحاب. لقد انتهى العرض... انصرفوا من هنا.

تشتّت الحشد، وفجأة تحوّل سليمان بشعره المكسو بالثلج الأبيض إلى رجل عجوز... لاحظت دماً على وجهه فقلت:

- حاجبك مجروح.

رفع يده بهدوء إلى وجهه:

- أظن أنني تلقيت لكمة. إنني أضعف يا حضرة الضابط... فيما مضى كنت أتشاجر مع العشرات وأخرج دون أن يتمكن أحد من أن يلمسني. أما الآن فقد أصبحت عجوزاً.

عزيزة فتاة جيدة...



ظللت أفكر بحريم سليمان حتى وصلت إلى نيسي بافيون. لم أستطع التوقّف عن تصوّر السكين التي رماها على ظهر الشاب... كان بإمكانه قتل إنجين بالطريقة نفسها، ولديه سبب كافٍ لذلك. فإنجين استولى على رأس ماله المكوّن من ثلاث نساء على طاولة القمار، وهو لم يحاول إخفاء سروره من خبر وفاة إنجين؛ لكن من الصعب على هذا الرجل العجوز إنجاز العمل دون مساندة، فلا يمكنه مجابهة بلاك نظام وحده... ربما يكون دايس إحسان هو من أرسله أو ربما أجبره. إنني أشك حقاً أن شغف سليمان بالقمار قد ذوى، فمن الصعب التخلّص من هذه العادة بسهولة... إنها مرض... ربما يكون هناك لعبة الهدف منها قتل إنجين... وإحسان من النوع الذي يقوم بمثل هذا الأمر... ربما تحايل على سليمان بجسده الضخم وعقله الصغير ليصبح قاتلاً سواء أراد أم لا. فإن كان سليمان هو القاتل فماذا عن تايدي طارق؟ ما هو دوره في هذه الأحداث؟ هل كان دايس يريد أن ينجز الأمر بشكل آمن؟ هل كان يظن أن تايدي سينهي العمل في حال فشل سليمان؟ لا... فعقلية هؤلاء الرجال لا تعمل بهذا الشكل، وحتى لو عملت فإنه لن يتكبّد كل هذا العناء لأجل إنجين... ربما يكون الإيطاليون هم من استخدموا طارق إذ يمكنهم منع إنجين من دخول سويسرا لفترة محدودة، لكنه سيجد طريقة للعودة إلى هناك، وما إن تطأ قدمه تلك البلاد حتى يسعى للثأر لدوردو. وهكذا فإنه يشكل خطراً على الإيطاليين لذا فقد يكونون أرادوا قتل إنجين للتخلص من المشكلة، ففي عالم تحكمه العولمة، أكثر شيء طبيعي هو عولمة الجريمة.

قال علي بأنفاس متقطّعة:

- وأخيراً لحقت بك يا حضرة الضابط. لقد كان الشابان يقولان الحقيقة، فالمسدس مرخّص. لكنني ما زلت غير واثق إن كان علينا أن نصادره لفترة من الزمن فأنا لا أريد أن يُصاب سليمان بأيّ أذى.
- لا تقلق فليس لدى هذين الشابين الجرأة على قتل رجل... كل ما هنالك أنهما فتحا متجرهما في المكان الخطأ، لكن الحجّي العجوز سيجد لهما متجراً في حيٍّ آخر عما قريب. فحتى لو استخدما السلاح فلن يستطيعا التخلّص من سليمان.
- أرأيت كيف رمى سليمان السكين؟

جيّد... لم تفته هذه التفاصيل المهمة.

- نعم لقد رأيته. لنعطِ السكين لزينب ونطلب منها أن تفحصها فقد تجد عليها دم إنجين أو شيئاً ما.

حين أنهيت جملتي رأيت أضواء لافتة نيسي بافيون تتلألأ فقلت:

- أظن أننا وصلنا.

كان نيسي بافيون كما وصفه بلاك نظام بالضبط. المكان تحت اللافتة مهمل، وتفوح رائحة الرطوبة والعفن من داخل القبو بحيث يصعب التخلّص منها. نزلنا السلّم الملتوي وخطونا عبر المدخل الضيّق لنجد أنفسنا في غرفة مغطاة بالمرايا... نعم... كل الجدران مغطاة بالمرايا ومضاءة بنور أزرق وكذلك السقف... كانت فكرة غريبة لكنها غبية لأن هذا المكان كان ضيقاً. قد يكون هذا القبُو قبوَ فحم لمبنى تم بناؤه في بداية القرن الماضي. كانت الكرات المتلألئة متدلية من السقف، وحين بدأ البرنامج تلألأت جميع الأضواء المختلفة ليمتلئ الجو بالألوان. كان ديكور الديسكو على طراز الثمانينيات لا يزال مهيمناً، ولم يكن هناك سوى طاولة واحدة مشغولة. ومن الصعب تحديد عمر المضيفات الثلاث بسبب الإضاءة المنخفضة ومساحيق التجميل الكثيرة التي يضعنها، لكنهن كن يرتدين أثواباً كالأثواب التي تراها على مضيفات العروض الصباحية النسائية والتي تتوق ربات المنازل لاقتنائها. نظرت لأرى إن كانت إحداهن عزيزة، لكن لم تكن أي واحدة منهن تشبهها. فجأة

انقطعت أفكاري بصوت مزمار حزين. فالتفتنا لننظر إلى المنصة المرتفعة حوالى عشر بوصات عن الأرض وسط الغرفة، لكن لم يكن هناك أحد في المساحة المرتفعة التي من المفترض أن تكون منصة وإنما خمسة مقاعد بانتظار الموسيقيين. كان الوقت لا يزال باكراً والبرنامج لم يبدأ بعد... إذن أين عازف المزمار؟ وأخيراً رأيناه... جالساً على مقعد في الظلام على بعد بضع أقدام من يسار المنصة. كان يرتدي لباساً أسود وقميصه الأبيض تحوّل إلى اللون الأرجواني بسبب تأثير الأضواء الزرقاء. كان علي على وشك شق طريقه نحوه لكنني أوقفته.

- انتظر لحظة يا علي. إنه بارع للغاية فلنستمع له قليلاً.

ولم أكن أبالغ فقد كان يعزف عزفاً جميلاً... يقولون إن الموسيقى نغم سماوي؟ نعم... لقد كانت عميقة ومؤثرة... صوت ينقّي الروح. للحظة نسيت كل شيء عن هذا النادي الليلي وعزيزة والجثة والتحقيق وأنصتُّ للأنغام الساحرة التي لم تستمر طويلاً. فقد أوقع عليّ كأساً عن طاولة وأجبرني على مواجهة واقعي المنسي، إذ إن عازف المزمار سمع أيضاً صوت تكسّر الزجاج فتوقّف عن العزف وحدّق إلينا بحيرة.

قلت بإعجاب:

- مساء الخير. الموسيقى رائعة.

ابتسم فظهرت سنه الأمامية مكسورة.

- مساء الخير يا سيدي وشكراً. لكن النادي لم يُفتح بعد. يمكنك أن تعود بعد ساعة.

تجاهلنا ذلك وتوجّهنا إلى طاولته.

قال علي مظهراً بطاقة هويته:

- نحن لسنا زبائن وإنما نبحث عن عزيزة هانم.

ردّد عازف المزمار بنبرة يشوبها القلق:

- عزيزة هانم؟

خرج من الظلام... كانت جبهته عريضة فلم يغطِّها الخطّان الضيّقان من الشعر الشائب، في حين تألّقت عيناه السوداوان كزيتونتين في وجهه الطويل وامتدت ذقنه

المحدبة تحت شفتيه الغليظتين المتغضّنتين.

تمتم مساعدي بصوت رتيب:

– نعم. إنها تعمل هنا.

تفحّصنا بنظرته الخائفة.

– لماذا تبحثان عنها؟

– لماذا برأيك؟

– هل بسبب تلك القضية مع إنجين؟

ردّ علي أسلوبه الارتجالي نفسه:

– وهل من سبب آخر؟

وقف عازف المزمار عاجزاً كشخص يشهد قدراً فظيعاً يحدث بالتدريج، ثم جلس على المقعد الفارغ أمامه فغيرت الموضوع.

– لماذا تعزف في هذا المكان؟

نظر إليّ من المقعد الذي جلس عليه.

– أنا المحقّق نيفزات. كنت أتساءل فقط لِمَ لا تعزف في مكان أفضل؟

ظهر شرود الذهن على عينيه الكبيرتين.

– سيسخرون منّا يا حضرة الضابط. فأنا لم أذهب إلى المدرسة مطلقاً، ولديّ هذه الأداة منذ طفولتي، وتعلّمت العزف عليها لوحدي من خلال النفخ فيها. لِمَ قد يكترث بي أحد؟

ظهرت لديه لكنة وهو يتكلم.

– من أين أنت؟

اتسعت ابتسامة خجولة على وجهه الداكن اللون.

– من بلغاريا يا حضرة الضابط. لقد جئت إلى هنا عام تسعة وثمانين حين كنا مطاردين... هجرنا منازلنا وجئنا إلى هنا.

أحببت هذا الموسيقي السعيد والمحظوظ.

– ما اسمك؟

– سادري. حصلت على اسمي هنا. إنه اسم جدي العزيز المتوفي حيث غيروا

لنا أسماءنا في بلغاريا. كان اسمي سيرغييه لكن أمي كانت تدعوني دائماً باسم سادري... سادري كلارنيت.

ضحك علي لكن الموسيقي لم يأبه.

– هذا صحيح يا حضرة الضابط. نسبتي كلارنيت... نحن رومانيون... أنتم تدعوننا بالغجر. كان جدي ماهراً في عزف المزمار وكذلك أبي، وتعود أصولنا إلى السلطنة العثمانية. حين قدمنا إلى تركيا اخترت اسم كلارنيت لنفسي...

ابتسمتُ بود.

– ماذا يمكنني أن أقول يا سادري... لكنك اسم على مُسمى.

– شكراً يا حضرة الضابط. إنني أبذل قصارى جهدي.

ثم استغرق في التفكير وقال:

– ليس لها أي يد في ذلك. عزيزة فتاة جيّدة... إنها نقية وطاهرة كوجهها... لم تؤذِ أحداً... ما كان بإمكانها حتى لو أرادت.

تفحّص مساعدي سادري بارتياب.

– ما هي علاقتك بعزيزة؟

أشاح بناظريه كأنه تم الإمساك به بالجرم المشهود.

– ماذا تظن أيها المحقق؟ إنها تعمل هنا.

وأومأ إلى طاولة النساء.

– انظر... أولئك الفتيات مثلها أيضاً... سيرمين ونوخيت وغولسين... نحن هنا كعائلة، لكن مكانة عزيزة مختلفة فهي ليست مجرد مضيفة هنا وإنما تغني أيضاً... إن سمعتها ستعرف ما أعنيه. صوتها جميل جداً... في الواقع هي من لا يناسبها هذا المكان وليس أنا. لكن أحداً سيكتشفها عما قريب وستصبح نجمة كبيرة مثل سيبال أو كيباريه وسيصبح لها برنامج تلفزيوني... تذكّر كلماتي... ما إن تخرج من هذا المكان...

ما دمنا نناقش موضوع عزيزة سعلت وسألته:

– أتعرف إنجين جيداً؟ لا بدّ أنه كان يأتي إلى هنا كثيراً.

ارتخت شفته الغليظة بانزعاج.

- نعم... مؤخّراً كان يأتي إلى هنا طوال الوقت.

وأشار بمزماره إلى الطاولة التي على يمين المنصة المخصّصة لشخصين، وعليها مزهرية بيضاء تحوي وردة حمراء.

- هذه طاولته. وحتى لو لم يأتِ لا يمكن لأحد الجلوس عليها، وإنما تبقى الطاولة فارغة حتى الصباح كطفل يتيم. فقد كانت رؤية عزيزة مهمة عنده حيث كان يقول لها: "إن لم أرَكِ فسيسوء عملي" كما لو أنه يقوم بعمل كبير... ومؤخراً لم يعد يسمح لها أن تعمل مضيفة فهو غيور للغاية.

- أظن أنك لم تحبه كثيراً؟

تغضّن وجهه المتجعّد.

- لم يكن شخصاً محبوباً فقد فطر قلوب كثيرين يا حضرة الضابط وآذى كثيراً من الناس وخاصة النساء، كما أنه كان قاسياً. وكان بلاك نظام يدعمه... لم يكن لديه اهتمام بالمشاعر... لكن انظر ماذا حدث... لقد جاء شخص أقوى منه وقتله.

سأل علي مباشرة:

- ومن هو هذا الشخص الأقوى؟ أتعرف من قتله؟

بدا الموسيقي المهاجر خائفاً.

- لا يا حضرة الضابط. كيف لي أن أعرف؟ أنا مجرد عازف مزمار. ليس لديّ أيّ عمل مع هؤلاء الرجال المزعجين.

كنت قلقاً من أن يضغط مساعدي عليه أكثر فيصمت، ولا نستطيع الحصول على أي كلمة أخرى منه فسألته:

- وماذا عن عزيزة؟ هل كانت تحبه؟

تنهّد بعمق.

- نعم... كثيراً... لقد كانت مجنونة بحبه لكن ذلك الرجل...

كانت الكلمات على لسانه لكنه كبتها.

- ليرحمه الله... كان ذلك الرجل يستخدمها. كان لديه كثير من النساء حوله ولم يكن ليكترث بها.

سأله علي:

- كيف ذلك؟ ألم تقل للتوّ أنه لم يكن يسمح لها بالعمل مضيفة؟

خفض صوته كأنه يخاف من أن يسمعه أحد:

- كان ذلك للمظاهر فقط. لو كان الأمر حقيقياً لما سمح لها بالعمل هنا على الإطلاق؟ لا... كان يريد فقط أن يكون قادراً على التبجُّح أن لديه صديقة في نيسي بافيون وأنها أجمل فتاة في المكان وأفضل مغنية أيضاً.. لكنه يريد أن يقول أيضاً إنها ليست مضيفة... لا يمكن لامرئ خسيس أن يحب عزيزة؟ كان هناك شيء لم يظهره.
- لماذا تقول هذا؟ هل كان يسيء معاملتك؟
- كيف له أنه يسيء معاملتي يا حضرة الضابط؟ أنا لا أقترب من الرجال أمثاله... لقد كان يسيء معاملة عزيزة.

لم يكن هذا مفاجئاً لي، ففي ذلك العالم، الحب يعني القسوة والابتذال والعنف ضد النساء.

حثثته:

- هل كان يضربها؟

نظر حوله بحذر.

- إذا سألك الرئيس فلا تقل أنك سمعت بالأمر مني... نعم كان يضربها... لقد كان يغار منها بطريقته الخاصة. حين يكون ثملاً كان يطلب منها ترك العمل. لكن كيف يمكن لعزيزة ترك العمل؟ إنهما ليسا متزوجين. وإن فقدت اهتمامه بها بعد يوم أو يومين فما الذي سيحصل لها؟ كيف ستقوم عزيزة بإطعام نفسها؟ اعذرني، لكنها قد تضطر للعمل في الدعارة. وهذا العمل صعب يا حضرة الضابط وخاصة بالنسبة إلى فتاة كعزيزة.
- إذن ما الذي منعها من تركه؟ الخوف؟

هزّ رأسه بالتأكيد.

- ليس الخوف وإنما الحب... إنها تحبه بصدق... كانت تتقبّل كل تلك الشتائم والإهانات... هذا هو القلب. كانت الفتاة السخيفة تختلق الأعذار... كانت

تقول "إنه يغار، وهذا يعني أنه يحبني يا سادري".

صرخ علي وكأنه يشعر بالأسف لأجل عزيزة:

- ألم يحاول أحد إرشادها؟ ألم يقل لها أحد إن الرجل سيئ؟
- بالطبع فعلوا أيها المحقّق... كلنا فعلنا حتى تعبنا من التكرار، لكنها لم تكن تنصت لأحد. هذا هو الحب أيها المحقّق... إنه الجنون المعتاد... في الحب يتوقف العقل عن العمل، وعزيزة فتاة شابة.

اغرورقت عيناه بالدموع وكأنه يشعر بعواطف الفتاة:

- لقد كانت مليئة بالأمل لدرجة أنها كانت تجد أعذاراً لأكثر تصرفاته البائسة... هذا ليس غباء ولا سذاجة وإنما هو يأس... هذا ما يحصل حين تتمرّغ الأحلام الوردية لفتاة شابة بمستنقع كهذا، حيث يتحول وغد كإنجين إلى أمير على حصان أبيض.
- إذن فموته شيء جيّد.

هل كان علي يختبر سادري أو أنه يقول ما يشعر به فحسب؟ لم أكن واثقاً.

ردّد علي:

- هذا جيّد... هذا يعني أن الفتاة تحرّرت...

هزّ سادري رأسه بحزن:

- لا أيها المحقق. أتمنى لو أن الأمر كان على هذا المنوال، لكنْ ليس هذا ما حصل، فالفتاة المسكينة تبكي منذ أن سمعت بموته ولا أدري كيف ستتجاوز الألم.

نظر علي إلى الباب كما لو أنه سيراها هناك.

- متى تأتي عزيزة؟

رمشت عينا عازف المسمار بعصبية.

- ماذا تعني أيها المحقّق؟ أنا أقول لك إن الفتاة طريحة الفراش من الحزن فكيف يمكنها التزين والغناء في يوم كهذا؟ لا... عزيزة لن تأتي الليلة.

قلت محاولاً تهدئته:

- حسناً لكننا بحاجة للحديث معها. أظن أنك تعرف عنوانها؟

- إنها تقطن في شارع كورتولدو في دولابدير، لكنها لن تتكلم... المسكينة ابتلعت كمية من الحبوب المهدئة لذا فهي لن تفهم حتى ما تقولانه.

ردّ مساعدي غير المتعاطف:

- سنحاول معها. أخبرنا ما رقم منزلها؟

حدّق سادري إلى الشرطي العديم الإحساس وفهم أن لا مهرب من الأمر.

- إنها في المنزل في أعلى الطريق فوق سوق سيك. لكن أرجوكما لا تذهبا إلى هناك الليلة يا حضرة الضابط ولا تزعجاها أكثر... اتركاها وشأنها لترتاح قليلاً... أعدكما أن أحضرها إلى المركز بنفسي غداً.

أشفقت عليها كما لو أنه كان محقاً. إن كانت عزيزة قد تناولت كل تلك الحبوب المهدئة فلن تفهم من نحن، لذا قلت:

- حسناً، لكن إن حصل أيّ خطب فستتحمل المسؤولية وفقاً لذلك. سأنتظرك في المركز غداً صباحاً.

لاحت ابتسامة مشرقة على وجهه الأسمر.

- ليباركك الله يا حضرة الضابط. لا تقلق، سنكون هناك.

قد يكون شرطياً لكنني مواطن



وقف الرجل ذو الشعر الأبيض منتصباً أمامي كجزء من الظلام:

- سيعودون... هذا الموت مجرد بداية... سيندلع حريق هائل ويبتلع اللهب كل شيء وكل شخص، ثم سيعود أولئك الذين رحلوا... هذه هي الطريقة الوحيدة لإسكات الهمسات.

كنت بانتظار الفتيين في كادين سيكمازي وقد بدأ الثلج يذوب والصقيع ينتشر عبر الشوارع الملتوية. بعد أن غادرنا نيسي بافيون أرسلت علياً إلى منزل الضحية لإحضار زينب، ودعوتهما إلى العشاء الذي لم تستطع إفجينيا حضوره في فيراي ميهان كنوع من الاحتفال المتأخر برأس السنة، لنقيّم الوضع سوياً. لكن فجأة ظهر هذا الرجل العجوز من الظلام.

قلت للرجل الذي يرتدي ملابس ممرّغة بالوحل:

- من الذي سيعود يا سيدي؟ أيّ همسات؟

أشار إلى المبنى المهدم في أعلى الشارع المسدود بيد مرتعشة.

- الناس الذين بنوا هذه المنازل ويقطنون في هذه الشوارع.

واستدار بعصبية كأنه سمع شيئاً، ونظر إلى الطريق الضيّق وراءه، ثم بدا الذعر في عينيه وقال:

- انظر. إنهم هناك. لقد أخبرتك أنهم سيعودون... لن يتركونا.

سألته وأنا ألتفت إلى حيث ينظر:

- من هم؟

لم يكن هناك أحد... لا إنسان ولا قطة... لا بدّ أن الرجل العجوز يرى أحداً لأنه قال منزعجاً:

- هم.

وبدأ صوته يرتعش كيديه:

- ألا تراهم؟!

كان وضعاً يثير الأعصاب.

- عمّ تتكلم يا سيدي؟ لا يوجد أحد هناك.

حملقت عيناه السوداوان بي من تحت حاجبيه الأبيضين العريضين المرفوعين نحو جبهته العريضة.

- أحقاً لا تراهم؟! انظر... إنهم هناك. هناك المرأة الشابة الممسكة بذراع الرجل... الرجل ذي المعطف الأزرق والقبعة الزرقاء على رأسه... معطف المرأة أحمر ووشاحها مرقّط بنقاط وردية اللون. ألا ترى تلك الفتاة الصغيرة؟ انظر... لقد ألبسوها معطفاً أزرق مشرقاً وقلنسوة زرقاء، وهي تحمل دمية ترتدي ثوباً أحمر.

نظر إليّ بعينين تملؤهما الريبة.

- هل تحاول خداعي؟

كان من الواضح أن الرجل العجوز قد فقد رشده.

كان مقتنعاً بكلماته للغاية فنظرت مجدّداً لئلا يشعر بالاستياء، لكن لم يكن هناك أحد بالطبع. حين نظرت إلى الأعلى رأيت تحت النور الباهت المنبعث من نوافذ المباني المتداعية الغسيل المتجمّد المتروك في الريح والمتدلّي من حبال الغسيل الممدودة بين المنازل. لا بد أنه ظنّ الأثواب أشباحاً.

قال صوت رنّ في الليل:

- عمَّ تثرثر مجدّداً يا ديوجينز؟ لا تبالغ وإلا فسيعتقلك الضابط نيفزات.

حين التفت لأرى التقت عيناي عيني كيتو الذي بدا سعيداً على الرغم من أنفه المغطى بالضمادات. لكنّ ما فاجأني أكثر هو أن بيرانا كان واقفاً إلى جانبه. ألم يتشاجرا الليلة الماضية؟

- من تظن أنك تخدع أيها الوغد؟ من الذي سيعتقلني؟
- ألا تفهم يا ديو؟ هذا المحقّق نيفزات. إنه من الشرطة... إنني أقول الحقيقة.

لم يستسلم الرجل العجوز مباشرة.

- وإن يكن شرطياً؟ قد يكون شرطياً لكنني مواطن.

ومع ذلك فقد خطا بضع خطوات خجولة إلى الخلف، ثم توقف وانحنى للأمام قليلاً:

- وفي كل الأحوال لا تخاف الأشباح من الشرطة، فالموت سيستمر. سيكون هناك حريق يحرق كل شيء... جميعنا... لن يبقى أي شخص... فقط هذه المباني المهجورة... وقد تحترق أيضاً... انظروا... انظروا... إنهم قادمون! إنهم عائدون لأجل المشرّدين... لأجلكم... لأجلي... إنهم قادمون لأجلنا جميعاً.

التفت وتراجع إلى الخلف كما لو أن أحداً يطارده، ثم تلاشى فجأة كما ظهر... كان أمراً محزناً، لكن كيتو ظنّ الأمر مسليّاً وانفجر ضاحكاً.

أما بيرانا فقد خطا خطوة أخرى وهو يرتعش في سترته الجلدية الحمراء:

- غريب الأطوار. الأذكياء لا يجدوننا أبداً والمجانين لا يتركوننا وشأننا.

فكّرت في وعظهما لكنني رأيت أنهما منتشيان لذا لم أتكبّد عناء.

قلت مقترباً منهما:

- من هذا الرجل العجوز؟

واخترقت أنفي رائحة حادة... المخدّرات... المادة السحرية التي أنقذت هذين الفتيين من معاناتهما وأخذتهما إلى النعيم... اتجهت عيناي إلى يد كيتو اليمنى فوجدت قطعة من القطن المغموسة بالمخدّرات في قبضة يده، حيث كان يمسكها كجوهرة ثمينة لكنه لا يبدو منتشياً بالكامل لأنه رأى أين أنظر.

قال وهو يزيح يده بهدوء وراء ظهره لإخفاء كنزه:

- أتسأل عن ديوجينز يا حضرة الضابط؟ إنه رجل بلا عائلة ويعيش في ساحة الكنيسة هناك. إنه أرمني أو يوناني أو ما شابه. لقد كان ثرياً.

وأشار بيده الفارغة إلى المبنى ذي الطوابق الأربعة وراء الساحة الصغيرة:

- انظر... كان هذا منزله وكانت لديه مجموعة من المتاجر أيضاً، وتقوم الكنيسة بجمع كل إجاراتها مقابل الاعتناء به. إنه لم يؤذِ أحداً لكنه دائماً منتشٍ... في النهار يغني ويرقص وصوته أخّاذ، وهو مثقف ويغني بلغات مختلفة... سيثير إعجابك إذا سمعته... صاحب المقهى هناك ساكير يحب الرجل ويهتم به حيث يحصل ديوجينز على ثلاثة أكواب شاي كل يوم مجاناً. وإذا كان الجو مشمساً فإنه يضع كرسياً خارج المقهى ويجلس هناك حتى المساء. لكن القس لا يتركه في الخارج في الليل إذ إن الظلام يؤثر على رأسه فيسمع أصواتاً ويتكلم مع الجن ويرى أشباحاً... تلاحقه مخاوفه ويركض في الشوارع كالمجنون... انظر... لقد بدأ... إنه أحد مجانين تارلاباسي يا حضرة الضابط... انظر إلى هذه المباني المهجورة... أيمكن لأي إنسان طبيعي أن يخرج من هذا المكان؟

تفاجأت بمدى منطقيته... هؤلاء الفتيان يكبرون قبل أوانهم وسيموتون قبل أوانهم. أشرت إلى الضمّادة الموجودة كبقعة بيضاء وسط وجهه القذر.

- كيف حال أنفك؟

ابتسم معتدّاً بنفسه:

- جيد. سأعرف حين أزيل الضمادات. إذا كان وضعه سيئاً فسأخضع لجراحة تجميلية كالممثلين المشاهير وتلاحقني النساء... وربما تكتشفني البرامج التلفزيونية وأخرج من هذه الحياة القذرة.

رفع بيرانا قبضته اليمنى، وبيده الأخرى أمسك بمعصم كيتو وهز صديقه.

- أيها المغفل... الناس أمثالنا لا يصيبون ذلك النوع من المكاسب، فمصيرنا محتوم يا رجل... محتوم... محكوم علينا بحياة سعيدة اليوم وغداً سيعفون عنا. أيّ مصور؟ من أنت بالنسبة إليهم؟

- وماذا هناك؟ قد لا أقف أمام كاميرات التلفاز لكن كاميرات المراقبة في المدينة ستتعرف إليّ.

لقد كانا فيلسوفين بطريقتهما.

قلت مشاركاً في الحديث:

- كاميرات المراقبة لن تجعلك مشهوراً. إذا قبضوا عليك ترتكب ذنباً فلن يبدوا

أيّ رحمة، وسيرسلونك مباشرة إلى السجن.

تجاهل كلماتي.

- لا بأس يا حضرة الضابط... ماستي أصبح هناك.

حقاً... لم يكن الفتى الثالث معهم.

- ماذا حصل؟

قال بسعادة:

- ماذا تظن؟ أتذكر الكمان والطبل اللذين رأيتهما الليلة الماضية؟ لقد سرقهما من أولاد غجر من دولابدير ثم كذب علينا وقال إنه وجدهما في القمامة. لكن لا شيء سيحصل وإنما سيطلقون سراحه في الصباح.

- من حسن حظكما أنهم لم يأخذوكما أيضاً.

- وماذا لو أخذونا يا حضرة الضابط؟ في الداخل أو الخارج... الأمر سيّان... كما أن الجو بارد في الخارج.

- أين تقيمان بالضبط؟

تبادلا النظرات بعصبية وهما يتساءلان إن كنت سأؤذيهما.

- لا تقلقا... لن آخذ المكان منكما... إنني أسأل بدافع الفضول.

كانا لا يزالان مرتابين لكنهما خشيا أن أوقعهما في المشاكل، لذا فقد اضطرا للشرح. أشار كيتو باتجاه طريق تارلاباسي.

- أتعرف تلك الأبنية التي سيتم هدمها؟ إننا نبيت في إحداها. لقد انهار السلّم ولم يعد من الممكن الدخول ولذلك نتسلّق عبر النوافذ. إنها تحوي على مفروشات. صحيح أنها ليست فندقاً خمس نجوم لكنها تشبه شقتك العادية إلا أنها باردة قليلاً ولذلك نتغطّى جيداً... لن يزيلوها قبل مدة من الزمن لذا فهي منزل جيد لنا لهذا الشتاء يا حضرة الضابط.

أحسست بوخز الألم بسبب حالتهما لكنهما تقبّلا هذا البؤس منذ زمن طويل.

- ألا يوجد مكان أفضل لتقيما فيه؟

- بلى يوجد.

وأخذ بيرانا نفساً من القطنة المشبعة بالمخدرات بيده اليمنى قبل أن يجيب

بأسلوب يظهر أنه ليس خائفاً مني، في حين كان كيتو يحملق فيه لكنه لم يعِرْهُ أي اهتمام.

- هناك مركز فرحات سيراج الثقافي. لقد بقينا هناك أربعة أشهر.
- إذن لِمَ غادرتما؟

ودون أي تحفظ أرانا القطنة في يده وقال:

- المخدرات ممنوعة هناك. أبلة نازلي لا تسمح لنا.
- هذا جيّد... إذن لا تتعاطياها وتخلّصا من هذه القذارة.

نظر إليّ ثم إلى قطعة القطن في يده.

- ولِمَ أتخلّص منها؟ لن نعيش بدونها. أليس هذا صحيحاً يا كيتو... أخبر الضابط.

حاول كيتو التملّص من الأمر:

- إنه يهذي يا حضرة الضابط. المخدرات ليست المشكلة وأبلة نازلي امرأة جيدة لكنها جعلتنا نفعل أشياء لا نريدها... أولاً رسم بعض الصور ثم تعلّم العمل على الكمبيوتر وقراءة الكتب... وكانت تحضر كتاباً وأطباء نفسيين يثرثرون، وبعد مضي عشر دقائق ما كنت أفهم شيئاً مما يقولون، لكنني كنت أتحمّل حتى قرروا تعليمنا اللغة الإنكليزية، وكأننا نتكلم التركية ببراعة ولا ينقصنا سوى لغة أجنبية. ومع ذلك فقد تحمّلت وتقبّلت الأمر لكن هذا الأخرق سأل المدرِّسة ذات مرة: «كيف تقولين يا آنسة باللغة الإنكليزية عبارة (إذا كنت تريد مضاجعة حمار فعليك تحمل إزعاجه)" وهنا فتحت الجحيم أبوابها.

وضحكا ضحكة مكبوتة. لكن حين رأيا أنني لم أستحسن فعلتهما حاول كيتو أن يوضح:

- أوه... حسناً يا حضرة الضابط. لقد أرادت المرأة الأفضل لنا، لكن لكل شخص عمل مختلف يمكنه إنجازه.
- وما العمل الذي يمكنك إنجازه؟ التمثيل في البرامج التلفزيونية؟

هنا سارع بيرانا للدفاع عن صديقه.

- لا تستهزئ به يا حضرة الضابط؟ لِمَ لا؟ من يقومون بذلك الآن ليسوا

بارعين للغاية كما كانوا من قبل... ولا تتدخّل في عملنا أيضاً... نعم... نحن نتعاطى المخدرات ونشرب الشراب أيضاً... وإن لم نحصل على النشوة نلجأ للحبوب... لن أكذب عليك... لا فرق لديّ إن أحببت ذلك أم لا...

لم أكترث لتحدي بيرانا فقد كنت أفكر في المرأة التي تملك المركز الثقافي. لماذا كانت صورتها ومخطّط المبنى في خزنة إنجين؟

- أبلة نازلي... أهي المرأة التي يدعونها نازلي المجنونة؟

اعترض كيتو:

- إنها ليست مجنونة وإنما جريئة.

- حسناً. كيف تعرفانها؟

- من المعارضة في المتنزّه...

كان يريد الاستمرار في الشرح لكن بيرانا نكزه بمرفقه.

- لا تكن أحمق يا فتى.

وبابتسامة مصطنعة التفت إليّ بعينه الوحيدة وقال:

- لقد التقيناها في الشارع، وحين أدركت أننا مشردان دعتنا إلى المركز الثقافي.

كان يكذب بوضوح.

قلت عابساً:

- ما الأمر يا بيرانا؟ ما الذي تحاول إخفاءه؟

تظاهر بعدم الاكتراث.

- لا شيء. أنا لا أخفي شيئاً.

- انظر يا بني. مهما يكن الأمر فسأعرفه. إن ارتكبتما ذنباً...

- لم أفعل شيئاً يا حضرة الضابط.

قاطعنا كيتو:

- إنه خائف فحسب.

كان ينظر إليّ بتوسّل... أكان ذلك لأنني لطمته الليلة الماضية؟

- لماذا؟

أومأ إلى بيرانا.

– من أن تعمي عينه الأخرى.

– ماذا؟

تذكرت الفجوة السوداء الصغيرة التي بدت من تحت العصبة حين انزلقت بعد أن لطمته. ماذا يحاول كيتو أن يقول؟

– كيف فقد بيرانا عينه؟

– رجالك فعلوا ذلك يا حضرة الضابط... الشرطة...

وضع بيرانا قطعة القطن على أنفه وهزّ رأسه برفق مؤكداً ما يقول صديقه. تلعثمت:

– ما.. ماذا؟ متى؟ متى حصل ذلك؟

– في حزيران/ يونيو الماضي في المتنزّه.

عَمّ يتكلم الفتى؟

– المتنزّه في تقسيم؟

– متنزّه غيزي... الصيف الماضي...

الآن فهمت.

– خلال مظاهرات المعارضة في متنزّه غيزي؟ ماذا كنت تفعل هناك؟

ابتسم بخبث كأنه ليس من فقد عينه.

– كان هناك طعام مجاني وملابس... سراويل وقمصان ومجموعة من الأشياء...

– أهذا سبب للذهاب إلى هناك يا بني؟ لقد كان ذلك المتنزّه كالجحيم.

– لم يكن كذلك حتى ظهر رجالك. نعم لقد تصرّف رجال الشرطة بطريقة سيئة يا حضرة الضابط... لقد كان رجالك أشراراً مع هؤلاء الناس الذين كانوا كلهم من المثقفين... لقد جاؤوا إلى هنا لأجل الأشجار وأقاموا مسرحيات وحفلات موسيقية كما كانوا يرسمون لوحات وطلبوا منا التلوين أيضاً وصنعوا فيلماً مثّلت أنا فيه لأجل الأشجار.

وافقه بيرانا:

– لأجل الأشجار. لقد كانوا سيقطعون تلك الأشجار لإقامة مركز للتسوّق لكن أولئك الرجال والسيدات اللطيفات طردوهم... لن تتوقع الأمر... كانت هناك

فتيات بشعر رائع وفتيان بوشوم... لكنهم كانوا أناساً صالحين. كان هناك كثير من رجال الشرطة لكنهم لم يكترثوا لهم... أقسم على ذلك.

كنت على وشك نصحه لكن كيتو لم يفسح لي المجال.

- لا تفهمنا خطأ يا حضرة الضابط... نحن لم نكن هناك للاحتجاج وإنما كان ذلك المكان لنا، فقد كنا نقضي الليل تحت شجرة ضخمة عند مخرج قطار الأنفاق. أتعرف تلك الشجرة الضخمة في الزاوية؟ كنا ننام هناك... كنت أنا وبيرانا وماستي ننام سوياً، ثم في أحد الأيام هاجمنا رجال الشرطة بحملة مفاجئة... كان هناك حوالى ثلاثين خيمة... أخذوا من وجدوهم فيها إلى الخارج وضربوهم... لكن أولئك الفتيات والفتيان لم يستسلموا وإنما هاجموهم كالأسود، لكن كان هناك كثير من رجال الشرطة.

تذكّرت مدى فظاعة الأمر الذي حدث في متنزّه غيزي حيث أرسلت الحكومة رجالنا للقضاء على المتظاهرين بلا رحمة... كان ذلك مهيناً لنا جميعاً حيث رأينا مرة أخرى أن الشرطة في بلد بنظام استبداديٍّ تكون أول الخاسرين.

- أعلم ما حصل، لكن أخبرني عن عينك يا بيرانا.

توقف فجأة ورفع يده الشاغرة إلى العصبة التي تغطي عينه اليمنى كما لو أنها عميت للتو وقال بصوت تملؤه الكراهية:

- ذلك الوغد... ذلك الوغد أطلق عليّ قذيفة غاز عن بعد ثلاثة أمتار. أنا لا أرى من الجانب وإلا لما سمحت له بالاقتراب مني... وحين أطلق مسدسه أصابتني المقذوفة في عيني فعمّ الظلام كل شيء. لكنني لم أدرك أن عيني قد انفجرت وظننت أنني سأتعافى بعد قليل، وحين رفعت يدي للأعلى امتلأت راحة يدي بالدم لكنني متعوّد على الدم وظننت أن حاجبي قد جُرح، ثم أُصبت فجأة بالدوار وسقطت وحين فتحت عينيّ كنت في إحدى خيم الإسعاف لا في المستشفى لأن الشرطة لم تسمح لسيارات الإسعاف بدخول الساحة. كان في الخيمة طبيب بدين يُدعى شهاب شعره مجعّد مثل كيتو حيث ساعدني هو وأبلة نازلي...

قاطعه كيتو مجدّداً:

- هنا التقينا بأبلة نازلي للمرة الأولى إذ أخذت بيرانا إلى مستشفى العيون الذي يقع في المنحدر الإيطالي، حيث نظفوا الجرح ثم وضعوا عيناً زجاجية كانت أجمل من عينه الحقيقية، لكن المعتوه أوقعها.

انفطر قلبي وأنا أسمعهما لكن بيرانا بدأ بالضحك وقال بمرح:

- إنه خطأك. لو لم تسرق تلك التفاحة من كشك رمزي في سوق السمك لما سقطت عيني. لقد وقفت أمام رمزي لئلا يمسك به يا حضرة الضابط لكن بنية رمزي ضخمة كشاحنة ألمانية، وحين ضربني وقعت في الكشك المجاور لكشكه وطارت عيني. لقد بحثت عنها جيداً وكأنه ليس لديّ عمل آخر.
- كانت أبلة نازلي ستصنع له واحدة أخرى لكننا لم نعد إلى المركز الثقافي... كان علينا تحمّل الدروس والرسوم وهو أمر مزعج للغاية.
- إذن أبلة نازلي إنسانة طيبة...
- نعم. هل يقول أحد غير ذلك؟

سيكون من المفيد أن أعرف مزيداً عن المرأة.

- لا، لكن أليس لقبها نازلي المجنونة؟

قال كيتو غاضباً:

- هل بلاك نظام من قال هذا؟

بدا أن المحادثة تتجه أخيراً نحو نقطة واضحة.

- لماذا؟ هل هناك عداوة بينهما؟
- ولِمَ لا؟ كانت أبلة نازلي ستفتح مركزاً ثقافياً ثانياً للنساء فقط... هناك النساء اللاتي يأتين إلى هنا من ماردين وسعرد يا حضرة الضابط. إنهن لا يتكلمن التركية وإنما الكردية، وكانت تريد إعطاءهن دروساً. أبلة نازلي تملك المبنى الذي يقع في نادي تارلاباسي الأصيل والذي ورثته عن أبيها، وكانت ستفتتح المركز الجديد هناك. لكن ذلك السافل لم يخرج من المبنى، وإنما أصبحوا يطلقون النار على المركز الثقافي ويضايقون من فيه.

تدخّل بيرانا:

- لكن أبلة نازلي ليست خصماً ضعيفاً فهناك أناس يدعمونها... شباب أقوياء

بشوارب ولحى كانوا في احتجاجات المتنزّه أيضاً. أتعرف أولئك الأخوة الثوريين الذين تسمونهم فوضويين... لكن ليسوا هم وحدهم فهناك طلاب ونساء وحتى أشخاص غير أسوياء... كلهم يحبون أبلة نازلي ونحن نحبها أيضاً بالطبع. وهكذا اجتمعنا كلنا وهاجمنا مقر نظام.

كانت هذه أخباراً مثيرة للاهتمام.

- أتعني أنكم شاركتم في الهجوم أيضاً؟
- لم يكن هجوماً يا حضرة الضابط... هذا المغفّل يبالغ... لقد ذهبنا للكلام.

لكن الفتى ذا العين الوحيدة لم يستطع البقاء صامتاً:

- هذا أرعب ابني أخ نظام حين رآيانا جميعاً هناك.

لكن ما يهمني تفصيل آخر غير خوف ابني الأخ.

- هل كان إنجين هناك؟

كان بيرانا يكره الرجل المقتول لذا فقد أجاب بسرعة.

- نعم كان هناك، لكنه لم يستطع الحديث. حتى إنه كان خائفاً للغاية.

تذمّر كيتو:

- لا يجوز يا فتى أن نتكلّم عن شخص ميت.
- سأتكلم عنه حين أريد فقد كان قذراً. لقد كان إنجين قواداً، وكان حريم سليمان صالحاً مقارنةً به. كان إنجين يغوي الفتيات ثم يسلمهن لرمز القبح نظام... النذل يخدعهن ويكذب عليهن.

خشيت أن يندلع شجار كالليلة الماضية فغيّرت الموضوع.

- في كل الأحوال ماذا حصل في النادي بعد ذلك؟

تذمر كيتو:

- كنت سأذكر ذلك يا حضرة الضابط لو أن صديقي فسح لي المجال.

لم يتدخّل بيرانا وإنما رفع قطعة القطن إلى أنفه وأمال رأسه جانباً كصبيٍّ صغير يقبّل حبيبته. فاستغل كيتو الفرصة وأكمل:

- لقد توجهنا إلى نادي نظام. كنا حوالى الخمسين... بعضنا داخل المبنى وبعضنا الآخر خارجه. نساء... ثوريون... مثلنا. تفاجأ الرجال للغاية... أنا لا أبالغ

فالكل استعدوا، لكننا لم نصدر أي صوت لأن أبلة نازلي حذّرتنا: «لا أحد يتكلم سواي». وهذا ما حدث حيث توجهت إلى نظام وقالت: "هذا المبنى لي ولا أريد أي نقود وإنما أريده لنحوله مركزاً ثقافياً لمساعدة سكان تارلاباسي. سنقوم بإجلاء جميع المستأجرين بمن فيهم أنت، وإن لم تغادر سأرفع عليك دعوى في المحكمة، وإن استمررت بإزعاجي فلديّ محامون وسألاحقك". هنا اصفرّ وجه نظام، وحين رأى أن المرأة مصرّة ومعها دعم كبير لجأ إلى الكذب وقال: "حسناً يا آنستي. نحن أيضاً من هذا الحي. سنغادر لأننا نرى كم أنك تعملين لمصلحة تارلاباسي. امنحينا فترة حتى ينتهي العقد بعد عشرة أشهر وسنسلمك المبنى" وهكذا تمت تسوية الأمور.

- حسناً. وهل تشاجرت نازلي مع إحسان؟

نظر إليّ كيتو متسائلاً من أين جئت بهذا.

- لقد رموا قنبلة موتولوف من نافذة نادي إحسان هذا الصباح.

قال بيرانا ضاحكاً:

- لقد كان خطأً. فقد كانوا ينوون رميها على نادي نظام لكنهم رموها على نادي إحسان بدلاً من ذلك. هذا ليس بالأمر السيئ.

صرخ كيتو:

- كفاك من هذا الكلام الجنوني، فأبلة نازلي لا تفعل ذلك... إنها لا تؤذي بعوضة... إنها ألطف إنسانة أعرفها على هذا الكوكب.
- إذن من الذي رماها؟

نسي كيتو قطعة القطن التي كان يخفيها وراء ظهره ورفع ذراعيه:

- لا أعلم يا حضرة الضابط... الأمور مشوّشة هذه الأيام... لا يمكنني معرفة شيء.

دفع بيرانا صديقه بلطف:

- وما هذا يا رجل؟ إن حضرة الضابط يهتم بالأمور واحداً تلو آخر. انظر... لقد أخذوا قاتل إنجين.

ثم نظر إليّ بإعجاب وأكمل:

- أنت من قتل تايدي طارق يا حضرة الضابط؟

كان يجاهد ليبقى واقفاً على قدميه. ما الذي حدث فجأة لهذا الفتى؟ ربما يكون تناول المخدّرات قبل قليل وبدأ مفعولها الآن. أمسك كيتو بذراع صديقه لئلا يقع.

- هذا يكفي يا رجل. هيا نذهب.

بدا بيرانا منزعجاً.

- ما الذي قلته؟

وحين لم يحصل على جواب من صديقه التفت إليّ بنظرة بريئة مثل كلب شارد وسأل:

- هل قلت شيئاً؟

- أوه... أرى أنك جمعت الفريق.

جفل الفتيان من صوت علي الذي كان يقف خلفنا ببضع خطوات وزينب بجانبه تحدّق بحزن إلى الولدين في حين قال علي:

- الضمادة تليق بك لكن لا تتجوّل في الشوارع كثيراً وإلا ستصاب بالغرغرينا وسيسقط أنفك.

لم يخف كيتو من الملاحظة وإنما قال بعدائية:

- لا يهم. حسناً سنذهب... لا لأنك طلبت ذلك ولكن لأن صديقي يزعج الضابط.

ثم نظر إليّ كأنه يودع صديقاً قديماً وقال:

- إلى اللقاء يا حضرة الضابط.

وأمسك بذراع بيرانا وشده وهو يقول:

- هيّا يا رجل.

وخطا بضع خطوات ثم التفت إليّ وقال:

- أيها الضابط. لا تنخدع وتظن أن هذا قلب المدينة، فالمكان يعج بالأنذال، لذا كن حذراً.

هل كان التعليق موجهاً إلى علي؟ أم أنه يتكلم عن نظام وإحسان؟ ربما تكون

المخدّرات أخذت مفعولها عليه أيضاً فرددت:

- وأنتما أيضاً كونوا حذرين، فما زلت بحاجةٍ لكما.

هنا استدار بيرانا وقال وهو يتخلّص من قبضة صديقه:

- عيب عليك يا حضرة الضابط. حتى حين كنت تقودنا إلى حتفنا هل قلنا لك إن قوانا نفدت؟

شيء جيد أن يحبك الناس



كانت مزين سينار تغني واحدة من أغنياتي المفضلة ونحن جالسون في فيراي ميهان عند النافذة الناتئة المطلة على شارع الاستقلال. عاد الثلج يتساقط ولم يمضِ وقت طويل حتى اكتست الأرض باللون الأبيض.

- هل هؤلاء الناس مجانين؟

كان علي يشير إلى الناس الذين يتحركون كنقاط سوداء على الثلج، وهم ينحنون ثم يستقيمون ويقتربون بعضهم من بعض لئلا يسقطوا وهم يحاولون السير.

- ما الذي يفعلونه هناك في البرد القارس؟ سيقعون ويكسرون أطرافهم.

قالت زينب وهي تقترب من النافذة ويكاد رأسها يلامس الزجاج:

- لا شيء سيحدث. ما الذي يفترض بالناس فعله؟ إنهم هنا للاستمتاع. انظر كم أن الثلج جميل والأضواء غريبة. يظن الناس أنهم في عالم من الخيال.

تمتمتُ:

- عالم موحش من الخيال.

ثم وبّختهما مازحاً:

- ألا تستمعان للأغنية؟

لم يكونا يسمعانها لكنهما اعتدلا في جلستهما وأنصتا لئلا يقلّلا من احترامهما للمحقّق المسؤول عنهما. واستمرت مزين بالغناء بطريقتها الحميمة، فتلألأت عينا زينب كأنها تستعيد ذكرى جميلة.

- نعم أعرف هذه الأغنية، فقد كانت أبلة نهال تغنيها. إنها جارتنا التي تقطن في المنزل المجاور لمنزلنا. كنا نسمعها كل مساء ونحن نعد العشاء. كان صوتها جميلاً وهي تغني دائماً أغاني كهذه.

انتحب علي:

- لكن بعض الناس يبالغون في الأمر، ففي مهجع مدرستنا كان هناك أستاذ أدب يدعى سيناسي بيك وكان يحب هذه الأغاني لذلك كان يجعلنا ننصت لكي نتعوّد هذا النوع من الغناء... ديدي أفندي وإتري وغيرهما... وكان هذا الأمر يضجرنا للغاية.

لم أكن أرغب في وعظه لكني لم أصدق أن لديه فكرة خاطئة عن الملحنين العظماء الذين يتكلم عنهم.

- ربما لم يختر أستاذك الأغاني المناسبة. أنا واثق من أنك ما كنت لتشعر بالضجر لو أنه عزف على سبيل المثال أغنية "تفتحت وردة في هذا القلب" لديدي أفندي.
- لا أعرفها يا حضرة الضابط، لكن هذه الأغنية جميلة.

وهزّ رأسه بالتناغم مع النغم وتمتم:

- انظر إلى الأيام التي مضت... الأشياء التي تركناها... يا لهذه الكلمات الجميلة. لكن حقاً لم لا نستمع لهذا النوع من الموسيقى؟

لم تعرف زينب ماذا تقول.

وبّختهما:

- ربما لم يعد هناك وقت بعد كل أغاني البوب السخيفة... تلك الأغاني التي تحاول جذب انتباهكم بجسد المغني لا بصوته.

ضحكا بصمت كطفلين يعترفان بذنبهما.

قالت زينب بفرح:

- هذا صحيح حضرة الضابط. هذا الصباح سمعت أغنية في المذياع تقول "لقد أمسكت بيدي... لففت ذراعيك حول ظهري... هل تحبني حقاً... هل عدت حقاً..." أقسم بأنني لا أبالغ، لكن الأغنية استمرت على هذا المنوال.
- ومع ذلك هناك بعض الأغاني الجيدة فليست كلها سيئة.

حين رفعت نظري واجهت إردينك الذي كان يقف بجانب الطاولة وهو ينظر إلينا بابتسامة حارة.

- مرحباً حضرة الضابط!

ونظر إلى زينب وأكمل:

- باريس مانكو... كيم كاراكا... سيزين آكسو... لديهم أغانٍ جميلة.

لم يكن علي سعيداً من هذه الدردشة مع زينب بدون سبب.

- ليس هذا ما كنا نتكلم عنه وإنما كنا نحكي عن تلك الأنواع السخيفة من مغنّي البوب.

قاطعته:

- هذا إردينك أحد الشركاء في هذا المطعم، وهذان زينب وعلي مساعداي.

نظر إلينا إردينك بحب.

- أعلم حضرة الضابط. الجميع يعرف فريقك.

تفاجأت. فإردينك يعرفني لكن كيف عرف زينب وعلي؟ وكأنه قرأ أفكاري فشرح لي.

- مما هو مكتوب عنك.

لا بد أنه يقصد الأخبار في الصحف. كنا في الواقع حريصين على إخفاء أسمائنا عن الصحافة، وهذا يعني أن علينا أن نكون أكثر حذراً.

- أليست إفجينيا هانم هنا؟

- لا، فقد قَدِمَ أقارب لها من اليونان لذا لن تأتي الليلة.

- في هذه الحالة سأطلب منهم تعديل المكان. هل كلكم تريدون الشراب؟

رفعت زينب يدها وقالت:

- أريد شراباً أبيض لو سمحت.

وتمتم علي ببرود:

- وأنا أيضاً.

قال إردينك بطبيعته المتساهلة كمالك كفؤ للمكان:

- المشروبات في طريقها إليكم.

ثم التفت إليّ وقال:

- وأنت ستتناول شرابك كالمعتاد أليس كذلك يا حضرة الضابط؟
- نعم يا إردينك لكننا نتضوّر جوعاً. كلما أكلنا أسرع كان ذلك أفضل.

وقبل أن يتجه إلى المطبخ لم ينسَ أن يؤكد لنا.

- بالطبع. سأعود بسرعة إلى سينغيز.

بينما كنت أشاهد إردينك وهو يعود أدراجه لاحظت أن المطعم أكبر مما كنت أذكره، وأنه مضاء بنور أصفر دافئ مريح للعينين. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أحد سوانا فقد أشعلوا النار في الموقد على يميننا لندخل إن بردنا عند النافذة. كان هذا المكان من الأماكن القليلة في بيه أوغلو التي تحتفظ بالتقاليد، وكان على طرفي النافذة الناتئة شرفتان صغيرتان تطلان على الشارع. في الصيف لا يمكن أن تتعب من الجلوس هناك ومشاهدة أمواج الناس الملونين تحتك وأنت تحتسي الشراب.

- لِم تنسَ يا حضرة الضابط؟

التفت إلى الطاولة على صوت زينب.

- ستأتي إلى منزلنا هذا الأسبوع. الليلة الماضية طلبت مني أمي ثلاث مرات أن أكون دقيقة كما ذكرني أبي وأنا أغادر هذا الصباح. أن أسلم عليك وأخبرك أنهما بانتظارك بالتأكيد. من المفترض أن تختار أنت اليوم... هذا ما قالاه.

كم أن الأمر مخزٍ فالناس يدعونني منذ زمن، وأنا أحب والد زينب، فيلي كثيراً، فهو رجل شريف يجني ماله بنزاهة وكذلك أمها إذ ليس من السهل تربية ثلاثة أطفال براتب زوجها الضئيل. أما الآن فزينب تسهم أيضاً في مصروف العائلة.

أكملت:

- وأنت مدعوّ أيضاً بالطبع يا علي، فلا عرس بلا عريس كما يقول أبي.

احمر وجه علي على التعليق المتعلق بالزفاف على الرغم من أنه حاول عدم إظهار ذلك وقال بوقار:

- شكراً. سآتي بالطبع. فيلي آمكا إنسان عظيم. وأنا أحب طبخ سكينة تيزي.

خطر ببالي كم هو محظوظ. فالمرأة ستصبح حماته لكنني لم أقل ذلك خوفاً من تعكير الجو.

- لتكن هذا الأسبوع فمن الفظاظة تأجيلها أكثر. اليوم الأربعاء... ما رأيكما بالذهاب هذا الأحد؟

هزّ علي رأسه ليجيب أن ذلك يناسبه.

- حسناً. إذن يوم الأحد يا زينب.

بدت زينب قلقة من أنها تضغط علينا.

- لو كان الأمر عائداً لي لما كنت مستعجلة لهذه الدرجة، لكن...

- لا تكوني سخيفة يا زينب. كم مرة لبّينا الدعوة؟ سنذهب هذا الأسبوع.

- شكراً حضرة الضابط. إفجينيا هانم ستأتي أيضاً أليس كذلك؟

كانت إفجينيا تحب هذا النوع من الدعوات.

- بالطبع ستأتي. آخر مرة رأيتها وبختني لأنني لا أحضركما إلى تاتافلا فهي تفتقدكما للغاية.

ظهرت ابتسامة جميلة على وجهيهما وقال علي بود:

- ونحن نفتقدها أيضاً حضرة الضابط، فأنا أحبها كأختي لو كان لدي أخت... إنها إنسانة رائعة.

ونظر إليّ بفضول... هل يمكن أن يفكر بزواجي كما أفكر أنا بزواجه؟

قالت زينب مشتتة أفكاري وهي تحدّق إلى الباب:

- ذلك الرجل. ماذا كان اسمه؟

نظرت، ورأيت الروائي البوليسي يخلع قبعته وينفض الثلج عن معطفه وبجانبه يقف رجل نحيل بلحية لم أره من قبل. لكن ألم ألتقِ بالكاتب هذا الصباح؟ هل يتبعني؟ لم ينظر حوله عند دخوله كما تفعل حين تبحث عن أحد ما، ولا بد أن إردينك يعرفه لأنهما تعانقا مباشرة، وبعد العناق وتربيت الظهر أشار مالك المطعم إلى طاولتنا. إذن هو يعلم أن الكاتب مهتم بي وقد يكون يعرف أننا جيران. أيمكن أن يكون هو من أخبره أنني قادم إلى فيراي ميهان الليلة؟ لا... لم يكن إردينك ثرثاراً ولا يمكن أن يفعل هذا. من الواضح أنها مصادفة. انظر كم هو متفاجئ لرؤيتي، لكن لا فرق. إذ سرعان ما تجاوز تفاجؤه وشق طريقه نحوي مبتسماً كما كنت أشك أنه سيفعل... كم هو غريب! كيف يمشي نحونا بلا اكتراث كأننا أصدقاء مقربون.

- من هذا الرجل؟

كان علي قد لاحظ الكاتب الجريء أيضاً.

تلعثمت زينب:

- أليس... اسمه على طرف لساني. أتعرف ذلك الكاتب... الذي يؤلف الروايات البوليسية؟ لديه كتاب اسمه «صداح بيه أوغلو» وهو كتاب غريب لست واثقاً إن كنت أحبه أم لا. من المفترض أنه كتبه رداً على أغاثا كريستي لكنه ليس كالروايات البوليسية التي تعوّدنا عليها. لقد أخفى القاتل جيداً لكن بدا لي أنه يستغبي قراءه. لكني سأعطيه حقه فقد بذل جهداً كبيراً في شرح تاريخ بيه أوغلو.

تمتم علي بعصبية وعيناه مثبتتان على الكاتب:

- أهو قادم إلى هنا؟

وحين لم يتلقَ أي ردٍّ أكمل:

- نعم. إنه يبتسم لنا. أظن أنه يعرفك حضرة الضابط.

- إنه جاري.

سأل صديقاي الشابان سوية:

- جارك؟

قال الكاتب:

- نعم... أنا ونيفزات بيك جيران.

يا لجرأة هذا الرجل! كيف يقحم نفسه في المحادثة دون أن يتم تعريفه إلى الحاضرين.

- مساء الخير.

ومد يده. كان من الفظاظة أن لا أصافحه فمددت يدي مكرهاً. التفت إلى مساعديّ اللذين كانا لا يزالان يحملقان إليه وقال:

- أهلاً زينب هانم ومحقّق علي. شيء رائع لقاؤكما هنا.

لم يستطع صديقاي كشف غموض هذا التعامل فشاهداه بحيرة.

- كيف يجري التحقيق بجريمة تارلاباسي؟

كنت قلقاً من أن يقوم علي بالرد لكنه لم يظهر أي رد فعل وإنما زينب هي من فاجأتني.

- لا يزال في مراحله الأولى. الأمر أكثر تعقيداً مما ظنناه في البداية. ربما يمكنك تأليف كتاب بناء عليها.

فرح بالاهتمام الذي حصل عليه فمازحها بمرح:

- سأكتبه في حال حصلت على مساعدتك بالطبع.

لا بد أنه لا يزال لديها بعض الحكمة لأنها ردّت بوضع شرط:

- بعد أن نحل القضية ونقبض على المجرم.
- بالطبع... لا أريد أن أحشر أنفي في عملكم.

كان يحاول التعامل باحترام، لكن النظرة المفعمة بالثقة بالنفس على وجهه كانت تدفعني إلى الجنون، وكذلك إيماءاته الخفيفة وكأنه يعرف كل شيء، وعيناه المتفكرتان تقولان إن كل شيء تحت سيطرته... لكن اهتمام زينب توجّه إلى الرجل الطويل ذي اللحية الذي كان يقف وراء الكاتب.

- هل صديقك كاتب أيضاً؟
- نعم، أيهان كاتب أيضاً. كما أنه شاعر وممثل.

ظهرت ابتسامة مهذّبة على وجه الفنان المتعدّد الاختصاصات فانحنى قليلاً وحيّانا بأدب.

- مساء الخير. إنه لشرف عظيم لي أن أراكم هنا.

سألته:

- إذن هل تكتب قصائد بوليسية؟

هزّ كتفيه وردّ عليّ بالنبرة نفسها:

- لا حضرة الضابط، لا أجرؤ. لكن أتيلا إيهان كتب واحدة: ساعة الجريمة.

سألت زينب بارتياب:

- حقاً؟ أهناك قصيدة بوليسية؟ لم أسمع قط بمثل هذا. هل كنت تعرف بهذا حضرة الضابط؟

بصراحة، لم أكن أرغب في مناقشة الموضوع لكنني كنت أخشى ترك الحديث

لهذين الأحمقين. فقد نجحا حتى الآن في التأثير في صغري، وإن لم أتدخّل فسيجلسان إلى طاولتنا.

- بالطبع... إنها قصيدة رائعة.
- أتتذكرها حضرة الضابط؟ أخبرنا.

ماذا دهى زينب؟ لم تصرّ هكذا؟

- ليس هذا المكان المناسب. سأخبركما في وقت لاحق.

أصرّت كفتاة صغيرة مدلّلة.

- هيا حضرة الضابط. أشعر بالفضول كيف تكون القصيدة البوليسية.

وقف الشاعر بجوار الكاتب المعتد بنفسه بانتظاري لألقي القصيدة فقلت:

- حسناً سألقي بيتين منها.

لا لأنني أحب إلقاء الشعر وإنما لأنني أردت التخلّص من هذين الزائرين بأسرع ما يمكن.

- أظنها تبدأ كما يلي:

على القرن الذهبي طعن أربعةُ رجال قارباً

كان راسياً ويبكي

أربع سكاكين تم استلالها وأربعة رجال طعنوه

وتشظّى القمر الأخضر الزمردي في السماء.

ونظرت إلى الشاعر الذي كان ينصت بإعجاب وقلت:

- هكذا تبدأ أليس كذلك يا أيهان بيك؟
- بالطبع حضرة الضابط. لِمَ توقّفت؟

اتّكأت للخلف وتذمّرت بجدية:

- لقد كنا نناقش موضوعاً مهماً. ليس لدينا الوقت للشعر الآن.

لم يكن الأديبان الأحمقان الوحيدين اللذين أحسّا بانزعاجي وإنما أيضاً صديقاي الجالسان.

قال الكاتب البوليسي:

- إذن سنترككم لتناقشوه. استمتعوا بطعامكم.

وقال صديقه:

- مساء الخير. لقاؤكم من دواعي سروري.

غادرا دون أي مقاومة وابتعدا للجلوس إلى طاولة حيث لا يمكنهما رؤيتنا.

تمتم علي:

- غريب. أحس كأني التقيت بذلك الكاتب البوليسي من قبل.

لكن الأغرب هو أن علياً الذي لم يحب أحداً من اللقاء الأول قد أحبّ الكاتب.

- لقد رأيتَه على التلفاز. إنه يجري مجموعة مقابلات على جميع القنوات كلما صدر له كتاب.

هزّ رأسه وقال:

- لا حضرة الضابط. أحس كأني أعرفه منذ زمن طويل. أتساءل إن كان يدرس في الميتم أو إن التقيت به هناك. إنه يبدو مألوفاً للغاية.

قالت زينب وهي تخفض صوتها لئلا يسمعها أحد:

-أيمكنني إخباركما شيئاً؟ أحس بالشيء نفسه. أعني أنني قد سمعته يتكلم على التلفاز من قبل وقرأت مقابلاته في الصحف لكنني حين رأيته وجهاً لوجه أحسست أيضاً أنني أعرف الرجل... كأنه من أقاربي...

لقد بدآ يهذيان بالفعل.

- أي أقارب؟ أقول لكما أنكما رأيتماه على التلفاز أو في الصحف وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تعرفانه بها. كما دعوه ليتكلم على التلفاز حول بعض جرائم القتل وسألوه كيف يمكن أن يحلّها ومثل هذا النوع من الكلام... هكذا تتذكرانه... كونه كاتباً أثّر فيكما.

نظرا إليّ نظرات غريبة وأثبتت الفتاة أنها أكثر جرأة من الفتى.

- ألا تحبه حضرة الضابط؟

بالطبع لا أحبه. إنه يعيش بجواري ودائماً يظهر ويتدخّل في تحقيقاتي... لقد كان مزعجاً للغاية، فلماذا أحبه؟ لكن إن كنت سأعترف بذلك فسيسألانني عن

السبب وعليّ تقديم تفسير أفضل.

- لا تكوني سخيفة. من أين جئت بهذه الفكرة يا زينب؟ إنه حشري فحسب فكلما التقيته يسألني عن القضية التي أعمل عليها.

نعم... لقد نجحت في النهاية. فقد بدأت سحابة الشك في عيونهما تتبدّد.

- هذا صحيح. انظر كيف سألنا عن جريمة القتل في تارلاباسي. كيف عرف بالأمر؟

أخيراً، بدأ علي يدعمني على الرغم من أن زينب كان لها رأي آخر.

- من الصحف أو التلفاز أو... الرجل يكتب عن جرائم القتل وربما يقرأ عنها يومياً في الصحف ويدوّن الملاحظات.

لماذا ترى النساءُ الفنانين بصورة حسنة دائماً؟ دائماً بتحيّز إيجابي؟ لحسن الحظ لم يقتنع علي العنيد بهذه السهولة.

- فهمنا هذا يا زينب لكن كيف علم أننا نحن من نعمل على هذه القضية؟

تغضّن حاجبا عالمة الجرائم الجميلة وهي تفكر في الأمر، لكنني كنت واثقاً من أنها ستصل إلى تفسير منطقي في النهاية. لكنها حين رأت النادل الجذاب جنكيز مع الصينية المليئة بالمقبلات غيّرت الموضوع.

بابتسامة عريضة على وجهه الطويل والنحيل وضع الصينية على الطاولة وقال:

- أهلاً حضرة الضابط، سعداء بمجيئك.

- وأنا سعيد بقدومي إلى هنا يا جنكيز. أين كنت؟

- كنتُ في المطبخ حضرة الضابط فصبي المطبخ قد تأخر لذا أنا أساعدهم هناك.

وبينما كان يصف المقبلات على غطاء الطاولة الأبيض سألته:

- ماذا حصل بخطوبتك يا جنكيز؟

وضع صحناً من السردين الملفوف بأوراق العنب، ثم توقف ونظر بخجل إلى زينب وعلي، فلم أستطع تركه في هذا الوضع إذ إن عليّ تشجيعه.

- كما تعلم كنتَ قد قلت لي إنك ستذهب لمقابلة والدي الفتاة؟

بابتسامة بريئة تخلّص من إحراجه.

- سنقوم بذلك حضرة الضابط فحبيبتي مستعدة. لقد تكلمنا واتفقنا... سنذهب

هذا الصيف إن شاء الله. أتذكر أنك وعدتني بالحضور أيضاً؟

- بالطبع يا جنكيز. مهما كان دوري فسأؤديه.
- شكراً حضرة الضابط. في كل الأحوال أنت لم تخذلنا مطلقاً.

وبينما كان النادل الجذاب يصف أطباق فراخ البحر والأعشاب البحرية والأخطبوط فتح علي موضوعاً آخر لا ضرورة له.

- أتعرف حضرة الضابط كل ذلك الكلام عن أفضل أخ كبير في بيه أوغلو؟ لقد كان دايس إحسان يخبرني به اليوم قبل أن تصل...

مجدّداً هذا الموضوع المزعج ينبغي أن أغلقه.

قلت محاولاً تغيير الموضوع:

- لا تصدق كل ما تسمع.

لكن جنكيز تغلّب على خجله وتحوّل فجأة شخصاً فضولياً ووافق مساعدي:

- لا لا... هذا صحيح. إنهم يسمون الضابط أفضل أخ كبير في بيه أوغلو. لقد سمعت بذلك للمرة الأولى حين انتقلت إلى هنا من قريتي، وقد كنت أشعر بفضول كبير لأعرف من هو. أنا آسف حضرة الضابط لكنني كنت أظن أن أفضل أخ كبير في بيه أوغلو نجم سينمائي، ثم في أحد الأيام قبضت عليّ الشرطة لأن محفظة امرأة سائحة سُرِقت، واتهموني. احتجزني ثلاثة رجال شرطة ضخمين في زنزانة وهم يحملون الخراطيم بأيديهم... لقد كانوا جديين في نواياهم. إنني أدين لحضرة الضابط بشكر كبير فقد أتى في الوقت المناسب، وهنا علمت من هو أفضل أخ كبير في بيه أوغلو. يمكنك سؤال أي بائع في شارع الاستقلال فكلهم يعرفون حضرة الضابط... كبار السن بالطبع.

لم أكن أستحق هذا المديح على الإطلاق فقلت مقاطعاً إياه:

- كفاك يا جنكيز. توقّف عن الثرثرة وأحضر لنا بعض الخبز فإننا نتضور جوعاً. انظر... لم تحضر لنا الشراب بعد...
- سأحضره فوراً حضرة الضابط.

شاهدت النادل وهو يشق طريقه إلى المطبخ حاملاً الصينية الفارغة وتذمّرت:

- كم يحب الناس المبالغة!

- وأنت متواضع للغاية.

من الواضح أن هؤلاء الناس متفقون على إزعاجي الليلة.

تذمّرت:

- كفاك يا زينب. ما علاقة التواضع بأي شيء؟

سارع صديقها لمساندتها.

- إذن أنت لم تنقذ جنكيز؟

- لم يكن هناك شيء أنقذه منه يا علي. فالمرأة التي ادّعت أن محفظتها قد سرقت كانت تعاني من الزهايمر. لم تكن حالتها متقدمة لكن يمكنك تمييزها. لقد كانت تظن أنها أحضرت المحفظة معها لكنها كانت قد تركتها في الفندق، وفي النهاية ظهرت الحقيقة وأطلقوا سراح جنكيز. هذا كل ما في الأمر.

قالت زينب:

- أشك أن هذا كل ما في الأمر.

إنهما يحاصران رئيسهما.

أكملت:

- لولاك لما لاحظ أحد أن المرأة مريضة، ولتعرّض جنكيز المسكين للضرب وكان ليذهب إلى السجن. الرجل محق بإمطارك مديحاً.

نعم... ذات مرة أمطرني شخص بالمديح وكان يثق بي. لكنهم في النهاية دفعوا ثمناً باهظاً على ذلك. لا... هذا ليس الزمان أو المكان المناسبين للتفكير في الموضوع.

قلت دون أن أغير الموضوع:

- لم أسدِ لجنكيز أي معروف يا صديقاي، وإنما أنجزت واجباتي كشرطي حيث رددت له نقود الضريبة التي يدفعها وأتقاضاها براتبي. لا تنظري إليّ هكذا يا زينب فالوضع الذي أتكلم عنه معقّد. لو أن الدولة تقوم بواجباتها تجاه مواطنيها كما يفترض بها لما كان هناك أفضل أخ كبير في بيه أوغلو أو غيره... لكن الحكومة لا تقوم بعملها ولهذا يُعتبر أي موظف يقوم بواجبه بطلاً. لا يوجد مثل هذا الأمر، فقد قمت بما يفترض بي فعله وما ينبغي على أي شرطي

مكاني أن يفعله. أتفهمان؟

قال علي وهو يومئ ببطء:

- نعم نفهم.

لكن نظرة الإعجاب لم تفارق وجه زينب فقالت:

- ربما يكون ذلك صحيحاً ولكن... شيء جيد أن يحبك الناس حضرة الضابط.

عالم حيث لا يقتل أحد أحداً



بعد أول كأس من الشراب تلألأت عينا زينب وبدأت تتكلم حول التحقيق:

- يا لها من مصادفة! شخصان يخططّان لقتل إنجين في الليلة نفسها! لدى الرجل كثير من الأعداء لدرجة أن قاتلين منفصلين استطاعا التحرك في الليلة نفسها... دون أن يعرف أحدهما الآخر.

كان الثلج قد توقف بالكامل لكن الريح كانت تهب على إفريز النافذة الناتئة، كما كانت تصدح أغنية شعبية من منطقة إيجه ممزوجة بصوت الريح في الشارع حيث خلّفت عويلاً غريباً.

رفع علي كأس الشراب الذهبي بيده وقال:

- أليست تلك مصادفة كبيرة؟ محاولتا قتل خلال بضع ساعات...

كانت عيناه ضبابيتين ووجهه مرهقاً من الإجهاد الذي تعرّضنا له في الليلة الماضية، بالإضافة إلى تأثير الشراب فيه.

رفعت زينب إصبعها في الهواء وقالت:

- لكن لا تنسَ أن ذلك حدث في ليلة رأس السنة حيث تعم الاحتفالات والصخب المكان... تقسيم... بيه أوغلو... تارلاباسي... الشوارع تعج بالناس الثملين والكل في حالة اهتياج. إنه توقيت ممتاز لارتكاب جريمة قتل أليس كذلك؟

أصرّ علي:

- كلها مجرد توقعات يا زينب. صحيح أن لدى إنجين كثيراً من الخصوم... حسناً، يمكن أن تجري محاولتان في الليلة نفسها، لكن إذا لم نعرف الشخص

الذي أعطى تايدي طارق المفاتيح فلن نحل القضية.

من المفترض أننا قدمنا إلى هنا للاستمتاع والاسترخاء، لكن النقاش عاد إلى جريمة القتل مجدّداً. والسيئ في الأمر هو أنني لم أكترث. فبعد أن تذوقت الحسوة الأولى من الشراب المثلج من كأسي شاركت في الحديث.

- إن معرفة من استخدم تايدي ليست كافية، فمحاولته كانت فاشلة وهناك قاتل حقيقي نجح.

رفع علي الأصابع الأربعة ليده اليمنى.

- وهناك أربعة مشتبه بهم: دايس إحسان وبلاك نظام والإيطاليون وحريم سليمان.

قطّبت زينب حاجبيها وقالت:

- عرفت الثلاثة الأول لكن من هو حريم سليمان؟

ابتسم علي ابتسامة عريضة وقال:

- إنه قواد عادي لكن قصته مضحكة، فقد ربح إنجين على سليمان على طاولة القمار فاستولى على ممتلكاته التي تتكون من ثلاث نساء. لا نعلم متى حصل ذلك لكننا شهدنا شجاراً قبل أن نأتي لنحضرك ورأينا سليمان يستخدم سكيناً باحتراف، حيث كاد أن يطعن شخصاً أمام أعيننا. صحيح! نسيت أن أعطيك إياها.

وبحث في جيب معطفه الداخلية وأخرج أداة حادة ناولها لصديقته:

- ها هي. تفضّلي...

نظرت عالمة الجرائم إلى السكين نظرة مضحكة.

- أهكذا تحمل الأدلّة يا علي؟

حاولت أن أشرح:

- لم يكن خطأ علي فالأمور حدثت بسرعة إذ اضطررنا لأخذ السكين كما هي.

لكن الفتاة الدقيقة لم تكتف. كان الجانب الأيسر من وجهها مغطّى بالشعر الذي سقط عليه، في حين توهجت عينها اليمنى.

- على الأقل كان بإمكانه لفها بمنديل. الآن لن نجد عليها أيّ بصمات أصابع.

- ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟ كان الناس متجمّعين حولنا وهناك شخص يحمل

مسدساً وآخر يحمل سكيناً... أين سأجد منديلاً؟ لقد عانيت حتى تمكّنت من سحب السكين من اللافتة المغروزة فيها.

كنت متعوداً عليهما أن يتشاجرا هكذا لكنني كنت أريد إنهاء النقاش.

- حسناً، لننسَ الأمر يا زينب. ألقِ نظرة على السكين. يمكنك رشها بمحلول اللومينول أو ما شابه، وإن وجدتِ شيئاً من دم الضحية فهذا سيجعل مهمتنا أسهل بكثير.

استسلمت عالمة الجرائم لكن صديقنا المشاكس أعاد تأجيج النار في الرماد قائلاً:

- هذا مضيعة للجهد حضرة الضابط، فسليمان لم يرتكب الجريمة.

ودون أن تشعر حتى بالحاجة إلى الرد وضعت السكين في كيس أدلة أخرجته من حقيبتها بينما تناولت أنا كأسي كأنني لم أسمعه. لكن استراتيجيتنا الصامتة فشلت.

ناكدنا قائلاً:

- برأيي إن سليمان لم يرتكب الجريمة حضرة الضابط، فهو ليس من النوع الذي يقوم بشيء منحرف لهذه الدرجة. لقد رأيت أنت ذلك أيضاً. إن كان سيقتل أحداً فسيقوم بذلك في العلن...

لم يكن مهتماً بإثبات براءة سليمان وإنما كان يريد الشجار مع زينب. لكن الفتاة لم تطاوعه، ربما لأنها أدركت أنها كانت قاسية عليه بلا داعٍ، وبينما كانت تضع السكين في كيس الأدلة في حقيبتها قالت بهدوء:

- هذا ممكن يا علي لكن من الأفضل أن ألقي نظرة عليها.

قال غاضباً لدرجة أنه لم ينظر في وجهها:

- مضيعة للجهد. لن تجدي أي شيء ولهذا لم أهتم كثيراً بسكينك.

نظرت إليه زينب ببرود.

- سكيني؟

ها نحن ذا... الشجار على وشك الاندلاع.

تدفّقت الكلمات من فمي دون أن أفكر بها:

- بصراحة، أنا أشك بدايس إحسان ولا أظن أن جريمة قتل إنجين كان مخططاً لها. ما أظنه هو أن القتيل كان ضحية الرعونة إذ ما كان ينبغي له أن يمر أمام نادي إحسان في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

كنت قد اختلقت هذا السيناريو دون أن أكون واثقاً من مدى فائدته في العثور على القاتل، لكنه نجح في جذب انتباه هذين الحبيبين الأحمقين.

- نعم يا صديقيّ. هكذا أرى الموضوع. كان إنجين ماراً بجوار نادي تارلاباسي بعد أن كان يمضي وقتاً ممتعاً وربما يكون ثملاً، وحين مر بوكر القمار التقى بعض الأشخاص من فريق دايس. أحد أفراد وكر القمار اليوم...
- أتتكلّم عن هرقل؟

لا بد أن الشرطي الطموح يستعيد توازنه.

- لِمَ لا؟

استقام في جلسته وقال:

- أفترض أن ذلك ممكن حضرة الضابط، فهو لم يبدُ أهلاً للثقة بالنسبة إليّ، إذ إن ذينك الأحمقين الجالسين عند الحانة للزينة لا يملكان وجهَي قاتلَين، أما النظرة على وجهه فلم تكن سليمة. ماذا كان اسمه؟
- نيسمي. فلي نيسمي. لقد التقى إنجين خارج نادي تارلاباسي، وانتفخا مثل هرين غاضبين حين تقابلا وتبادلا النظرات، وكل طرف يحاول إخافة الآخر ثم تبادلا الشتائم. وهنا اتجهت يد إنجين إلى مسدسه لكن فلي نيسمي تصرف بسرعة أكبر حيث سحب سكينه ورماها قبله ليقضي على إنجين. ولم يكن هناك وقت للتخلص من الجثة فأغلقوا وكر القمار وهربوا بسرعة...

قالت زينب وهي تتكئ بمرفقيها على الطاولة وتتفحّص وجهي بعينين متسائلتين:

- هذا ممكن. لكن كيف نفسر وجود طارق في منزل الضحية؟

اندفع علي بطموح كما لو أنه لم يكن من يتجادل مع زينب قبل قليل، وقال وهو يضحك بهدوء:

- لقد خطرت لي فكرة مضحكة... لنقل إن دايس إحسان قرّر أن ينهي هذا الأمر

ويتخلّص من إنجين فاستخدم تايدي طارق. ألم يقولوا، يا حضرة الضابط، إن طارق كان يتردّد على وكر القمار؟ ربما يكون مديناً لدايس لذا قرّر التخلّص من إنجين في ليلة رأس السنة في منزله. وبلعبة قدَرية يمر إنجين بجوار نادي تارلاباسي في تلك الليلة فيلتقي رجال إحسان في الشارع ويحصل ما يحصل وينتقل إنجين إلى الدار الآخرة... ظروف غريبة، لكنّ هناك أشياء أغرب تحدث. دعونا نفكر في الأمر من وجهة نظر دايس إحسان. فقد خطّط الرجل لأدق التفاصيل واستأجر قاتلاً ليتخلّص من عدوه دون أن يشك به أحد. إلا أن شيئاً غير متوقع حصل، فأمام باب ناديه قام رجاله بقتل عدوه... تخيّلا الصدمة.

ما بدأ كمحادثة بسيطة أخذ يتحوّل إلى نقاش عقلاني مثير للاهتمام. وتقييم علي لم يكن مستبعداً، كما أن اتصال كمال بي عند بزوغ الفجر شاهد على مدى توتّر دايس. فمقتل عدوه أمام بابه سيكون سبب قلق، إلا أن كثيراً من الذعر من رجل بريء يثير الشبهات، ومع ذلك يصعب التأكد. كان الخبر الجيد أن العاشقين العنيدين توقفا عن الشجار وتعاونا للتركيز على جريمة القتل.

سألت زينب مسببة موجة جديدة من الصمت على الطاولة:

– ماذا عن المفتاح؟ مفتاح منزل إنجين؟ أقصد تايدي طارق. هل حصل على المفتاح من دايس إحسان؟ وفي تلك الحالة من أين حصل عليه دايس؟

لم تكن تسأل لإثارة المشاكل وإنما كانت تحاول إكمال الفصول الناقصة من القصة. لكن أحداً منا كان عليه المعارضة، فتولّيت تلك المهمة.

– ماذا لو كنا مخطئين؟ ماذا لو لم يكن دايس وإنما بلاك نظام هو رجلنا؟

نظرا إليّ باستغراب... لِمَ هذا التغيّر المفاجئ؟ ألست أنا من قلت للتو إني أشك بدايس؟ ما الذي تغير لأتخلّى عن تلك النظرية فجأة؟

– توقفا عن النظر إليّ بهذه النظرات الغريبة فأنا لا أهذي وإنما أخمّن. لم أتخلَّ عن احتمال أن يكون رجال دايس هم الذين قتلوا إنجين، وإنما أحاول أن أقول إن كان ذلك ما حصل فهو مصادفة، وقد تكون خطة بلاك نظام لقتل إنجين قد بدأ تنفيذها. أعني لو لم يُقتل إنجين على يد رجال دايس خارج نادي تارلاباسي لكان قُتِل في منزله برصاصة من مسدس غلوك، الذي يحمله تايدي طارق بعد

أن استخدمه رئيسه. أليس ذلك صحيحاً؟ سيكون حصول نظام على مفاتيح المنزل أسهل من حصول إحسان عليها كما أننا نعلم أن لدى نظام أسباباً كافية لقتله كما لدى إحسان. لا تنسَ يا علي مدى انزعاج نظام حين علم بصكوك الملكية تلك.

تمتمت زينب باستغراب:

- لم يكن نظام يعلم بأمر الصكوك؟
- لا، في الواقع. لقد أشار إلى أن الصكوك مزيفة وأن تلك لعبة دايس ليظهر أنه القاتل. لكن ماذا لو كان هو من يحيك المؤامرة؟ ماذا لو أن ما قاله دايس هو الصحيح؟ يريد إنجين أن يكون القائد ولهذا قتله نظام. كانت تلك كلمات دايس إن لم أكن مخطئاً يا علي.

فقد الشراب الذي كنا تحتسيه منذ أن جلسنا تأثيره وكنا ثلاثتنا متيقظين.

- أنت تتذكر جيداً يا حضرة الضابط فهذا ما قاله، ولا تنسَ سيليم. إن كان ما يقوله دايس صحيحاً... أعني أن إنجين استخدم الفتاة لمصلحته فقد يكون نظام منزعجاً جداً، كما أن ابني أخيه لم تترهما قضية سيليم أيضاً.

قالت زينب وهي تعدّل شعرها:

- أتعتبر أنها جريمة بدافع الحب؟ وأن هناك امرأة وراء قيام أولئك المجرمين بتصفية حساباتهم؟

كنت أشك في الأمر لكن الفكرة لم تبد مُستبعَدة بالنسبة إلى علي.

- لِمَ لا؟ معظم جرائم القتل في العالم سببها الحب. الناس يذبحون بعضهم بدافع الشرف والأخلاق والغيرة وما شابه.

تمتمت عالمة الجرائم بنبرة غاضبة وهي تمد يدها لتتناول كأس الشراب:

- النساء هن أكثر الضحايا.

اعترض علي:

- لكن ليس في هذه القضية بالذات... في الواقع، في هذه القضية قد يكون القاتل أو المحرض امرأة. إن كان نظام هو من قتل إنجين فقد تكون سيليم هي من حرّضته.

كان متعجّلاً فهذا التفسير لم يكن مقبولاً لذا لم تتردّد زينب في الرد.

- لا أظن ذلك يا علي. نحن لم نستجوب أولئك النساء الثلاث في الصور وليس هناك أي دليل يشير إلى ذلك.

أمسكت بكأس الشراب في يدها. هل هما على وشك الجدال مجدّداً؟ ربما أنا الملام فما كان ينبغي لي الخروج والشرب مع شخصين أعمل معهما. لكنهما لم يكونا مجرد زميلين وإنما هما زينب وعلي... إنهما عائلتي. حسناً ما حصل قد حصل وحان الوقت لإنهاء تجميع الأفكار.

- سنصل إلى النتيجة يا صديقتيّ. هيا... فلنشرب نخب عالمٍ خالٍ من الجريمة، لا من النساء ولا من الرجال.

فهم الاثنان نيّتي فلم يعترضا وامتثلا لأمنياتي ورفعا كأسيهما، وقد يكونا تعبا من الجدال أيضاً. أشرق وجه زينب بابتسامة متفائلة وردّدت:

- نعم... عالم حيث لا يقتل أحدٌ أحداً.

وبينما كنا ندق كؤوسنا سمعت هاتفي يرن فتجاهلته إذ يمكن للمتصل الانتظار. احتسيت حسوةً كبيرة من كأسي وهنا سمعت زينب رنين الهاتف ونبّهتني ونحن نضع كؤوسنا على الطاولة.

- هاتفك المحمول يرن يا حضرة الضابط.

- أعلم.

أخذت وقتي في إخراج الهاتف من جيبي ووجدت رقماً لا أعرفه.

- ألو؟

- مرحباً يا حضرة الضابط. أنا الشرطي سامي... التقينا في مسرح الجريمة البارحة.

كان الشرطي النحيل الذي رأيناه في مسرح الجريمة.

- نعم يا سامي. هل كل شيء على ما يُرام؟

- لا يا حضرة الضابط. لقد وقعت جريمة قتل أخرى... خارج نادي تارلاباسي الأصيل هذه المرة.

ألا ترون أن القتلة هناك؟



كان نادي تارلاباسي الأصيل يقع في الشارع المحاذي، تحت نادي تارلاباسي... ذلك الشارع الملتوي بمبانيه الحجرية المتداعية لأن سكان الحي لا يعرفون قيمتها. كان نظام – كخصمه إحسان – قد أقام ناديه في واحد من تلك الأبنية التي يبلغ عمرها قرناً، لكن هذا البناء أفخم وأجمل، كما تم تجديد واجهته. ويمكن رؤية الأحرف البرتقالية المضاءة للافتة نادي تارلاباسي الأصيل من آخر الشارع، حيث تتعارض بشدة مع البناء التاريخي. كان هناك كثير من رجال الشرطة في الشارع أكثر من الليلة السابقة، وكانت الأضواء الزرقاء والحمراء لسيارتي الشرطة في طرفي الشارع تومض على الثلج. كان سامي ينتظر أمام السيارة التي على طريقنا، وقد تعرف إلى ظلنا في الظلام، فخطا للأمام ووقف متأهّباً.

– أهلاً يا حضرة الضابط. من هنا لو سمحتم.

وأشار إلى نادي تارلاباسي الأصيل.

سألته مباشرة عما أفكر به منذ أن وصلني خبر جريمة القتل.

– هل تم قتل الضحية بسكين؟

هز رأسه بالنفي قائلاً:

– لا يا حضرة الضابط. مسدس... لقد تم إطلاق سبع رصاصات.

– سبع رصاصات؟ هل كان مع الضحية مسدس أيضاً؟

أشاح ببصره.

– كان مع أصدقاء الضحية أو هذا ما يقوله المشتبه بهم. لم نجد أي مسدسات

أخرى في مسرح الجريمة لكن لم يكن هناك أي مظاريف الرصاصات أيضاً.

- هل تم التعرف على سلاح الجريمة؟

- بالطبع يا حضرة الضابط... براونينغ عيار 9 مم. واحد من تلك المسدسات المصنوعة حسب الطلب وهو مرخص أيضاً. لقد تم إطلاق النار من داخل المبنى.

وأشار إلى نافذة الطابق الأول:

- من هناك.

حين لاحظ كم أنا متفاجئ أوضح:

- كان المشتبه به ينتظرنا عند النادي وأخبرنا بكل شيء.

لم يعد عليّ يستطيع كبت سلوكه اللامبالي وفقد صبره.

- أخبرنا من هو المشتبه به.

- قدرت... ابن أخ بلاك نظام.

لا بد أنه أحد التوأمين اللذين جلسا إلى الطاولة المجاورة ونحن نتكلم مع عمهما. تساءلت أي واحد منهما لكن هل يهم ذلك؟ وماذا عن جريمة قتل البارحة؟ هل قدرت هو من قتل إنجين؟ قفزت الأسئلة إلى ذهني واحداً تلو الآخر لكن عليّ تصرف بسرعة كالعادة.

- هل اعترف؟ لماذا قتله؟

- لأنهم إرهابيون... لأنهم رموا قنبلة مولوتوف على ناديهم...

قلت متجهّماً:

- انتظر.. انتظر. أخبرني من البداية دون أن تنسى شيئاً.

أساء فهمي وتجمد في مكانه.

- لا... لا تتوقف. استمر بالمشي وأنت تشرح.

دارت عيناه في محجريهما استياءً لكنه أذعن.

- بالطبع يا حضرة الضابط. قامت مجموعة إرهابية من ثمانية إلى عشرة أفراد بالقدوم إلى نادي تارلاباسي الأصيل حوالى الساعة الحادية عشرة. كان النادي مغلقاً بسبب ما حصل لإنجين لكن قدرت ومدحت وابني عمهما كانوا في

الداخل يحتسون الشراب، وقام أحد أفراد المجموعة بإشعال قنبلة مولوتوف ورميها على النافذة فانكسر الزجاج ووقع أمام الطاولة التي كانوا جالسين عليها واشتعل كل شيء بالنار، وبينما كان مدحت وابنا عمه يحاولون إخماد النيران توجّه قدرت إلى الغرفة المجاورة وفتح النافذة وصرخ:

- ماذا تفعلون؟ توقّفوا!

لكن الناشطين في الشارع تجاهلوه وردوا عليه أن يخرج من هناك، ثم رموا قنبلة أخرى على قدرت لكنها لم تصبه وارتطمت بالجدار ووقعت على الأرض. ويقول قدرت إنهم يحملون مسدسات أيضاً وبندقيتي كلاشينكوف، وحين رأى الكلاشينكوف سحب مسدسه غريزياً. يقول إنه لم يطلق النار بهدف القتل وإنما كان يحاول حماية نفسه لكن الناشط مات.

وأومأ إلى مكان وراء شرطيين يرتديان بذلتين.

- الجثة هناك. ستفهمانني أكثر حين تفحصانها.

- أهذا ما أخبرك به المشتبه به؟

لا بد أنه ظن أني لا أصدقه لأن علامات الخيبة ظهرت على وجهه.

- ليس قدرت فحسب يا حضرة الضابط وإنما قال الآخرون الشيء ذاته.

- أتعني بكلمة «الآخرون» توأم قدرت مدحت وأبناء أعمامهما؟

اتسعت عيناه الداكنتان.

- لم يكن هناك أي شهود آخرون. أنا أعرفهم... قدرتْ لا يكذب.

سأله علي:

- كيف تعرفهم؟ هل أنتم أصدقاء؟

- لا يا سيدي. هذا سخيف. كيف أكون صديقاً لمجرمين أمثالهم؟ لقد دخل هؤلاء الشباب مركز الشرطة كثيراً ولهذا أعرفهم. ما أقوله هو أن قدرت يقوم بجميع الأعمال القذرة لكنني لم أكشفه يكذب كذبة واحدة.

- إذن لم زعمت الليلة الماضية أنك لا تعرف إنجين؟

كان سؤال علي كصفعة على وجه الشرطي الضعيف.

- ما... ماذا تقصد يا سيدي؟

أكمل مساعدي:

- وتتظاهر بالغباء؟ ألم تقل إنك لا تعرف إنجين؟ والآن تقول إنك تعرفهم كلهم؟ إن كنت تعرفهم كلهم فكيف لا تعرف إنجين؟ أليس إنجين واحداً من رجالهم؟
- لا... أعني أنك أسأت فهمي. نعم... نعم... بالطبع إنجين واحد من رجالهم...

كان يورط نفسه أكثر كلما فتح فمه.

قلت:

- حسناً يا سامي، حسناً. سنناقش موضوع إنجين هذا فيما بعد. لكن أخبرني الآن هل تكلمت مع هؤلاء النشطاء؟ ماذا قالوا؟
- كنت سأتكلّم معهم بالطبع لكنهم لم يكونوا هنا، فقد هربوا بعد القتال بالمسدسات... لهذا لم أستطع تحديد عدد الإرهابيين الموجودين. أظن أنهم أصيبوا بالذعر حين تم إطلاق الرصاص على أصدقائهم.

قال علي بسخرية:

- أي إرهابيين هؤلاء؟ معهم بندقيتا كلاشينكوف ويهربون حين يرون مسدساً؟!

صمت سامي تماماً.

تمتمت زينب:

- لا بد أنهم الأشخاص أنفسهم الذين رموا قنبلة المولوتوف على نادي دايس هذا الصباح. أشك أن مع هؤلاء الرجال أي مسدسات، فحين فتح قدرت النار أُصيبوا بالذعر وهربوا.

كان ذلك هو المرجح لكن الآن المشتبه به الذي لدينا أهم بكثير من هؤلاء الناشطين المجهولين.

- أين قدرت الآن؟
- في مركز الشرطة الرئيسي يا حضرة الضابط، فقد ارتأينا أنه ليس من الحكمة إبقاؤه هنا فقد خشينا أن يجتمع أصدقاء الضحية ويهاجموا النادي. من الواضح أن الناشط المقتول عضو في مجموعة سياسية لذا أبعدنا المشتبه به تحسباً. قدرت في المركز ينتظرك لتستجوبه... أقصد أن الوقت تأخر إن كنت تريد استجوابه... ويمكنك تأجيل ذلك للغد بالطبع.

حين لم أرد على ثرثرته أشار إلى مسرح الجريمة.

- الضحية هناك يا حضرة الضابط. لا تقلق فلم أسمح لأحد أن يلمس شيئاً.

نظرنا نحو نادي تارلاباسي الأصيل حيث كان الضحية مستلقياً في بركة من الدماء وسط الثلج الأبيض وتفوح في الهواء البارد رائحة البترول من الزجاجة التي لا يزال ممسكاً بها بين أصابعه المتشنّجة. كان يرتدي سترة خضراء وبنطالاً أزرق، وينتعل حذاء رياضياً. في البداية لم أستطع رؤية رأسه لأن ساق أحد رجال الشرطي كانت تحجب النظر. كان قد سقط ورأسه للأعلى كإنجين، لكن لم يكن الجانب الأيسر من سترته فقط مشبعاً بالدم وإنما السترة كلها... الدم والثلج. حين خطا رجل الشرطة الذي يحجب النظر خطوتين إلى اليمين رأيت الرأس والوجه النحيل حيث تبعثر الشعر الأسود الحالك كخمار على الثلج الأبيض...

قالت زينب بذهول:

- إنها فتاة! لقد قتلوا فتاة...

كانت فتاة مستلقية هناك وقد سقطت قبعتها وراء رأسها، أما عيناها فكانتا مثبتتين على شيء غير محدّد في السماء كما كان حصل مع إنجين. وفجأة تراءى لي منظر منذ سبع سنوات... منظر فتاة شابة أخرى... ربما بالعمر نفسه تقريباً... ناعمة ومجعّدة الشعر، ووجهها وسيم وعيناها كحبتي عنب... فتاة لم تقتل برصاصة وإنما بسكين على يد والدها البيولوجي على بعد بضعة شوارع. لا... لم يكن الثلج يتساقط ولم يكن الوقت شتاء، وإنما كانت ليلة رطبة وحارة من شهر تموز/ يوليو. في ذلك المساء الصيفي المشؤوم كانت مستلقية على ظهرها كهذه الفتاة المسكينة... مستلقية في بركة من دمها. لكن الفرق الوحيد هو أنه لا يوجد أحد حول جثتها. فعلى الرغم من كونها ليلة صيفية لكننا لم نجد أحداً في الشارع كما لو أن الناس في هذا الحي الضخم قد حفروا حفرة في الأرض واختبؤوا فيها. لم يكن هناك سوى الفتاة التي قتلتها عائلتها، وقد بردت جثتها على الحجارة الدافئة في ذلك المساء الحار.

- قَتَلَة!

لا... لم يكن صوتي... فلا أحد بمن فيهم أنا لديه الجرأة ليصرخ بذلك في

الشارع.

- قَتَلَة!

لا... لم تكن الذكريات المنسية في الغرف الضبابية في ذهني، وإنما كان الصوت قادماً من أعلى شارع تارلاباسي هذا الذي يخيّم عليه الليل الشتوي البارد... صوت أنثوي متألم.

- كيف يمكنهم فعل هذا بفيدان؟ حثالة... قَتَلَة...

- أهذه أم الفتاة؟

أحسست براحة أن لديها أماً تحزن عليها. ففي تلك الليلة الصيفية حين كان جسد الفتاة المسكينة الأخرى ممزقاً لقطع لم تذرف الأم دمعة واحدة. نظرت بتركيز باتجاه صوت المرأة، وبينما كانت تقترب تعرفت إليها... إنها نازلي... التي تقود المظاهرة التي رأيناها في ذلك المساء... المرأة التي تملك المركز الثقافي. حاول شرطيان إيقافها لكنها لم ترد عليهما وببنيتها الضخمة شقت طريقها رجلي الشرطة وهي تصرخ:

- دعوني! دعوني...

ذكّرتني بتماثيل الآلهة التي رأيتها في المتاحف إذ كان الحزن العميق بادياً في عينيها، وهي تتجاهل الريح التي تتلاعب بشعرها. أرجعت رأسها للخلف كتلك التماثيل وتقدمت مباشرة باتجاه جثة الفتاة الشابة. شاهدناها بصمت في حين قام سامي وشرطي آخر بالانضمام إلى اللذين يحاولان منعها، وحين أصبحت على بعد خمسة أو ستة أمتار من الجثة تمكن الرجال الأربعة من إرجاعها للوراء.

صرخت مجدّداً:

- دعوني! لماذا تحاولون إيقافي؟ اذهبوا وأوقفوا أولئك المجرمين الذين أطلقوا النار على فيدان.

وحين رأت أن لا جدوى من صراخها ومقاومتها بدأت بالبكاء، ولم تستعد رباطة جأشها إلا بعد مدة طويلة.

- حسناً... حسناً. أبعدوا أيديكم عني... سأبقى هادئة لكن دعوني أرى فيدان... مرة واحدة.

قال سامي:

- هذا ليس ممكناً يا نازلي هانم.

إذن هو يعرفها.

- هذا مسرح جريمة وستخربين الأدلة وتوقعيننا في مشاكل.

ظهرت نظرة ملؤها التوسّل في عيني نازلي للمرة الأولى.

- لن أفعل. فقط أريد أن أراها لآخر مرة.

ناديت:

- دعوها. دعوها تقتربْ.

حدق إليّ سامي ببلاهة غير مصدق أذنيه.

- دعوها تقترب يا أولاد.

- لكن يا حضرة الضابط...

رفعت صوتي.

- قلت لا بأس يا سامي. دعِ المرأة تقتربْ.

كان وجه نازلي يحمل تعابير غريبة لكن النظرة لم تستمر فترة طويلة وعادت إلى جسد الفتاة الشابة. مشت ببطء بين رجال الشرطة الذين تنحّوا عن طريقها، وحين رأت جثة الفتاة توقفت. لاحظتُ أن بنيتها الضخمة ترتعش... إنها تبكي بصمت... بلا صراخ... بلا عويل... فقط كانت دموعها تتساقط. أشرت إلى علي وزينب أن يبقيا في مكانهما ومشيت نحوها، وحين وصلت إليها أدركت أنها كانت تتمتم بشيء. أهي تصلي؟ لا، بل كان اعترافاً... خطوتان أخيرتان واستطعت تمييز الكلمات.

كانت تقول وهي تهز رأسها بلطف:

- لم أستطع إنقاذها... لم أستطع إنقاذها...

تغلب عليّ الفضول وسألتها:

- ممن لم تستطيعي إنقاذها؟

أدارت رأسها وقالت:

- ماذا؟

ابتسمت ابتسامة خفيفة.

- أعني الضحية. هل تم تهديدها؟
- من أنت؟ لم أَرَكَ من قبل؟

قلت بود:

- الضابط المحقّق نيفزات من قسم الجرائم. إنني أرأس هذا التحقيق. هل الضحية من أقاربك؟

عاد ذلك الحزن العميق إلى عينيها مجدّداً.

- فيدان؟ لقد كانت بمثابة ابنة لي...

وعضت شفتها السفلى لئلا تبكي، وحين مرت موجة الحزن التي تعتصر قلبها أكملت:

- أو على الأقل ظننت ذلك. لكنها تركتني. لم أستطع رعايتها... لم أستطع حمايتها.

سألتها مرة أخرى:

- ممن لم تستطيعي حمايتها؟

نظرت إليّ كأنها تراني للمرة الأولى محاولة أن تحدد إن كنت صديقاً أو عدواً. ثم أشارت إلى نادي تارلاباسي الأصيل:

- ممن؟ من أولئك الرجال بالطبع. القذارة في هذا المبنى... هذا الحي... هذه المدينة... هؤلاء الوحوش الذين يتنكرون على شكل بشر... عَبَدَة المال وأَكَلَة لحوم البشر. لقد قلت ذلك كثيراً... لقد شرحت الأمر مراراً وتكراراً... كيف يمكنكم تركهم.

وبدأت بالبكاء مجدّداً وهي تكمل كلامها.

- لم تكن تسمع كلامي وإنما كانت تتهمني بالخوف وتقول: "سأنتقم لأختي ولأمي" لكن انظر ماذا حدث. ما كان ينبغي لي تركها تذهب. لم يكن لدي أي حق لأغضب منها... أي حق لأدعها تذهب وحدها...

كان كلامها مجزءاً لدرجة أنه يصعب فهم ما تتكلم عنه. بقيت أدور حول الموضوع لتدخل في التفاصيل.

- ماذا حدث لأختها وأمها؟

قالت وهي تهز رأسها بيأس:

- لقد دمروهما... لقد دمروهما.

- من؟

- هؤلاء الرجال... مجموعة المقامرين هؤلاء... ذلك القذر دايس إحسان ثم بلاك نظام... المحتال في هذا المبنى... وابنا أخيه... وإنجين الذي لقي حتفه البارحة. بمن ينبغي أن أبدأ؟ هذا الحي المهجور... هذه المدينة القاسية... أنت... أنا... كلنا... كلنا دمرناهما.

ارتطم صوتها بالجدران المتداعية للمباني بعمر قرن وتردّد صداه في الليل. التفت كل من في الشارع ليشاهدنا لكنها لم تكترث. ربما يكون السبب الحقيقي وراء جرائم القتل هذه مخفياً في ما تقوله هذه المرأة الغريبة.

- لقد قتلوا والدة فيدان؟ لقد آذوا أختها؟ لا أفهم. أيمكنك أن تكوني أوضح؟

حدقت عيناها الدامعتان إلى وجهي.

- كيف يمكنني أن أوضح أكثر؟ لقد دمروهما... لقد قتلوا الاثنتين في الوقت نفسه... لقد أخذوا منهما كل شيء... منزلهما... ممتلكاتهما... جسديهما... وحياتهما...

وأشارت إلى فيدان مرة أخرى وقالت:

- هي كل ما تبقى، وفي النهاية أخذوها.

وترقرقت عيناها بالدموع مرة أخرى.

قلت محاولاً أن أكون محترماً قدر الإمكان:

- دعينا يا نازلي هانم نذهب إلى مكان مناسب أكثر إن كنت ترغبين. ما تقولينه مهم للغاية فهو سيساعدني في تحديد القَتَلَة ومن يقف وراءهم.

كانت النار مضطرمة في عينيها الدامعتين.

قالت وقد بدت كأنها فقدت عقلها، وأصبحت تنظر إليَّ نظرة جنونية:

- القَتَلَة؟ واضح من هم القَتَلَة يا نيفزات بيك. ألا ترى الواضح؟ لقد دمروا الحي ودمروا هذه المدينة وهذا البلد... لقد دمرونا كلنا. ألا ترى أن القَتَلَة هناك؟

- أفهم لكن الوضع أكثر تعقيداً مما تظنين. إن كنت تستطيعين الجلوس ومناقشة...

هزت رأسها وأشاحت بنظرها بعيداً.

- لماذا؟ ما الفرق؟ بدلاً من الحديث معي اذهب وتحدث مع ذلك المحتال بلاك نظام...

لا بدّ أنها قالت كلماتها الأخيرة لأنها استدارت بالاتجاه الذي جاءت منه. لم يكن هناك أي طائل من الإصرار لكننا كنا بحاجة لشهادتها وكنت أخشى أن نضطر لإحضارها بأمر من المحكمة. كم ستكون ذات فائدة لنا في مثل تلك الظروف الإجبارية؟ ثم توقفت فجأة. مهما يكن ما تفكر فيه فقد التفتت.

قالت بنبرة متحدية:

- ماذا تريد؟ هل تحاول إغلاق ملفٍ أم أنك تريد معرفة الحقيقة؟

لم تبعد نظراتها عن نظراتي للحظة وهي تسأل. لم تكن تهددني وإنما تحاول أن تفهم فحسب.

- بالطبع أريد معرفة الحقيقة. يا ليت الذين يعرفونها يخبرونني بها.

أظن أن جوابي لم يكن كافياً فقد أرجعت رأسها للوراء ونظرت إليّ ثم قالت وهي تعانق معطفها الرمادي:

- إذن دعنا نذهبْ. الجو بارد. سأصنع لك كوباً من الشاي ونتكلم.

في هذا البلد لحم المرأة وحياتها أرخص من الماء



عند الزاوية حيث يلتقي منحدر ساكيز أغاسي بشارع تافلا كان هناك مبنى مرتفع... مركز فرحات سيراج الثقافي والذي، على الرغم من قدمه - يلقى عناية فائقة. فتح لنا الباب الخشبيَّ الضخمَ فتى داكن البشرة ذو وجه مليء بالندبات، بعمر كيتو أو ربما أكبر بسنتين. وكان يحدّق إلينا بفضول بالغ قد يتحوّل حزناً وأسى في أي لحظة.

- ماذا حصل؟ أهذا صحيح؟ هل فيدان ماتت؟

بلعت نازلي ريقها ولم تنبس ببنت شفة، وإنما ضمّت الفتى إليها كما تضم الأم ابنها بعد أن فقدت ابنتها. وظلت على تلك الحال فترة، ثم طبعت قبلة على الشعر الداكن للفتى الذي وصل بالكاد إلى كتفها.

- اذهب يا بحري إلى النوم وسنتكلّم في الصباح.

للحظة لم يعرف الفتى ماذا يفعل، لكنه لم يستطع الاعتراض حين رأى تصميم نازلي.

- حسناً يا أبلة سنتكلم صباحاً... تصبحين على خير.

- تصبح على خير يا بحريسيم.

همست بحزن بينما صعد الفتى السلّم:

- كانت فيدان هكذا، لكنها لم تكن بشجاعة بحري، فقد كانت تخاف من أن تنام وحدها.

ظننت أنها ستبكي مجدّداً لكنها كفكفت دموعها واكتفت بتنهيدة وقالت:

- تفضّل يا نيفزات بيك. سأحضر الشاي وأعود مباشرة. أم أنك تفضّل القهوة؟
هل تلمح إلى أنها تعرف أنني ثمل قليلاً؟
- أفضل الشاي إن لم يكن في الأمر عناء...
لقد كنت مخطئاً فهي لم تكن تلمح بعرضها إلى أي شيء.
تمتمتُ بألفة كأنني صديق قديم:
- ليس في الأمر أي عناء ففي كل الأحوال سأستخدم ظروف الشاي.

ألقيت نظرة حولي قبل أن أدخل الغرفة التي أرتني إياها نازلي. كانت هناك أربع غرف متقابلة، وعلى الرغم من أن العوارض الفولاذية المستخدمة لإعادة تأهيل المبنى كانت مطلية بلون الأكياس الورقية لكنها بدت ناتئة. وباستثناء ذلك كان المكان أخّاذاً بالنسبة إلى مركزٍ ثقافي حيث حافظوا على مظهر المبنى الأصلي: الأرضيات الخشبية وأطر النوافذ والسلالم والسياج وأبواب الغرف...

على الجدران كانت هناك لوحات لرسومات جميلة للطبيعة لا بد أن الشخص نفسه رسمها كلها، وحين اقتربت أكثر استطعت قراءة اسم الفنان: كلود مونية... وكانت لوحاته تصوّر مساحات واسعة من الريف ونبات الخشخاش والبنفسج والنيلوفر...

إذا لم تعتبر المطبخ الذي توجهت إليه نازلي، كان من الصعب تحديد فيم تُستخدم الغرفتان الأخيرتان ببابيهما المغلقين. توجّهت نظراتي إلى السلّم الذي صعده بحري... أظن أن هناك ثلاثة أو أربعة طوابق أخرى في الأعلى.

توجّهتُ إلى مكتب نازلي. كانت الغرفة كبيرة وواسعة ومصممة بشكل جميل وفيها سجادة بألوان بهيجة على الأرض، وطاولة خشبية كبيرة مصنوعة يدوياً، ومقاعد مخملية بنية فاتحة، وأريكة خضراء فاتحة تتسع بسهولة لأربعة أشخاص، ووسائد مطرّزة مبعثرة في الزوايا. كانت جدران الغرفة تشبه معرض مدرسة ابتدائية حيث كانت الصور معلّقة في كل مكان... بعضها من رسوم مونيت لكن معظمها رسوم بأيدٍ مبتدئة، كما كانت أيسون ترسم... إذن ما قاله كيتو صحيح... لا بد أن نازلي تحضر الفنانين والكتّاب لتعليم الأطفال، وهذه الصور تشكل نتاج المحاولات. كان الجدار الوحيد الخالي من الصور هو الجدار الذي يقع وراء

الطاولة، ولا يوجد عليه سوى ساعة خشبية قديمة أصغر بقليل من الساعة الموجودة في بيتي. ومن إطار معلّق تحت الساعة مباشرة كانت هناك عينان متألقتان لرجل بأنف حادّ وشعر بني وشارب أحمر، تراقبانني.

- الشاي جاهز.

رأتني وأنا أشاهد الصورة وتردّدت لحظة ثم تجاهلت الأمر ودخلت في الموضوع بسرعة وكأنها خائفة من أن أسألها عن الرجل في الصورة.

- نعم... لقد بقيت فيدان معنا سنتين...

كنت لا أزال واقفاً ومرتدياً معطفي، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ ما إن بدأت المرأة تشرح حتى أصبحت كلي آذاناً صاغية.

- لقد جاءتنا يوم بلغت الثامنة عشرة... كانت تريد أن تأتي في وقت أبكر لكنها خشيت أن تعيدها المحكمة إلى أبيها، فقد كان وضيعاً للغاية... يعقوب... مقامر وخسيس. أنا أتكلم عن والد فيدان، فقد كان نذلاً ولا يمكن الاعتماد عليه...

لم تتوقف نازلي بل كان يناسبها بطريقة غريبة أن تتكلم دون توقف. لكنها صمتت فجأة حين لاحظت أخيراً أنني لا أزال واقفاً وضحكت بخجل.

- أنا مضيفة سيئة... لم أجلسك أو آخذ معطفك. هل تشعر بالبرد؟ يمكنني رفع التدفئة.

قلت وأنا أخلع معطفي:

- لا... الجو دافئ هنا لكن الصور شوّشتني.

تناولت معطفي بلباقة لتعويضها زلتها.

- من هنا لو سمحت.

وحين جلستُ على المقعد توجهت إلى المشجب وراء الباب.

سألتها من الخلف:

- هل التقيت يعقوب مسبقاً؟

أجابتني وهي تعلّق معطفي:

- بالطبع... ذلك الكريه بدأ بإزعاجنا منذ أن علم أنها جاءت إلى هنا.

والتفتت ونظرت إليّ وهي تضيف:

- لقد كنت صريحة معه "ابنتك بلغت الثامنة عشرة من عمرها ولديها الحق في البقاء حيث تريد". لقد أخبرته أنني سأزج به في السجن إذا حاول إجبارها أو بدأ بإزعاجنا إلا أنه لم يرتدع. لكن حين أخبرته أنني أتصل بمحامٍ استسلم وتراجع مدحوراً ولم يعد مجدّداً مع أنه تواصل مع فيدان وقال لها: «وضعي سيئ... أعطني بعض المال». لقد أقسمت فيدان أنها لم تعطِهِ شيئاً... لا أعرف...

خلعت معطفها وعلقته ثم أكملت وهي تمشي.

- لم تكن حياتهما سيئة في الواقع، فقد كان يملك كشك شاي في نارمانلي هان، وكانت زوجته رميسة تنظف المنازل على الرغم من صحتها السيئة... لا تستخف بعملها في تنظيف المنازل فقد كانت تجني نقوداً أكثر من زوجها...

توقفت قبالتي ونظرت إليّ بفضول:

- أنت مرتاح هناك أليس كذلك؟
- نعم... لا تقلقي بشأني.

ارتمت على كرسيٍّ وعادت إلى الموضوع.

- لكن ذلك الجبان قامر بجميع أمواله وأموال زوجته. أتعرف ذلك الفخ نادي تارلاباسي؟ وكر دايس إحسان للخداع؟ ذلك هو النادي الذي يقصده يعقوب... لقد ربح مرة ثم واجه سلسلة من الخسائر، وكلما خسر أكثر زادت شهيته أكثر فراهن في البداية على كشك الشاي ثم على أشياء منزله. أنا لا أبالغ، فقد كانت فيدان تذرف الدموع وهي تخبرني... ليس الثلاجة والتلفاز فحسب وإنما كل شيء بما في ذلك القدور والمقالي، وحين انتهت راهن على بناته. كانت قمرو أكبر بسنة واحدة من فيدان حين راهن عليها...

احتججت:

- ما هذا؟ في أي قرن نعيش؟ كان ينبغي بقمرو اللجوء إلى الشرطة.
- لقد فعلت، لكنهم كانوا قد حاكوا مكيدة، فالرجل الذي ربح قمرو أخبرهم أنه تزوج الفتاة. وهكذا توجّه ذلك الرجل الوضيع يعقوب لإقناع زوجته رميسة حيث قال: "الرجل غني ولديه محطة بنزين في دولابدير. سيمنح قمرو حياة

أفضل" لكن ذلك الرجل الذي تقدم لخطبتها كان أكبر من يعقوب بعشر سنوات كما أنه متزوج ولديه ثلاثة أطفال إلا أنه ليس متزوجاً رسمياً من زوجته الأولى وإنما بينهما زواج ديني فقط.

تنهّدت بعمق.

– إنها الفضيحة القديمة نفسها... نعم... في هذا البلد لحم المرأة وحياتها أرخص من الماء... في هذا البلد يتم تقديم النساء قرابين للرجال لإمتاعهم وخدمتهم ثم يقتلونهن...

في تلك اللحظة فهمت ما الذي جذبني إلى هذه المرأة من اللحظة التي رأيتها فيها... قلبها المكسور... هذا ما رأيته حين نظرت إليها... لم تكن التجاعيد حول عينيها فحسب، بل أيضاً الخطوط على جبهتها، وشعرها الكستنائي الذي بدأ الشيب يغزوه، والوجنتان اللاحمتان، والكتفان المتهدّلتان قبل أوانهما، والصوت الأجش، كلها أثارت فيّ المشاعر نفسها: قلب مكسور.

– لقد أعطوا قمرو للرجل وبالطبع لم يسأل أحد الفتاة المسكينة عن رأيها، فربما كانت تحب شخصاً آخر... لكن من يأبه؟ في النهاية أصبحت قمرو ضرّة امرأة أكبر من أمها، وبعد ثلاثة أشهر غادرت المنزل الذي دخلته بثوب الزفاف محمولة في كيسٍ للجثث... قالوا إنها لم تعد تحتمل أكثر فابتلعت حبوباً وسمّمت نفسها وانتحرت... هل هذا صحيح؟ من يدري؟ في هذا البلد كل شيء له قيمة معروض للبيع يا نيفزات بيك... يمكنك شراء أي شيء إن كنت تملك المال... الناس... الأطباء... القضاة... رجال الشرطة... الجميع. مشكلة هذا البلد هو فساد الأخلاق وقلة الشرف وفقدان الكرامة...

في عينيها اضطرمت شرارات زرقاء... يبدو أن انكسار القلب المزمن ذاك لا يتبدّد إلا حين تغضب.

– نعم يا نيفزات بيك... ينبغي أن يكون موت تلك الفتاة المسكينة إحدى قضاياك التي تحقّق فيها... ربما يجدر بك إعادة فتح الملف... لا يمكن للضمير الإنساني القبول بهذا الوضع... قمرو ذات التسعة عشر عاماً تدخل منزلاً بثوب زفاف وتغادره بكفن... ورميسة المريضة لم تستطع تحمل الألم فماتت

خلال عام، لتبقى فيدان وحدها مع أبيها المقامر واللامسؤول. كانت الفتاة تقضي لياليها خائفة من أن يراهن والدها عليها، ولهذا هربت يوم بلغت الثامنة عشرة ولجأت إلينا. لقد استقبلتها بكل سرور وشغّلتها مع صديق لي طبيب أسنان، وقد استمرت بالبقاء هنا في الليل لكنها قالت إنها ستنتقل للعيش مع أصدقائها حين تدخر بعض المال فشجّعتها، وكنت سعيدة لأنها ستقف على قدميها بنفسها، لكنها انضمت للمنظّمة السياسية... لا تتخيّل مجموعة إرهابية أو ما شابه... لقد كانت تجمعاً للشباب الناقمين من أمثالها... نعم... لقد كانوا جميعهم غاضبين وثائرين على الظلم الذي تعرضوا له... وربما...

خطر ببالها شيء ما منعها من إكمال أفكارها... لم تعد تحتمل أكثر... دمعت عيناها مجدّداً وتدلّت شفتها السفلى ثم بدأت بالبكاء حيث انهمرت الدموع بصمت من عينيها، فغطّت وجهها بيدها اليمنى وبقيت كذلك فترة ثم استجمعت قواها وأكملت من حيث توقفت:

- ربما كانت تحاول مساعدتي. كانت فيدان تحبني. لقد توجهنا إلى المحكمة لأجل المبنى الذي يستحوذ عليه ذلك الكلب بلاك نظام. أنا أملك المبنى الذي يقيم فيه ناديه الفظيع فقد استأجره مني. لقد ظلوا هناك مقابل مبلغ زهيد لسنوات، لكنني أردت طردهم لا من أجل المال وإنما لأنني بحاجة للمبنى لأفتح مركزاً ثقافياً آخر. إلا أن نظام أحبط مخططاتي بالتهديدات والشتائم وإطلاق النار خارج مركزنا، لكنه لم يستطع كسر إرادتنا. وفي النهاية استسلم نظام وسلّم وثيقة رسمية تقول إنه سيخلي المبنى. لكن فيدان لم تثق به فقد قررت أن تحاول إخافة نظام بنفسها إذ إنها لم تكن تعرف مدى وحشية هؤلاء الرجال... الذنب ذنبي في موت الفتاة...

لم أعد أحتمل تعذيبها لنفسها أكثر.

- أنت مخطئة... ليس للأمر أيّ علاقة بك.

لم تفهم فكرّرت كلماتي.

- هذا ليس خطؤك. لم يكن نادي نظام فحسب، فقد تم رمي قنبلة مولوتوف على نادي تارلاباسي أيضاً... نادي دايس إحسان... لم تكن نواياهم مساعدتك

وإنما كانوا يحاولون معاقبة جميع الأشرار في تارلاباسي، وبالطبع كان لدى فيدان سبب أفضل... محاولة الانتقام لما حصل لأمها وأختها الكبيرة. لا بد أنهم قرروا إحراق أوكار القمار لذا لا تلومي نفسك... هذا إن لم يكن هناك شيء آخر لا أعرفه.

تلاشى الحزن في وجهها مباشرة وبدت على وجهها تعابير حب الشجار.

- لا تنتقد هؤلاء الأولاد فقد كانوا يفعلون ما كان يفترض بكم فعله.

ضحكت بهدوء.

- ماذا؟ أكان يتوجّب علينا إحراق شبكات القمار؟

ظننت أن ذلك سيزيد من غضبها، لكن المفاجئ في الأمر أن صوتها أصبح أنعم.

- أنا لا أبرّر ما فعلوه. حين أقول "أنتم" لا تأخذ الأمر على محمل شخصي، فأنا لا أعرفك، لكنك تبدو شخصاً لطيفاً كما أنك لم تحاول القيام بخداعي... أنت مختلف عن باقي رجال الشرطة الذين أعرفهم... أقصد أولئك الذين يغضّون الطرف عن القمار على الرغم من أنه غير قانوني... رجال الشرطة المتواطئين مع المافيا. أتعرف ذلك الشرطي الذي حاول إيقافي؟ المدعو سامي؟ كم مرة رأيته مع نظام؟ ولديه صديق ذو رأس كبير يدعى زينال.

كانت تتكلم عن زميلينا من الليلة الماضية.

- نعم... هذان الاثنان يقسّمان المهام... إنه دائماً في نادي دايس... كلاهما يدعمان زعماء المافيا... بالطبع هذان من نرى لكن هناك أولئك المختبئين وراء الستار... أولئك الذين يتقاسمون النقود التي جمعوها... ستقول لي أن رواتبهم ليست كافية... إذن ما عساهم أن يفعلوا؟

لم أكن أعارض اتهاماتها، على الرغم من انزعاجي من أنها تتهمني بقول ما لم أقل.

قاطعتها:

- لن أقول ذلك فهذا محض هراء... على رجال الشرطة الذين يجدون رواتبهم غير كافية إيجاد مهنة أخرى إذ ما من عذرٍ لغضّ الطرف لمصلحته... أنت

محققة... هذه الأمور تحصل لأننا لا نؤدي عملنا بالكامل، لكن العطل ليس في الشرطة فحسب وإنما في النظام بأكمله... النظام الذي سمح لحي من الأقليات بالتشكُّل في قلب المدينة...

ومن خلف أهدابها المبلّلة تفحّصتني كما لو أنها تحاول فهم إن كنت صادقاً أو أنني أقول ما تريد سماعه لأخدعها.

- ثم علينا إلقاء نظرة على الماضي... حين تم الإعلان عن ضريبة الثراء، وأحداث السادس والسابع من أيلول/سبتمبر... تلك الأيام القاسية والمخزية حين أخرجنا مالكي هذه الأبنية الحقيقيين...

قلت لها لأفاجئها مرة أخرى:

- أنتِ محقة. ماضي هذه الدولة مليء بالنهب والنفي والموت كتاريخ جميع الدول الأخرى. يمكننا مناقشة الأمر طوال الليل بلا نهاية أو إيجاد حل. مع ذلك هناك جريمتا قتل يمكن حلهما فإن ساعدتني يمكننا، على الأقل، القبض على هؤلاء القَتَلَة.

لم تعرف ما تقوله لذا أظن أنها اكتفت بالاعتراض.

تمتمت في النهاية:

- إذن ماذا لو قبضت عليهم؟ الذي قتل فيدان معروف لكنهم سيدافعون عن أنفسهم ليخرج قاتلها خلال ستة أشهر. أما في ما يتعلق بإنجين فلا تظن أن لديّ قلباً من حجر، لكنه يستحق الازدراء، إذ لو لم يمت لقتل الآخرين.

- لدينا أيضاً شكوكنا في هذا المجال وهي تشملك.

لم يظهر أي خوف أو غضب في عينيها وإنما الفضول فحسب.

- هذا صحيح. لقد وجدنا مخطّطاً لهذا المبنى في خزنة مخفية في منزل إنجين.

قطّبت حاجبيها البنيّين:

- مخطّط؟

- رسوم مفصّلة... من أين يمكن الدخول إلى المبنى والخروج منه، وباب الخدمة الخلفي، والنوافذ التي عليها قضبان معدنية، وسلالم الطوارئ...

لم تظهر أي علامات قلق على وجهها.

ابتسمت بمرارة:

- خمّنت ذلك. سأكون صريحة معك... فيما مضى صدّقت نظام... ذلك السلوك المتواضع... التركية المكسّرة... ربما قبحه... ظننته ضحية أيضاً... شخصاً ليس لديه خيار آخر.

هززت رأسي.

- نعم... اليوم تكلّمت مع بلاك نظام وبدا لي متعاطفاً ومتفهّماً... هو قبيح لكن لديه ضمير... ربما يظن نفسه متعاطفاً ثم، بعد بضع ساعات، يقوم ابن أخيه بإطلاق النار على فتاة صغيرة بلا رحمة، وأنا متأكد من أنها ليست أول من لقي حتفه. ليس لهذا الأمر أي علاقة بكون الشخص صالحاً أو سيئاً... للعالم السفلي قواعده الخاصة، فهم يتعرضون للوحشية أيضاً، والوحشية من أعظم الفضائل. لهذا السبب وحده قد لا يرغبون بإعطائك المبنى وإن تخلوا عن المبنى فسيجعلونك تدفعين بطريقة أو بأخرى لئلا يفقدوا تأثير موجة الإرهاب التي ينشرونها. هم لم يرسموا هذا المخطّط سدى بل أفترض...

كانت محتارة ما يعني أن الوقت مناسب لفتح موضوع كنت أفكر فيه.

- إذن هل كان لدى إنجين مشاكل شخصية معك؟

- شخصية؟ لا... ولماذا يكون لديه مشاكل معي؟ لقد جاء إلى هنا من ألمانيا أو سويسرا... بالطبع كان مختلفاً عن ابني أخ بلاك نظام لكنه كان أسوأ بكثير... نعم لقد كان وسيماً. أتعرف ذلك النمط الوسيم والمتغطرس؟ واحد من أولئك... هناك نساء يعشقن ذلك النوع... لقد كان محبوباً من النساء لكنهن لم يكن مهمات عنده إذ إن أهدافه أعلى. بدا لي أنه يهيمن على بلاك نظام... ربما كان يخطّط للسيطرة على مكانة نظام.

كان واضحاً أن نازلي تتّهمه كدايس إحسان.

- أتقولين إن مدير إنجين قتله؟

- لا. ليس هذا ما قصدته. أنتم أيها الشرطة لديكم طريقة مثيرة للاهتمام بالتفكير. لا أعرف من الذي قتل إنجين. أيمكن أن يكون بلاك نظام؟ ربما... لكنّ لديه كثيراً من الأعداء... ليس لديّ أدنى فكرة.

- هل وصل إنجين أثناء مناقشة أمر هذا المبنى؟
- بالطبع. لقد كان مشاركاً منذ البداية... كان أول من تحدث معنا حيث اتصل بي وكلمني بأسلوب بارد لكنه مؤدّب وقال: "اتركي الموضوع وسنجد لك مبنى آخر". لكنني طلبت منه أن يجدوا لأنفسهم مبنى آخر فرد عليّ: "ليس من مصلحتك أن تتكلمي بهذا الأسلوب"، وحين سألته إن كان يهددني قال: "أنا أحذرك فحسب فأنت امرأة وحيدة". فقدت أعصابي وصرخت ثم أغلقت الخط في وجهه. وفي تلك الليلة حدث إطلاق النار خارج مركزنا، وفي اليوم التالي تحطّمت نوافذ الطابق الأرضي. وحين استيقظنا في الصباح وجدنا قطة ميتة في الخارج... لقد أطلقوا النار على رأس تلك القطة المسكينة... كانوا يظنون أن بإمكانهم إخافتنا فجمعت الأولاد واقتحمنا نادي تارلاباسي الأصيل.

وضحكت كطفل بريء ثم أكملت:

- لقد تفاجأ نظام ولم ينبس ببنت شفة، فتحدثت معه مباشرة وقلت: "لا تعبث معنا". في البداية أخبرني أنه يحترم العمل الذي نقوم به ومثل ذلك من الأكاذيب. ثم حاول مساومتنا حيث لمح إلى أننا، في حال تخلينا عن المبنى، سيقدم لنا تبرعات، لكنني بالطبع لم أقبل، وفي النهاية قدم لنا مستنداً بخط يده زعم فيه أنه سيخلي المبنى خلال عشرة أشهر، إلا أنني أظن أن ذلك يعني أنه لم يستسلم بالكامل.

ثم صمتت ونظرت إليّ بعينيها المتسائلتين وقالت:

- إذن إن كنا مخطئين... ماذا لو كان المخطط قديماً، من الوقت الذي كانوا يحاولون فيه إخافتنا... أليس ذلك ممكناً؟

كان ممكناً وكنا بحاجة للتأكّد.

- لا أدري. ذلك ممكن على الرغم من أن مقتل فيدان يثبت لك مدى حساسية هؤلاء الرجال بشأن هذا المبنى... يجب عليك التقدم بحذر.

في تلك اللحظة فُتح الباب ودخلت امرأة قصيرة ترتدي بذلة رياضية وردية اللون. كانت جميلة دون أي مساحيق تجميل وكانت عيناها السوداوان ضبابيتين أي أنها قد استيقظت من النوم للتو. حين رأتني استجمعت نفسها كأنما خاب أملها

وقالت بصوت خشن:

- آسفة... لديكِ ضيف.

تبيّن لي أن الواقفة على الباب ترتدي ملابس الجنس الآخر وكان وجهها نحيلاً للغاية وملامحها جميلة... ولو لم تتكلم لكان التمييز صعباً للغاية.

- لا بأس يا أيسن. أكنتِ تريدين قول شيء ما؟

كانت أيسن مرتبكة وهي تقول:

- الأولاد في الغرفة المقابلة لغرفتي كانوا يتكلمون... أظن أن أحداً ما قد قُتِل؟ شعرت بالفضول...

- شكراً على سؤالك يا أيسن... إنها فتاة تدعى فيدان... كانت تقيم هنا...

- آسفة يا أبلة نازلي. كل شيء على ما يرام... أليس كذلك؟

عرفت نازلي بما كانت تفكر.

- نعم كل شيء على ما يُرام، لكن ما دمتِ نزلتِ إلى هنا... لقد وضعت بعض الماء لتحضير الشاي... أيمكنك أن تقدميه لنا إذا سمحت؟

- بالطبع... فوراً.

نادتها نازلي بلطف قائلة:

- أكياس الشاي على الرف الثاني، وسأكون شاكرة لكِ إن أحضرت بعضاً من ذلك البسكويت أيضاً...

دِيننا الجديد وعبادتنا ومعابدنا



انتشرت حرارة الشاي في جسدي تاركة طعماً مألوفاً في فمي... لم أعترف بالأمر لنازلي لكنها كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالدفء منذ أن دخلت المبنى.

أشارت إلى البسكويت في الطبق الأصفر على الطاولة:

- تفضّل من هذه أيضاً يا نيفزات بيك فهي شهيّة وطبيعية...

كنت شبعان، لكنني وضعت كوبي على الطاولة وتناولت واحدة لإسعادها، فوجدتها لذيذة.

- هل صنعتِ هذه؟

تحوّلت عيناها إلى الباب الذي غادرته الفتاة الجميلة للتو وقالت بصوت يملؤه الفخر:

- لا... أيسن هي التي صنعتها. الجميع هنا موهوبون... أنا الوحيدة هنا التي ليس لديها مهارة للقيام بأمور كهذه... غريب... كانت أمي في غاية الكفاءة، وبرغم وجود الطباخين والخدم في المطبخ لم تكن كسولة وكانت تصنع المعجّنات والبسكويت بيديها...

ما دامت تتكلم عن عائلتها فقد استغللت الفرصة لمعرفة مزيدٍ عنها.

- هل أمك على قيد الحياة؟

ظهر بعض الإحباط على وجهها.

- لسوء الحظ لا. لقد فقدتها قبل عشر سنوات، وتوفي والدي بعدها بأربع

سنوات... ليس لديّ أخوة لكن لديّ كثير من أبناء الأعمام... كثير... من الذكور والإناث... هذا ما يحصل حين يكون لديك ثلاث عمات وخمسة أعمام... كثير من الأولاد... لكننا لسنا مقرّبين كثيراً فكلهم يظنونني مجنونة، ولا يتواصلون معي إلا حين يقعون في ورطة ويحتاجون إلى لمال...

سألتها وأنا أنظر حولي:

- حقّاً؟ وكيف تتعاملين مع الأمر؟ يبدو أن تكاليف هذا المكان باهظة وأنت تفكرين بافتتاح مركز آخر؟

رشفت رشفة من كوب الشاي ثم نظرت إليّ مطولاً... لم يكن هناك ارتياب في عينيها بل على العكس... كانت تعابيرها مفعمةً بالمتعة.

- هيّا اعترفْ... أنت تبحث عن منظمة سياسية غير شرعية وراء كل هذا... أليس كذلك؟

- بالطبع لا. من أين جئتِ بهذه الفكرة؟ أنا أسأل بدافع الفضول فقط.

لم تصدقني بالطبع بل أخذت رشفة أخرى من الشاي... يبدو أنها مدمنة على شرب الشاي.

- هذا ليس مهماً يا نيفزات بيك. ليس لديّ ما أخفيه... العقارات... الشقق التي تركها لي والدي، والأراضي في سيليفري وكاتالكا... إن كنت ترغب يمكنني أن أعرّفك إلى فيرات بيك الذي يمكنه شرح التفاصيل فهو يهتم بأموالي... إنه رجل شريف وصعب الإرضاء أكثر مني. ليس علينا أي قرش لمصلحة الضرائب بل ربما كانت الحكومة هي المدينة لنا... أعني...

كانت مستعدة للاستمرار لو لم أوقفها.

- أرجوك... لقد أسأتِ فهمي. لم أفكر أنك تفعلين شيئاً غير قانوني من ناحية العمل...

قالت بسخرية:

- من ناحية العمل... تقصد أنه حين يكون هناك مظاهرات فالقصة مختلفة. لا يا نيفزات بيك... مهما تكن الشكوك التي لديك منذ أن رأيتني يمكنك أن تقولها. أنت تظن أن لديّ علاقات مع المنظمة التي تنتمي إليها فيدان أو أنني

أنا من أسس المنظمة... أليس كذلك؟ لماذا تقوم امرأة بعمل كهذا وحدها؟ وفي مكان خطر كتارلاباسي.

كانت هذه الفكرة قد خطرت ببالي لكنني أنكرتها.

- لا أدري. أنا متأكد من أنّ لديك أسبابك.

- هذا يمنحني شعوراً أفضل... نعم... مساعدة الآخرين تمنحني المتعة، وأفترض أنني أحب هؤلاء الناس...

ظننت أنّ من غير الضار أن أعارضها قليلاً، خاصة أننا تعوّدنا أحدنا على الآخر.

- لكنكِ لستِ واحدة من هؤلاء الناس فقد ترعرعت بترفٍ، وربما تلقيتِ تعليماً ممتازاً...

- ما هو التعليم الممتاز بالضبط؟ هل الوقت الذي تقضيه في المدرسة هو ما يجعلك ناجحاً؟ حسناً، لكن إن كان ذلك النجاح يسبب التعاسة فما الفائدة منه؟ لا... أنا لا أؤمن بذلك النوع من التعليم. وإن كنت تشير إلى الدراسة في مدرسة خاصة فنعم... لقد أنهيت دراستي الجامعية أيضاً... لكن ما تعلّمته خلال السنوات الأربع الأخيرة في تارلاباسي لا يمكن أن أتعلّمه في أي مدرسة.

فكرت بما مرت به قبل أن تأتي إلى هنا... ربما تكون امرأة ميسورة الحال لكنني لا أفترض أنها أمضت حياة سهلة. فقد تكون مدمنة على الكحول أو المخدرات من قبل... فجأة لاحظت أنها لم تدخّن وتفاجأت قليلاً لسبب من الأسباب. لماذا ظننتُ أنها تدخّن؟ لأن جميع النساء كنازلي يدخّنّ... لكن هل هذا صحيح أم أنه مجرد تحيُّز؟

أكملت نازلي شرحها دون أن تدرك ما يجول في خاطري:

- هذا المكان هو المدرسة الحقيقية يا نيفزات بيك... مدرسة قامت من الفقر والبؤس والعار. أنت لا ترى هنا أناساً حقيقيين وإنما ترى حقيقة الناس... ليس حقيقة الناس الآخرين فحسب وإنما حقيقتك أيضاً... ونعم... أنا هنا أسعد من أي مكان آخر.

انتقلت عيناي إلى صورة الرجل ذي الشارب الأحمر المعلّقة على الجدار

وراء الطاولة، فانتبهت نازلي وقالت:

- لا تكترث للصورة... هيّا... قُلْها... اسألْ عن تلك المنظمة السياسية.

فكرت أنه سيكون من مصلحتي أن ألعب وفقاً لقواعدها قليلاً، فقلت وأنا أتناول كوب الشاي مجدّداً:

- حسناً. ما نوع تلك المنظمة التي تنتمي إليها فيدان؟

قبل أن تجيب عن سؤالي تناولت كوبها وقالت:

- لا يمكنكَ أن تسميها منظمة سياسية فهي أقرب إلى جمعية... وحتى الاسم غير تقليدي... الثلاثاء...

- الثلاثاء؟

- نعم... مجموعة الثلاثاء. أتذكر المقاومة؟ أقصد في متنزّه غيزي. لقد بدأت تلك المظاهرة صباح يوم الثلاثاء 28 أيار/ مايو، لذا فقد اكتسبت تلك الجمعية اسمها من ذلك اليوم. إنه مليء بالمعاني لكنه بريء للغاية... كما أن الاجتماعات تنعقد دائماً في أيام الثلاثاء.

- ماذا يفعلون في الاجتماعات؟

أخذت وقتها برشف الشاي قبل أن تجيبني، فرفعتُ كوبي إلى شفتيّ أيضاً.

- ماذا تظن؟ يتكلمون فحسب، ويناقشون ما يحصل في العالم، ومشاكل البلد وما حصل في المدينة. معظمهم من اليساريين والمناصرين للبيئة، ويوجد بينهم بعض الأكراد والفوضويين. أنا لا أقصد بكلمة فوضويين أولاداً يحملون أسلحة، فكلّهم يعارضون العنف...

- هذا ما تقولينه. لكن رمي قنبلة مولوتوف أمر عنيف، وقد يقتل شخصاً أو على الأقل يحرقه.

أبعدت نظرها عني ووضعت كوبها على طاولة القهوة:

- أنت محق. لا أعرف كيف يمكنهم فعل شيء كهذا، فحتى مع الهجوم الوحشي للشرطة خلال مظاهرات غيزي لم يستخدم هؤلاء الأولاد قنابل المولوتوف. هل أنت متأكّد من أن مجموعة الثلاثاء هي من فعلت هذا؟

فتحت يديّ.

- ومن غيرهم؟

وبعد صمت قصير سألتها.

- أتقولين إنّ هناك منظمة سياسية أخرى؟

لم تحب السؤال، فطوت ذراعيها وتراجعت إلى الخلف في مقعدها.

- أشك في ذلك. مثل ماذا؟

لم يكن هناك أي معنى لعنادها.

- كيف التقت فيدان بمجموعة الثلاثاء هذه؟

أجابت دون تردّد:

- لا أدري، لكنني كنت قلقة قليلاً حين سمعت بأمرهم للمرة الأولى.

أكان هذا نوعاً من الاعتراف؟

- قلقة قليلاً؟ ما الذي يقلقك؟

- لا... ليس الأمر كما تظن. لست من أولئك الحمقى الذين لديهم رهاب من المجموعات السياسية، بل على العكس ينبغي على الجميع أن يكونوا جزءاً من كثير منهم. ففي بلد تكون فيه الدولة بهذه القوة لا يوجد أمام الأفراد فرصة أخرى للدفاع عن أنفسهم. صدقني... مهما تكن الأمور التي تحصل لنا سيئة، فإنها تحصل لأن الناس غير منظّمين. ما أعارضه هو أن يكرّس الناس أنفسهم لمنظمة سياسية دون أن يقرؤوا أو يفهموا أو ينصتوا بما يكفي... لهذا كنت قلقة. أنا لا أعرف مجموعة الثلاثاء، وفيدان صغيرة في مرحلة جنون الشباب حيث كانت مستعدة لرمي نفسها في النار دون أي تفكير.

- ألم تناقشي الأمر معها؟

- بلى، وبالتفصيل. وقد أقسمت أنها لم تكن تشارك في أي احتجاجات وقالت: "أنا أقرأ الكتب وأحضر المحاضرات فقط". لكنني لم أقتنع فحضرت إحدى تلك المحاضرات... ما زلت أذكرها جيداً... "ديننا الجديد وعبادتنا ومعابدنا»... موضوع مضحك.

من أين جاء الدين فجأة؟

أوضحت:

- كانوا يتكلمون عن الرأسمالية بطريقة ساذجة... الدين الجديد الذي يتكلمون عنه هو المال، والعبادة هي التجارة، والمعابد هي مراكز التسوّق. لقد كانوا يتكلمون عن مركز ديميرورين للتسوّق في شارع الاستقلال، وذلك المبنى القبيح الذي خطّطوا له في متنزّه غيزي والذي لم يتمكّنوا من بنائه بسبب الاحتجاجات، وبالطبع كانوا محقين تماماً. أتعلم أن مدينتنا معروفة بأنها تحوي أكبر عدد من مراكز التسوّق في أوروبا؟ حسناً... كم متنزّه بقي حيث يمكن لأطفالنا تنشق الهواء الطلق؟ كم متحف تم افتتاحه؟ كم مركز ثقافي جديد؟ هذا ليس مجرد مبنى يتم إنشاؤه يا نيفزات بيك، وإنما هو يفرض أسلوب حياة على الناس. فكما جرى حين استولى العثمانيون على هذه المدينة وبنوا تلك المجمعات الاجتماعية الإسلامية، فإن الشركات العالمية تفتتح هذا النوع من المراكز لخدمة أهدافها... تلك المجمعات الاجتماعية العثمانية مع المساجد والمدارس والمكاتب والمستشفيات والمضافات والمطابخ كانت نوعاً من مؤسسات الخدمة الاجتماعية، بينما الهدف الوحيد من المراكز التجارية هو جني المال ومزيد من الأرباح؛ فلا أحد يأبه بتاريخ إسطنبول أو جمالها أو ثقافتها وإنما يتجمّعون في الفنادق السياحية والجسور القبيحة وناطحات السحاب الشنيعة... لا يأبهون سوى بالاستيلاء على الأراضي والمكاسب وجمع الثروات من الإيجار. كان فتيان مجموعة الثلاثاء يعارضون كل هذا، لكن لا أحد في ذلك المبنى قال: "دعونا نذهبْ ونرمِ قنبلة مولوتوف على تلك المباني". ولهذا لا يمكنني أن أفهم لِمَ قد يحاول أولئك الفتيان القيام بمثل هذا العمل. ولهذا ظننت أن فيدان قد تكون فعلت ذلك لأجلي... ومهما كان السبب فقد رحلت...

خفت أن تتوقف عن الكلام ويسيطر عليها الحزن مجدّداً لذا لم أسمح للتوتّر أن يضعف.

- ربما يكون هناك قسم من مجموعة الثلاثاء يشجّع على العنف... لا أدري... هناك أعضاء أكثر تشدداً يجدون ما تفعله الجمعية غير كافٍ... متطرّفون... أكان هناك أحد هكذا؟

قالت بصوت وتعابير لا تقبل النقاش وهي تلوّح بسبّابتها أمام وجهي:

- إياكَ أن تطلب مني أن أذكر لك أسماء! إياك أن تتجرأ على هذا يا نيفزات بيك! لا تطرح أسئلة كهذه فأنا لست مخبرة وإنما نحن نتكلم عن فيدان هنا. من الذي رمى قنبلة المولوتوف تلك؟ لا أعرف ولن أقوم بتخمينات وأوقع أناساً أبرياء في المشاكل... مهمتك العثور على من يتحمّل المسؤولية.

لم ألتق أحداً يتقلّب مزاجه بهذه السرعة... ينبغي عليّ التكلم مع نازلي بحذر أكبر.

- لقد أسأتِ فهمي. إن معرفة من رمى قنبلة المولوتوف ليس من دائرة اختصاصي، فنحن لسنا من قسم الشرطة السياسية وإنما من قسم الجرائم. لكن لمعرفة حقيقة موت فيدان سنحتاج لأخذ شهادات أصدقائها لذا...

كنت على الطريق الخطأ إذ إنها انفجرت غاضبة مجدّداً.

- هذا جيد. إذن اعثرْ على أصدقاء فيدان.

لا... هي لن تستسلم إطلاقاً.

ابتسمت:

- حسناً... ابقي هادئة. لم أكن أسألكِ عن أسماء أو أيّ شيء، وإنما كنت أحاول فهم الوضع.

لم تتكبّد عناء الإجابة وإنما تناولت كوبها بعبوس ففعلت مثلها. لكن الشاي لا يزال ساخناً ولم أستطع سوى رشف رشفة صغيرة. ابتسمت لها لكنها لم تصدر أيّ صوت إذ إنها لم تكن تنظر إليّ. بعد أن وضعت كوبي أشرت بإصبعي للأعلى.

- أهناك مهجع في الطابق العلوي؟
- ماذا؟

كررت وأنا أبتسم مجدّداً:

- في الطابق العلوي... هل هناك مهجع؟

لماذا سألتُ هذا السؤال؟ يمكن أن تغضب مني مجدّداً لكنها لم تفعل.

- ليس مهجعاً وإنما غرف.

صمتت قليلاً ثم رفعت رأسها ونظرت إلى السقف كما لو أنها ستراها.

- يوجد في الأعلى غرف منفصلة للنساء والأطفال وغير الأسوياء وغرف الصف والورش ومكتبة. هذا ليس مأوى فنحن نريد بالطبع تعليم المحتاجين والعثور على وظائف لهم إن أمكن... أي إن كان هذا المجتمع البائس سيسمح بذلك... نعم... إنه مجتمع مليء بالبؤساء والوضيعين.

بدأت تتكلم بفظاظة مجدّداً وقد جاء صوتها قاسياً كأنها توبخني. لكنني تجاهلتها وبقيت أنصت جيداً.

- أتعرف صديقتي تلك التي كانت هنا للتو... أيسن؟ لقد فعلت كل ما بوسعها لئلا تضطر للعمل بالدعارة، ولم تترك عملاً دون أن تجربه من بيع بلح البحر المحشو في الشارع، إلى قص القماش في مصنع استغلالي. لكن الناس لا يتركونها وشأنها، ولأنها مختلفة عنهم يفترضون أنها عديمة الأخلاق في حين أنها أكثر استقامة وشجاعة منهم... كل ما في الأمر هو أن ميولها مختلفة... إنها تريد أن تحيا حياة مختلفة، لكنهم لا يسمحون لها، ولا يدركون حقها بالحياة كأي إنسانة سوى عاملة جنسية، ثم يحاولون القضاء عليها لأن بعض الأشخاص من أمثالها يعملون بالدعارة.

نظرت إليّ وكأنها مستعدة للشجار.

- للأسف رجالكم يعاملونهم على نحو سيئ أيضاً ويتعاملون معهم كأنهم قذرون أو مجرمون محتملون قادرون على ارتكاب جريمة في أي لحظة. لذا فتحنا ذراعينا لهم ليتمكّنوا من الانتقال إلى حياة جديدة... ليسوا هم فحسب، وإنما أي شخص بحاجة للمساعدة على الرغم من أن أولوياتنا هي النساء والأطفال... العاملات في الدعارة اللاتي تم رميهن في الشارع لأنهن كبرن في السن، والأطفال الذين يستخدمون المخدّرات والأشخاص المشردون... نحن لا نفكر مطلقاً بمساعدة الرجال الطائشين كوالد فيدان، يعقوب... دعِ الحكومة التي تسمح لهم بالقمار تهتم بهم إن لم يكن في ذلك عناء لها... نعم نحن نقوم بالتمييز بين الناس على هذا الأساس، فما يهمنا هو النساء والأطفال إذ إن وضع النساء في تارلاباسي خطير.

وافقتها بهدوء متحمّلاً أسلوبها الاتهامي.

- أعلم. لقد خدمت هنا خمسة أعوام.

حافظت على هدوء أعصابي وهي تصرخ بوجهي كما لو كنت المذنب في كل هذه الأعمال الشريرة، وقد أدى ذلك إلى التأثير فيها.

- حقاً؟ متى؟

لم تسألني بدافع الفضول، وإنما لأن عدم اكتراثها يجعلها فظّة.

- قبل سبع سنوات. لم تكوني هنا في ذلك الحين، أليس كذلك؟
- لا... لم نكن. لقد أتيت إلى هنا قبل أربع سنوات. إذن أنت تعلم هؤلاء الناس... على سبيل المثال هناك كمال... أحد رجال العصابات القدامى...
- نعم أعرفه. ألديك أي مشكلة معه؟
- أوه، لا. كمال بيك رجل جيد فقد دعمنا ضد بلاك نظام في قضية المبنى.

سعدت لسماع ذلك.

- كمال مختلف.

هنا خطر ببالي احتمال آخر... أيمكن أن يكون هناك بعض العداوة التي لا أعرف بشأنها بين كمال ونظام؟ لقد كان يدافع عن دايس ضد نظام ويدعم امرأة لا يعرفها. لو لم أكن أعرف كمال لشممت رائحة عمل قذر.

- نعم. أظن أنكَ كنتَ ستقول شيئاً آخر عن كمال بيك؟
- إنه شخص جيد يساعد الجميع. كيف التقيته؟
- من خلال أحد معارفي... السيد كاظم... لقد كانا في السجن معاً خلال فترة قانون الطوارئ.

لاحظت أني أحاول فهم ذلك، ورأت أن لا ضرر من الدخول في التفاصيل.

- كان السيد كاظم عضواً في اتحاد التجارة... أحد مديري نقابة العمال الثورية التركية. وقد كان هو وكمال في الزنزانة نفسها. بعد أن أخبرته أنني سأفتح مركزاً ثقافياً في تارلاباسي اتصل بكمال وقال له:»اهتم بفتاتنا» وكلما واجهتنا بعض المشاكل يسرع لنجدتنا.

بالنسبة للوضع مع كمال لم يكن هناك أي داعٍ للاستفهام عنه، لذا ارتشفت آخر رشفة من كوب الشاي ووقفت:

- شكراً على الشاي يا نازلي هانم. من دواعي سروري أنني التقيتكِ.

ضاقت عيناها بارتياب مجدّداً وقالت وهي تقف:

- ومن دواعي سروري أيضاً في حال كنت محقة برأيي بك. لن تترك قَتَلَة فيدان أحراراً طلقاء... أليس كذلك؟
- لا تقلقي. سأبذل كل ما بوسعي لتحقيق العدالة. كنت سأفعل الشيء نفسه حتى لو لم نلتقِ.

أطلقوا عليها النار سبع مرات



أصبح المكان حيث كانت جثة فيدان النحيلة ملقاة، بقعة فارغة على شكل ظلّ... مكاناً على شكل جسد بشريٍّ مع نقاط بيضاء حيث استقرت ندف الثلج التي تطير مع الريح. كان الشارع قد فرغ، ورحل رجال الشرطة عند طرفي الشارع، ولم يعد هناك سوى ثلاثة من فرقة التحقيق في مسرح الجريمة بملابس لم أستطع التعوّد عليها... كانوا قد بدؤوا بتوضيب أغراضهم، في حين كان شفيق يدخن سيجارة على بعد خطوات من الرجال، وكان فريقي يقف أمام نادي تارلاباسي الأصيل حيث كانت زينب تُري علي الحقيبة التي في يدها وهي تشرح شيئاً. لم يلاحظني أحد منهم لكنني أحسست أن أحداً يحدّق إليّ... تحرّك ظل في الطرف البعيد من الشارع فحدّقت إليه وتخيّلت أنني أرى ابتسامة ذلك الكاتب الغريب، حيث تتسع تلك الابتسامة على وجهه وتتلألأ الأسنان البيضاء في الظلام. ما الذي يفعله؟ ثم اختفى فجأة حيث اندمج مع الليل كالدخان المتصاعد من سيجارة شفيق. نظرت حولي لكنني لم أرَ لا ذلك الكاتب ولا ابتسامته المقرفة في الشارع. أين اختفى ذلك الرجل بومضة عين؟ هل كنت أتخيّل؟ ذلك ممكن... وقد يكون من الإرهاق والشراب على الرغم من أنني أشعر بالاتزان منذ أن غادرت المطعم؛ لذا شككت في أن يكون ذلك محض خيال. ماذا كان يفعل حين غادرنا المطعم؟ أظن أنه كان يتناول الشراب مع صديقه الشاعر حيث لوّح لنا بيده ونحن نخرج. ما كان بإمكانه المغادرة بهذه السرعة ولو أنه غادر للاحظنا ذلك... إذن هل كنت أتخيّل؟ لم يكن هناك أي تفسير آخر. فقد كنت أشعر مسبقاً أنني ملاحق منذ أن

غادرت مركز فرحات سيراج الثقافي كما كان والدي يقول: "رجال الشرطة مصابون بجنون الارتياب".

- نيفزات... نيفزات...

والآن بدأت أسمع أصواتاً من العدم، وحين التفت متوقِّعاً أن أرى الشارع الفارغ المليء بالثلج، وجدت عيني كمال المتلألئتين تراقبانني من تحت قبعة سوداء.

- كمال... هذا أنت؟
- نعم... لقد كنت أناديك من أول الطريق من هناك، لكنك لم تسمعني.
- آسف... لقد كنت غارقاً في التفكير.

لم يكترث وإنما فتح ذراعيه واقترب مني.

- وأخيراً لحقت بك.
- نعم وأخيراً...

تعانقنا بود، وكانت تفوح من وشاحه ومعطفه الأسود رائحة النيكوتين، ما يعني أنه لم يقلع عن التدخين بعد على الرغم من أنه يدّعي كل ستة أشهر تقريباً أنه سيقلع عن ذلك الشيء اللعين.

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت من الليل؟

قبل أن أنهي سؤالي تردّد صوتي بين الجدران الداكنة للشارع المغطى بالثلج... لم يكن هذا اللقاء محض صدفة.

- حقاً ماذا تفعل هنا؟ أكنت تتبعني؟

تجمّد في مكانه وبدت خيبة أمله الشديدة حتى في الظلام.

- عمّ تتكلم يا نيفزات؟
- لا أدري. أنت تقول إنك كنت تناديني من أول الطريق، من هناك...

انزعج لكنه حافظ على كياسته.

- لقد فهمتني خطأ... أتبعك؟ لقد كنت أقف هناك في الخلف.

وأشار بيده المغطاة بقفاز جلديٍّ أسود.

- نعم... لكن لِمَ كنتَ تقف هنا؟ من كنت تنتظر في هذه الساعة المتأخرة من

الليل؟

خفض يده ببطء.

- كنت أنتظرك. لقد أتيت إلى هنا حين سمعت بوقوع جريمة قتل.

كان يتكلم بهدوء وبلا اكتراث.

- من الذي أخبرك بأمر جريمة القتل؟

على الرغم من نبرة صوتي الاتهامية لكنه اختار طريقاً إصلاحياً وقال بصوت صادق:

- هذا حيّنا يا نيفزات... إذا انكسرت نافذة أو أُصيبت قطة في الشارع فإننا نعلم بالأمر.

تمتمت:

- تباً. جميع من في تارلاباسي يستخدمون العبارة نفسها...

اتسعت عيناه المتلألئتان.

- أقال أحد آخر هذا؟

- ليس أي أحد آخر وإنما أصدقاؤك من بيه أوغلو... دايس إحسان وبلاك نظام.

قهقه:

- ذانِّك الأحمقان! إذن كانا يقلدان كالببغاء أيضاً... ههههه...

حين اختفت الابتسامة عن شفتيه شرح لي:

- كان آغا يقول ذلك... هذه الكلمات ليست كلماتي ولا كلماته... إنها كلمات آغا الكسول... تعرفه... أليس كذلك؟

تخيّلتُ الرجل المهلهل بلا حواجب ولا أهداب، ذا الذقن الصغير والوجنتين الحمراوين البدينتين والعينين السوداوين الخبيثتين. كان قد قُتِل في حمام مخنوقاً بكيس بلاستيكي في رأسه، وعلى الرغم من اعتبارها جريمة قتل بدافع مثلية غير الأسوياء إلا أنه لم يكن هناك أي دليل يشير في ذلك الاتجاه... ربما يكون خصوم آغا قد نشروا الشائعات للإساءة إليه. كان المشتبه به في جريمة القتل شاباً ووسيماً وقال إن آغا قد تحرّش به فغضب وخنقه. لكن ذلك لم يكن صحيحاً؛ فمعصما ذلك الفتى الناعمان غير قادرين على وضع كيس في رأس آغا، إذ كان آغا رجلاً

كسولاً يناسبه لقبه، فهو لا يحب الحركة ولا يرغب مطلقاً بمغادرة مقعده، إلا أنه كان قوياً كالثور... كان حادثه الأول حين كان شاباً حيث قتل محامياً كبيراً في السن بلكمة واحدة... يلزم ثلاثة رجال على الأقل لهزيمة رجل مثله... رجال أقوياء. لكن مسرح الجريمة كان نظيفاً تماماً دون إبقاء أي أدلة أو آثار، والوحيد الذي شهد الحدث هو ذلك الفتى الوسيم الذي لا يمكنني تذكر اسمه، والذي ادّعى أنه القاتل، ثم قتلوه في السجن بعد فترة قصيرة. لكن لم يتم العثور على قتلة آغا إطلاقاً. في تلك الأيام تكلم كمال عن عصابة مخدّرات تعمل في غلطة كان آغا يعمل معها... خشيت من أن يكون هناك مزيد لأتباعه وبدا الأمر لي كأن القتل سيستمر لكن ذلك لم يحدث. ففي أي مكان وفي أي وقت يكون المال أكثر قيمة، إذ عقد رجال آغا صفقةً مع عصابة المخدرات، وعلى الأغلب تقاسموا المنطقة فيما بينهم. وكما حصل مع ضحاياه انتهت حياة آغا بموت مبكر.

قلت وأنا أحدّق إلى هذا الرجل العجوز من بيه أوغلو الذي وقف أمامي هنا بمعطفه الأنيق:

- بالطبع أعرفه. ألم يكن يعمل في مجال المخدرات؟
- هذا صحيح. لقد حذرته كثيراً لكنه لم يسمعني وهكذا مات... إنه القدر... ما عسانا نفعل؟ جميعنا سينتهي بنا المطاف هكذا بطريقة أو بأخرى.

قلت بسخرية:

- لكن بعضنا يصل إلى هناك في وقت مبكرٍ... مبكرٍ للغاية.

ظنّ أنني قصدت صديقه.

- لسوء الحظ كان...
- لا أتكلم عن آغا وإنما أقصد الفتاة التي تم إطلاق النار عليها قبل ساعتين... فيدان... تلك الفتاة فقدت أمها وأختها وكل شيء بسبب دايس إحسان ثم تلقت رصاصة من ابن أخ بلاك نظام النذل... تلك الفتاة كانت أصغر بكثيرٍ من آغا.

تهدّلت كتفا كمال ومد يده إلى شاربه الأشيب كما يفعل دائماً عندما يتوتّر:

- وما ذنبي في هذا يا نيفزات؟ ليس لي أي علاقة بهذه الرذالة.

لو لم يتظاهر بالبراءة والنقي... كاد يقودني إلى الجنون.

- إذن لماذا أنت هنا يا كمال؟ لماذا اتصلت بي هذا الصباح؟ لماذا تحاول مساعدة دايس إحسان؟ وماذا الآن؟ هل أنت هنا لأجل بلاك نظام هذه المرة؟ لتقول إن ابن أخيه تصرف هكذا دفاعاً عن النفس؟

قال بصوت مرتعش:

- كفى يا نيفزات. ألا تعرفني؟

للحظة تساءلت إن كنت قد أثقلت عليه. لكن ذلك لم يستمر سوى لحظة واحدة، ثم نفضت عن كاهلي عبء تلك المشاعر.

- كنت أظن أنني أعرفك لكن ما مررت به خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية أربكني... ثلاثة أشخاص قتلى في تارلاباسي ولدينا مشتبه بهما رئيسيان... إحسان ونظام... وأنت على صلة بكليهما. ألا تشعر بشيء مثير للشك في هذا؟ ما الذي يحصل يا كمال؟ ما الذي لا تخبرني به؟

بدا يرتجف قليلاً.

- أنا لا أخفي عنك شيئاً يا نيفزات. أنت محق... ظاهرياً قد يبدو الأمر مثيراً للريبة، لكنني أقسم بأمي أنه ليس لي أي علاقة بجرائم القتل هذه، فقد انتهيت من مثل هذه الأمور.

- لكنك لا تزال تساعد أشخاصاً لم ينتهوا منها.

نظر إلى عينيّ مباشرة وقال:

- لقد فهمت الأمر خطأ. دايس إحسان يريد الخروج من هذا العالم أيضاً، وأنا مقتنع بصدقه ولهذا اتصلت بك. لكن بلاك نظام ليس هكذا... لا تغتر بالوجه المطواع فهو يعرف جيداً كيف يتكلم مع رجال الشرطة، إلا أنه شيطان متخفٍّ يا نيفزات كما أنه متوحش وقاسٍ وقادر على ارتكاب أي نوع من الشر.

أيمكن أن يكون ما يقوله كمال صحيحاً؟ هل نظام وراء كل هذا؟ أم أن كمال متواطئ مع دايس ويحاول خداعي؟

- أنا أقول الحقيقة... نظام أكثر خداعاً وقسوةً مما يبدو كما أن آماله كبيرة... لا أدري ماذا قال لك، لكن أمواله جناها من تجارة المخدرات... إنه عمل شائع في عائلته. هناك ثمانية أخوة أكبرهم نظام، بالإضافة إلى كونه زعيم العصابة،

ولديه واحد وعشرون ابن أخٍ وجميعهم متورّطون في ذلك... قدرت الذي أطلق الرصاص على الفتاة واحد منهم... انظر كيف قتل الفتاة المسكينة دون أن يرمش له جفن... إنهم يقتلون بدمٍ بارد... إنهم فاسدون ويقضون على كل من يقف في طريقهم... أنا لا أمزح... صدّقني يا نيفزات... سيقتلونك أنت أيضاً إن كنت ستشكل عقبة في طريقهم.

هل هناك تهديد مقنّع في كلماته؟ لا... هو يحاول فقط أن يخبرني... في الواقع يمكن القول إنه قلق عليّ.

- حسناً... لقد جئت إلى هنا للحديث معك... لقد أعطاني دايس الأخبار فقد سمعوا صوت إطلاق الرصاص، وكما تعلم فإن نادي تارلاباسي لا يبعد سوى شارع واحد، وقد اتصل بي دايس مباشرة من منزله فأتيت إلى هنا مسرعاً.

قاطعه صوت علي الجازم:

- ماذا يحدث يا حضرة الضابط؟

لقد لاحظا أننا نتجادل فأسرعا إلينا. أمسكت بمرفق مساعدي بلطفٍ، والتفت إلى زينب التي كانت تنظر إليّ بترقب:

- ليس هناك أي مشكلة يا علي... ما الذي تفعلانه أنتما الاثنان؟ هل انتهيتما؟

استرخى وجهها القلق.

- نعم يا حضرة الضابط. كنا ننتظرك... يمكننا العودة إلى المركز إن كنت ترغب.

اتجهت نظراتي إلى كمال... لا يمكنني المغادرة قبل تسوية الأمر.

- اذهبا أنتما الاثنان يا زينب... سألحق بكما بعد قليل.

اعترض علي بالطبع.

- مستحيل يا حضرة الضابط... سأبقى هنا معك.

- لقد قلت إن كل شيء على ما يُرام يا عليّ... هيّا... كفاك تضييعاً للوقت واذهب لإعداد ملف عن قدرت... حين آتي أريد أن أرى الملف وأعرف ما هي المشاكل التي وقع فيها...

لم يصر مساعدي لكنه التفت وهو يغادر ونظر إليّ نظرةً قلقة.

تمتم كمال:

- رجالك يحبونك. أعرف هذا الشعور... إنه شيء رائع.

مشّطت الشارع بعينيّ مجدّداً.

- أليس ميزجين هنا؟ إنه لا يتركك.

وبابتسامته الواثقة اتّسع شاربه الأخصف.

- لا... إنه لا يتركني... ولا حتى هذه المرة... لكنه بقي في السيارة لأنه علم أنني سأكون معك. يمكننا التوجّه إلى سيارتي أيضاً إذا أردت، حيث يمكننا الحديث. كما يمكنني إيصالك إلى مركز الشرطة.

لم يكن ذلك سيئاً إلا أنني لم أرغب أن يشعر كمال بالراحة التامة.

- لا حاجة لذلك... دعنا نتمشّى قليلاً وسأعود بنفسي إلى المركز. نعم... لقد كنت تقول إنك جئت إلى هنا للحديث معي... لماذا يهتم دايس إحسان لموت فيدان؟

ظهرت تعابير الانزعاج على وجه كمال.

- سأشرح لك يا نيفزات، لكن يمكنك التوقّف عن الحذر الآن فأنا لست العدو.

بالطبع لم يكن عدوي، لكنني لم أعد متأكّداً من أن بإمكاني الوثوق به.

قلت ببرود:

- بالطبع لا... أنا أحاول فقط أن أفهم ما جرى... هيا... دعنا نمشِ...

مشى بجانبي وقال:

- ليس دايس هو الوحيد القلق فجرائم القتل هذه تقلقني أيضاً.

توقفت.

- وهذا ما لا أفهمه. ألم تقل للتوّ إنك انتهيت من هذه الأعمال؟ لماذا تكترث لهذه الحوادث؟

رفع صوته للمرة الأولى قائلاً:

- ليس الأمر هكذا... لقد نسيت كيف هو عالمنا يا نيفزات... لا يمكنك المشي من هنا هكذا... لا يمكنك أن تقول: "حسناً سأتقاعد، لذا تمنوا لي حظّاً طيباً"، فحتى أنفاسك تشكل تهديداً لبعض الناس. لقد آذيت كثيراً من الناس... أب أحدهم أو أخ الآخر أو ابن الآخر... يداي ملوّثتان بالدم... ما كنت لأفعل ذلك

لو كنت أفكّر كما أفكّر الآن... صدقاً يا نيفزات... لو كان باستطاعتي لأصلحت الأمر معهم كلهم... لديّ كثير من الأعداء الذين سيقتلونني بغمضة عين إن استطاعوا، ولهذا لا أقطع كل صلاتي مع هؤلاء الرجال لأنهم سيطلقون عليّ النار خلال ستة أشهر، ولن تعرف مطلقاً من الذي فعل هذا. أنا لست خائفاً من الموت لكنني أخاف على سيزجين وطاهر... لا أريد أن يحصل أيّ مكروه لابنيّ ولهذا تراجعت إلى مكان حيث يمكنني رؤية ما يجري كما أنني مدين للناس في هذا العالم...

- لا تضحك عليّ يا كمال، فهناك قانون واحد فقط في عالمك وهو المال... ليس هناك أي شيء لن يفعله أصحابك الأقوياء لأجله.

هز رأسه بيأس.

- ليس كلهم... أنت محق يا نيفزات... أحياناً قانوننا أهم بالنسبة لنا من قانون الأرض. أسمعت من قبل بالقاضي هليل؟
- الرجل في مقهى الشيشة في سالي بازاري؟
- إنه هو... لقد كان أسطورة... أكبر منفّذٍ للعدالة في العالم السفلي... وهكذا حصل على لقبه القاضي هليل... لم يكن يخشى أحداً وكان يتكلم بصراحة دون أيّ خوف... لقد كان قاسياً ولا يتراجع عن قراره، ولهذا كانت كلماته هي القانون. فحتى أخطر السفاحين كانوا يخافون من حكمه. كم من رجل يدّعي الحكمة تلقى منه حكماً بالإعدام؟ والمثير للاهتمام أن أحداً لم يغضب منه، وحتى لو غضبوا فإنهم لا يظهرون ذلك، لأن الجميع يعلمون أنه لا يظلم أحداً.

قاطعته:

- لكن انظر ماذا حدث... لقد انتحر في النهاية.
- هذا ما كنت أقوله لك يا نيفزات... لماذا انتحر... لقد جاء اليوم الذي أراد فيه القدر اختبار موضوعية القاضي هليل... كان لديه ابن يُدعى ياسين وهو ابنه الوحيد وقرّة عينه، ولهذا فقد كان مدلّلاً ولم يذهب إلى المدرسة. وحين كبر لم يقترب من الحدود وإنما غاص مباشرة في عالمنا بسبب أبيه، وربما لهذا لم

يتعلم السلوك الحسن... لأنه لم يتعرّض للضرب ولم ينم في السجن. وكان لدى القاضي هليل رجل يدعى مهري وكان بالنسبة إليه كميزجين بالنسبة إليَ. كان رجلاً طويلاً ونحيلاً وقوياً وشجاعاً. إن قال هليل اقتل يقتل، وإن قال مت يمت دون أي اعتراض... لقد كان مخلصاً وشجاعاً وخطؤه الوحيد أنه وقع في عمر الأربعين بحب امرأة من ماخور كورلو، لكن في أمور الحب لا يمكن فعل شيء. وحين أقول وقع في الحب فأنا لا أقصد النوع المتقلّب الذي يقع فيه الشباب هذه الأيام وإنما لدرجة أنه أخرجها من الماخور وتزوّجها... أعني أن مهري كان يتمتع بقلب كبير... إنه نادر... وما إن تزوجا حتى أنجبا طفلين... فتاة وصبياً.

لكن ابن هليل القذر وضع عينه على المرأة دون أن يعلم مهري بذلك، إذ لم يخطر بباله أن ياسين الذي يحبه كابنه سيتقرب من زوجته. لكن ياسين فقد صوابه وأظن أنه وثق بوالده، وربما يكون ما شجّعه تاريخ المرأة الموصوم بالعار. في كل الأحوال حاول التقرب منها كلما سنحت له الفرصة، لكن المرأة لديها مبادئ ولم تستجب له، وحين فشل في الحصول على ما يريد زاد إصراره. وفي أحد الأيام حين كان مهري في منزل والده طرق ياسين بابهم إلا أن المرأة لم تسمح له بالدخول فدفعها، وحين أشبع شهوته منها استرخى ولم يعد يأخذ حذره. فاستغلت المرأة الفرصة وهاجمت مغتصبها بسكين تناولتها من المطبخ، لكن النذل لم يصب سوى بجرح في ساقه إلا أن الألم أفقده صوابه فسحب مسدسه وأفرغ الرصاصات فيها، ما أوقظ الطفلين النائمين في الغرفة المجاورة على صوت إطلاق النار... كان الصبي يبلغ سنتين من العمر والفتاة خمس سنوات... وبينما كان ياسين على وشك الهروب همس الشيطان في أذنه أن الطفلين قد شاهدا ما جرى وقد يكونان شاهدين، فاستدار وأطلق رصاصتين على كلٍّ منهما ثم عمل لجعل الأمر يبدو سرقة لئلا يعرفوا أنه الفاعل. أُصيبت الفتاة لكنها نجت برحمة من الله، وبينما كانوا يقومون بالتحقيقات وفحص زمرة الدم وبصمات الأصابع تعرفت الفتاة إلى القاتل...

الآن ما الذي يُفترض بالقاضي هليل فعله؟ استدعى مهري وقال له: "حسناً...

ياسين مذنب وهو يستحق الموت لكنني أريدك أن تدعني أفعل ذلك بنفسي. أعلم أنك متألّم بشدة لكن ذلك لن يخف مهما فعلت، وأنا أيضاً مذنب وينبغي أن أتلقى عقابي وليس ياسين فحسب... دعني أقضِ على حياته". بدأ مهري يرتعش كورقة شجر وأخذ يبكي ويحاول تقبيل يد السيد هليل في الوقت نفسه. لكن الرجل الضخم سحبه إليه وقال: "لا تبكِ يا بني فليس هناك ما يستحق البكاء..وفقاً للقواعد كل شخص مذنب يدفع ثمن خطئه وياسين سيدفع كأي شخص آخر وكذلك أنا". وهكذا أطلق رصاصة على رأس ابنه ورصاصة على رأسه.

كنت قد سمعت بتلك القصة لكنني ظننتها مجرد أسطورة.

- أحصل ذلك حقاً؟
- بالطبع. سأتصل بمهري إذا أحببت ويمكنك سماع القصة من فمه مباشرة. لقد توليت المنصب بعد القاضي هليل إذ اتصل بي قبل ست ساعات من قتله لابنه فتوجّهت إلى مقهاه حيث أجلسني مقابله وقال: "لقد حانت ساعتي يا كمال وتقرر مصيرنا، وأنت من سيحل مكاني" وأخرج سبّحته البنيّة التي ترجّحت كقطرات ضخمة من العسل وأكمل "قبل عشر سنوات أعطاني هذه شفقي رحمه الله وأنا أريد إعطاءها لك إن كنت تقبل، لكن إن كان قلبك يأبى فما من شيء يمكن فعله..." نظرت إلى السبّحة المتلألئة على الطاولة وقلت: "آسف يا سيد هليل لكن هذا العمل ليس لي" فابتسم بفكر مشغول وقال: "حسناً يا كمال كما تريد. لكن إن غيّرت رأيك تجد السبّحة معلّقة على مقبض السيف على الجدار هناك. تقول الشائعات إن هذا السيف القديم كان ملكاً لأحد الصالحين وحامل هذه السبّحة يجب أن يكون عادلاً ومنصفاً مثله... لا تقلق... سأبلغ الأولاد ويمكنك أن تأتي وتأخذها متى أردت». لم أظن إطلاقاً أنني سأذهب وآخذ السبّحة، وبصراحة لم أتخيّل أنه سيطلق النار على نفسه أو على ابنه لكنه فعلها في الليلة نفسها التي تكلمنا فيها وسمعت بالأمر في اليوم التالي. وعند الظهر توجّهت لآخذ السبّحة عن مقبض السيف دون أيّ تفكير. لا أدري كيف شاع الأمر. وخلال الجنازة، تعامل معي الجميع باحترام لم أتوقّعه...

ثم نظر إليّ كمال وأضاف:

- أعني أن المال ليس كلّ شيء في العالم يا حضرة الضابط، فعلى الأقل لا يزال هناك في هذا العالم أشخاص يهتمون بالشرف والأخلاق.

ربما... لكنني الآن لست مهتماً بمغزى عالم الرجال الأقوياء، وإنما بالسبب الذي يمنع كمال من البوح بسبب اهتمامه بجرائم القتل هذه.

- هذا جيد لكن ما علاقة كل هذا بقضيتنا؟

- العلاقة كبيرة... بلاك نظام واحد من أولئك الرجال الذين لا يلتزمون بقانون، فهو يقول إن من يملك القوة يضع القانون، ولهذا ربما قتل إنجين لأنه كان يضع عينه على منصبه، ولا أظن أن قدرت مجنون ليطلق النار على الفتاة. لكن السبب هو حرص نظام على إخافة الجميع وخاصة دايس.

لم أستطع الربط بين الأمرين فقلت:

- أرادوا إخافة دايس بقتل فيدان؟

- ليس دايس فحسب، وإنما أنا أو أيّ شخص آخر في تارلاباسي قد يقف في طريقه. فكّرْ في الأمر يا نيفزات... أولئك الذين رموا قنبلة المولوتوف رموها أيضاً على نادي دايس هذا الصباح فاندلع حريق بسيط في النادي، ودايس يعرف من هم هؤلاء... مجموعة الثلاثاء... لكنه لم يأبه... في أسوأ الاحتمالات سيأخذهم جانباً ويتحدث معهم. لكن بلاك نظام ليس كذلك، فطموحه أعلى إذ إنه يريد أن يري الجميع مدى وحشيته ليخافوا منه ويخضعوا له. لقد أطلقوا عليها النار سبع مرات... سبع مرات يا حضرة الضابط. ما كنت لتفعل هذا لألد أعدائك... كان لديه هدف آخر... أن يخيف الجميع ليخضعوا... هذا ما كنت أحاول شرحه لك... لا لتساعدني أو تساعد إحسان وإنما لتفهم ما يجري...

يبدو أنه يكره بلاك نظام بحق، لكنني لم أكن متأكداً إن كان عدوه شريراً حقاً أم أن هناك تضارباً في المصالح فحسب.

ارتكب جريمته الأولى بعمر السادسة عشرة



تذكرني دائماً غرفة التحقيق بمسرح يتم فيه عرض مسرحية مشوّقة على منصّة قاتمة ومغلقة وصغيرة، يمثّل فيها مجموعة من ثلاثة ممثلين مكوّنة من محقّقَين ومشتبه به. قد لا ترى النص بأيديهم لكنهم يحفظون السيناريو، وقد لا يلتزمون به لكن هذا السيناريو المحفوظ هو الذي يحدّد غالباً حوارنا وتعابير وجهنا وأفعالنا. وهناك احتمال أن يتغيّر النص في عقل المشتبه به لأنه يتشكّل وفقاً لأسئلتنا، ومصير التحقيق يتحدّد بكيفية أدائنا لأدوارنا أكثر من تحديده بما نقول، والأكثر ذكاءً وبروداً هو الذي يرسم مسار المسرحية.

حين رأيت قدرت في غرفة التحقيق المكوّنة من طاولة طويلة وثلاثة مقاعد ومرآة ضخمة، تذكرت أنه كان التوأم الذي كان يدير لنا ظهره في المقهى في اليوم السابق. كان يرتدي سترة عسكرية خضراء داكنة، وقد تجمّعت حبات العرق على جبهته وعند جذور شعره القصير المصفّف. كان يرمش للضوء الساطع فوق رأسه لكن النعاس الثقيل في عينيه الداكنتين لم يتلاشَ بعد. كان يضع يديه على الطاولة وكانت أصابعه قصيرة وراحتا يديه صغيرتين كعمّه نظام، لكن لا يمكن رؤية أي شعرة على بشرته الناعمة. وإنْ لم نهتم لشعر وجهه القليل فإن بشرته كانت متوهّجة تحت النور.

– كم بندقية كلاشينكوف كان هناك؟

أجاب على سؤال علي:

– هاه...

مكسه

نقر مساعدي على رأسه وقال:

- هاه؟ ماذا يعني هذا؟ قل يا سيدي.

لم يكن مستعداً للضربة فترجّح رأسه إلى الأمام:

- هيه! توقّفْ...

وتوقفت الكلمات على لسانه.

سحبت المقعد المواجه لمقعده وجلست عليه وسألته:

- هل أنت منتشٍ يا قدرت؟

نظر إليّ نظرة غريبة كما لو أنني أتكلم بلغة لا يفهمها. قلت:

- أخبرني... هل تتعاطى المخدّرات؟

اتسعت عيناه النعستان قليلاً وقال:

- هاه...

تلقى ضربة أخرى من علي.

- توقف عن قول "هاه"... ألم تفهم؟ ستناديني يا سيدي أيها الأحمق... سيدي.

هذه المرة كان قدرت مستعداً فثبّت رأسه حين تلقى الضربة.

- آه... توقف عن ضربي... القصة هي أنني لم أسمعكما.

وضع مساعدي وجهه مقابل وجه قدرت.

- لماذا لم تسمع؟ هل أصيبت أذناك بالصمم؟

غضب قدرت ووجد أنه ما من داعٍ لكبت غضبه.

- أذناي تعملان لكن المشكلة في صوتكما.

ابتسم علي بهدوء.

- حسناً سأتكلّم بصوت أعلى.

ووضع شفتاه عند أذن المشتبه به وصرخ:

- كم بندقية كلاشينكوف كان هناك؟

حاول قدرت تغطية أذنيه لكن مساعدي أمسك بمعصمه وثبّت يده على الطاولة وصرخ مجدّداً:

- أنا أسألك كم بندقية كلاشينكوف كان هناك. هل سمعتني؟

- نعم... سمعت... سمعت... ثلاث... كان هناك ثلاث.

ترك علي يد المشتبه به ووقف مستقيماً. فسدّ قدرت بسرعة أذنيه بأصابعه وظل يدلّكهما وكأن الطنين سيتوقف إن فعل ذلك.

اتكأت للخلف في مقعدي ونظرت إليه من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه وسألته:

- لماذا تكذب؟ أتظن أن بإمكانك خداعنا؟
- لا يا حضرة الضابط... كيف يمكنني خداعكما؟ كل شيء واضح. ما السبب الذي قد يجعلني أكذب؟

قال علي من حيث يقف:

- لتنقذ نفسك... لتظهر الحادث على أنه دفاع عن النفس وتتملّص من تهمة القتل.

حدّق المشتبه به ببراءة كأنه قد استيقظ للتو من نومه فصرخ به علي:

- لا تنظر إلينا هكذا يا بني. نحن لم نجرك إلى هنا من ساحة المسجد... لقد قتلتَ شخصاً... قتلتَ فتاة شابة في مقتبل العمر.

اتسعت عيناه وتوتّر وجهه الرطب.

- هم من هاجموا أولاً.
- نعم... نعم... ومعهم أسلحة...

هز قدرت رأسه مؤكداً.

- نعم... معهم أسلحة... ثلاث بنادق كلاشينكوف.

انحنى مساعدي إلى الأمام وأمسك بقدرت من كتفيه.

- أتظننا أغبياء؟ لم يكن هناك أي بنادق كلاشينكوف... ولم يتم إطلاق أي رصاصة من الحشد باستثناء مخزن الرصاص الذي أفرغته...

رمش قدرت مرتين... لا بدّ أنه يجد صعوبة في استجماع أفكاره... ربما يكون قد تناول بعض المخدّرات.

- كان هناك... أقسم بذلك. لقد هاجموا النادي وكانوا سيحرقوننا أحياء. كان معهم مولوتوف وكلاشينكوف...

تراءت أمامي صورة فيدان وهي تمسك بقنبلة مولوتوف بيدها، لكنني لم أتمكّن من تخيّل البندقية الضخمة بين أصابعها النحيلة. استجمع المشتبه به نفسه واستمر بقراءة السيناريو الموجود في ذهنه.

- كان هناك حوالى خمسين واحداً يحملون مسدسات وبنادق وسكاكين...
- ألا يوجد منصة إطلاق صواريخ؟

لم يدرك حتى أن مساعدي يسخر منه وقال بحماسة:

- لا... لا توجد منصة لإطلاق الصواريخ.

ثم توقّف حين استوعب الأمر ونظر إلينا بانزعاج قائلاً:

- أنتما لا تصدقانني لكنهم فقدوا صوابهم. لقد كانوا على وشك قتلنا... كان معهم قنابل مولوتوف...

قاطعته:

- ليس لدينا أي مشكلة مع المولوتوف... لكنك أخبرت زملاءنا أنه كان يوجد بندقيتان وليس ثلاث.
- اثنتان؟ لا... ثلاث... كان هناك ثلاث.

ألقيت عليه نظرة كشخص مهتم للغاية.

- لقد أخبرت سامي أن هناك اثنتين. أنت تعرف سامي... صحيح؟

بدا كأنه ارتاح.

- بالطبع أعرف السيد سامي... إنه كأخي... شرطي عظيم. كل رجال الشرطة مصدر فخر وسرور لنا... نحن نحب إخواننا من الشرطة.

وكأخ من الشرطة قدمت له نصيحة ودودة.

- إذن ينبغي أن تخبرنا بالحقيقة يا قدرت.

بدت عيناه أكثر ثقةً الآن.

- أنا أقول الحقيقة يا حضرة الضابط.
- أتعني أن سامي يكذب؟

بلع ريقه بصعوبة.

- لا... بالطبع لا! ولماذا يكذب السيد سامي؟ يمكن أنه أساء فهمي...

بدا كأنه علق... إما يعترف بكل شيء وإما يتحمّل مسؤولية الخطأ.

- ... مممم.... وربما أنا قلت اثنتان بدلاً من ثلاث... في كل تلك الفوضى...

اتكأ علي بيديه على الطاولة وانحنى على قدرت كصقر وسأل:

- من أين تعرف سامي؟

لم يعرف المشتبه به كيف يجيب فنظر نظرة فارغة.

- أخبرنا كيف تعرفه؟

- من... ممم...

لم يمنحه علي الفرصة بالطبع.

- من أين؟ من القمار؟ هل يأتي إلى ناديكم كثيراً؟ هاه...

وبيده اليمنى صفعه صفعة خفيفة على جانب رقبته فتردّد صوتها في الغرفة الكامدة وتبلّلت يد علي بالعرق.

- تباً لك... تتعرّق كالحيوانات.

ومد يده ومسحها بالكنزة تحت سترة قدرت.

- لِمَ لا تتكلم؟ أكان سامي رجلكم؟ ماذا تخفي؟ أكان يساعدكم في عملكم القذر؟

كان رد فعل قدرت غير متوقّع.

- لا يوجد أي عمل قذر، بل نحن من كنا نساعد السيد سامي.

من الواضح أن هناك كذبةً أخرى على الطريق، لكن هذه المرة فقد علي أعصابه.

- إذن أنتم مَن ساعده؟ أتعني أنكم أعطيتموه المال؟

- المال؟ لا... لقد أنقذنا حياته.

ولاحت له فرصة في تفاجئنا فاستغلها.

- ليس السيد سامي فحسب وإنما الشرطيون الآخرون اللّذين معه...

لقد سيطر على التحقيق ولو لجزء من الثانية.

- يا لك من كاذب.

- أقسم بأمي أنني أقول الحقيقة...

- اخرسْ أيها القذر. لا تجرّ أمك إلى كل هذا.

احمرّ وجه المشتبه به المتعرّق وقال:

- وهل سأهين أمي؟ إنه مجرّد تعبير.

قلت بنبرةٍ حاسمة:

- أنت تهدر الوقت يا قدرت. هيا... أخبرنا بما عليك أن تقوله.

استوى في جلسته.

- حسناً يا حضرة الضابط سأشرح، لكن...

ونظر إلى علي ثم غيّر رأيه فقد عرف أنه لن يكسب أيّ شيء من التذمّر من ذلك المحقّق الذي لا يمكن التوقّع بتحركاته.

- لقد أنقذنا السيد سامي من الإرهابيين.

انقطع شرحه بضحك علي المبالغ فيه.

- إرهابيين؟ من أين جئت بهذا؟ أرجوك أخبرني... من شرناق؟

لم ينزعج قدرت بل على العكس شرح بهدوء وثقة:

- لا... ليس شرناق... بل بيه أوغلو... هناك مئات الإرهابيين.

ارتفع صوته تدريجاً وبدأ يغني كبطل ينتظر المديح:

- في الصيف الماضي خلال أحداث متنزّه غيزي... بالقرب من شارع الاستقلال... في شارع...

بدأ حديثه الواثق يزعجني.

- اشرح لنا الوضع فحسب دون أن تختبر معرفتنا بالمدينة. كيف حصل الأمر؟

- إنني أخبرك يا حضرة الضابط... كان هناك مئات الإرهابيين. أقسم إنني لا أبالغ... ربما الآلاف... أتعرف مدرسة التحضير للامتحانات عند الزاوية؟ عندها تماماً كانوا قد حاصروا السيد سامي. كان هناك شرطيان آخران أيضاً وبعض الارتباك فقد كان واضحاً أنه علق بين الإرهابيين، وكان من بين المتظاهرين بعض الأشخاص الذين رموا المولوتوف على نادينا الليلة. أعرف أولئك المقيتين... إنهم أكراد... شيوعيون... وغير أسوياء جنسياً... جميع أنواع الأوغاد. لو أننا تأخّرنا دقيقة واحدة لكانوا قتلوا السيد سامي، لكن

لحسن الحظ أننا وصلنا إليه في الوقت المناسب. كنا حوالى الثلاثين ومعنا عصيّ فصرخنا «بسم الله» وهجمنا... بكل الأحوال لم يكونوا سوى مجموعةٍ من الأولاد... أوغاد صغار بشعور طويلة أو أقراط... وفتيات بشعور قصيرة يرتدين تنانير قصيرة.

لم يستطع علي منع نفسه من مقاطعته مجدّداً.

- ظننت أنك قلت إنهم إرهابيون. كيف يمكن لولدٍ أن يكون إرهابياً؟
- أتذكر كيف حاصروا المكان؟ لقد تقاتلوا مع الحكومة ورجال الشرطة. ألا يجعلهم ذلك إرهابيين؟

لم يكن هناك أي طائل من الاستمرار في ذلك الجدل العقيم فتدخّلتُ وقلت:

- متظاهرون... ندعوهم متظاهرين... في كل الأحوال أكمل.
- حسناً يا حضرة الضابط. وهكذا بدأنا نطاردهم، وتغلّب ثلاثون رجلاً منّا على ثلاثة آلاف منهم وأجبرناهم على التفرّق في جميع الاتجاهات... أقسم على ذلك.

لم يستطع علي البقاء صامتاً مجدّداً.

- أنت تبالغ بتبجّحك.
- أقسم على ذلك يا حضرة الضابط... بالطبع لحقت بنا فرق الشرطة، وحين وصلوا كان المتظاهرون قد تشتّتوا وتفرقوا... لكن الغاز المسيل للدموع سيئ ولم يكن معنا أي أقنعة... لقد ظننت أننا سنموت... لا تسئ فهمي فهم لم يلقوه علينا لكن الريح أوصلته إلينا...لا أبالغ حين أقول إن نصف أولاد أعمامي سقطوا كالبعوض.

تذكرت كيف خرج بعض الأشخاص الذين يحملون سكاكين وعصياً لمطاردة المتظاهرين خلال أحداث متنزّه غيزي... يبدو أن أبناء إخوة بلاك نظام من بينهم.

- أنتم تنفّذون ما تريدونه بأيديكم.

يبدو أنه لم يفهم ما قصدت.

- عفواً يا حضرة الضابط؟
- أعني هل ذهبتم إلى هناك بملء إرادتكم؟ لمساعدة رجال الشرطة؟

ابتسم بتهذيب وقال:

- ما كنا لنجرؤ يا حضرة الضابط... لقد أرسلنا عمي نظام. في كل الأحوال لقد اكتفينا من أولئك الأنذال الذين احتلوا متنزّه غيزي لأيام... أُغلقت كل متاجرنا، ولا أحد يدخل إلى المتنزّه أو يخرج منه، ومحلات الكباب فارغة... أظن أن هناك مكالمة هاتفية من الأعلى.

قاطعه علي:

- الأعلى؟

هز قدرت كتفيه:

- لا أدري ممن. قد تكون من مؤيدي الحزب الحاكم أو مركز الشرطة... ما الذي يهم يا حضرة الضابط؟ الهدف خدمة الدولة والأمة. حين سمعنا النداء للعمل نزلنا إلى الشوارع لإعادة أولئك الأنذال إلى مكانهم.

وبترقّب طفل يأمل الحصول على مكافأة استمر بالحديث عن إنجازاته:

- لقد ضربنا كثيراً من المتظاهرين يا حضرة الضابط...
- أكانت فيدان من بين المتظاهرين؟
- من؟ من هذه يا حضرة الضابط؟
- فيدان... الفتاة التي قتلتها قبل بضع ساعات.

تلاشت بهجته على الفور.

- اسم الفتاة الميتة فيدان؟

ردّ علي:

- ليست الفتاة الميتة وإنما الفتاة التي قتلتها... تلك الفتاة الشابة الصغيرة التي أطلقتَ عليها سبع رصاصات.

لم يحوّل نظره أو يحني رأسه كشخص يثقله الشعور بالذنب، وإنما قال ببرود:

- لم أكن أريد فعل ذلك. لكنني حين رأيت المسدس الذي تحمله، والمصوب إلى نافذتنا، دافعت عن نفسي. إذ ليس من الجيد قتل أحد.
- ألهذا قتلت أربعة أشخاص.

رفع قدرت رأسه ونظر من تحت حاجبيه بكراهية إلى مساعدي وقد توهّجت

عيناه ببريقٍ حادّ... كان هذا الوجه الذي حاول قدرت إخفاءه عنّا منذ أن جلسنا إلى الطاولة... وجه شخص يمكنه أن يصبح قاتلاً متوحشاً عند اللزوم. لكن ذلك لم يستمر طويلاً، فقد استرخت عضلات وجهه واختبأ القاتل وراء تعابير مختلفة.

– أنا... لم أقتل أربعة أشخاص.

فهم مساعدي أنه كان على الطريق الصحيح فاستمر بالضغط.

– كم شخصاً قتلت؟

أظهر ما يفترض أن يكون تعابير صريحة وقال:

– قتلت شخصاً واحداً لأنه أهان عمي... عمي نظام بمنزلة أبٍ لنا... إنه زعيم العائلة والعائلة مهمة بالنسبة لنا. أولاً الله ثم الوطن ثم العائلة، وأي شخص يتكلم بالسوء عن الله أو الوطن أو العائلة نقطع له لسانه.

نظر إليه عليّ بخبث.

– لكن الرجل لم يتكلم بالسوء وإنما ضرب عمك.

انتفخت العروق في رقبته واتسعت فتحتا أنفه.

– افتراء وكذب! هذا لم يحدث.

كان مساعدي مستمتعاً برؤية المشتبه به مرتبكاً.

– لقد تجرأ عليكم... لا تنكر ذلك... لقد حوّلكم مجموعة من القطط الخائفة... رجل يُدعى البحار عباس يا حضرة الضابط يدير مرأب سيارات في توفين... أتعرف كيف يشتري هؤلاء الرجال بيه أوغلو قطعة تلو أخرى؟ لقد جمع بلاك نظام جميع أقاربه وهاجموا منزل الرجل. لكن عباس ليس مغفلاً فقد كان لديه علم بذلك فاستعد واستقبلهم كما ينبغي، وهو ما فاجأهم للغاية. كما قام عباس بلطم نظام أمام أعينهم...

صرخ قدرت:

– هذه كذبة! ليس هذا ما جرى. كان عباس يحتل مرأب السيارات الذي يملكه رجل يهودي عجوز صديق لعمي، وقد طلب منا إخراج الرجل ولهذا ذهبنا إليه. في الواقع قام عمي نظام بدعوته أولاً لمناقشة الوضع، لكن عباس قال له: "تعالَ أنت... أنا بانتظارك" وحين ذهبنا إلى مرأب السيارات قام بحركة قذرة

حيث أطلق علينا جميع الناس من بلدته... كما أن حادثة الصفعَ كذبة أيضاً فهي لم تحصل مطلقاً.

قال عليّ متردّداً وكأن فكرةً أخرى خطرت بباله:

- إذن لِمَ قتلتَ عباس؟ انتظر... انتظر... ربما لم تقم بذلك. بالطبع لم تكن أنت من أطلق عليه النار وإنما بلاك نظام، لكنك تحمّلت المسؤولية لأنك قاصر... نعم... هذا ما حصل بالضبط... لقد تغلّب عباس على بلاك نظام وأساء إلى سمعته في بيه أوغلو، ما منعه من الخروج لأيام، ولاستعادة صدقيته كان عليه قتل عباس بنفسه وهذا ما فعله. لكن وفقاً للخطة ستتحمل أنت المسؤولية... أخبرني إن لم يكن هذا ما جرى؟

مجدّداً لم تخرج أي كلمة من فم قدرت، وإنما كتم حقده واستمر بالإنصات لهذا الشرطي اللعين.

- بالطبع هذا ما جرى... لم يكن عباس جريمتك الأولى. وإذا لم نعتبر الفتاة المسكينة التي لقيت حتفها الليلة فإنك قتلت ثلاثة أشخاص من بينهما بعد مغادرة السجن، لكن أبناء عمك القاصرين تحمّلوا مسؤولية تلك الجرائم... إذن هكذا تسير الأمور بالنسبة إليكم... البالغون يرتكبون الجرائم والقاصرون يتحملون المسؤولية ويتعلّمون كيف يصبحون مجرمين قساةً في السجن.

يبدو أنّ مساعدي فحص ملف قدرت حين أتى إلى المركز، لكن لم يكن لديه كثير من الوقت، لذا فإن هذا أفضل ما يمكنه فعله. وبينما كان يتكلم بدأت الحجارة تتجمّع في أماكنها في ذهنه.

قال وهو يحاول أن يشرح لي:

- لقد ارتكب هذا الأحمق أولى جرائمه بعمر السادسة عشرة، أو بدقة أكبر، تحمّل مسؤولية جريمة عمه فتوجّه إلى مركز الشرطة وسلم أذني البحار عباس المقطوعتين بالإضافة إلى مسدس، وهكذا حمى عمه وكسب سمعة سيئة زائفة كقاتل، وبعد خمس سنوات أُطلق سراحه بكفالة. بعد خروجه اتُّهم بثلاث جرائم أخرى خلال سنتين لكن كما شرحت لك فإن أبناء عمه القاصرين تحملوا المسؤولية عن الثلاثة... أعني يُحتمل أن يكون هذا الوغد القذر قد

قتل أربعة أشخاص... أليس كذلك؟ هل نسيت شيئاً؟

لم يجب قدرت، وإنما حدّق دون خوف أو تردّد بعينين كالنصل الحاد، وكأنه يقول إنه يعرف ماذا سيفعل بنا إنْ وقعنا بين يديه.

- ما هذه النظرة يا فتى؟ أنصوّر فيلماً هنا؟ أم أنك تحاول إخافتي؟

كان قد بدأ يغضب حقاً وبدأت أقلق من أن يصفعه.

- حسناً يا علي... اجلسْ قليلاً.

لم يجلس وإنما بقي واقفاً في مكانه، لكنه ابتعد قليلاً عن ظهر المشتبه به.

- كيف كانت الأمور بينك وبين إنجين يا قدرت؟

كان تفكيره لا يزال في علي، لذا لم يفهم ماذا كنت أقول.

- ماذا... إنجين؟

- نعم. أنا أتكلم عن صديقك الذي قُتِل الليلة الماضية. أكنتَ تحبه؟

بدأ يهدأ وأخذ نفساً عميقاً وقال وهو يمسح العرق عن جبينه بكمّ سترته:

- نعم... ولماذا لا أحبه؟ إنه لم يؤذِني قط... رحمة الله عليه.

لم يجف عرقه بكمّ سترته فأخرجت منديلي وناولته إياه.

- تفضّل... استخدمْ هذا.

نظر إلى المنديل ثم إليّ كما لو أنه وجد هذه الحركة غريبة.

- لا... شكراً...

- هيّا خذْه واخلع معطفك واهدأ قليلاً.

تفحّصني ثم نظر بارتياب إلى عليّ وهز رأسه وقال بخبث:

- لا... هذا جيد. لقد أخبرني الطبيب أن التعرّق أمر جيد.

من يعلم كم مرة تعرّض لمثل هذا التحقيق؟ أنا متأكد من أنه حصل على نصيبه من الضرب أيضاً. يبدو أنه يعرف كل روتين الشرطة الجيد والسيئ، وبرفضه هذا فإنه يقول إنه لن يهادن.

قلت وأنا أعيد المنديل إلى جيبي:

- كما ترغب. مؤخّراً لم تكن الأمور على ما يُرام بينه وبين نظام.

كان ينصت محاولاً أن يستنتج ماذا نريد.

- أعني إنجين... لقد كانت هناك مشاكل بينهما بسبب امرأة اسمها سيليم...

حرك رأسه كأنه غير مرتاح.

- ليست سيليم... هاسر... العمة هاسر... لقد تزوج عمي نظام من المرأة.

من المثير للاهتمام أنه دعاها «المرأة». يبدو أن ما قاله حريم سليمان صحيح... أبناء إخوة بلاك نظام غير موافقين على الزواج.

قلت بأدب:

- لقد أخبرنا عمك... أتمنى لهما السعادة... لكن هاسر هانم كانت تواعد إنجين المقتول أيضاً.

اعترض قدرت مباشرة.

- ليس هناك أي شيء من هذا القبيل، وفي كل الأحوال لا يمكنني الحديث عن العمة هاسر، فقد انضمت إلى العائلة وأصبح شرفها من شرفنا.

بسعادة عظيمة استمر مساعدي بالضغط على المشتبه به.

- شرفكم؟ ألم تكن المرأة خليلة دايس إحسان؟ ولو كان دايس وحده فذلك مقبول، لكنْ كان هناك إنجين أيضاً؟ أم أن إنجين كان أولاً ثم دايس؟

احمرّ وجه قدرت لكنه لم يعترض.

قلت محاولاً التعبير عمّا يجول في خاطر قدرت:

- يبدو الأمر غير صائب... رجل بسمعة نظام الطيبة يتزوج سيليم. كان بإمكانه العثور على امرأة لا تلطّخ اسم العائلة.

تمتم بصوت خافت دون أن ينظر إلى وجهينا:

- لقد كان خيار عمي وعلينا احترامه.

- كابن أخيه أنت محق، إذ من غير المعقول أن تتجادلوا مع بلاك نظام الكبير، لكن لا يمكنكم إسكات الناس. في كل الأحوال لا يهمنا ما يقوله الناس. حسناً... هل صحيح أن هاسر كانت على علاقة بإنجين؟ أقصد قبل أن تلتقي بعمك... لأن بعض الناس يزعمون أن علاقتهما لم تنتهِ.

- هذا محض افتراء! ليس هناك شيء من هذا القبيل. من الذي أخبركم بذلك؟

- اهدأ يا قدرت... لم نسمع بالأمر من شخص واحد، فجميع من تكلمنا معهم

في اليومين السابقين وجميع من في بيه أوغلو يقولون هذا... كما أن إنجين هو من عرّف عمك إلى الفتاة... أليس ذلك صحيحاً؟

كان العقل يملي عليه أن لا يجيب، لكن قلبه وثقافته لم يسمحا له بقبول هذا الخطأ الذي ارتكبه عمه.

- نعم. لكن إنجين لم يقم بأي علاقة مع العمة هاسر، لا قبل ولا بعد... قد يكون إنجين إنساناً خبيثاً لكنه ليس أحمق فهو يعلم ما قد يحدث إن استرق النظر إلى نسائنا، كما أنه كان واقعاً في حب فتاة أخرى... إنه أحمق... لقد كان يحب فتاة من بافيون.
- عزيزة؟
- أنت تعرف بالأمر من قبل يا حضرة الضابط! نعم... إنه متيم بتلك الفتاة الصغيرة النحيلة في حين كان حوله نساء رائعات كثيرات... لقد كان رجلاً وسيماً بجسد متناسق وعينين زرقاوين... على سبيل المثال كانت هناك تلك المرأة الثرية جيل... كانت قد تقدمت قليلاً في العمر لكنها لا تزال جميلة...

كان يتكلم عن المرأة الظاهرة في الصور والتي وُجدت في منزل إنجين.

- كانت جيل مجنونة بحبه. كانت امرأة ثرية إذ إن زوجها كان يملك مصانع وعقارات. لكنه أصيب بجلطة وسيتوفى قريباً. لكن الأحمق كان واقعاً في غرام تلك المشرّدة من بافيون بدلاً منها.
- وهل كانت عزيزة تحب إنجين؟

ظهرت تعابير الكذب على وجهه.

- وماذا لو كانت تحبه؟ أيمكن لتلك الفتاة أن تكون زوجة لهذا الرجل؟ الجميع كانوا يستمتعون بها، لذا ما كان إنجين ليتزوج منها بأي الأحوال... ما كان بإمكانه النزول إلى هذا المستوى.

قال علي ضارباً المسمار على الرأس:

- لكن عمك نزل. انظر إلى هاسر التي جعلها سيدة منزله... أم أنها سيليم؟

أشاح بنظره بعيداً لكنه لم يستطع مقاومة التعليق.

- لقد فعل ذلك بسبب طيبة قلبه... وقد أصبحت العمة هاسر امرأة شريفة. لقد

ذهبا إلى رجل الدين في مسجد أيوب فدعا لهما، ثم ذهبا إلى الحمام واغتسلا من ذنوبهما فعادت كأنها وُلِدت من جديد... نعم... لقد أصبحت امرأة شريفة كما أنها لم تكن سيئة من البداية، وإنما كانت صغيرة والتقت أشخاصاً ماكرين كدايس. لكنها لم تكن على علاقة بإنجين إطلاقاً.

كان يشرح الأمر كثيراً لدرجة أنه هو لم يكن مصدقاً نفسه. لكن هذه القصة التي تدور حول هذه المرأة المسكينة التي وقعت في وكر الذئاب لم تكن مفيدة لهذا التحقيق.

قلت وأنا أتكئ للخلف:

- في الواقع يبدو لي الأمر هكذا أيضاً فأنا أشك أن تكون هاسر هانم على علاقة سرية بإنجين. لكن ألا يمكن أن يكون إنجين يحاول استخدام عمتك؟

بدا الإحباط على وجهه مجدّداً.

- لا... ليس كما فهمت... أنت تعلم أن إنجين جاء إلى هنا من أوروبا وكان عمه دوردو مهرّب مخدرات معروفاً في كل أنحاء العالم، وكان إنجين يده اليمنى. لو أن الإيطاليين لم يقتلوا دوردو ويفكّكوا عصابته لورث إنجين عمه... أعني أن إنجين قد حضّر نفسه لأشياء أكبر، لكن انظر إلى سخرية القدر، فقد اضطر للقدوم إلى هنا واللجوء إلى بلاك نظام. بالطبع يمكن أن يحدث أي شيء لأي شخص لكن، كما فهمت، فإن إنجين كان طموحاً... أعني أنه كان طماعاً بما يكفي بحيث أنه لم يستطع مطلقاً تقبّل الدور الذي رسمه له القدر. لقد تقرّب من عمك وربما عرّف عمك إلى هاسر هانم ليكسب ثقته. لكن مما سمعت فإنه كان يحاول جمع رجاله المشتّتين في أرجاء إيطاليا، ويستعد لإعادتهم إلى إسطنبول.

لم يكن ليتخلّى عن حذره لكنّ كذبي بدأ يؤثّر فيه قليلاً.

- من أين سمعت بهذا؟

- ليس من دايس إحسان وإنما من تقارير الإنتربول، لأن إنجين كان مُراقَباً منذ وصل إلى إسطنبول.

وحين رأيت الخوف في عينيه أكملت السيناريو.

- يظن أصدقاؤنا في الإنتربول الإيطالي أن إنجين كان يستجمع قواه في إسطنبول ليستعيد مملكته مجدّداً، وكان يستخدم عائلتك كوسيلة.

فتح فمه مذهولاً.

- هل أخبرك عمك بشأن صكوك الملكية؟

اتّسعت عيناه الصغيرتان وسأل:

- أيّ صكوك ملكية؟
- صكوك ملكية تسعة مبانٍ في تارلاباسي... كان إنجين يجمع المباني لنفسه، ومع مشروع التجديد المدني القادم فإن قيمة المباني سترتفع. لكنه أخفاها عن عمك.

تذمّر:

- ذلك المحتال القذر! أخبرنا أنه يشتري المنازل لأجلنا. لقد نصحت العم نظام أن يحذر من إنجين فقد أتى من المجهول وغاص في أعماقنا... إنه يعرف نقاط ضعف عمي. إذن من الذي قتل إنجين؟ الإيطاليون؟

هذه المرة نظرت إلى الشاب الجالس أمامي بحذر أكبر... أيخدعنا بالطريقة نفسها التي نحاول بها خداعه؟ أيحاول التملّص من هذه الجريمة بالاستناد إلى السيناريو الذي كتبناه له، في حين أنه هو من قتل إنجين؟ لا... إنه يبدو صادقاً. على الأرجح فإن هذا القاتل، الذي قام قبل بضع ساعات بإطلاق سبع رصاصات على فتاة شابة دون أن يرمش له جفن، ليس له أي علاقة بجريمة قتل إنجين. لكن هذا لا يعني بالضرورة أن بلاك نظام لا علاقة له بالأمر.

قلت وأنا أشبك أصابعي:

- بالطبع، يمكن أن يكون الإيطاليون، لكنني أشك بتلك المرأة نازلي. فقد وجدنا مخططاً لمركز فرحات سيراج الثقافي في خزنة إنجين.

نعم... لقد أشاح بنظره... لأنني كنت أتكلم عن جريمة كان مشاركاً فيها.

- من الواضح أنه كان يخطّط لهجوم على المبنى.
- حقاً؟

عاد للحذر وهو يفكر في ما كنت أحاول أن أعرف.

قلت محاولاً أن أبدو هادئاً:

- هذا صحيح... وفيدان... أعني الفتاة التي أطلقتَ عليها النار، كانت تتردّد على المركز الثقافي.

أكّدتُ على كلمات «أطلقت عليها النار» لكن لم يظهر عليه أيّ ذلٍّ أو خزي بل على العكس رفع صوته وقال:

- كل هذا خطأ تلك المرأة المجنونة نازلي... ذلك المكان الذي تدعوه مركزاً ثقافياً كان مركزاً للانفصاليين وغير الأسوياء جنسياً والأكراد واليساريين وأنصار المرأة... وكأن ذلك لا يكفي فقررتْ أن تفتح مركزاً آخر في مبنانا. كان لدينا عقد لسنوات كثيرة قادمة لكنها لا تستجيب، وإنما كانت تصر على إخراجنا.

- ألهذا كنتم تطلقون النار أمام المركز الثقافي؟ لتخيفوا نازلي وتخضعوها؟

أغرقت كلمات علي ثرثرة القاتل ثم اقترب وقال له:

- أخبرنا! كم مرة كسرتم نوافذ ذلك المبنى؟ كم مرة آذيتم أولئك الناس؟

لم ينبسْ قدرت بحرف.

- ماذا كان ذلك المخطط؟ أكنتم تنوون زرع قنبلة هناك؟ تطلقون النار على الناس؟ أخبرني! ماذا كنتم ستفعلون؟

قال وهو يرجع رأسه للخلف غاضباً:

- لا أعرف. لم أسمع بأيّ مخطّط.

حينذاك قام علي بصفع قدرت على رقبته بقوة فسقط للأمام حتى كاد أنفه يصطدم بالطاولة، وبينما كان يستوي في جلسته بدأت الشتائم تتدفّق من فمه.

- أيها الوغدان! لماذا تضربانني؟

بحركة سريعة أمسكه علي بتلابيبه ورفعه على قدميه دون أن يترك له فرصة ليفتح فمه مجدّداً. كان يجب علي منعه، لكن جسد الفتاة الشابة النحيل المليء بالرصاص والمستلقي في بركة من الدم، الذي انتشر تدريجاً على الثلج، منعني من ذلك.

- اصرخْ مرةً أخرى أيها الحقير! هيّا... اشتمْ مرةً أخرى!

اصفرّ وجه قدرت وركل بقدميه الهواء... كان يحاول أن يدير عينيه إليّ لكنه

لم يستطع إذ كان علي يهزّه ويقول:

- افتحْ فمك أيها الحقير! افتحْ فمك وإلا سأحملك وأرمي بك من الطابق الخامس.

امتنع قدرت.

- افتح فمك!

حين أدرك أنه لن يحصل مني على المساعدة التي يريدها أسقط المشتبه به فكّه خوفاً، فجمع علي جميع السوائل التي في فمه وبصقها بين شفتي قدرت نصف المفتوحتين، ثم قام بكلتي يديه بإطباق فكّي قدرت.

- الآن ابلعْ أيها الوغد!

في تلك اللحظة صدر صوت نقر على باب غرفة التحقيق. كنت جالساً في مقعدي وفكّا قدرت لا يزالان بين مخالب علي. التفتنا لنرى وجه زينب يظهر من وراء الباب المعدني المفتوح.

- لقد وصل محامي المشتبه به... إنه يريد حضور الاستجواب.

إنه إرثنا القديم... بحق السماء ألا يجثم على ضميرهم أبداً؟



تحت الثلج الذي بدأ يتساقط مجدّداً، كانت سيارة الإجرة تشق طريقها من تارلاباسي على الإسفلت المغطى ببقع من الجليد. كنت قد تركت سيارتي في مرأب سيارات مركز الشرطة، لكن لا... لم تكن السيارة هي التي تعطّلت هذه المرة وإنما أنا، فقد كان رأسي يدور إما من الإرهاق وإما من التوتّر الذي بدأ يسيطر عليّ بين الفينة والأخرى، وإما من التقدّم في السن.

كان ذهني لا يزال مشغولاً بمحامي قدرت، ساسيت، وأنا أنظر في الظلام من خلال عينيّ شبه المفتوحتين... ساسيت قاسم أوغلو... واحد من أشهر المحامين. كان العريس ساسيت المعروف بهذا اللقب قد درس في كلية الحقوق بجامعة إسطنبول وحصل على الماجستير من جامعة السوربون. كنت أعرفه منذ سنوات عدة... ليس منذ أصبح محامياً لامعاً وإنما من أيام كان في قمة قوته السياسية. كان قد اكتسب لقب العريس من الفترة التي تزوج فيها من ابنة وزير. لا تعتمد على كلامي، لكنهم يقولون إنه أحرز ضربة في الثمانينيات حين تم افتتاح طريق تارلاباسي... أتعرفون أولئك المنحلّين الذين يقولون إن شوارع إسطنبول معبّدة بالذهب وإن لم يستفيدوا هم منها فسيستفيد شخص آخر؟ وقد كان واحداً من أكثر الخبراء في هذا المجال حيث كان فرداً في فريق العمل البارع ذي الروابط القوية مع أنقرة.

لكن جاءت العدالة الإلهية، أو لعنة المدينة، وانقلب حظه حين تم القبض على زوجته في حفل لتعاطي الكوكايين. وبالطبع لم يطلّق زوجته وإنما رفع دعوى قضائية، بتهمة تشويه السمعة، على المرأة التي نشرت الخبر. وحين لم يفلح ذلك عمل على إيقاعها في المشاكل. لكن الصحافية لم تتأثر، واستمرت بملاحقته بمساعدة زملائها. وهكذا بدأت الملفات القذرة تُفتح، واحداً تلو آخر، وكما يقولون فإنها حين تمطر فإنها تمطر بغزارة. وهذا ما جرى إذ خسر حزب والد زوجته في الانتخابات، وتم اتهام والد زوجته بالفساد ما اضطرّه للهروب واللجوء إلى كندا. في ذلك الحين بدأ زواج ساسيت بالانهيار حيث لحقت زوجته أباها، ولولا الحجز على أملاكه لما كان لدى المحامي الشهير أي اعتراض. لكن كان من المعتقد أنه شريك سري لوالد زوجته لذا فقد اشترى غضب الحكومة الجديدة وخسر كل ما لديه، كما تشوّهت سمعته. وبالطبع بدأ زبائنه الأثرياء والمحترمون بالانسحاب، واحداً تلو آخر، ليتحوّل إلى تمثيل المجرمين من الدرجة الثانية كبلاك نظام لكنه حافظ على أناقته ورفض الظهور بمظهر المهزوم.

وفي تلك الليلة دخل غرفة التحقيق بالثقة بالنفس ذاتها لكنه أخفق إذ تأخّر وترك موكّله في مأزق. ابتسم محيياً إيانا كأنه لا يأبه. كانت أسنانه الجديدة كبيرة قليلاً بالنسبة إلى فمه، لكنه وقف أمامنا كمدافع عن العدالة وقد صفّف شعره المزروع وارتدى معطفاً أسود أنيقاً وبذلة زرقاء داكنة ووضع ربطة عنق حمراء وحمل حقيبة جلدية كبيرة. بعد أن ألقى تحية المساء طوى معطفه وعلّقه على مسند المقعد الذي سيجلس عليّه ثم نظر إلى موكله كأنه لاحظه للمرة الأولى لتتسع عيناه العسليتان بدهشة وقال:

- قدرت يا بُني... لِمَ أنتَ جالس هنا بمعطفك؟ ألا تشعر بالحر؟

ظننت أن المشتبه به سيشتكي منا ويخبر المحامي أننا عذبناه، لكنه لم يفعل.

- أنا مرتاح هكذا يا ساسيت بيك... أنا أحب الحر.

كان قد تعرض لكثير من الإهانات فلم يعد يكترث... ربما كان يظن أنه ما دام يدّعي أنه قتل دفاعاً عن النفس فلن يكسب شيئاً من الشجار معنا. وبالطبع فإن محاميه الذكي قد فهم ما جرى لكنه تجاهل الأمر، إذ كان يعلم جيداً أن الشجار

معنا لن يأتي بأيّ فوائد لقضيته.

قال بكآبة وهو ينظر إلى موكّله:

- أنت تحبه... هاه؟

ثم حوّل عينيه العسليتين المتعبتين إليّ كأنه يتخلّص من عبء مشاكله كأب لا يستطيع التعامل مع ابنه المدلّل.

- قدرت هذا غريب يا حضرة الضابط. كيف يمكن لأي شخص أن يحب هذا الحر؟

أخفيت استيائي.

- لا يمكنك فعل شيء بهذا الشأن يا ساسيت بيك... لا يمكنك الجدال في تفضيلات الشخص.

- أنت محق. لا يمكننا الجدال في التفضيل.

ثم قال فجأة وكأنه لاحظ للتو:

- لقد بدأتم بدوني.

أجبت:

- لقد كنا ندردش فحسب، فأنا وقدرت التقينا من قبل.

لم يرغب بالاستفسار.

- حسناً... إذن أنا جاهز... يمكنكما البدء بالتحقيق متى رغبتما.

كان هادئاً تماماً وكأننا لا نستجوب موكله بشأن قتله لأحد وإنما بشأن حادث مرور بسيط.

كان قدرت لا يزال ملتزماً بقصته حتى الآن ولم يغيّر شيئاً سوى عدد الكلاشينكوف. وكان علي على وشك التدخّل لكنه تنبّه إلى نظرتي القاسية فلم يتحرك. وحين انتهى التحقيق أرسلنا قدرت إلى زنزانة الحجز وسألَنا ساسيت:

- ألم يكن ذلك دفاعاً عن النفس يا حضرة الضابط؟

كان يريدنا أن نخبره بما نفكر، فقد كانت مشكلته الحقيقية كيف سنكتب شهادتنا.

- ليس هناك أي دليل على أن الأشخاص الذين هاجموا النادي كانوا يحملون

بنادق أو مسدسات، كما أن المتظاهرين لم يطلقوا أي رصاصة، ولم نتمكّن من الكشف عن أي محاولة لدخول المبنى...

هزّ رأسه بهدوء وهو يتناول معطفه.

– نعم... هذا مهم بالطبع. لكن ألا تعتبر قنابل المولوتوف أسلحة نارية أيضاً؟

كان محقاً. وكان من الممكن أن يخرج قدرت حرًّا طليقاً، وربما تتم إدانته إذا مثُل أمام محكمة عليا تستاء بشكل خاص لموت فتاة شابة، لكن ذلك لن يؤدي إلى صدور حكم صارم... يمكن أن يكون قدرت ارتكب هذه الجريمة لأنه يعرف النتيجة وإلا لقام واحد من أبناء عمه القاصرين بإنقاذه، فالقَتَلَة مثل قدرت الذين يحاولون النجاة من شرك عالم الجريمة هذا يعرفون القانون أكثر منا نحن رجال الشرطة، وخاصة أولئك المجرمين الذين يكسبون منه.

ربما توجّب علينا أن نلتقي نظام مجدّداً فنحن لم نفهم بعد مشاعر الرجل القبيح الحقيقية حول موضوع إنجين، فمما قاله قدرت أن عمه كان يحمي إنجين، ويبدو واضحاً أن ابن أخيه منزعج من سلوك نظام، لكن قد لا يكون نظام صريحاً بالكامل مع ابن أخيه وقد يكون يكره إنجين ويرغب في إبعاده فقرّر حل المشكلة دون إعلام أبناء إخوته... ربما يكون اكتشف أن إنجين يستخدم المرأة التي يحبها لمصالحه فاستخدم تايدي طارق لإنهاء الأمر. لكن لماذا يستخدم قاتلاً من الخارج في حين أن أبناء إخوته ماهرون للغاية في القتل مثل قدرت... الجواب بسيط... ليغطي ما كانت قد مرت به زوجته الجديدة هاسر. وربما تكون هاسر لا تزال على علاقة بإنجين، أو هذا ما يظنه بلاك نظام على الأقل، فأي رجل عجوز قبيح لديه زوجة شابة جميلة قد تسيطر عليه مثل هذه الأوهام بسهولة... لكن لماذا تزوّج هاسر إذن؟ ربما تكون المرأة تكره إنجين أو تغار عليه... أليس ذلك ممكناً؟ قد تكون هاسر سمعت أن إنجين متيم بعزيزة وأرادت الانتقام من حبيبها السابق فحرّضت زوجها العجوز والقوي... لكن أما كان بلاك نظام سيقتل الرجل الخائن بيديه؟ نعم... كان ذلك الرد المناسب وفقاً للقانون، إلا أن ذلك سيفضح علاقة زوجته بإنجين... ليس ذلك فحسب... فكل ما مرت به هاسر سيظهر، بدءاً من دايس إحسان، في حين أن محترفاً كتايدي طارق سيتخلّص من إنجين دون أن

يعلم أحد بماضي زوجته الحافل. في تلك الحالة بدت افتراضات زينب منطقية إذ تم التخطيط لمحاولتي قتل لإنجين في الليلة نفسها وبالطبع فإن كلاً من القاتلين لم يكن يعرف بأمر الآخر. وفي حين كانت المحاولة الأولى ناجحة فقد انتظر تايدي طارق مستعداً لتنفيذ المحاولة الثانية لكنه التقى بنا لسوء حظه. في هذه الحالة من الذي نفّذ المحاولة الأولى أو قتل إنجين أمام نادي تارلاباسي؟ ربما دايس إحسان... لقد كان على رأس قائمة المشتبه بهم. لكن لِمَ قد يقوم شخص ذكي كدايس بتنفيذ ذلك خارج ناديه؟ هنا ظهرت فرضيتي... التقى إنجين رجال دايس خارج النادي... أخرجوا أسلحتهم... وكان إنجين بطيئاً جداً... نعم... لقد بدا كلٌّ من هذين السيناريوهين ممكناً، لكن هل هناك جانب آخر غير معروف يظهر لنا قصة مختلفة؟

نعم... شيء جيّد أن نلتقي نظام لإنهاء مسألة صكوك الملكية أيضاً. كنت أتساءل عن نوع الشراكة التي يتمتع بها في مشروع التجديد في تارلاباسي، إذ لم نصل إلى التفاصيل حين تكلمنا اليوم.

- أليس قبيحاً يا سيدي؟

انقطعت أفكاري بكلمات السائق الذي كان يشير إلى المعبر الإسمنتي المحاذي لجسر أونكاباني.

- أعني جسر المترو... انظر... إنه يحجب منظر المسجد.

كان محقًّا. فمسجد سليمان القانوني، العزيز على قلبي والذي يمنح إسطنبول الروعة، قد اختفى وراء الجسر الذي كان إشارة إلى هذا الزمن. فجأة تذكّرت نازلي حيث طن صوت المرأة الشجاعة: "لا أحد يأبه بتاريخ إسطنبول أو جمالها أو ثقافتها، وإنما يتجمّعون في الفنادق السياحية وعلى الجسور القبيحة وفي ناطحات السحاب الشنيعة... لا يأبهون سوى بالاستيلاء على الأراضي والمكاسب، وجمع الثروات من الإيجار". كم كانت غاضبة ومليئة بالحقد وهي تتكلم. أيمكن أن تكون نازلي هي التي قتلت إنجين؟ هل تظاهرت أنها لا تؤيد هذا النوع من الاحتجاجات العنيفة في حين أنها تطلق أبناءها على عصابات المافيا؟ هذا الهجوم المنظّم على أوكار القمار بعد موت إنجين... أكان جزءاً من خطة عمل أكبر؟ ربما لا يكون

هناك مجموعة الثلاثاء، وقد يكون مركز فرحات سيراج الثقافي مجرّد واجهة لتنفيذ الأعمال الإرهابية... أحسنت يا نيفزات... لقد بدأت تفكر كرجال الشرطة المتحيّزين... ألم تَرَ تلك المرأة ومدى انهيارها بسبب موت فيدان؟ كيف أمكنها إرسال تلك الفتاة إلى قبرها؟ تنقذها من الوحل وتساعدها على بدء حياة جديدة ثم ترميها فريسةً للرصاص؟ ربما لم تتوقع أن تموت، أو ظنت أن أحداً لن يكون في النادي في ذلك الوقت من الليل... ربما تكون تقصد فقط إزعاجهم قليلاً... أكانت ستفعل هذا؟ لِمَ لا؟ كان هناك عداء شديد بينهم... كم مرة قام أتباع بلاك نظام بإزعاجها؟ لقد كان شرح المرأة صادقاً بما يكفي، لكن تلك الظلمة في عينيها وذلك التكتّم...

مرة أخرى تشتّتت أفكاري بصوت سائق سيارة الأجرة وهو يقول:

- لا تسئ فهمي يا سيدي...

وحين لم أجبه يبدو أنه استنتج أنني لا أوافقه.

- أنا لا أقول هذا لأن عملي سيسوء، فزبائن قطار الأنفاق غير زبائننا. كما أنني لست ضد وسائل النقل العامة فهي ملائمة للفقراء، لكنهم يدمرون جمال إسطنبول. أحياناً يركب السياح معي ويطلب مني كثير منهم أن أتوقف حين نمر من هنا ويلتقطون الصور في الليل أو النهار، وغالباً ما يصرخون حين يرون هذا المشهد وخاصةً في الليل... انظر إلى هذا المشهد؟ أليس من المعيب والمخزي إعاقة هذا المشهد الرائع؟ إنه إرثنا القديم... بحق السماء ألا يجثم على ضميرهم أبداً؟ كيف يمكنهم فعل هذا؟

وفي المرآة الخلفية ابتسمت للسائق، وهنا لاحظت مدى تقدمه بالسن. فشعره المجعّد وشاربه الرقيق أبيضان كالثلج الذي بدأ يغطي الشارع مجدّداً.

قلت باحترام:

- أنت محق. من المخزي أننا لا نقدّر هذا الإرث.

- لا... بل نقدّره. لدينا منزل في أرنافوتكوي ورثناه عن جدي بالقرب من الضفة... منزل خشبي من طابقين مع حديقة. أقسم إن كثيراً من مقاولي البناء يطرقون بابنا ويقولون: "أعطنا إياه ودعنا نبني مبنى شقق نعطِك ثلاث من

الشقق" لكنني أطردهم. هناك شجرتا مشمش في الحديقة زرعتهما بيدي... كيف يمكنني أن أسمح لهم بقطعهما؟ إنها كائنات حية أيضاً. لديّ حفيدان ما كانا ليعرفا ما هو العشب أو الأشجار أو العصافير لولا هذه الحديقة. أين ستذهب تلك العصافير لو لم يكن هناك أشجار؟ أي مدينة هذه؟ لا يا سيدي... لن أعطيهم إياه... سأقود سيارتي كل ليلة حتى منتصف الليل لكنني لن أنتهك أمنية والدي الأخيرة. ماذا سيفعل الأطفال بعد أن أرحل... هذا ما لا يمكنني معرفته.

نظرت بحبٍّ إلى الإسطنبولي العجوز.

قلت لمواساته:

- لا تقلق فأبناؤك لن يتخلّوا عنه أيضاً.

انتشر الحزن في عينيه وهو ينظر إليّ في المرآة.

- لا يا سيدي... سيبيعون منزلي قبل مرور ثلاثة أيام على موتي... حتى إنهم لن يترددوا. أتظن أنني لا أعرف أولادي؟ إنهم لن ينتظروا أسبوعاً واحداً... كانوا ليبيعونه الآن لو استطاعوا لكنهم لا يستطيعون إقناع أبيهم العجوز...

- أنت تبالغ. لا يمكن أن يكون أبناؤك بهذا السوء.

تنهّد بعمقٍ وارتعش ظهره المحدودب قليلاً.

- سيفعلونها يا سيدي... تذكّرْ كلامي. الإنسانية شيء مضى، وهذه المدينة قد انتهت...

كان محقاً، فبعكس تفاؤلي الفارغ واللطيف وغير اللازم يمكنني رؤية الحقيقة المرة لهذا الرجل العجوز الذي يقود سيارة أجرة في منتصف الليل وفي الرياح والثلج ليكسب لقمة عيشه... لقد انتهت إسطنبول بحق... لا بسبب حثالة المجتمع كساسيت وبلاك نظام. كنا كلنا متواطئين في سلبيتنا تجاه الجهل والوحشية اللذين قضيا على هذه المدينة، لكننا كلنا بقينا نتغذّى على الفتات كطيور العقاب التي تتغذى على جيفة ضخمة لفيلٍ مقتول...

اللطف شيء وما يشعر به الناس شيء آخر



خلال الوقت الذي نزلتُ به من سيارة الأجرة وتوجهتُ إلى النافذة الناتئة المعلقة، تحولتُ رجلاً ثلجيًا. فقد تساقط الثلج فجأة بغزارة، ولو لم يكن للسيارة سلاسل لقلقت على السائق العجوز، إذ تحول الإسفلت على الفور إلى اللون الأبيض. تحقّقت بعصبية من المساحة أمام الباب ولم أجد باهتيار على البساط لكنه بالطبع لن يكون هناك. بصراحة كانت هذه للمرة الأولى أشعر فيها بالامتنان للكاتب، ففي الشتاء الماضي غادرت إسطنبول للتحقيق بجريمة قتل وحين عدت كان باهتيار يتبوّل دماً إذ لم يدخله أحد من سكان الحي إلى بيتهَ. لكن هذا الرجل لديه ضمير... أو قد يكون يتظاهر بالاهتمام بباهتيار لأنه يريد بناء علاقة معي. أكان هو من رأيته في مسرح الجريمة الليلة؟ لا... لا بدّ أنها مجرّد هلوسات... إنه شيء سيئ لرجل الشرطة ألاّ يتمكّن من التغلّب على جنون الارتياب... أظن أنني أصبحت مهووساً بالرجل فلا علي ولا زينب انزعجا بقدر ما انزعجت... بل لم ينزعجا إطلاقاً... في الواقع لقد أحباه... كان من الممكن أن أحبه أيضاً لولا تظاهره بأنه يعرف كل شيء. أعترف أن تعابيره تظهر الحب والحنان... وقالت زينب أننا نشبه شخصيات كتبه... ربما يكون استوحاهم منا... عليّ أن أقرأ إحدى تلك الروايات لأعرف أي نوع من الكتّاب هو.

نفضت الثلج عن قبعتي ومعطفي وفتحت الباب بيدي المبلّلتين والمرتعشتين ثم دخلت لألاحظ نوراً في أعلى السلّم... غريب... ألم أطفئه حين غادرت هذا الصباح؟ وبينما كنت أخلع قبعتي ومعطفي شممت الرائحة... أكنت مخطئاً؟ لا...

تفوح من المنزل رائحة الخزامى أو...؟ هل جاءت إفجينيا؟ في البداية أحسست بالانزعاج كأنه تم انتهاك خصوصيتي. ظننت أنني تجاوزت ذلك الشعور، فقد تكلمنا أنا وإفجينيا مطوّلاً حول هذا الموضوع، وبعد ذلك أعطيتها مفاتيح المنزل دون أن أترك لها وقتاً للتفكير وإنما قلت:

- أرجوك خذيها... إنها الطريقة الوحيدة التي سأتخلّص فيها من هذا الأمر.

ومن حينها جاءت إفجينيا إلى هنا مرات عدة لكن هذه هي المرة الأولى التي جاءت فيها على هذا النحو... أن تدخل دون أن تعلمني وأنا خارج المنزل. لكن ماذا لو فعلت؟ إفجينيا كل شيء بالنسبة لي وهذا المنزل لها كما هو لي. إذن لماذا يعتصر قلبي؟ لِمَ التردد؟ خطر لي فجأة أن إفجينيا قد تكون سمعتني أفتح الباب فاستجمعتُ نفسي.

أغلقتُ الباب بهدوء ومشيت بصمت نحو السلّم وصعدته محاولاً ألاّ أصدر أيّ صوت، ومع ذلك حين وصلت إلى الطابق الثاني كانت أنفاسي متقطّعة لكنني لم أكترث. نظرت إلى غرفة النوم فوجدت الباب موارباً والظلام مخيّماً في الداخل... ربما لا تكون إفجينيا هنا... تلاشى انزعاجي وإثارتي... لماذا تأتي إفجينيا؟ وإن كانت ستمر فإنها ستعلمني بالتأكيد. على الرغم من أنها حاولت ألاّ تظهر ذلك لكنها كانت تتوخّى الحذر حين تأتي إلى المنزل، وبالطبع كنت أنا السبب... انزعاجي حين تأتي إلى هنا. قد لا تقول ذلك لكنها كانت تشعر بالتوتّر، وكلما أرادت المجيء كانت تتصل بي ولا تصل إطلاقاً أبكر من الوقت الذي اتّفقنا عليه... بل كانت تتأخّر لتضمن أن أكون في المنزل. لقد وقعت ضحية وهمٍ آخر كما حين ظننت أنني رأيت الكاتب في تارلاباسي. فقد تركت هذا الضوء لينير الطابق الثاني، أما رائحة الخزامى المنبعثة في أرجاء المنزل فهي مجرّد ذكرى من آخر زيارة لإفجينيا... ربما لا يكون هناك أي رائحة على الإطلاق وإنما كان ذلك تأثير الإرهاق والوحدة على ذهني.

هنا شعرت بمرارة في قلبي كطفل وحيد في منزل أبيه... ابتسمت لصورة الطفل الوحيد... لو سمعت غوزيد بهذا لقالت: "ماذا بعد؟ لِمَ لا تنكمش وتصعد إلى جيبي". أما إفجينيا فكانت لتبتسم بتعاطف وتقول: «نعم... أنت طفل صغير». وربما تطبع قبلة مبالغاً فيها على وجنتي. في تلك اللحظة أحسست بمدى اشتياقي

لكليهما. أحد الشعراء كان قد قال: "لا يمكن لقلب واحد أن يشتاق لشخصين... سيكون ذلك كذبة". لا أريد تخييب ظن ذلك الشاعر لكنني في الحقيقة أشتاق للاثنتين في الوقت نفسه. كم يؤلم اليأس قلب الإنسان! جررت جسدي المرهق الذي يصارع لحمل رأسي المصاب بالدوار نحو غرفتي. حين فتحت الباب دخل نور الممر وبدا لي كأن هناك حركةً في السرير لم أستطع تبيّنها.

قال صوت امرأة:

– نيفزات... هل هذا أنت يا نيفزات؟

بدا لي كصوت غوزيد... صوت مليء بالأمل... صوت امرأة جفاها النوم. كانت هذه الكلمات التي تقولها لي زوجتي حين أدخل الغرفة في منتصف الليل بعد واجباتي التي لا تنتهي.

– نيفزات... أهذا أنت؟

لم أجفل أو أخف لكنني ارتبكت، فحتى لو كان وهماً، كان من الرائع سماع صوتها. أجبتها كما أجيب دائماً.

– نعم... هذا أنا. أنا آسف فقد استغرق العمل كثيراً من الوقت مجدّداً...

قالت وهي تنهض:

– ينبغي أن أعتذر منك... لقد جئت دون أن أخبرك هذه المرة.

سقط الضوء المنعكس من الممر على وجهها. لم تكن غوزيد التي تتكلّم وإنما إفجينيا. أيمكن للمرء أن يشعر بالحزن والفرح في آن؟ يبدو أنه يمكن لأن شيئاً ما انعقد في حلقي ولم أعرف ما أقول. توجهت إليها بهدوء وجلست على طرف السرير وضممتها بقوة.

تذمّرت بصوت مبتهج:

– أوووه! أنت تؤلمني يا نيفزات! دعني أتنفّس.

شممتها وخففت من قبضتي وحين تراجعت نظرت بإمعان إلى وجهي.

– هل أنتَ على ما يرام؟

بدلاً من أن أجيبها انحنيت وقبّلتها. كانت رائحة اليانسون تفوح من أنفاسها إذ كانت قادمة من المطعم، لكنني لم أفهم طعم الفراولة على شفتيها. لم تقبّلني

وإنما دفعتني للخلف برفق وهي تضحك.

- أنا جادة. هل أنت بخير؟

وحين تراجعتُ للخلف تحركتْ بسرعة وسحبتْ يدي مجدّداً كأنها ندمت على ذلك.

قلت وأنا أتفحّص وجهها الذي حافظ على جماله حتى في ظلام الليل:

- أنا بخير. إنني سعيد للغاية بقدومكِ.

بدأت أشعر بالتوازن كما لو أن الدوار اختفى واستعاد جسدي توازنه.

- شكراً. بصراحة لم أكن واثقة. في الواقع حين دخلت من الباب خطرت ببالي فكرة وتساءلت ما الذي أفعله هنا...

فهمت بالضبط ما تشعر به لكنني تظاهرت بعدم الفهم.

- لماذا يا حبيبتي؟ ما الذي جعلك تفكرين هكذا؟

ربّتت يدي بشغف.

- لا أدري. في الواقع لم أكن أريد القدوم فقد ذهبت إلى أسمالي ميسيت مع فوفو والآخرين... إلى مطعم كروس آيد فاسيلي. لينا زوجة فاسيلي صديقة قديمة لفوفو من أيام تارلاباسي... كانتا جارتين في شارع كاليونكوكولوغو... وحين سافرت فوفو وعائلتها إلى اليونان بقي الآخرون هنا.

كم هو شيء غريب أن تتكلم عن الشارع الذي كنت فيه طوال النهار والليل.

- أما تزال لينا هانم تقيم في كاليونكوكولوغو؟

نظرت إليّ باستغراب.

- بالطبع لا... كيف يمكنها ذلك؟ أنت تعرف كيف أصبحت تلك المنطقة الآن. لقد انتقلوا منذ زمن. تارلاباسي الجميلة مكان مختلف بالكامل الآن... إنهم يقطنون في تومتوم الآن فوق توفين بالقرب من مطعمهم، ولهذا عادت فوفو معهم إلى منزلهم. في كل الأحوال... هذا ما كنت أقوله... كانت أمسية رائعة لكنها حين ثملت بدأت تتذكّر الماضي... تذكّرت أمها وأباها وأصدقاءها الذين ماتوا... تلك الذكريات التي لم تستطع أن تنساها... المنفى صعب يا نيفزات... أن يتم اقتلاعك من الحي الذي ولدت فيه والمدينة والأرض...

لقد أصبحت فوفو عاطفية وعانقت لينا وقتاً طويلاً وبكت. لم أرَها حزينةً بهذا الشكل من قبل... لقد اختفت تلك المرأة السعيدة والمبتهجة لتحل محلها جدة تندب خسارة أبنائها، وقد تأثرت لينا أيضاً ولم تقبل أن تدعها تذهب. تخيّل يا نيفزات... كانت الاثنتان صديقتين منذ الطفولة وعانتا من الآلام نفسها ومرّتا بالشدائد نفسها... كما كانت أنجيليكي أيضاً قلقة على أمها، وحين قالت أنها ستذهب معها بقيت وحدي... وأعترف لك أنني شعرت بوحدة خانقة وبدت لي فكرة العودة إلى البيت صعبة، ففكرت أنه ربما بإمكاننا إنقاذ الأمسية ورغبت بمفاجأتك فذهبت إلى فيراي، لكنك كنت قد رحلت فشعرت بانزعاج أكبر ومشيت في شارع الاستقلال عائدة إلى المنزل. لكنني حين رأيت كل أولئك الناس المبتهجين في الشارع المغطّى بالثلج يلعبون كالأطفال، وقد رموا أقنعتهم الثقيلة والمملّة وبدأوا يلعبون بكرات الثلج، سيطرِ عليّ ابتهاج غير متوقع وعادت إليّ الحماسة فأتيت إلى منزلك بهدف العثور عليك.

سألتها وكأنني كنت سأتمكّن من رؤيتها:

- لماذا لم تتّصلي؟ لقد كنتُ أيضاً في بيه أوغلو.

سحبت يدي اليمنى ورفعتها برفق إلى شفتيها.

- في تلك الحالة لن تكون مفاجأة، ويجب أن أعترف أنني كنت خائفة قليلاً... لا من عدم وجودك في المنزل وإنما من رد فعلك.

سحبت يدي وكأنني شعرت بالإهانة.

- لا تكوني سخيفة يا إفجينيا. متى قمت برد فعل سيئ على رؤيتك؟

نظرت في عينيّ خوفاً من أن تكون جرحتني.

- إطلاقاً... أنت لا تقوم بأيّ رد فعل سيئ على أحد يا نيفزات، لكن لدى الناس مشاعر لا يمكنهم التعبير عنها بالكلام وأفكار لا يمكنهم منعها... اللطف شيء وما يشعر به الناس شيء آخر. في كل الأحوال أتيت إلى هنا وطرقت الباب ليخيب أملي للمرة الثانية إذ لم تكن هنا. وحين كنت على وشك العودة من حيث أتيت توقّفت سيارة أجرة ونزل منها ذلك الكاتب، جارك... لقد كان في فيراي أيضاً وقد رآني حين مررت، وكان يعرف أيضاً مكانك وأن هناك جريمة

قتل في تارلاباسي وأنك ذهبت إلى هناك.

كيف أمكنه معرفة ذلك؟ أكان هو من رأيت في الظلام هناك؟ وإذا كان في مسرح الجريمة فكيف عرف أن إفجينيا قد أتت إلى فيراي؟ ربما يكون أصدقاؤه قد أخبروه... الشاعر ذو اللحية أو إردينك... نعم... لقد كان هو ومالك فيراي صديقين. ما الذي يحاول الرجل فعله؟ ما سبب اهتمامه البالغ بي؟

أكملت إفجينيا وكأنها قرأت أفكاري:

- نواياه طيبة فقد قال: «زوجتي ترغب بلقائك أيضاً». أظن أنك تكلمت عني؟ لقد كان ودوداً كما لو كنت أنا وإياه جارين قديمين.

لم أعد أحتمل أكثر.

- لا يا إفجينيا. لماذا أتكلم عنك لرجل لا تعرفينه؟ الرجل كاتب وهو يكتب الروايات البوليسية، ولذلك فإنه يحاول إقامة علاقة للحصول على المعلومات مني. مع كل ما أتمتع به لا أستطيع التعامل معه الآن.

قالت عيناها إنهما تخالفاني الرأي.

- أنت محق بالطبع. على الرغم من أنني كوّنتُ انطباعاً جيداً عنه، فقد بدا صادقاً حين دعاني إلى منزله كما كان ودوداً للغاية...

اندفع الدم إلى رأسي.

- ماذا تقصدين؟

ضربتني ضربة خفيفة على يدي.

- كفاك. أقول لك إنه كان يعاملني كعائلته. لكن الأمر الغريب هو أنني أيضاً شعرت بإلفةٍ مع الرجل.

لاحظت أنني متجهّم فزقزقت:

- أتشعر بالغيرة؟ هيا يا نيفزات... الأمر ليس كذلك فهو يعاملك كقريبه... كما يفعل الأخ الكبير.

بدا كأن له التأثير نفسه في الجميع... هل السبب أنه كان يعرف كيف يتعاطف؟ كان أبي يقول إن الكتّاب يتمتّعون بمهارات قوة الملاحظة لدرجة أنهم يفهمون الناس بسهولة، ويمكنهم حتى أن يعرفوا طبيعتهم. لكنه كان يتكلّم عن الكتّاب

العظماء لا عن روائي بوليسي كهذا.

- هل قرأت له شيئاً من رواياته؟

أتعرف إفجينيا ما يدور في رأسي؟

أجبتها ببساطة:

- لا، لم أقرأ. ولا أنوي أن أقرأ له. ماذا يمكن أن يكون قد كتب؟ إنه يتمخّض عن بعض الكلمات حول جرائم قتل زخرفها.

- ربما لا يكون الأمر كذلك. لو كنت مكانكَ لقرأت له.

وظهرت ابتسامة ساخرة على شفتيها وهي تقول:

- في الواقع أظن أنني سأقرأ له. هناك كتاب بعنوان «الحب للكلاب...». لكنني لا أحب العنوان... ما رأيك؟ هل الحب للكلاب حقاً؟

كنت متعباً من كل ذلك الكلام حول هذا الكاتب، لذا انحنيت برفق على حبيبتي وقلت وأنا أقترب:

- انسي أمر الكاتب... كيفما كان الحب أمر رائع...

لم تدفعني هذه المرة بل على العكس استكانت لي كقطة مدلّلة، وقد فاحت من نَفَسها الدافئ رائحة اليانسون ومن شفتيها الرطبتين رائحة الفراولة.

بعض الناس أشرار للغاية لدرجة أن طيبتك تختفي أمام وحشيتهم



حين خرجت من الحمام شممت رائحة الشاي المغربية. كانت هناك مائدة رائعة أمامي، في حين كانت تصدح أغنية شعبية جميلة من المذياع، وإفجينيا ترقص وهي تحمل الأطباق بيديها. قد تقولون إن هذا الكلام من الطراز القديم لكن المنزل من دون امرأة لا يمكن أن يكون عشاً. حين كانت تضع طبقاً من الزيتون على الطاولة أدركت أنني أشاهدها.

- حمام الهنا يا نيفزات.
- شكراً.

ونظرت إلى أطباق الجبن والمربى والبيض المقلي وقلت:

- لقد أعددت الإفطار... كان ذلك سريعاً للغاية.

تمتمت:

- نعم... أنا أقدم الطعام لمئات الناس كل ليلة... أوه لا... سيحترق التوست.

حين ركضت إلى المطبخ جلست على المائدة في مكاني المعتاد على المقعد المواجه للنافذة، فلم يكن يجلس هناك أحد حتى حين كانت زوجتي وطفلتي على قيد الحياة، كما لو أن هناك نوعاً من الاتفاق غير المحكي... كان هذا مكاني في كل إفطار وكل عشاء، وكانت غوزيد تجلس قبالتي وأيسون بجانبي. كنت دائماً أدهن خبزها بالزبدة على الإفطار، فعلى الأب أن يظهر حبه لابنته كلما سنحت له

الفرصة. كانت غوزيد ماهرة كإفجينيا... قدم عند المائدة وقدم في المطبخ حيث كانت تركض جيئة وذهاباً خلال الوجبة لتعم السعادة مائدتنا كما في هذا الصباح... ليس دائماً ولكن هذا ما أذكره.

- من هو أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو؟

فاجأني سؤال إفجينيا. اقتربت حبيبتي من الطاولة ممسكة بإبريق شاي أزرق بيد وسلّةٍ بيد أخرى، وقد امتلأت عيناها بالأسئلة.

- من أين أتى هذا؟
- رن الهاتف بينما كنتَ في الحمام وحين أجبت قال لي رجل: "صباح الخير يا أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو!» وحين قلت: «ألو» ارتبك وقال إنه قد يكون أخطأ الرقم وأغلق الخط بسرعة.

لا بدّ أنه كمال. قد يكون أدرك أن محادثتنا غير السارة الليلة الماضية قد أزعجتني فاتصل لإصلاح الوضع.

- أكان الاتصال لك؟ لقد تفاجأ المسكين حين سمع صوتي بالطبع.

لم أرغب بفتح الموضوع في هذا الوقت من الصباح، لكن الهاتف الأرضي بدأ يرن مجدّداً. كنت واثقاً أنه كمال حوّلت حبيبتي نظرتها الفضولية مني إلى الهاتف.

- ألن ترد؟

لم يعد هناك أي مهرب.

مددت يدي إلى الطاولة الجانبية الصغيرة ورفعت السماعة.

- ألو؟

بدأ كمال الكلام كما لو أننا لم نتجادل إطلاقاً في الليلة السابقة.

- أهلاً يا نيفزات. لقد وجدتك. لقد اتصلت برقمك قبل قليل فردّت عليّ امرأة...

وظل صامتاً كأنه ينتظر تفسيراً مني. وحين لم أقدم له أي تفسير استمر بالكلام:

- لقد اتصل بي دايس للتوّ فقد سمع شيئاً مثيراً للاهتمام حول جريمة قتل إنجين...

تدفقت الكلمات من فمي بعفوية:

- أنت تضيِّع وقتي مجدّداً يا كمال.
- كفاك يا نيفزات. متى ضيّعتُ وقتك؟ حسناً... كما تريد... إذن سأراك فيما بعد.
- انتظر... لا تغلق الخط. ماذا قال إحسان؟

لم يجب مباشرة.

- أظن أن من الأفضل أن تتكلم أنت معه فرقمه معك.

لم أصر.

- حسناً يا كمال... شكراً.
- أراك لاحقاً...

ثم أغلق الخط دون أن يقول كلمة أخرى. أظن أنني أزعجته حقاً هذه المرة...

سألتْ إفجينيا بينما كنت لا أزال ممسكاً بالسماعة:

- أظن أنه شخص لا تحبه؟
- لا... إنه رجل طيّب في الواقع، أو على الأقل هذا ما أظنه. إنه الشخص نفسه الذي اتصل قبل قليل.

وحين أدركت أنني لن أتمكّن من الهرب من نظرات إفجينيا الفضولية قلت:

- رجل عجوز قوي... لكنه ليس من النوع المزعج والقذر فقد ترك كل ذلك.

ظلت تنظر إليّ بفضول:

- لماذا ناداك "أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو»؟

قلت وأنا أتناول إبريق الشاي:

- لا شيء مهم لكنني لا أستطيع تقبُّل هذا اللقب.

سكبت الشراب الأحمر الداكن من الإبريق في كوب إفجينيا ثم سكبت عليه الماء الساخن، ولأتخلص من الموضوع بدأت أمدحها.

- يبدو الشاي ممتازاً.
- شكراً. لماذا لا تتقبّله؟

أضافت مكعّب سكر وبدأت تحرك الشاي ثم حدّقت إليّ مجدّداً، فملأت كوبي ثم أعدت الإبريق إلى مكانه.

- لا تهتمي يا إفجينيا. هيا... سيبرد الشاي.

قطعت قطعة من التوست ووضعتها في فمي كما لو كنت أتضوّر جوعاً. وبينما كنت أمد شوكتي إلى طبق الجبن أصرّت حبيبتي:

- لقد أثرتَ فضولي بالفعل. من الذي أطلق عليك هذا الاسم؟
- ما رأيك أن نتكلم عن شيء آخر يا إفجينيا؟

ثم وضعت قطعة الجبن الصغيرة في فمي لكنها تصرفت كأنها لم تسمعني.

- لماذا؟ أنت تتواضع مجدّداً... أليس كذلك؟ أظن أن ذلك يصفك تماماً، كما أنه اسم راقٍ... أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو... كعنوان فيلم...

بدأت اللقمة تذوب في فمي لكنني لم أبلعها، وهيمن صمتي مباشرة على الطاولة فلاحظته إفجينيا أيضاً، وتوقفت فجأة عن الكلام وأشاحت بنظرها، ثم غمست شوكتها في طبق الزيتون. تعكّر جو الإفطار وحتى الأغنية التي تصدح من المذياع لم تعد تبدو بهيجة، فنهضت وأطفأته ثم تمتمت وأنا أجلس:

- إنها ليست قصة لطيفة... ليست لطيفة على الإطلاق.

نظرت إليّ بحنان بعينيها الصافيتين وقالت بنبرة اعتذار:

- لا تخبرني إن كنت لا تريد يا نيفزات... لقد كنت أثرثر فحسب...

بذلت قصارى جهدي لأبادلها النظرة الحنونة نفسها.

- لا... أريد ذلك. لم أخبر أحداً بها حتى الآن.

نظرت إليّ كما لو أنها تحاول أن تفهم.

- لا... لا تظني أني غاضب، لكنه حدث لم أخبر به أحداً... لحظة أردت نسيانها... لكن ذلك لم يفلح، فالماضي يسيطر على الإنسان شيئاً فشيئاً ويجثم عليك الزمن دون أن يسألك إن كنت مستعداً أم لا. نعم... خلال اليومين الماضيين كنت أسمع هذه الكلمات دائماً... أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو، وذلك لأنني عدت إلى مسرح الجريمة وكأن قاتلاً أحمق يتوق لرؤية ضحيته مرة أخيرة.

كان حلقي جافاً فرشفت رشفة أخرى من الشاي.

- لقد كانوا يحبونني... أعني الناس في شارع الاستقلال. لقد كنت صديقاً لمعظم الباعة وكانوا يدعونني "أخي" وكأنني كنت أخاهم الكبير لا الضابط نيفزات

بيك... نعم... أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو. كانت السيدة أناهيد هي التي أطلقت عليّ اللقب وقد شعرت حينها بالفخر بالطبع... ومن لا يشعر بذلك؟ كان هناك بائع في سوق السمك اسمه سيد أسطه... وكنا ندعوه لانغا سيد أسطه لأن جده كان لديه حديقة خُضَر في لانغا... فقط لانغا سيد كان يدعوني نيفزات بيك. إذا احتسينا كأسي شراب في كامهورييت ميهان عند الزاوية كان يستبدل بـ «نيفزات بيك» عبارة «يا صديقي». كان يضع مقعداً مقابل متجره ويجلس بعد أن يعرض بضاعته في الخارج ببراعة تجعل أي فنان موهوب غيوراً... صيفاً أو شتاءً... أي نوع أو لون من الخُضَر والفواكه التي تتخيّلها يمكن أن تجده هناك. لذلك كان متجره مقصوداً من الأزواج الذين ترغب زوجاتهم الحوامل بنوع ما، وبالطبع كان يفتح لما بعد منتصف الليل. كان المشرف على المحل يُدعى قاسم، وهو رجل قصير في الخمسينات، عيناه العسليتان مليئتان دائماً بالدفء ووجهه دائم الابتسام للجميع. كان قد جاء من شرق تركيا، وكانت لكنته رائعة كما كان مهذّباً للغاية ويصر دائماً على تقديم الشاي أو القهوة لي كلما مررت من أمام المتجر. ولم يكن مهذباً ومحترماً معي فحسب، فجميع من في سوق السمك يحبونه. كانت قد مضت ثلاثون سنة منذ أن أتى إلى إسطنبول، وكان قد اشترى منزلاً رخيصاً في تارلاباسي ليقيم فيه مع طفليه. لكنه كان يحب بلدته الأصلية ويذهب إلى هناك مرة في السنة على الأقل لحضور زفاف أو جنازة أو ختان.

وحين قارب سيد أسطه الثمانينات تقاعد وترك المحل لقاسم. وذات صباحٍ وجدت قاسم ينتظرني على باب مركز الشرطة وأمسك بيدي وقال:

- أنا تحت رحمتك يا حضرة الضابط. كادر اختفت... لم تعد إلى المنزل الليلة الماضية، ولم تأتِ إلى عملها في الصيدلية هذا الصباح أيضاً.

كنت أعرف كادر فقد رأيتها أثناء ختان أخيها الصغير بكر... كانت فتاةً سمراء نحيلة بعينين ضاحكتين كعيني أبيها، كما زارتني مرة في المركز للإبلاغ عن حادثة سرقة وشربنا الشاي سوية. كانت جذابة والمحادثة ممتعة لذا فقد انزعجتُ حين سمعت باختفائها. أخذت قاسم إلى مكتبي واطّلعت بسرعة على جميع حوادث

الليلة الماضية، ثم طلبت من أحدهم التحقّق من المستشفيات لكننا لم نعثر على ابنة قاسم. كانت حينها تبلغ العشرين من عمرها لذا سألته إن كان لديها حبيب فاحمرّ وجه قاسم وقال:

- بالطبع لا يا نيفزات بيك! ماذا تقصد؟ نحن لسنا من ذلك النوع من الناس.

طلبت منه ألاّ يقلق لأنني سأجدها، وبعد تهدئته وإرساله إلى منزله توجّهت إلى الصيدلية حيث كانت كادر تعمل... كانت متجراً صغيراً في شارع بويوك بارماكابي. سألتني الصيدلانية من أنا ولماذا أبحثِ عن الفتاة فعرّفتها بنفسي وشرحت لها الوضع فقالت:

- لم تأتِ كادر هذا الصباح ولا نعرف مكانها.

كانت تكذب. فهي لا تثق بي على الرغم من كوني شرطياً فبدأت أقول لها:

- اسمعي... عائلتها قلقة للغاية وأمها تعاني من ارتفاع ضغط الدم...

هنا سألتني:

- هل أخبروك بأمر عثمان؟

لم تتلقَّ مني أيّ ردٍّ فشرحت:

- عثمان هو حبيب كادر... لقد كان عثمان وكادر يتوسّلان قاسم ليسمح لهما بالزواج في آخر السنة لكنه لم يقبل. أتُرى؟ ماذا كنت لتفعل لو كنت مكانهما؟

أحسست بالراحة. فعلى الأقل علمت أنه لم يحدث أي مكروه للفتاة ووعدت الصيدلانية بألاّ أخبر والدها أنني وجدتها لكنني أريد أن أكلمها بنفسي أولاً، ويكفيني أن تعطيني رقم هاتف المكان الذي تقيم فيه. كما أكّدت لها أن قاسم يحترمني كثيراً وأن بإمكاني أن أصلح بين الولدين والعائلة وإلا فإن المشكلة لن تحل. فكّرتْ بالأمر مطوّلاً ثم أعطتني رقم عثمان فاتصلت به، وحين أخبرته مَن أنا خاف. لكنني أخبرته ألا نيّة لدي بالتصرّف كشرطي وأنني لا أريد سوى المساعدة. تناولت كادر الهاتف وطلبت مني باكية ألاّ أخبر أحداً أنني وجدتهما وقالت باهتياج:

- لن يسمح لنا أبي بالزواج وسيرتكب شيئاً فظيعاً. سنهرب من إسطنبول وسأخبرك حين نصل إلى وجهتنا.

ظننت أنها تبالغ وأنها خائفة لأنها تهرب، لكن الهرب لم يكن الحل وإنما

سيعقد الأمور وسيجلب العار على قاسم وزوجته... ولن يتمكّنا من العيش دون أن يعرفا ما حصل لابنتهما فقلت لكادر:

- لا تخبريني أين أنتِ. لكن أرجوكِ لا تغادري إسطنبول قبل أن تسمعي مني مجدّداً. سأتكلم مع والدك وأتّصل بكِ مرة ثانية.

لم يرقْ لها الأمر لكنها وافقت. وهكذا انطلقت إلى سوق السمك فوراً وجلست على مقعد صغير وقلت لقاسم:

- اطلبْ لي القهوة إن كنت ترغب، فلديّ بعض الأخبار الجيدة.

أشرق وجه قاسم وطلب القهوة ثم شرحت له الوضع وقلت:

- إنهما خائفان من أن تقف في وجه زواجهما. عليك أن تعدني أنك ستسمح لكادر بالزواج من عثمان.

تذمّر وهو ينظر إليّ بطريقة مضحكة:

- كادر هربت مع ذلك الشاب؟

بصراحة، كان يجب عليّ ملاحظة الغضب الذي كان يشعر به في تلك اللحظة، لكن الغطرسة أعمتني فقد كنت أظن أنني أسدي لهما خدمة. قلت:

- ذلك الشاب سيصبح صهرك. هيّا يا قاسم... أنت رجل محترم. أريدك أن تعدني أنك لن ترفع يدك عليهما.

لم ينطق بكلمةٍ وإنما حدّق إلى أرض المتجر برهة لكنني لم أفهم، وبعد قليل تناول يدي فجأة ليقبّلها وهو يقول:

- بارك الله بك يا حضرة الضابط نيفزات. إنهم لا يدعونك أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو عبثاً.

كان من المفترض أن أفهم من نبرة صوته أنه ليس صادقاً. لكن كما تعلمين، حين تؤدين دور الأخ الكبير للجميع... هناك ذاك الشعور الذي لا مثيل له بالفوقية الذي تمنحك إياه مساعدة الناس... الميزة المقيتة لكونك شخصاً صالحاً. لكن سواء أكان ذلك بسبب حدسي المهني أو بسبب ما قالته كادر فإنني لم أدعه وشأنه قبل أن يقسم لي أنه لن يمس شعرة من رأسيهما.

سقطت شوكة إفجينيا من يدها وهي تنصت لي، وقد تلاشى التوهّج من

عينيها وسيطر اليأس على وجهها، وكأنها تشعر بكارثة مقبلة. لكنها تعلم أنه لا يمكنها منعها.

- نعم... لقد ارتحت... لم أرتح فحسب وإنما أحسست بشعور رائع. فقد قمت بعمل صالح آخر كأفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو... لقد ساعدت الناس مجدّداً وعزّزت ثقتي بنفسي، وبكل حماس اتصلت بكادر وأخبرتها بالحديث الذي جرى بيني وبين والدها لكنها لم تصدق فأصررت:
- أنا أضمنه. كما أنني سأعقد عقد الزواج بنفسي في مكتب بيه أوغلو.

ومن يرفض عرضاً كهذا من شخص كالضابط نيفزات؟ وهكذا استسلم الشابان...

شعرت باختناقٍ في حلقي... إن تكلّمت أكثر فلن أتمكّن من التوقف، لذا فقد لجأت إلى كوب الشاي فتلاشى الاختناق. لم أكن بحاجةٍ لأن أشرح أكثر فإفجينيا فهمت، لكنني شعرت أنني إن صمتّ الآن فسأكون ظالماً للفتاة الصغيرة التي دمرت لها حياتها قبل سنوات.

أكملت:

- لقد سلّمت كادر إلى أبيها بنفسي فانحنت وقبّلت يده احتراماً، لكنه لم يقم بأي رد فعلٍ وإنما وقف هناك واجماً كجلمود صخر على شكل إنسان. هنا راودني شعور سيئ، وتساءلت إن كان الرجل سيؤذيها فانتحيت به جانباً وقلت:
- اسمع... لقد أعطيتني كلمتك أنك لن تفعل شيئاً لكادر.

فابتسم، لكنني لم أفهم اليأس المختبئ وراء ابتسامته المتصنّعة إلا بعد فوات الأوان.

قال:

- عيب عليك يا نيفزات بيك... لقد وعدتك. لا يمكنني رفع يدي على كادر فهي ابنتي في كل الأحوال... استرخ.

وقد استرخيت وعدت إلى البيت بسلام، وأمضيت أمسية ممتعة لتصلني الأخبار حوالى منتصف الليل... أخبرني شرطي عبر الهاتف أنه تم طعن فتاة حتى الموت في تارلاباسي. لقد أيقظوني من النوم ولم يخطر ببالي أنها قد تكون كادر،

فارتديت ملابسي وتوجّهت إلى تارلاباسي، وحين اقتربت من الشارع حيث وقع الحادث فهمت... كان ذلك حيث يقع منزل قاسم. شعرت كأن أحداً قد صبَّ ماءً حاراً على رأسي، لكن الأوان قد فات. حاولت أن أحافظ على تفاؤلي وأملي حتى رأيت جسد كادر النحيل المليء بجروح الطعن وهي ملقاة في منتصف الشارع. لقد هاجمها والدها وهي نائمة في سريرها فرمت نفسها إلى الشارع وهي تدافع عن حياتها، لكن والدها لحقها وطعنها... طعن ابنته الوحيدة... هناك أمام الحي بأكمله. وجدت قاسم جالساً على عتبة بابه وقد طوى يديه الملطختين بالدم على حضنه. حين رآني وقف باحترامٍ مجدّداً وقال وهو يحني رأسه:

- أنا آسف يا نيفزات بيك فقد خذلتك ولم أفِ بوعدي. الله غفور وآمل أن تغفر لي أنت أيضاً.

لكنني لم أغفر لنفسي من حينها... قد يكون والد كادر هو من قتلها، لكنني أنا من سلّمها لقاتلها. عندها طلبت نقلي من بيه أوغلو إذ لم أعد أحتمل البقاء في الحي، أو سماع لقب أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو بعد الآن.

سالت الدموع من عيني إفجينيا مبلّلةً وجنتيها فناولتها منديلي.

- لقد أخبرتك أنها ليست قصةً لطيفة.

تناولت المنديل دون أن تنظر إلى وجهي وقالت وهي تجفّف عينيها وتتنهّد:

- لم أتوقّع أن تكون مؤلمة لهذه الدرجة. أنا آسفة لأنني أجبرتك على الإفصاح عن شيء أردت نسيانه.

حاولت أن أبتسم لكنني أخفقت، فمددت يدي ولمست يدها.

- لا تقسي على نفسك. بعض الناس أشرار للغاية لدرجة أن طيبتك تختفي أمام وحشيتهم.

لم تفهم إفجينيا ما قصدتُ، وفتحت عينيها الحمراوين متفاجئة.

- نعم... الليلة الماضية في الشارع نفسه حيث طُعِنت كادر حتى الموت، قُتِلت فتاة شابة أخرى.

أنا لا أخدع نفسي يا حضرة المحقّق... لقد كان يحبني أيضاً



كانا جالسين على المقعد البني خارج مكتبي، وتحت الضوء في نهاية الممر الواسع للمركز. كانا يبدوان مسترخيين ومتعبين كأنهما وصلا للتوّ من رحلة طويلة، وقد سطع النور على بشرة سادري ليظهر اللون الداكن الجميل الخاص بالغجر، في حين كانت الفتاة ذات الوشاح الأسود التي خمّنت أنها عزيزة ذات بشرة شاحبة. حين رآني سادري تناول معطفه الأسود القديم عن حضنه ووضعه على المقعد ثم وقف باحترام وزرّر السترة الداكنة اللون التي كان يرتديها في الليلة الماضية وانتظرني حتى اقتربت. أما الفتاة فلم تدرك حتى أن سادري قد وقف إذ كانت تثبت عينيها على بقعة ما على الجدار المقابل.

كنت على الطريق حين سمعت أنهما وصلا، وكنت اتصلت بعليٍّ من سيارة الأجرة وأنا أوصل إفجينيا إلى منزلها في كورتولوس.

- لقد وصلت المضيفة مع عازف المزمار يا حضرة الضابط. هل نتكلم معهما؟
- دعهما ينتظرا قليلاً... سأصل خلال دقائق.

لكن كانت هناك اصطدام بين شاحنة لنقل القمامة وحافلة للركاب في شارع عثمان بيك، مما اضطرنا للانتظار عشرين دقيقة، وحين وصلنا إلى المركز كانت مرت ساعة كاملة.

قلت وأنا أمدّ يدي لسادري:

- أنا آسف، لكن الازدحام المروري خانق.

أشرقت ابتسامة بسيطة على وجهه المسمر.

- لا تقلق يا حضرة الضابط... لم يمضِ وقت طويل على وصولنا.

وأخيراً سمعتنا الفتاة الشابة ولاحظت أنني وصلت، فنهضت بهدوء وتفحّصتني بعصبية. كان وجهها نحيلاً وعيناها سوداوين واسعتين تحت حاجبين كثين. لم تكن فتاة جميلة لكن نظرتها ووقفتها والطريقة التي أدارت فيها رأسها أثارت فيَّ شعوراً بالبراءة. أتعرفون ذلك النوع من الناس الذي يقول عنه الجميع إنه لا يؤذي ذبابة؟ كانت عزيزة من هذا النوع. لا بدّ أن الليلة الماضية كانت قاسيةً للغاية، فوجهها مرهق وهناك دوائر بنفسجية تحت عينيها إلا أنها بهذه الحالة كانت تستحق اسمها أكثر... عزيزة... كانت تشبه النساء المؤمنات اللاتي غسلن أيديهن من العالم. مددت يدي بابتسامة صادقة.

- مرحباً... لا بدّ أنك عزيزة.

صافحت يدي دون أيّ حيوية وكانت أصابعها باردةً كالثلج.

- نعم... نعم يا أخ... أنا عزيزة.

«أخ» هي العبارة التي تستخدمها النساء العاملات في مجال المتعة لمخاطبة رؤسائهن أو أصدقائهن من الموسيقيين أو بعض الرجال الأقوياء أو رجال الشرطة. بدت العبارة تختزل الاحترام كما تظهر أنهن يتوقعن المساعدة، فإن نادتك امرأة منهن بلقب «أخ» فهذا يعني «لا تفكر بإيذائي» أو «إنْ كنت تفكر بإيذائي، فأرجوك لا". وكأخٍ لها قدتها إلى مكتبي.

- من هنا.

كان الجو حاراً في الداخل فقلت لها وأنا أتوجّه إلى النافذة:

- اجلسي حيث تشائين. سأفتحها قليلاً. لن تبردي... أليس كذلك؟

أجاب سادري بسلوك شخصٍ جاء إلى هنا من قبل.

- لا... الهواء المنعش جيد. لقد رأيت بنفسك قبو بافيون أي أننا نموت اختناقاً كل ليلة. لقد كانوا في الماضي يدخّنون هناك أيضاً.

حين فتحت النافذة دخل ضجيج الشارع مع الهواء البارد فطارت الأوراق

الموضوعة على الطاولة فأبقيت عليها مشقوقة قليلاً.

وبينما كنت أتّجه إلى مقعدي رأيت عزيزة وعازف المزمار يجلسان أحدهما مقابل الآخر. كان سادري يبدو مرتاحاً لكن عزيزة جلست منكمشةً على حافّة المقعد.

سألتهما وأنا أخلع معطفي:

- ماذا تشربان؟ ويمكنني أن أطلب لكما شطيرة جبنٍ إن كنتما جائعين.

رد سادري:

- لا... شكراً يا حضرة الضابط... لقد أكلنا قبل قليل.

ثم نظر إلى عزيزة وقال:

- لكن عزيزة لم تأكل جيداً...

ظهرت تعابير الامتنان على وجه الفتاة الشابة.

- لا... شكراً يا أخ فأنا لست جائعة.

- إذن سأطلب الشاي.

أومأ سادري إلى الباب وقال:

- شكراً. لكن المحقّق علي أحضر لنا الشاي، وشربناه ونحن ننتظر.

قبل أن ينهي جملته سُمِع نقر على الباب ثم ظهر وجه مساعدي الوسيم.

- صباح الخير يا حضرة الضابط.

بدا الوغد متيقّظاً للغاية.

- صباح الخير. تفضّل يا علي... أين زينب؟

تعمل على حاسوبها لتجمع التقارير.

وأغلق الباب وراءه برفقٍ ورمق ضيفينا، ثم مشى ووقف وراء عازف المزمار.

قلت وأنا أتكئ للخلف في مقعدي:

- حسناً... نعم... اسمحي لي في البداية أن أعبّر لك عن أسفي يا عزيزة.

دمعت عيناها السوداوان مباشرة وتدفقت بعض الكلمات من شفتيها، لكن صوتها كان ضعيفاً للغاية لذا لم أستطع فهم كلمةٍ واحدة.

قلت وأنا أضع يديّ على مقعدي:

- أتفهّم كم سيكون هذا مؤلماً، لكن علينا الاستمرار إن كنت ترغبين بمساعدة إنجين...

ما إن نطقت باسم الشخص الذي تحبه حتى بدأت تبكي بصمتٍ في البداية، ثم نشجت. ظهرت التعابير الأبوية على وجه سادري وكان على وشك أن يطلب منها التوقّف لكنني أشرت إليه ألاّ يفعل فهي بحاجة للبكاء ولن نتمكّن من الحديث معها حتى تعود لرشدها... بكت حتى خفّت النوبة وتوقّفت، ثم جفّفت عينيها بمنديل من حقيبتها.

- أنا آسفة... لم أستطع السيطرة على نفسي.

قلت وأنا أخرج زجاجة كولونيا من دولاب مكتبي وأناولها إياها:

- لا يهم... تنشّقي هذه قليلاً وستشعرين بحالٍ أفضل.

مدّت يدها ونثرت بسخاء على راحة يدها الصغيرة وفركت بها صدغيها وجبهتها... لا بدّ أنها وخزتها في عينيها لأنها رمشت ثم تلوّنت فتحتا أنفها بلونٍورديٍّ فاتح.

- هل أنتِ على ما يرام الآن؟

أخذت نَفَساً عميقاً.

- نعم... أنا بخير.

- أيمكننا الحديث الآن؟ هل أنتِ مستعدة؟

لم تكن ترغب بالكلام لكنها لم تستطع قول «لا»... ماذا يمكنها أن تفعل؟ أحنت رأسها.

- أنا مستعدة.

- متى التقيت إنجين؟

دمعت عيناها مجدّداً لكنها هذه المرة سيطرت على نفسها.

- قبل سنتين في شهر أيار/ مايو...

صمتت مجدّداً، فقد كان صعباً عليها أن تحكي ذكرياتها لرجال لم تلتقِهم من قبل.

- متى التقيتما للمرة الأولى؟

بدأ التأثر على عينيها بتأثير ذكرياتها.

- لقد أتى هو والسيد نظام إلى بافيون ومعهما تلك المرأة أيضاً...

تغضّن جبينها قليلاً وهي تقول «تلك المرأة».

سألها علي:

- سيليم؟ هل تقصدين زوجة نظام؟

انكمشت في مقعدها كطفلٍ منزعجٍ من توبيخ شخص غريب.

- تعرفين سيليم... أليس كذلك؟

أدارت عينيها السوداوين إلى سادري كما لو أنها تقول «أرجوك ساعدني».

قال لها عازف المزمار:

- أجيبي الرجل يا عزيزة. لِمَ أنت خجولة؟ المحقّق علي ليس غريباً.

نظرت إلى الأرض قليلاً وقالت:

- نعم... أعرفها. لقد عرفنا إنجين إحدانا على الأخرى... لقد أتت هي ونظام لتناول العشاء...

وحين ظننت أنها ستغرّد صمتت مجدّداً.

تدخلت كأخٍ كبيرٍ موثوق مجدّداً.

- اسمها الحقيقي هاسر... أليس كذلك؟

- ممم... نعم... هاسر.

قلت لها بابتهاج وكأنني أعلمها بأخبارٍ جيدة:

- أتعلمين أنهما تزوجا.

رمشت متفاجئة.

- تزوّجا؟ نظام تزوّج سيليم؟

وأخيراً خرجت من غيبوبتها وأشرق وجهها... نعم... لقد ابتسمت للمرة الأولى لتظهر الغمازة في خدها الأيسر... غمازة جعلتها تبدو أصغر من عمرها.

تمتمت:

- الحمد لله... أتمنى لهما السعادة.

كانت سعيدة حقاً، ربما لأنها في ذهنها تخيّلت الأمر يجري مع شخص آخر...

التفتت إلى الرجل الذي تثق به أكثر وقالت له:

- أسمعت بهذا يا سادري؟ لقد تزوّجا... لا بدّ أن نظام سعيد للغاية.

ردّ عازف المزمار:

- أتساءل ما رأي سيليم في ذلك.

أرادنا سادري أن نعرف أن هناك مشكلة في العلاقة، وبالطبع فهم علي التلميح.

- لِمَ تقول هذا؟ ألا يحبان أحدهما الآخر؟

كان السؤال موجّهاً لعازف المزمار لكن عزيزة أجابت عليه ما دامت تجلس مقابله.

- بلى، لكن نظام كان يحبها أكثر... فسيليم... أقصد... لقد كانت نوعاً ما...

حين لم تستطع تحديد الأمر أنقذها سادري وقال لي بينما كان مساعدي يقف وراءه:

- بلاك نظام رجل قبيح للغاية... وليس ذلك فحسب... إنه عجوز... هناك فرق ثلاثين سنة على الأقل بينه وبين الفتاة.

قالت عزيزة:

- ليست المشكلة في العمر يا سادري... لقد كانت سيليم خائفة... نعم... لقد كانت خائفة من نظام.

- لماذا يقوم نظام بإيذاء امرأةٍ يحبها؟

- لا تقلْ هذا. نظام يغار بجنونٍ ولا يتقبل أن ينظر أحد إلى سيليم... وهناك ذلك الأمر مع إحسان...

وتوقّفت في منتصف الجملة فقد قالت شيئاً ما كان ينبغي لها الإفصاح عنه. ضاقت عيناها بتوجُسٍ فحاولتُ أن أخفّف عنها.

- نعلم بالأمر... كانت سيليم مع إحسان من قبل... صحيح؟ لكنها فيما بعد فضّلت نظام.

قال سادري:

- فضّلت؟ لم يكن لدى سيليم أي خيار، فهي فتاة جميلة في الثالثة والعشرين من عمرها. لماذا تذهب إلى ذلك الأحمق.

من الواضح أنه لا يحب بلاك نظام.

ثم نظر بعينيه المتوتّرتين إلى عزيزة وقال:

- أخبريه يا عزيزة! لماذا أنت صامتة؟
- أنا أخبره يا سادري. ماذا هناك غير ذلك؟

قطّب عازف المزمار حاجبيه:

- أخبريه عن تلك الليلة... ليلة أتى هو وسيليم إلى منزلك... ماذا قلتِ لي...

احمرّ وجه عزيزة.

- هذا أمر خاص يا سادري.

قلتُ محاولاً أن أشجّعها:

- لا شيء خاص حين يتعلق الأمر بجريمة قتل. هناك شخص قُتِل... شخص عزيز على قلبك... ما ستقولينه قد يحل اللغز بأكمله.

ارتعشت عيناها الداكنتان.

- هذا ليس جيداً... سيليم فتاة طيبة.

قلت مطمئناً إياها:

- لن نفعل لها شيئاً إلا إنْ كان ذلك مرتبطاً بجريمة القتل بشكل مباشر. كما أننا لن نستخدم ما تقولين لنا في أيّ شيء... أعدكِ.

لم تكن مقتنعةً وبدأت تلوك شفتها السفلى بارتباك، وفي النهاية استجمعت شجاعتها وقالت:

- سأخبركما بهذا لتقبضا على قاتل إنجين، لكنك وعدتني يا أخ نيفزات. إن لم يكن الأمر متعلقاً بجريمة القتل فما سأقوله يبقى هنا.
- بالتأكيد...

كانت لا تزال غير واثقة من أنها تفعل الشيء الصحيح. تمتمت بعبوس:

- غفر الله لي. نعم... لقد التقيت سيليم في نادي تارلاباسي. في ذلك الحين لم يكن إحسان يتشاجر مع نظام. لقد ذهبنا إلى هناك مع إنجين ورأيت سيليم في مكتب إحسان... كانت فتاةً جميلة للغاية... كانت لتكون نجمة سينمائية لو رآها أي مخرج. كما أنها إنسانة لطيفة ومرحة، وقد تصاحبنا مباشرة. وحين

تركت إحسان لم تتأثر علاقتي بسيليم، وفي ذلك الحين دخل إحسان السجن لحيازته مسدساً غير مرخّص. كانوا سيحوّلون الأمر غرامةً لكن كان لديه قضية أخرى في المحكمة لذا حُكِم عليه بالسجن. وبعد ذلك بدأنا نرى سيليم كثيراً حيث قال لي إنجين: "عليك دعوة الفتاة على العشاء ليلةً ما." ولسذاجتي لم أفكر بالأمر ودعوتها. وبينما كنا نحن الثلاثة نتناول الطعام رنّ جرس الباب وكان نظام هو القادم. في البداية ظننت الأمر مجرّد مصادفة لكن تبيّن لي فيما بعد أن إنجين قد خطّط للأمر، وقد وقع نظام في حب سيليم لحظة رآها فهي جميلة للغاية. أياً يكن الأمر حين رأيت نظام على الباب دعوته للدخول. وفي البداية لم تكن سيليم مرتاحة لكنها فيما بعد مع الشراب وغيره استرخت، وقد كان نظام لبقاً للغاية معها حيث أطرى عليها كثيراً. لا تنخدعا بمظهره القبيح فالرجل يعرف كيف يتكلّم كلاماً حلواً. وهكذا في نهاية الليل وجدنا أنهما مرتبطان أحدهما بالآخر.

وأنهت القصة فجأةً... كانت هناك أشياء لم تكن تخبرنا بها.

سألها سادري لئلا نضطر نحن لسؤالها:

- أهذا كل شيء.

رمقته عزيزة بنظرةٍ قاسية وقالت:

- نعم. وماذا قد يكون هناك غير هذا؟

لقد أخفت شيئاً، لكن لم يكن هناك أي مغزى من إجبارها على قوله، وكان من الواضح أنها انتهت.

قال عازف المزمار بصوتٍ هشّ:

- حسناً... إنْ كنت تقولين إن هذا كل شيء فهذا كل شيء... لقد أصررتُ فقط لنعرف قاتل إنجين.

توتّر وجه عزيزه وكساه الشك.

- قاتله؟ هل نظام هو الذي قتل إنجين؟

رفع يديه وكأنه يفقد أعصابه.

- وكيف لي أن أعلم إنْ كان نظام؟ ما يقوله حضرة الضابط هو أن تخبرينا بما

حصل لنعرف من القاتل...

قال علي:

- يمكنكِ أن تثقي بنا يا أختي.

كانت هذه للمرة الأولى التي أسمعه ينادي أحداً بكلمة «أختي»، ولم أستطع تمييز إن كان يقولها من قلبه أم أنه يحاول حل لسان الفتاة. لكنني شعرت بالسعادة من سلوكه.

قلت داعماً إياه:

- ولن يمس أحد شعرةً من رأسك ما دمتِ معنا. ينبغي أن تخبرينا بما تعرفين إن كنت تريدين أن تزجّي بقاتل إنجين وراء القضبان.

اتسعت عيناها السوداوان رعباً وردّدت:

- أتعني نظام؟ هل هو من قتل إنجين؟

كانت تعرف جيداً أنه لا يمكن الثقة بالرجل القبيح.

قلت بهدوء:

- ذلك ممكن. عليكِ أن تساعدينا لمعرفة ذلك.

رفعت صوتها بحماسة:

- ذلك بسبب تلك المرأة... إنه خطؤها. طلبت إلى إنجين ألاّ يفعل ذلك... أخبرته أنه لن يأتي أيّ خيرٍ منها لكنه لم ينصت لي.

وبينما كانت على وشك أن تشرح لنا بدأت بالبكاء ثانية.

سألتها محاولاً جعلها تركز:

- أيّ امرأة؟ هل تتكلّمين عن سيليم؟

هزّت رأسها بالنفي بقوة.

- لا... ليست هي... أنا أتكلم عن جيل... المرأة التي دمّرت حياتنا... المرأة التي كانت مع إنجين ونظام في للمرة الأولى قدما فيها إلى نيسي بافيون.

جيل! المرأة التي وجدنا صورتها في منزل الضحية. «المرأة ثرية لكن الأحمق كان واقعاً في غرام تلك المشردة من بافيون بدلاً منها».

كم بدت عبارة «المشردة من بافيون» غريبة الآن وأنا أنظر إلى عزيزة! كان من

الواضح أن هناك مثلّث حب... الفتاة ذات الوجه البريء كانت العجلة الثالثة في عربة حبيباته، لكنها تمكّنت من التغلّب على جيل، ومع ذلك لم تكن واثقة من نفسها أو من سبب كرهها... هذه المرأة التي سرقت لها رجلها؟

هذه الحساسية التي لا معنى لها لم تفت عليًا الذي سألها محاولاً صب الزيت على النار:

- لقد كانت مقربة للغاية من الضحية. هل كانا يتقابلان؟

رفعت الفتاة الشابة رأسها بحزن ولم تعد تكترث بالدموع التي تسيل على وجهها.

- تلك المرأة لم تدعْه وشأنه... لديها كثير من الأموال... كانت تحاول شراء إنجين.

ثم أدركت أن ذلك السبب غير كافٍ. لكنها كانت تبذل جهوداً خارقةً لتثبت أن حبيبها كان مخلصاً لها فالتفتت إليّ وقالت:

- حين أنهى إنجين علاقته بها عرضت عليه جيل إقامة شراكة، وقد قال لي إنجين: "سنكسب مالاً كثيراً ثم نسافر معاً إلى أمريكا." ولهذا أعاد إنجين علاقته بالمرأة وقد تقبلت الأمر لأننا في يومٍ ما سنتركها... لقد كان يضع المال في حسابي المصرفي.

أصبحت قصة عزيزة مثيرة للاهتمام أكثر فأكثر.

سألتها:

- لماذا في حسابك؟ أليس لدى إنجين حساب؟
- بلى، لكنه لم يرغب أن يعرف أحد أين تذهب النقود.

تذكرت صكوك الملكية التسعة في خزنته.

- هل كان يشتري مباني بتلك الأموال؟
- نعم... في تارلاباسي. كانت قيمة المكان سترتفع كثيراً حسب ما قال إنجين وسنجني مالاً وفيراً ثم نهرب من هنا.
- لم يكن نظام يعلم بهذا العمل... أليس كذلك؟

ظهرت تدريجاً نظرة فهمٍ وتصميمٍ بدلاً من الارتياب الذي في عينيها.

- لا... وقد حذرني إنجين من إخباره.

وتخلصت من خجلها ونظرت في عينيّ مباشرة.

- ألهذا قتلوه؟ لأنه لم يخبر نظام؟

كان ينبغي أن أقول إننا لسنا متأكّدين أن نظام هو القاتل، لكنني لم أفعل. فمن المفيد سماع رد فعلها تجاه أب المافيا القبيح.

قلت باحترام:

- سنعرف ذلك يا عزيزة... سنعرف ذلك... لكن دعينا نعدْ إلى نقطة الصفر إنْ كنتِ لا تمانعين. لقد كنت تخبريننا كيف جاء إنجين ونظام إلى نيسي بافيون.

أرادت أن تتأكّد، وتحوّل ألمها غضباً توجّهه إلى شخصٍ آخر، وتحاسب شخصاً ما على موت حبيبها. لا بدّ أنها لذلك بدأت تتكلم بصراحةٍ أكثر.

- نعم... أتذكّر تلك الليلة جيداً... كانت هناك امرأة أخرى معهما... امرأة تدعى فيوليت... إحدى عارضات نظام الليليات. كنت واقفةً على المنصة أغني عندما دخلوا.

ذكّرها عازف المزمار:

- أغنية "التقيتك في مساء ربيعي" إنها أغنية صلاح الدين بينار.

امتلأت عينا عزيزة بالمشاعر مجدّداً.

- هذا صحيح... وهم قد جاؤوا في مساء ربيعي... في بداية أيار/ مايو. حين سمع السيد مسلم أنهما قادمان اختار لهما مكاناً أمام المنصة مباشرة... مسلم هو رئيسنا... إنه رجل جيد كما أنه صديق نظام... لقد كانا في السجن سوية. لم ألاحظهم في البداية فالأنوار تعمي عيوننا كما تعلمون. وخلال الحفل نزلت عن المنصة لأنني أدور بين الطاولات حين أغني وحينها رأيت إنجين. كان الناس الذين معه يضحكون ويثرثرون لكنه لم يبعد عينيه عني فحييته بابتسامة كما يتطلّب عملي إلا أنه لم يبتسم أو يرد التحية وإنما حدّق فحسب... أنا أخاف من ذلك النوع فهم دائمون يجلبون المتاعب فيما بعد... نحن بحاجة لزبائن يأكلون ويشربون وينفقون المال ثم يغادرون. في كل الأحوال ابتعدت عن تلك الطاولة وانتهت الأمسية دون أي شيء. لكن في الليلة التالية حين

وصلت إلى بافيون وجدت باقة ورود حمراء. لن أكذب عليك فقد شعرت بالغيرة قليلاً وأنا أتساءل لمن هي ليتبيّن لي فيما بعد أنها لي، وكان إنجين هو من أرسلها، ثم بعد ساعتين تقريباً جاء وحده هذه المرة. جلس إلى الطاولة نفسها التي جلس إليها في الليلة السابقة، ولم يبعد عينيه عني، وشرب ثلاث زجاجات. لقد خفت لكنني شعرت أيضاً بالإطراء، وبعد العرض ناداني إلى طاولته فذهبت إليه حيث عرّف عن نفسه وقال لي دون أي مقدمات: "لقد التقيت نساءً كثيرات لكنك مختلفة عنهن كلهن. تعالي وعيشي معي". لم أكن خبيرةً مثله، لكن لم يتحدث أي رجل من قبل معي بصراحة أو جرأة مثله... ما أثّر فيَّ هو صدقه وليس كلماته. بالطبع لم أوافق فوراً لكنني شعرت بالارتباك وجلست إلى طاولته طوال الليل ثم غادرنا سوية وأوصلني إلى البيت بسيارته... لم أدعه للدخول كما أنه لم يطلب مني أن أقدم له القهوة ما جعلني أعجب به، فهذا يعني أنه لا يراني كعارضةٍ لليلة واحدة، لكن ما الذي يخطّط له؟ هل يريد أن يتزوجني ويبعدني عن بافيون أم يجعلني خليلته فحسب؟ نعم... في النهاية نجح في جذبي.

نظرت إلى عازف المزمار مجدّداً.

وحين لم أستطع الخروج من ذلك الوضع تكلمت مع سادري فقال لي إنّ الأمر عائد إليكِ... افعلي ما تجدينه الصواب.

تمتم عازف المزمار بحنان:

- وكأنك لن تفعلي ذلك لو طلبتِ منك عكس ذلك... لقد اتخذت قرارك قبل أن تأتي إليّ يا فتاة.

جفّفت عزيزة دموعها بالمنديل الذي تمسك به في راحة يدها وأكملت:

- صحيح... كان قلبي قد اختار لكنني لم أدرك ذلك. كان إنجين يأتي كل ليلة ثم يوصلني إلى البيت، وفي الليلة السابعة دعوته للدخول وهكذا بدأت علاقتنا.

سأل علي:

- وهل كنتِ سعيدة؟

كان صوته قاسياً كما لو أنه يوبّخها... شككت في أنه يقصد إزعاج الفتاة أكثر،

إذ يمكن أن يكون وضع نفسه محل الأخ الكبير لعزيزة.

- هل توقف إنجين عن رؤية النساء الأخريات حين كان معك؟

تلاشت النظرة المستغرقة في التفكير من عيني عزيزة. فقد انتهى الحلم وحل محله الواقع لكنها أجابت علي.

- نعم لقد كنا سعداء في البداية.

وتنهّدت كما لو أنها تتحدث عن الماضي البعيد.

- لا... أنا لا أخدع نفسي يا حضرة المحقّق... لقد كان يحبني أيضاً، فقد أصبح رجلاً جديداً يشع بالحب. في ذلك الوقت كنت أقيم في المبنى الذي يقيم فيه سادري الآن... في شقة صغيرة مع مطبخ صغير ودون تدفئة مركزية أو حمام، وكنت أستحم في الحمامات العامة، فاعترض إنجين على إقامتي في جحر الفأر ذاك، لذا انتقلت إلى منزله.

كان سادري قد أخبرنا أن عزيزة تقيم في مكانٍ آخر.

- في المنزل في كادين سيكمازي؟

- لا... لدى إنجين منزل آخر في شارع كورتولدو. انتقلت إلى هناك مما أراحني للغاية فهو يحوي أثاثاً وأدوات كمنزلٍ لائق.

قال علي وهو يطرح السؤال الذي كان يخطر ببالي:

- لكن إنجين كان يقيم في المنزل الآخر.

بدأ ذقن عزيزة يرتعش.

- ليحميني... كان خائفاً من أن يتم قتله في أي لحظة، فقد قال لي: "لديّ أعداء كُثُر وسنحتاج لكثيرٍ من المال للتخلّص منهم". وقبل أن نجني كل ذلك المال قتلوه.

سألتها:

- مَنْ؟ مَن الذي أراد أن يقتل إنجين؟ هيا يا عزيزة... لا تخفي عنّا ما تعرفينه.

تمتمت:

- لا أعرف. أقسم إنني لا أعرف. كان يتكلم عن إيطاليين قتلوا عمه ولهذا أتى إلى إسطنبول، فقد كانوا يريدون قتله أيضاً.

- هل أتى هؤلاء الإيطاليون إلى إسطنبول؟
- لم يقل ذلك قط... لم يكن بإمكانه الذهاب إلى أوروبا... كان معه نقود في سويسرا لكنه قال لي إنهم سيقتلونه ما إن ينزل من الطائرة... لقد كان خائفاً للغاية.

قاطعها علي:

- ماذا عن نظام؟ كيف كانت الأمور بينهما؟ أعني في الآونة الأخيرة. أكان هناك أي خلاف بينهما؟

نظرت إلى مساعدي بعجز وقالت:

- لا... كانت الأمور دائماً جيدة بينه وبين نظام... لم تكن هناك أيّ مشاكل.

سألها علي:

- إذن لماذا لم تعرفوا بزواجه؟ لماذا لم يدعُكم إلى حفل الزفاف؟

أشاحت عزيزة بنظرها بعيداً:

- ربما يكون...
- دعاكما؟ أما كنتِ لتعلمي بالأمر لو أنه دعاكما؟
- لا... لأنني كنت تشاجرت مع إنجين منذ أسبوع.
- أتعنين أن آخر مرة رأيتِ فيها إنجين هي قبل أسبوع؟
- لا... لا...

هزّت رأسها برفقٍ يمنةً ويسرة.

- لقد جاء إلى بافيون في ليلة رأس السنة... ليلة مات... جاء ليصلح الوضع لكننا تشاجرنا مجدّداً. لو كنت أعلم...

وبدأت بالبكاء مجدّداً وأخذت تنشج أكثر من ذي قبل، وهنا دخلت زينب حاملةً ملفاتٍ بيديها وغير مدركة عمّا نتكلم، وحين رأت عزيزة وسمعت نشيجها الذي يهتز له جسدها كله نظرت إلينا باستغراب، ثم وضعت الملفات بسرعة على الطاولة وجلست بجوار الفتاة الشابة، وقالت برفق وهي تضع يدها على كتفها:

- لا بأس... سيكون كل شيء على ما يُرام.

نظرت عزيزة بعينيها المحمرّتين إلى الغريبة التي تجلس بجوارها وحدّقت

إلى المرأة التي لا تعرفها دون أي خوف أو مفاجأة، فابتسمت زينب وعانقت الفتاة التي عادت للنشيج مباشرة لتبدأ نوبة جديدة من البكاء.

أكملت زينب وهي تربّت ظهرها:

- لا بأس يا حبيبتي... سيكون كل شيء على ما يرام.

بقيتا على هذه الحال برهة، وبينما كنت أشاهدهما فكرت كم أن من الخطأ الادعاء أن النساء يحببن الشجار بعضهن مع بعض إذ إنهن أكثر من يفهم النساء الأخريات. وحين توقّفت عزيزة عن النشيج تراجعت زينب بهدوء وقالت بصوتٍ متعاطف:

- هيا... رشّي الماء على وجهك، فسيجعلك ذلك تشعرين بتحسّن.

لم تعترض عزيزة وإنما نهضت بسرعة من مقعدها وأمسكت بيد زينب، كأنها أختها الكبيرة، وغادرتا الغرفة.

لا بدّ أنها قصة مؤلمة



خيّم صمت ثقيل على الغرفة بعد أن غادرتها عزيزة، وبدا الضجيج القادم من الشارع كأنه داخل الغرفة. لا أدري ما الذي كان يفكر به علي أو عازف المزمار، لكنني كنت أتساءل ما الذي يجعل امرأة تحب رجلاً وخاصة إن كان رجلاً سيئاً. هل كانت تعلم أن إنجين شخص شرّير؟ لا بدّ أنها تعرف. في كل الأحوال كانت جيل هانم تودع النقود في حسابها... نقوداً من امرأة أخرى ترسلها للرجل الذي تحبه هي... أيمكن لأي شخص يحترم نفسه أن يقبل هذا؟ لكنني كنت غير منصف فهذه الفتاة الشابة هي آخر شخص ينبغي لي الحكم عليه بناء على احترامها لنفسها، كما لا يمكنني تخمين كم كان عمرها حين بدأت العمل في بافيون، ومن الذي كان يطلبها كاللحم الطازج والمقبلات على مائدته. كان من الممكن أن يبيعوا المرأة مباشرةً لرجل ثري... الحكم على الفتاة واحترامها لنفسها أمر قاسٍ، ومن الوضاعة اتهام فتاة بسلوك الطريق الخطأ حين لا يكون لديها خيار آخر.

قال عازف المزمار مقاطعاً أفكاري:

- إنه مشين يا حضرة الضابط... أعني الحب... إنه مخزٍ.

نعم... إنه يفكر بأمر مختلف تماماً... سادري المسكين... إنه لا يشعر بالأسى لأجل عزيزة فحسب، وإنما من الواضح أن لديه قصة انكسر فيها قلبه... ومن لم يحدث له ذلك؟ ربما يكون هذا ما يتذكره.

سألته:

- أكنت في بافيون ذلك المساء؟ أعني حين أتى إنجين.

هز رأسه بحزن:

- كنت هناك يا حضرة الضابط. لقد دخل كثورٍ من البوابة وشقّ طريقه وهو يشتم الزبائن، وهم يجهّزون له طاولته المعتادة. ثم قام بعرضٍ حيث فتح ثلاثاً وعشرين زجاجة شراب عند قدمي عزيزة، لكن عزيزة تجاهلته. من المألوف أن تشكر المغنية المرء أو تبتسم حتى لو لم تكن تعني ذلك، لكن عزيزة لم تنظر إلى وجهه حتى. فاستشاط إنجين غضباً وقفز إلى المنصة وأمسك بعزيزة من معصمها وسحبها عن المنصة في منتصف الأغنية ليصل مسلم بيك إلى هناك قبلي... إنه مالك المكان... لقد أخذ الاثنين إلى مكتبه، وحين مرّ بجواري طلب إليّ الدخول أيضاً.

وما إن أغلقنا الباب وراءنا حتى بدأ إنجين بالصراخ عليها:

- ماذا تظنين أنك تفعلين؟ لماذا تتظاهرين أنك لا ترينني؟

فانكمشت عزيزة في زاوية الغرفة وقالت شيئاً بمعنى «أومأت لك» لكنه لم يدعها تكمل كلامها وإنما فتح فمه القذر وصرخ:

- تباً لك ولإيماءاتك! كم مرة اتصلت بك ولم تردي عليّ أو تعاودي الاتصال؟

كان مسلم بيك من النوع الحكيم لذلك فقد تماشى مع إنجين لأجل نظام لكنه حين سمع الشتائم لم يحتملها وقال:

- لن أسمح لك بإهانة موظفي هنا.

لكن إنجين دفع الرجل بيده اليمنى وهدّده:

- لا تتدخّل في الأمر يا مسلم وإلا ستندم.

لو قام بهذه الحركة في المطعم لاضطر مسلم لإخراج مسدسه وإطلاق النار عليه لكن مع وجودنا، نحن الأربعة فقط، تقبل الأمر واكتفى بالطلب منه أن لا يشتم.

التفت إنجين إلى عزيزة وقال:

- ماذا تحاولين أن تفعلي يا فتاة؟ لماذا تتجنّبينني؟

كان حزيناً وغاضباً في الوقت نفسه لكن عزيزة تجاهلت الأمر وقالت:

- أنا لا أتجنبك... فقط لا أريد أن أتكلم معك.

نظر إنجين بأسى إلى مسلم ثم إليّ... لم يكن مرتاحاً لوجودنا وأرادنا أن

نغادر، لكننا لم نستجب له لأننا لا نثق به، فقال بلطف:

- أنا آسف لأنني أخفقت، لكنك تعلمين أنني أمر بظروف صعبة... إنني أحاول أن أعيد المياه إلى مجاريها.

هزّت عزيزة كتفيها كأنها لا تكترث على الإطلاق وقالت:

- إذن أعِدِ المياه إلى مجاريها... ما علاقتي بالأمر؟

هنا انقلب إنجين بالكامل فجأة، وبدأ يتوسّل كطفلٍ صغير:

- لا تفعلي هذا يا عزيزة. أعلم أنك تحبينني وأنا أحبك... أعلم ذلك أيضاً.

بدأت عزيزة بالبكاء ثم قالت:

- لا... لا أحبك.

لكنها كانت تكذب فقد كانت مجنونة بحبه.

وقد فهم الوغد ذلك من بكاء الفتاة وقال:

- أنت تحبينني... إننا مخلوقان أحدنا للآخر... ليس لحياتي أي معنى بدونك... أقسم على ذلك... وإلا لماذا أنا هنا؟ لماذا أذلّ نفسي هكذا؟

بدأت عزيزة تلين وقالت:

- لا تكذب عليّ.

لكن نبرتها كانت تعني "قل لي إنك تحبني حتى لو كنت تكذب."

وكان ذلك الخبيث يعرف تماماً ما يفعله فقد ضربها في الصميم:

- أنا لا أكذب يا عزيزة... أقسم بقبر أمي... أنا لا أكذب. تعرفين كم امرأةً حولي لكنهن جميعاً لا يعنين لي شيئاً... أنت فقط المهمة.

وبينما كان يقول ذلك أمسك بيد عزيزة وتكلم بكلامٍ معسول حتى أنني بدأت أصدقه. لقد تمكن من تسوية الأمور لكنه حين ظن أن المشكلة قد حُلّت ارتكب خطأً فادحاً وقال:

- حسناً... لقد خذلتك وأخلفت بوعدي حين ذهبت مع تلك المرأة جيل.

وبتعليقه هذا أزعجها مجدّداً فسحبت يدها وصرخت:

- إذن لقد عاشرتها! تباً لك! كذبت عليّ وتقول أنني أفتري عليك؟ أن الأمر مقتصر على العمل. لقد أقسمت!

- لو أنه ظل صامتاً وتركها تصرخ ثم توسّل إليها لتسامحه فأظن أن الأمور ستعود إلى مجاريها، لكن المعتوه بدأ يدافع عن نفسه: "أنت لا تفهمين... لا يمكنني شرح... اصبري وسينتهي الأمر عمّا قريب ولن أرى تلك المرأة مجدّداً. هناك قصة أخرى وراء هذا لا يمكنني أن أخبرك بها. أقسم... كل ما أفعله إنما أفعله لأجلنا، لكن انظري كيف تستمرين...

ثم التفت وحملق بي وبمسلم وقال:

- اخرجا من هنا. إننا نقوم بمحادثة خاصة.

لكن عزيزة لم تمنحنا فرصة لنفتح فمنا وصرخت:

- اخرج أنت، هذا ليس مكانك، من تظن نفسك حتى تطردهم؟

صرخ عليها لكن فتاتنا كانت غير خائفة وقالت:

- ابتعد عني وعد لفتاتك من الطبقة الراقية.

حذّرها إنجين من أن تصرخ وقال لها إنها ستندم فقالت:

- ولأندم؟ ماذا هناك؟

- اسمعي... سينفد صبري.

فأجابته عزيزة:

- لا تستطيع.

ربما لو لم نكن هناك لتجاهل الأمر، لكنه لم يستطع بوجودنا فصفعها صفعةً خفيفة، وبدلاً من أن تتراجع ردّت له الصفعة بصفعةٍ أقوى فهجم عليها بشراسة. ولحسن الحظ، كنّا هناك وتدخّلنا وأنقذنا عزيزة دون أن تتعرّض لأي أذى فاهتاج وهدّدها:

- هذا لن ينتهي هنا أيتها العاهرة... لن أدعك وشأنك.

أمسكه مسلم من ذراعه وسحبه من الغرفة، بينما بقيت أنا مع عزيزة التي أخذت تنشج وقالت:

- أسمعته؟ لقد نام مع تلك المرأة.

أعني أنها لم تكترث لأنه ضربها وإنما كل ما أزعجها هو تلك المرأة جيل. ففقدت هدوء أعصابي وأردت أن أقدم لها النصيحة لكن ذلك سيكون مجرّد تضييع

وقت فهي تحب ذلك المخادع حدّ الجنون ولهذا فإنها منزعجة. لا يا حضرة الضابط... لا أفهم هذا الحب... ماذا يمكن لفتاة كعزيزة أن ترى في وغدٍ كهذا؟

كنت مهتماً بما أسمعه فلم أقاطعه لكن علي رد وقال:

– الشيء الكثير... لا يمكنك أن تفهم النساء. أنا لا أجد الأمر غريباً بالنسبة إلى عزيزة، لكن لماذا كان إنجين متعلقاً بها إلى هذه الدرجة. هذا ما لا أفهمه. هل كان يحب عزيزة حقاً؟

ارتخت شفة عازف المزمار مجدّداً.

– لا أدري. لقد كان إنجين صادقاً في ما قاله إذ إن لديه عشرات النساء حوله وجميعهن جميلات وجذابات... فلِمَ عزيزة؟ أنا أيضاً لم أفهم الأمر.

ثم نظر إليّ وسأل:

– ما رأيك يا حضرة الضابط؟ أتظن أن إنجين كان يحب الفتاة حقاً؟

– هذا ممكن فشؤون القلب معقّدة.

لم يوافقني علي على الإطلاق.

– أظن أن الرجل كان يخطّط لشيء آخر... كان يستخدم عزيزة غطاء... انظر كيف وضعها في منزله...

بدا الأمر منطقياً لكن الحب والمنطق أمران مختلفان بالكامل... ربما يكون إنجين بحاجةٍ إلى شيء بريء بعد كل القذارة التي كان عالقاً بها... أم أنه لا يزال فيه بعض الطيبة حتى ولو كانت مخفيةً في أعماق قلبه، وربما تكون عزيزة رمزاً لذلك... زهرة تتفتح في القذارة. ولِمَ لا؟ هذا ليس غريباً على العالم الداخلي للرجال أمثال إنجين... هذا النوع من التفضيل. تركت أفكاري لنفسي فتحليل تعقيدات الحب ليس عملنا الآن وإنما علينا إيجاد من قتل إنجين مهما كان شرّيراً.

قلت منهياً فرضيات مساعدي:

– أنت محق يا علي. ينبغي أن نفتش منزل الفتاة. أظن أن عزيزة لن تعترض... أليس كذلك يا سادري؟

لم يظهر عازف المزمار أدنى تردّد.

– لا يا سيدي الضابط. ولماذا تعترض؟ بل إنها ستقدر ذلك. أنت تحاول العثور

على الرجل الذي قتل حبيبها، وحتى إن كانت تعترض فأنا هنا.. إنها لن تخلف بوعدها لي.

قطع صوت رنين هاتفي كلام سادري.

– صباح الخير يا حضرة الضابط. أنا إحسان.

كان المتكلم إحسان. يبدو أنه مستعجل لأنه لم ينتظرني حتى أتصل به. افترضت أن لا أذى سيأتي من سادري لكنني فضلت ألاّ يعرف مع من أتكلم فقلت دون أن أذكر اسمه:

– أهلاً... أظن أن هناك تطورات...

– سمعت؟ أخبرني كمال أنه لم يخبرك بعد.

بدا مستغرباً.

– لا أعرف التفاصيل... أعرف فقط أن هناك تطورات.

– آه، فهمت. هذا الصباح تلقيت مكالمة من سيليم أخبرتني فيها أن لديها معلومات مهمة في ما يتعلق بجريمة القتل، وهي تريد رؤيتي، لكنني في حيرة. ما رأيك؟ أيمكن أن تعرف من هو قاتل إنجين؟

كان تخميناً متفائلاً... لماذا ترغب امرأة تزوجت قبل يومين أن توقع بزوجها؟ وتتصل بعدو الرجل اللدود؟ هل ينصبون فخاً لإحسان؟

أكمل مالك وكر القمار:

– بصراحة تفاجأت لأنها اتصلت. كما تعلم أنا لم ألتقِ سيليم منذ حادثة الضرب ولم أتخيّل أنها قد تتّصل بي.

ربما ينصب إحسان فخاً لبلاك نظام وسيليم ضمن السيناريو فقد كانا حبيبين فيما مضى. ربما يكون لديه شيء ضد سيليم... شيء يكلف الفتاة زواجها وربما حياتها... كان بإمكانه التخطيط للأمر قبل زواج نظام وسيليم، وقد يكون قتل إنجين جزءاً من الأمر وإلا لم يلاحقني دايس في هذا الوقت من الصباح الباكر؟

قلت وأنا أحاول أن أستنتج السبب الحقيقي لاتصاله:

– إذن اذهبْ والتقِها. ماذا تنتظر؟

دوّت ضحكة عصبية من الطرف الآخر من الخط.

- أنا لا أثق بها... قد تكون تسعى للانتقام.
- بنفسها؟

فهم إلى أي شيء ألمّح.

- قد يكون نظام متورطاً أيضاً... لست متأكداً بالطبع... ويمكن أنها تقول الحقيقة.

أكانت هناك بعض المشاعر في صوته أم أن هذا ما بدا لي؟

استحثثته:

- ماذا أخبرتك؟ لماذا تظن أنها على اطلاع على شيء؟ هل أعطتك اسماً أو ما شابه؟ أعني للقاتل أو المشتبه به.
- لا... لم تذكر أي أسماء وإنما قالت: "أظن أنني أعرف من قتل إنجين".

ردّدت:

- تظن...

فجأة قال بصوت منفعل:

- ينبغي ألاّ أراها؟

هذا لن يوصلنا إلى أي مكان. إنْ كان هذا فخًّا فمن الأفضل أن نعرف من نصبه ولماذا.

قلت مشجعاً إياه:

- على العكس. أظن أنه ينبغي لك بالطبع لكن أعلمني بما سيحصل بأسرع وقتٍ ممكن.

صمتتُ للحظة ثم سألته:

- هل تريد أي مساعدة منا.

أجابني مثبتاً لي أنني مخطئ:

- لا يا حضرة الضابط... شكراً لك... سآخذ حذري. لحسن الحظ نحن قادرون على ذلك، لكنني أردت أن أعلمك بالوضع فحسب.

بدا صوته مبتهجاً على نحوٍ غريب. لماذا؟ بالتأكيد ليس لأنه تكلم معي وإنما أظن لأنه سيلتقي بسيليم التي كان يحبها وأظن أنه لا يزال يحبها، فحتى مجرّد اتصال منها قد أثاره.

قلت محاولاً القضاء على آخر شكوكي:

- في تلك الحالة... لا تهدر وقتي لكنني سأنتظر لأسمع كيف سيسير هذا اللقاء. اتصل بي بعده مباشرة...

- بالطبع يا حضرة الضابط. سأتصل بك هذا المساء. أراك لاحقاً.

وحين أغلقت الخط وجدت عيون سادري ومساعدي مثبتة عليّ فلم أسمح لهما بإبعاد عيونهما قبل أن أطرح عليه سؤالاً.

- كيف التقيت عزيزة يا سادري؟

لم يسألني إن كنت أشتبه به.

- لقد التقينا في بافيون حيث أتت إلى هناك من ماراس قبل سنتين أو ثلاث. لا يوجد نقص في المتوحشين في عالمنا لذا فقد ائتمنني الرئيس عليها فأخذتها إلى البيت. في ذلك الحين كانت أمي لا تزال على قيد الحياة وقد سعدت للغاية حين وقعت عيناها على عزيزة، فقد ذكّرتها بجينيا. نحن ندعو جينيا باسم بيمبي لكن بيمبي كانت سمراء أكثر من عزيزة. إنه حب الأم... حتى لو لم تشبهها إطلاقاً إلا أنها وضعت الفتاة الأخرى مكان ابنتها الميتة.

لا بدّ أنها قصة مؤلمة. فكّرت أنه لا ينبغي لنا أن نسأل لكن علياً لم يستطع كبح نفسه.

- كانت بيمبي أختك؟

خفض رأسه:

- نعم... لقد توفيت في بلغاريا قبل سنوات.

- آسف لسماع هذا.

- شكراً يا حضرة الضابط. لقد فقدناها في حادث حين كانت بعمر عزيزة، ولو أنها بقيت على قيد الحياة لكانت الآن امرأة كبيرة متزوجة ولديها أطفال... هذه هي الحياة... لكن أمي لم تستطع مسح بيمبي من ذاكرتها، وكان ذلك أحد أسباب قدومنا إلى هنا... للابتعاد قليلاً عسى أن يصبح النسيان أسهل عليها... لكن الوضع ساء ولم تحتمل أمي الفراق وماتت السنة الماضية. لم أستطع العودة فقد بعنا منزلنا وأرضنا ولم يعد هناك ما أعود لأجله على الرغم

من أنه ما يزال لدينا أصدقاء في دوبرودجا.

توقّف عازف المزمار عن الكلام حين عادت زينب وعزيزة إلى الغرفة. بدت الفتاة الشابة أفضل الآن، ومع ذلك لم يستطع سادري منع نفسه من الوقوف والسؤال:

- كيف حالك؟ هل تشعرين أنك أفضل؟

تمتمت عزيزة بصوتٍ واهنٍ وهي تجلس في مقعدها:

- أشعر بالدوار يا سادري.

وبّخها عازف المزمار:

- هذا ليس مفاجئاً فقد انخفض ضغط دمك. كم مرة قلت لك أن تأكلي شيئاً.

قفزت زينب:

- إذن سأحضر لك شطيرةً وكأساً من اللبن المالح.

كشّرت عزيزة وكأن مجرّد الفكرة أزعجتها ثم رفعت يدها.

- لا.. شكراً يا أبلة زينب... لا يمكنني أن آكل وإلا فسأتقيأ. حين أعود إلى البيت...

نظر إليّ عازف المزمار عسى أن أفهمه.

- أيمكننا الذهاب يا حضرة الضابط؟

ستكون فرصة جيدة لتفتيش منزل الفتاة.

قلت:

- بالطبع يمكنكما. لندع عزيزة ترتاح قليلاً وسنأتي إليكم بعد الظهر لنكمل حديثنا. هل هذا جيد؟

لم تزعجها كلماتي إطلاقاً.

- بالطبع يا أخ نيفزات. سأكون بانتظاركم... أتمنى أن أكون تحسّنت حتى ذلك الحين.

لمست زينب كتف الفتاة بحنانٍ مرةً أخرى.

- إن كنت لا تشعرين أنك بحالة جيدة يمكننا أن نأخذك إلى الطبيب...

شعرت عزيزة بالإحراج وكأنها تتطفّل.

- لا... أنا على ما يُرام الآن.

وحين صمتت الفتاة التفتت زينب إلى عازف المزمار.

- أسمعتك تتكلم عن دوبرودجا؟

- نعم... كنت أخبر المحقّق بالماضي.

ظهر الفضول على وجه زينب.

- هل أنت مهاجر بلغاري؟

لسببٍ ما بدا عازف المزمار غير مرتاح.

- نعم... لِمَ تسألين؟

لم تجد زينب رد الرجل غريباً.

- نحن أيضاً مهاجرون بلغاريون أو ينبغي أن أقول إن عائلتي أتت من هناك... من هاسيوغلو بازارسيك...

تلاشى الارتياب عن وجه سادري.

- آسف... أصبح مضحكاً حين يسألني أحد من الفراغ، إذ لا يمكنني التغلب على شعور أنني غريب في بلدي.

نظرت إليه زينب بحب وكأنهما أقارب.

- أبي أيضاً هكذا... إذا سأله أحد إنْ كان مهاجراً من بلغاريا يتغير لونه فجأة. يقول إنه لا يمكنك التغلب على شعور أنك تركي مهاجر من البلقان... عائلتي من قرية ساري محمود... اسمها البلغاري أليكسييفو... ماذا عنك؟

احمرّ وجه عازف المزمار وكأنه وجد الوضع محرجاً.

- ليس لدينا قرية فقد انتقلت عائلتي إلى المدينة منذ سنوات... كانوا موسيقيين، فحين لم يستطيعوا كسب لقمة عيشهم في المناطق الريفية انتقلوا إلى المدينة...

سألت زينب بلهفة:

- إنها مكان جميل... أليس كذلك؟ أعني إن هذا ما أخبرتني به عائلتي...

تنهّد سادري بعمق.

- بالتأكيد يا سيدتي... الأرض خصبة... بلغاريا هي السلة الغذائية...

التفت علي إلى المرأة الشابة التي نسيناها وسأل:

- وأنتِ؟ من أين أنتِ يا عزيزة؟

بدت خائفة مجدّداً وازداد شحوب وجهها لكنها حاولت أن تبتسم لتظهر الغمازة المخفية على خدها الأيسر:

- أنا؟ لقد وُلِدت في ألمانيا في هانوفر... ثم تركنا أبي وهرب إلى هولندا مع امرأة ألمانية. أتيت إلى تركيا حين كنت أبلغ أربع سنوات حيث تزوجت أمي مجدّداً في إزمير وأقمنا في غازي أمير لفترة، ثم ماتت أمي...

وحين ماتت أمي كبرت فجأةً وتجوّلت حول المدن المختلفة، والآن أنا هنا...

ألا يمكن أن تكون تحاول إراحة ضميرها فقط؟



جاءتني المكالمة الهاتفية من بلاك نظام وأنا أفتح باب السيارة. قد يكون قلقاً على ابن أخيه قدرت أو أنه يتصل ليخبرني عن اتفاق دايس إحسان مع عروسه؟ فأجبت بفضول لكنني تكلمت بهدوء.

- صباح الخير يا نظام... ماذا هناك؟

قال بهدوء ظنًّا منه أنني غاضب.

- آسف لإزعاجك يا حضرة الضابط. الأمور ليست جيدة كما تعلم، فقد كان هناك هجوم على النادي الليلة الماضية وقام قدرت بصدهم...
- نعم... لقد قتل فتاةً شابة... مزّق جسدها بالرصاص... المسكينة.

قال بصوت مذعور:

- لقد خاف يا حضرة الضابط. هاجمهم الحشد بالأسلحة و...

انقطعت كلماته بالسعال... النوبة الصباحية للمدخّن.

قلت:

- تعليق الكلاشينكوف جاء من ابن أخيك ولا أحد آخر يتكلم عن أي بندقية. قد يكون قدرت يكذب لينجو من العقاب.
- لا... قدرت لا يكذب يا حضرة الضابط.

ثم هاجمته نوبة سعالٍ أخرى.

- أياً كان الأمر يا نظام... الأمر يعود للقانون وستقرر المحكمة مصير ابن أخيك. لكنني سعيد باتصالك فنحن بحاجة للحديث مع هاسر هانم. هناك بعض

الأسئلة التي نريد أن نطرحها عليها.

توقف السعال لكنه لم يستطع الرد فقلت بصرامة:

- إن كنت لن تسمح لها فسنضطر لإحضارها إلى مركز الشرطة بمذكرةٍ من المحكمة...

توقفت نوبات سعاله فجأة وقال:

- أسمح لها؟ لا تكن سخيفاً... يسعدنا أن نتعاون معكم. لماذا لا تأتي لزيارتنا؟ يمكنك أن تتكلم مع هاسر ونتناول الطعام سويةً.

عاد نظام إلى أسلوبه المراوغ... لا بدّ أنه استفاد كثيراً من كونه مقرباً من رجال الشرطة، محرجاً إياهم بما يفعله معهم.

قلت ببرود:

- شكراً. لكن دعنا نلتقِ في الخارج.
- طبعاً يا حضرة الضابط فالنادي مغلق لأنه مسرح جريمة... تعال إلى أوكاكباسي فهو هادئ للغاية في المساء... إنه في شارع إيبيك... سترى اللافتة حين تدخل الشارع... إنها على اليمين...
- موافق. سنكون هناك في تمام الرابعة.

وحين أغلقت الباب فُتح الباب الجانبي وجلس علي على المقعد بجانبي بينما جلست زينب في الخلف كالعادة.

سألتهما لأتحقّق من أنه لا يوجد شيء ناقص:

- هل ننطلق؟ أكلُّ شيء على ما يرام؟

أجابا معاً:

- نعم يا حضرة الضابط.

أدرت المفتاح وبدأ المحرك المنهك لسيارتي القديمة يهدر على الفور، فأغلق علي قبضته ولكم اللوح برفق.

- انظر إليها! سيارتك بحالةٍ جيدة من جديد يا حضرة الضابط.

أجبته بفخرٍ مبرّر:

- بالطبع... لقد وصلت للتو من الكاراج. تم إصلاح المحرك والمكابح والمشع.

قالت زينب من المقعد الخلفي:

- والتدفئة تعمل أيضاً... لقد كانت من قبل باردة للغاية لدرجة أن أسناننا كانت تصطك.

التفت وحملقت بها مداعباً.

- أتقولين إنها كانت باردة؟ هذه السيارة هي التي كانت توصلك إلى المنزل في منتصف الليل يا عزيزتي زينب.

تفاجأت زينب بردّي اللاذع فقالت:

- لا يا حضرة الضابط... أعني... ليس هذا ما عنيته.

سألها علي ليزيد المزاح:

- إذن ما الذي عنيته؟ ماذا يفترض بها أن تفعل أكثر؟ فحتى مع الزيت المحترق وقطعها القذرة وعادمها الضعيف فإنها استمرت بالعمل ولم تتركنا عالقين في وسط الطريق.

نظرت إلى وجهه... الوغد يخفي ابتسامته تحت شاربه.

- مممم... إذن أنت تحاول إزعاجي أيضاً يا علي.

- لا يا حضرة الضابط. لا يمكن أن أفعل هذا.

لكن نبرة صوته كانت تقول العكس.

وقبل أن أدوس على البنزين رفعت رأسي بتصميم شخصٍ مخذول.

- كنت لأترككما أنتما الاثنين هنا، لكن لحسن حظكما هذه الملفات مستعجلة. لماذا لا تقومان، يا ناكري الجميل، بإلقاء نظرةٍ على حالتكما قبل أن تنتقدا سيارتي المسكينة...

ما إن خرجت هذه الكلمات من فمي حتى أدركت أنني تجاوزت الحدود. ماذا سأقول لو أنهما سألاني عن أي حالةٍ أتكلم؟ بالطبع سأقول ما يجول في خاطري... أقول إنه من السهل للغاية أن يجلسا هناك ويعلّقا على سيارتي في حين أنهما غير قادرين على إعلان حبهما أحدهما للآخر. لكن أيًّا منهما لم يسألني عما قصدته وإنما ضحك الاثنان فحسب. هنا لاحظت شيئاً آخر... لا تزال زينب ترتدي ثياب الليلة الماضية نفسها... قد يكون ذلك عادياً، لكن زينب دقيقة للغاية،

فأنت لا تراها ترتدي الملابس نفسها ليومين متتاليين إلا في الليالي التي نكون فيها مشغولين للغاية ولا تتمكن من العودة للمنزل وتضطر للبقاء بملابسها. ألم يذهب هذان الاثنان معاً الليلة الماضية؟ ألم تذهب زينب إلى المنزل؟ هنا تحركت الغيرة في نفسي لكنها لم تستمر طويلاً، فقد وبخت نفسي لكوني من الطراز القديم واختفى الأب غير المتسامح ليحل محله المدير المتسامح. تمنيت أن يكونا قضيا الليل معاً، فهذان الشابان يستحقان السعادة أكثر من أي شخصٍ آخر لكنني فجأة أحسست باليأس. فحتى لو بقي الاثنان في المنزل نفسه فإنهما سيعتبران أن من غير اللائق أن يلمس أحدهما الآخر. لكن هل كان ذلك صحيحاً أم أنهما يحاولان خداعي؟ هل يتظاهران بالخجل أمامي في حين كانا يستمتعان بوقتهما من وراء ظهر مديرهما الساذج؟ لا... لا يمكن أن يفعلا هذا... لا أتوقع هذا، لا من زينب ولا من علي... لكن بالتأكيد هناك شيء قد حدث بينهما، فقد ظهرا سعيدين، لكن وجهيهما كانا مرهقين للغاية كوجهي... لا... لم أرهما هكذا من قبل... الطريقة التي يتبادلان فيها النظرات، وحتى صوتاهما كانا مختلفين... أينبغي لي أن أسأل؟ لكن عمّ ينبغي أن أسأل؟ هيه يا أولاد... هل قضيتما الليلة سوية؟ هذا مستحيل.

قلت بصوت جدي:

- نعم يا زينب... هل من أدلة جديدة منذ الليلة الماضية؟

بعد أن غادر سادري وعزيزة اتصل علي بجيل التي تعاملت مع طلبنا لقاءها بكياسة. كانت قد علمت من الصحف أن إنجين قد قتل وحزنت للغاية وكانت ترغب في مساعدتنا بالطبع لكنها ستسافر إلى أنقرة هذا المساء، لذا فإن علينا إما أن نلتقي بها مباشرة وإما أن ننتظر حتى اليوم التالي، فانطلقنا مباشرة لئلا نفوّتها وأخذنا معنا زينب لنمر على المختبر الجنائي ونستلم النتائج. ثم سنعقد اجتماع التقييم الذي لم نستطع عقده هذا الصباح في سيارتي القديمة المخلصة.

بدأت زينب تشرح:

- الأدلّة ليست كثيرة... بحوزتنا ملفّان مهمّان، الأول مرتبط بتايدي طارق فقد عثر رجال الشرطة الذين كلفتهم بالمهمة على حسابه المصرفي وقد تم إيداع مائتي ألف ليرة فيه قبل أسبوع.

قال علي مباشرة:

- دفعة لقتل إنجين.

ربما يكون تخمينه صحيحاً فالشخص الذي أودع المال هو نفسه الذي استخدم تايدي. نظرت في عينيّ زينب من خلال المرآة وسألت:

- مَن الذي أودع المال؟

- هو... لسوء الحظ. نعم يا حضرة الضابط... لقد أحضر طارق النقود إلى المصرف، ما يعني أن من أراد قتل إنجين قد فهم كيف تسير هذه الأمور فأخفى آثاره. كما أننا حددنا مكان إقامة طارق... إنه فندق كبير في سيراسيلفيلير اسمه ريكات... سأمر عليه هذا المساء فقد أجد شيئاً.

حين خرجت السيارة من المرأب المغلق أعمتني شمس الشتاء ووهجها على الثلج غير الذائب والضوء المنعكس على الإسفلت المبلل... كان النور ساطعاً أكثر من أي يوم صيفي، وحين تعوّدت عيناي على الشارع سألت:

- هل تحقّقتم من حسابات المشتبه بهم؟ في حال تم سحب المبلغ نفسه فسنعرف مَن الذي استخدم طارق.

هزّت زينب رأسها برفق لتفوح رائحة عطرها.

- لقد طلبت هذا من الشباب قبل قليل، وسيلقون نظرةً على حسابات إحسان ونظام وجيل ونازلي، كما سيتحقّقون إن قام أحد بسحب مائتي ألف وسنتلقّى الجواب غداً.

حذّرني مساعدي:

- من الأفضل التحقّق من حساب عزيزة أيضاً لأن جيل كان تودع نقود الضحية في حسابها...

لم تعتقد زينب أن الأمر محتمل فقالت:

- كفاك يا علي... لا يمكن لتلك الفتاة إيذاء أحد.

إذن لم يكن الأمر متعلقاً بنا نحن الرجال فقط، فقد أثارت عزيزة الإحساس نفسه بالبراءة لدى النساء أيضاً.

قلت معارضاً زينب:

- ولهذا نحن بحاجة للتحقّق يا زينب، ففي جرائم القتل غير المحلولة تبدئين الشك بالأقل إثارة للشبهات.

لم تقتنع لكنها لم ترغب بالجدال:

- كما تريدان... حسناً يا حضرة الضابط... سأتصل بالشباب وأطلب منهم التحقّق من حساب عزيزة أيضاً. في الواقع حصلنا على بعض المعلومات حول نازلي إذ إن هناك ملفاً ضخماً في القسم السياسي.

أدار علي رأسه بحماسة:

- القسم السياسي؟ أكانت عضواً في منظمة سياسية غير قانونية؟

لسبب ما كان يكره نازلي كثيراً.

- ليست هي شخصياً وإنما فرحات سيراج الذي تمت تسمية المركز باسمه، وكانا قد درسا سويةً في الجامعة. ينحدر سيراج من عائلة فقيرة حيث كانت أمه تعمل في مصنع تيكيل للشراب وكان أبوه عضواً في اتحاد التجارة، وقد ورث فرحات يساريته من أبيه فكما تعلم الولد سر أبيه، وحينها وجد فرحات أباه سلبياً للغاية فانضم إلى منظمة أكثر تشدّداً... واحدة من تلك المنظمات التي تدعو للكفاح المسلح، وخلال احتجاجات الطلاب اعتُقِل مرات عدة بسبب الاشتباك مع رجال الشرطة، وقد كانت نازلي مشاركة في بعضها أيضاً.

سأل علي بانفعال:

- أتعنين أنهما كانا حبيبين؟ الآن فهمت لماذا سمّت المركز مركز فرحات سيراج الثقافي...

قالت زينب وهي تقحم رأسها بين المقعدين الأماميين وعيناها تبرقان:

- في الواقع كان حباً من طرف آخر. فوفقاً لتقرير كتبه رجال الشرطة المتخفون الذين اخترقوا المجموعة فإن فرحات لم يكن يكترث بنازلي... أنا أتكلم عن تقرير كُتِب قبل عشرين سنة، ولم تكن نازلي تكترث بالمنظمة وإنما بالحب من طرفٍ واحد. لكن فرحات كان يراها من الطبقة البرجوازية فوالدها حقي بيك كان مليونيراً من مالكي العقارات وعمل كوسيط عقاري كما أجَّر وباعَ المباني التي هجرتها الأقليات التي اضطرت للهرب من إسطنبول... في كورتولوس

وبابات وتارلاباسي و...

تمتمت:

- لا بدّ أن هذا هو السبب الذي جعل نازلي تفتح مركزاً ثقافياً في تارلاباسي.

لم تسمع زينب ما قلت.

- ماذا قلتَ يا حضرة الضابط؟

- لا تهتمي... أكملي.

- أظن أن حقي بيك كان فاسداً أيضاً، فقد تم رفع بعض الدعاوى عليه من قِبَل المواطنين الذين هاجروا إلى اليونان، لكنهم لم يربحوا ولا تم إسقاط القضايا... أعني أن نازلي تنحدر من عائلة ثرية لا من عائلة برجوازية أو من الطبقة المتوسطة، كما أنها كانت جميلة في شبابها، فقد رأيت صورها وأقسم إنها كانت كعارضة لكنها كانت تعشق اليساري. تم اعتقال فرحات عام 1998 وزُجّ به في سجن عمرانية حيث كانت نازلي تزوره كل أسبوع وأرادت توكيل أفضل المحامين لإخراجه لكن فرحات رفض، ولم تألُ نازلي جهداً في دعم الرجل الذي تحبه. لكن قبل قراءة الحكم قام جميع المساجين الذين لا يريدون الذهاب إلى سجون من الدرجة العاشرة بثورة... لقد كان حدثاً ضخماً... وحدث إضراب عن الطعام واحتجاجات... أتذكر يا حضرة الضابط؟ كانت العملية تدعى: عملية العودة إلى الحياة.

تذكّرت الأمر جيداً فقد كانت الحكومة قاسية وخسر عشرات المساجين حياتهم كما لقي بعض حراس الأمن حتفهم.

أكملت زينب تقريرها:

- لسوء الحظ مات فرحات سيراج حرقاً خلال تلك العملية وانهارت نازلي وتعرضت لعلاج نفسي لفترة، وحين تعافت أرسلها حقي بيك إلى باريس بحجة الدراسة في مدرسة فنون خاصة، لكن هدفه الحقيقي هو أن يضمن أنها تعافت من الصدمة. أحبت نازلي فرنسا ولم تنضم لليساريين الأتراك هناك وإنما أنشأت علاقات وطيدة مع مناصري البيئة والنساء وحقوق الإنسان، وحين توفيت أمها عادت إلى تركيا وبقيت هنا لئلا يبقى والدها وحيداً. وقد مات أبوها أيضاً قبل

ست سنوات لتكون هي الوريثة الوحيدة لثروة طائلة، وتشق طريقها، فلم تشارك في أي مشروع تجاري وإنما فتحت المركز الثقافي في تارلاباسي بالأموال التي كسبتها من العقارات وبدأت تساعد الناس.

لم يقتنع علي بالقصة فهو ليس أحمق.

- ماذا تعنين؟ فتحت المرأة المركز فقط لأنها تحب فعل الخير؟ أنت تقولين إنه ليست لديها أي أهداف إيديولوجية؟

حاولت تذكر وجه نازلي... الخطوط العميقة على جبهتها، والتجاعيد المحيطة بعينيها، والشعر البني الذي بدأ يتسرب إليه الشيب، والكتفان المنحنيتان اللتين كانت تحاول رفعهما، ونظرتها المتعاطفة والمليئة بالألم.

قلت:

- ألا يمكن أن تكون تحاول إراحة ضميرها فقط؟ أليس من الممكن أنها تحاول فقط أن تجد بعض السلام الداخلي بفعل الخير.

لم يرَ أي منطق في هذا.

- لا أظن ذلك يا حضرة الضابط... لماذا تعاني المرأة من تأنيب الضمير؟ لماذا تعتبر نفسها مسؤولة عن هؤلاء الأولاد الذين يتعاطون المخدرات؟ وماذا عن هجوم فيدان على وكر القمار؟

في اللحظة الأخيرة لاحظت الضوء الأحمر لإشارة المرور فضغط برفق على المكابح وأجبت:

- بسبب أبيها يا علي... بسبب الثروة الطائلة التي جناها المقاول حقي. ماذا قالت زينب؟ كان الرجل يتاجر بالأبنية التي تركها المواطنون الذين يهاجرون إلى اليونان ويتركون جميع أملاكهم وراءهم. لقد كان يسعى للاستيلاء على منازل المواطنين المهاجرين بثمنٍ بخس... كان من المستحيل ألاّ تلاحظ نازلي هذا الفساد... أظن أنها كانت تشعر بالخزي، وربما رفضت ثروته وأرادت التخلص من العبء الثقيل للثروة القذرة... على الأقل كانت لديها فكرة استخدام المال لفعل الخير... لقد أرادت مساعدة أولئك الناس الذين وقعوا ضحية الخداع القذر الذي ساعده في الحصول على أملاكهم.

وكالعادة لم يقتنع الشرطي المرتاب.

- ربما، لكنني أظن أن المرأة تبدو مناضلةً أكثر من كونها فاعلة خير... لقد رأيتها في الطريق إلى تلك المظاهرة... نظرتها الحازمة... إنها لن تستسلم، ومستعدة للتضحية بحياتها وملتزمة بمثلها. لا تسئ فهمي... ليس الأمر أنني لا أقدّر ذلك، لكنني أظن أن هناك مجموعة سياسية غير قانونية تدعم نازلي وربما تكون هي من أنشأ المجموعة... لِمَ لا؟ في تلك الحالة يمكنها الانتقام من النظام لأجل الرجل الذي أحبت، وقد ساعدتها مقاومة متنزّه غيزي. من الممكن أن تكون هي مَن شكلّت مجموعة الثلاثاء من الشباب الذين جندتهم هناك... بالطبع! ربما تكون نازلي وراء قتل إنجين فهو عدوها وقد تشاجرا مسبقاً، كما أننا عثرنا على خريطة المركز الثقافي في خزنة القتيل. المرأة ليست مغفّلة. أهي ساذجة لدرجة أنها لا تعرف نوايا رجال نظام؟ لقد جمعت العصابة بكاملها وهاجمت ناديه... حتى دايس إحسان لم تكن لديه هذه الشجاعة. أرأيتم كيف ظهرت فجأة في مسرح الجريمة الليلة الماضية؟ في الوقت نفسه الذي وصلنا فيه تقريباً... ربما كانت قد أرسلت الشباب إلى نادي بلاك نظام وكانت بانتظار النتيجة، وحين هربوا من مسرح الجريمة وأوصلوا لها الخبر الأليم أسرعت إلى هناك... أليس ذلك ممكناً؟

بالطبع كان ممكناً لكنني لم أرَ أي مغزى في أن تحتمي امرأة، تكرس حياتها للأشخاص الذين يحبونها، وراء موت شابة. لو أن نازلي رأت أن من الصواب رمي قنابل المولوتوف على أوكار القمار لكانت أول من يرمي. إنها غير عادية. ففي غابة من الأبنية المتداعية المعروفة باسم تارلاباسي كانت امرأة وحيدة تنفق ثروتها ومواردها على أدنى طبقات المجتمع. لا... حتى لو كانت كلمات مساعدي منطقية فإن حدسي يقول إنه مخطئ لكن ينبغي ألاّ أستعجل في الاعتراض، فقد صادفتني حالات في قضايا القتل تنافي المنطق والضمير والخبرة بحيث تقودنا إلى الطريق الخطأ في تحديد الجاني.

قلت وأنا أضغط على دوّاسة الوقود:

- ما رأيكِ يا زينب؟ أيمكن أن تكون نازلي وراء هذا؟

ألقت نظرة على المرآة وقالت:

- ما يقوله علي يتناسب مع الظروف إذ يمكن بناء سيناريو منطقي على هذه الفرضية، لكن هذه الجريمة لا تبدو كعملية اغتيال نفذها الثوريون... لو أنهم الجناة لتركوا رسالة أو اتصلوا بالصحف... "معاقبة المقامرين المقيتين لإفسادهم الناس" أو "سنخرج جميع المستأجرين من تارلاباسي" أو شيء مماثل. كما أن إنجين قُتِل بسكين ولم يكن هناك أيّ مسدس ما يعني أن الكلاشينكوف من الليلة الماضية من نسج خيال...

ثم نظرت إلى مساعدي أملاً في أن يفهمها.

«ما تقوله ليس مرفوضاً، فأنا أوافقكَ أن نازلي من المشتبه بهم لكن الأسباب التي ذكرتها للتو تقلّص من إمكانية كونها القاتل، كما أنني لا أقلّل من شأن المرأة... لا لأنها تساعد المحتاجين وإنما لأنها بقيت مخلصة لحبها. فكّرْ في الأمر... مات فرحات ومرت السنون، لكن نازلي لا تزال تعمل على إبقاء اسمه حياً.

أليست الحياة ما نتخيّل أكثر مما نعيش؟



حين تركنا زينب ووصلنا إلى مبنى الشقق في سيهانغير كان الوقت ظهراً. كانت جيل هانم قد ضمت أعلى شقتين لتكوّن شقة دوبلكس. علّقت الخادمة معطفينا واستقبلتنا بكياسةٍ فتبعناها عبر السلّم الخشبي الأنيق إلى الشرفة المحاطة بالزجاج في الطابق الثاني. في البداية شممنا رائحة عطر ثم رأينا أحواضاً من الخزف تحوي أزهار السحلبية والقرنفل المتفتحة، والأقحوان الأصهب، والأزالية البنفسجية، وتشكيلة من الورود الشتوية... كان مكاناً مشرقاً يرسم البسمة على وجه المرء... وكانت هناك طاولة إفطار أمام النافذة الكبيرة المطلة على البحر تجلس عليها جيل بانتظارنا، وقد غطت عينيها عدستي نظارة شمسية كبيرة. لا بدّ أنها أنهت طعامها للتو، فلا تزال أطباق الجبن والزيتون والمرتديلا واللحم المقدّد والعسل والقشطة وغيرها على الطاولة. كانت ترتدي ثوباً بلون الورود الحمراء القانية في الآنية البنّية... ثوباً مغرياً يظهر نصف ثدييها المحقونين بالسيليكون ويصل طوله حتى ركبتيها. حين رأتنا ارتعشت شفتاها وكأنها على وشك الابتسام، لكنها لم ترفع نظّارتها الشمسية الداكنة ولا حاولت الوقوف وإنما اكتفت بمد يدها اليمنى كملكة.

- أهلاً.

أظن أنها توقّعتنا أن نقبّلها، لكنني اكتفيت بمصافحتها أما علي فلم يكترث لها.

قلت وهي تسحب يدها من يدي:

- بالصحة والهناء يا جيل هانم. أنا الضابط المحقّق نيفزات...
- سعيدة بلقائك.

كان من المفترض أنها تتكلم معي لكن نظرتها كانت مثبتةً على عليّ. أظن أنها لم تستطع رؤيتنا جيداً لأنها في النهاية خلعت نظّارتها وسألت:

- لماذا لا ترتديان بذلتين؟

قال علي:

- ماذا؟ ماذا قلتِ يا سيدتي؟

وبينما كانت تضع النظّارة على الطاولة نظرت إليّ نظرةً فارغة.

- لماذا كل الشباب سريعو الغضب؟

ولم تنتظر ردّي وإنما تمتمت وهي تحملق بإعجابٍ بالشرطي الشاب:

- مع ذلك... تبدو أكثر وسامةً حين تغضب.

توليت على الفور دور الرجل العقلاني متوسط العمر وقلت بفخر:

- هذا المحقّق علي... إننا نعمل سوية.

- علي؟ أحب الرجال الذين يمتلكون أسماء قصيرة، لكن عليّ الاعتراف أنني أحبهم أكثر حين يرتدون بذلات.

هزّ علي رأسه لتوبيخها لكن المرأة لم تكترث وإنما التفتت إليّ وابتسمت ابتسامةً رقيقةً بشفتيها المنفوختين بالسيليكون وقالت وهي تنقر على الطاولة بأظافرها المطلية باللون الأسود اللامع:

- ألا تظن ذلك يا نيفزات بيك؟ الرجال يبدون رائعين بالبذلات وخاصة الشباب...

كان من الصعب تحديد إنْ كانت تتصرّف على نحوٍ طبيعي أم أنها تتظاهر لتخفي تفكيرها الحقيقي، وفي كلتا الحالتين كان الوقت قد حان لوضعها في مكانها فقلت وأنا أسحب الكرسي المقابل لها:

- أحد أولئك الشباب ينام في المشرحة الآن يا جيل هانم...

توتّر الموقف، لكنها لم تسمح لنا بالإساءة إليها فاتكأت للخلف للابتعاد قليلاً.

- أتقصد إنجين؟

نظرت إليها بسخريةٍ وقلت:

- وهل هناك أحد غيره قد قتل؟

وفجأةً تلاشت تعابير عدم الاكتراث واللامبالاة عن وجهها.

- لا... لا أعرف. لم أسمع سوى عن إنجين...

تفاجأت قليلاً من توتّرها لكن سؤال علي قطع أفكاري.

- متى رأيتِ القتيل آخر مرة؟

- أتقصد إنجين؟ قبل أسبوع. لا... لا... قبل عشرة أيام... تقريباً.

- هل ناقشتما أمر الأبنية التي اشتريتماها في تارلاباسي؟

التوى وجه جيل وفتحت فمها.

- لا داعي لإخفاء الأمر فنحن نعلم أنكما تعملان معاً.

استقامت في مقعدها وسحبت الثوب حولها محاولة تغطية ثدييها وساقيها ثم التفتت إلى الخادمة التي لا تزال تقف في مكانها.

- هل سألت السيدين ماذا يريدان أن يشربا يا عزيزتي؟

كان واضحاً أنها تماطل.

- لا شيء... شكراً... أرجوك أجيبي عن السؤال...

التفتت إلى الخادمة وقالت:

- إذن يمكنك الانصراف.

أحست الخادمة أن هناك خطباً ما، فاحمرّت وجنتاها، لكن لم يكن من الممكن أن تتدخل فقالت وهي تخرج من الشرفة بسرعة:

- كما تريدين يا سيدتي.

- ما سمعتماه خطأ يا نيفزات بيك.

نعم... لا بدّ أنها تخلّصت من الصدمة الأولى لأنها بدأت بهجومٍ مضاد لكن صبري بدأ ينفد فقاطعتها:

- أرجوك يا سيدتي... لا تحطّي من قدرك أكثر. نحن نعرف أنك أرسلت لإنجين مبلغاً ضخماً من المال وكنت تودعينه في حساب فتاة اسمها عزيزة. يمكننا إحضار إيصال البنك في حال احتجنا.

ضاقت عيناها العسليتان وظهرت علامات الهزيمة على وجهها.

– كيف سمعتما بذلك؟

– ماذا يهم ذلك يا جيل هانم؟ لقد كنت تعملين مع إنجين.

تبدّدت كبرياؤها وحدّقت قليلاً إلى فتات الخبز والجبن على الطبق أمامها ثم قالت بصوتٍ مفعم بالاستسلام:

– لقد كنا حبيبين. ليس في الأمر ما قد أفخر به، فأنا امرأة متزوجة لكن زوجي طريح الفراش منذ ثلاث سنوات ومصاب بسكتة دماغية منذ ستة أشهر. وفي كل الأحوال علاقتنا... كيف أشرح لك... كانت علاقتنا مفتوحة... ربما تكون قرأت عنا في مجلات الفضائح. وقبل أن يُصاب زوجي رفعت بالسكتة... إنه أمر شخصي... لكن ما أريد قوله هو أنني وإنجين حبيبان ولسنا شريكين... لم نكن نقوم بأي عمل معاً وإنما كنت أساعده فحسب.

اكتفى علي بما سمعه.

– لا يبدو الأمر كأنك كنت تساعدين قليلاً، فقد أرسلت للرجل ثروةً صغيرة.

عادت إليها غطرستها المتعالية.

– لم يكن المبلغ كبيراً يا عزيزي... كما أنه كان يسدّد ما أخذه مني... بدفعات بالطبع. كان يحضر المال إلى منزلي ويسلمني إياه. إذا طلبتما بيان حساب من البنك فلن أستطيع تقديم شيء.

كانت تكذب بكل جرأة.

قاطعتها:

– ليس هذا ما أخبرتنا به عزيزة... أنت تعرفين عزيزة... أليس كذلك؟ تلك الفتاة الشابة ذات الوجه الطفولي؟ لقد وقع إنجين في غرامها من النظرة الأولى. كنت معه تلك الليلة... في نيسي بافيون.

كنت آمل أن أحشرها في زاوية، لكن كلماتي أعطت تأثيراً غير متوقع. فقد تغضّن حاجباها المرسومان، واختفت تلك النظرة من عينيها وبدأتا تتوهجان، وهي تعدل من جلستها وكأنها تستمد الطاقة من مصدرٍ خفيّ.

– أصدّقتكم تلك المومس عزيزة؟

فجأةً تحوّلت مضيفتنا الراقية إلى امرأةً سوقية.

أجبتها:

- نعم هذا ما قالته عزيزة هانم. كان معكما بلاك نظام وامرأة اسمها فيوليت.

زمجرت من مقعدها:

- هذا كذب، تلك الساقطة تكذب.
- هذا ليس عدلاً يا جيل هانم. الشتائم لا تناسب سيدة مثلك.

لم أحذّرها لأنني أردتها أن تغضب أكثر فتفصح عن مزيدٍ، وإنما لأنني كنت أتصور وجه عزيزة البريء أمامي.

أدارت عيناها المتوهّجتان وكانت على وشك لفظ شتيمة كبيرة، لكنها أوقفت نفسها في اللحظة الأخيرة وقالت وهي تنظر بعيداً:

- أعتذر. تلك... أغوته بالمخدّرات وإلا لماذا يكترث لها رجل كإنجين؟
- تعنين الكوكايين.
- هل سمعت بالأمر من قبل؟ كنت لأتفاجأ لو قلتَ إنك لم تسمع. إنهما يتنشّقان الكوكايين ليل نهار... أنف الفتاة القبيح سيسقط يوماً من كثرة نفخ...
- كان نظام أيضاً يتعاطى كما سمعنا.

أفسدت كلمات علي السعادة التي على وجه جيل.

- لا... لم أسمع بهذا. لا أريد أن أتّهم أحداً زوراً. لا توقعاني في أي مشاكل مع نظام بيك.

لا بدّ أنها تخاف من رئيس المافيا القبيح... ربما يكون ذلك الخوف سبب استعدادها لإرسال المال إلى حساب عزيزة، فهي لا تريد أن يعلم نظام أنها كانت تعمل مع إنجين.

أكملت:

- لكنّ هناك فتاةً تُدعى سيليم... اسمها الحقيقي هاسر... إنها خليلة نظام وفي الوقت نفسه صديقة عزيزة... إنها أيضاً مدمنة على المخدرات... ربما يكونون ضمّوا نظام بيك إلى تلك المجموعات بالأسلوب نفسه... تعرف ما أعني... تلك الحفلات الجماعية...

لقد خذلتني جيل لأنني كنت أتوقّع أن تكون أكثر سلاسةً وحزناً وأكثر إخلاصاً

لحبيبها، لكن يبدو كأنها لا تكترث لوفاة إنجين. أما الغيرة التي تشعر بها فقد كانت منبعثةً من المعركة التي كانت تخسرها أمام نساء أصغر منها، ما يجعلها ضعيفة. لا بدّ أن مساعدي كان يشاركني أفكاري لأنه استحثّها.

- لقد سمعنا ذلك أيضاً فقد كانوا يجتمعون في منزل عزيزة... أربعتهم... إنجين وعزيزة ونظام وسيليم... ربما كانت عزيزة من ينظّم الحفل. لكن انظري... لقد انتهت العلاقة نهايةً سعيدة.

صمتت والفضول يكاد يقتلها ثم قالت بصبر نافد:

- أي نهاية سعيدة؟
- ألم تسمعي؟ لقد تزوّجا.

ارتجّت وكأنها تلقّت ضربةً خفيةً وقال بصوتٍ يملؤه الذعر:

- من؟
- نظام وسيليم...

تنَفّست جيل الصعداء.

قال علي مكملاً اللعبة:

- يوم مقتل إنجين. في حفلٍ صغير في جبل أولوداغ في بورصة.

هزّت رأسها وكأنها تعرّضت للخيانة.

- يوم مقتل إنجين؟ إذن استطاعت سيليم أخيراً أن تصل إلى ما تريده من نظام.

لم يكن واضحاً إنْ كانت تنتقد سيليم أم تشعر بالأسف على نظام لكنها لم تقل «بيك».

قلت بود:

- لستِ بحاجةٍ لإخفاء الأمر أكثر. نعلم أن نظام من كان يحضر لهم المخدرات...

لم تعترض مباشرة وإنما رمقتني بنظرةٍ كأنها تحاول معرفة نواياي فأكّدت لها:

- هذا صحيح. كان نظام يزوّدهم... لديه سجل إجرامي، كما تم القبض على رجاله وبحوزتهم شحنة من الهيروين التي يرسلونها إلى إيطاليا... لا بدّ أنك سمعت بأن دوردو عم إنجين كان يتاجر بالمخدرات أيضاً وقتله الإيطاليون. كان دوردو هو من عرّف إنجين إلى بلاك نظام وأرسل ابن أخيه للبقاء معه.

أنصتت جيل بصمت.

- كان دوردو يحب إنجين كابنه وأراد أن يحميه، لكن يبدو أنه اختار الشخص الخطأ لفعل ذلك.

انفجرت:

- ماذا تقصد؟ نظام قتل إنجين؟

هذه المرة راقبتها قليلاً بعينين يملؤهما التلميح ثم سألتها:

- أليس ذلك ممكناً؟ نعلم أن إنجين كان يقوم بأعمال من وراء ظهره، كما أن وحشية نظام معروفة...

فتحت عينيها البنيّتين بتوجُس.

- أتتكلّم عن الأبنية في تارلاباسي؟

وأدركت أنها ورّطت نفسها فحاولت إصلاح الأمر.

- أعني المنازل اليونانية التي اشتراها إنجين؟

- وهل هناك غيرها؟ لديه تسعة صكوك ملكية. هذه الأمور التي نعلم بشأنها، وتارلاباسي صغيرة جداً ككف يدك... أتظنين أن من الممكن ألاّ يكون نظام يعلم بالأمر؟

شهقت جيل:

- أيعلم بشأني أيضاً؟ أعني... أنني كنت أساعد إنجين؟

فجأة بدأت الأمور تتّضح.

- البارحة استجوبنا نظام وهو لم يوجّه أيّ اتهامات لك لكنك تعرفين مدى خبثه، فهو يخفي عداءه إلا أنه لا يغفر أي خطأ بحقه... أعني أنه يدرك بالتأكيد الأموال التي أعطيتها لإنجين، لكنه يأخذ وقته وينتظر حتى تهدأ الأمور قبل أن يصفّي الأمور معك ومع إحسان.

تمتمت بفزع:

- إحسان؟ ما علاقته بالأمر؟

كان رد فعلها مفاجئاً، فبدلاً من أن تشعر بالأسف على نفسها خافت من ملاحقة نظام مقامراً آخر.

أجبت سؤالها بسؤال:

- ماذا تظنين؟ لماذا يريد نظام الانتقام من إحسان؟
- وكيف لي أن أعلم؟

لم أكن سأدعها تتملّص من الأمر.

- يبدو لي أنك تعلمين فقد ظهرت تعابير مضحكة على وجهك حين سمعت باسم إحسان.
- ليس للأمر علاقة بإحسان بيك، لكن ما تقوله رهيب... إنني أعرفه منذ زمن... لقد التقيته قبل أن يمرض زوجي حيث كنت أذهب أنا ورفعت إلى نواديه سويةً وكنا صديقيه... أنا أعرف العداء بينه وبين نظام بالطبع وهذا هو السبب...

كانت بالتأكيد تخفي شيئاً عنا لكن لم تكن لديّ أدنى فكرة ما هو، وبينما كنت أفكر في الضغط عليها أكثر سبقني علي.

- متى التقيت إنجين؟

رمشت بأهدابها الطويلة مجدّداً.

- قبل عامين... لا أدري... ربما قبل ذلك... في نادي إحسان بيك... كان نادي تارلاباسي قد فتح للتوّ فقد كان في طارابيا من قبل... أنا أتكلّم عن أيام والده... ثم ساعدهم نظام في الانتقال إلى هنا. لم تكن هناك أي مشكلة بين الاثنين في تلك الآونة. لقد ذهبت إلى هناك مع زوجي وقد أُعجب كلانا بإنجين.

ما الذي تتكلم عنه هذه المرأة؟ ومرةً أخرى سبقني مساعدي الشاب.

- حين قلت إنكما أعجبتما به... ماذا قصدتِ؟

ظهرت نظرة غريبة على عينيها البنيتين لكنها لم تكن جريئةً من قبل جرأتها الآن.

- ألا تفهمان؟ لقد كان رفعت يحب الرجال بقدر حبه للنساء.

وحين رأت الاستهجان على وجه علي قالت:

- قد تجدان الأمر غريباً لكن رفعت كان شخصاً جيداً... آه... إنني أقول «كان» فقد فقدت تعاطفي وبدأت أتكلم عنه كأنه ميت لكنه لا يزال على قيد الحياة إن كنتما تسميان هذه حياة...

من الغريب أن عينيها امتلأتا دموعاً... لا بدّ أنها تحب زوجها بحق.

- ومع ذلك فإنني أرفض سحب القابس الذي يبقيه على قيد الحياة لأنني أعلم أن رفعت سيصحو يوماً ما وينهض من ذلك السرير...

خيّم جو من الكآبة على الشرفة فسارعت لمنع مساعدي من طرح أي سؤال مزعج عن ميول رفعت بيك الجنسية.

- ألديك أطفال؟ أعني من رفعت بيك...

جالت عيناها على بحر مرمرة المتوهّج لبرهة كأنني ذكرت حلماً لم تَرَه يتحقّق.

- لم يكن يرغب في ذلك إذ إن لديه ولدين من زوجته الأولى إيميل هانم. حين تزوجني لم يكن يرغب في مزيدٍ من الأطفال، لكن للإنصاف فإنه قبل أن يتزوجني أجلسني وسألني: "أنت تعرفين من أنا... جميع عيوبي وأخطائي... أما تزالين تريدين الزواج بي؟". نعم... لقد استخدم الكلمات نفسها وهو يربّت شعري كما لو كنت فتاةً صغيرة... لقد كنت أحبه بجنون فأجبته: "بالطبع". فقال لي: "لكنني لن أنجب أيّ أطفال لا لأن لديّ ولدين، وإنما لأن العالم رهيب ولا أريد إحضار طفل آخر إليه". وأملاً في أن أقنعه قلت: "لا تستسلم... سيكون أفضل يوماً ما". لكنه قال: "لا... أنت أصغر مني بكثيرٍ ولا تعرفين الناس... لن يصبح أفضل على الإطلاق". نعم... لقد كان متشائماً... ولِمَ لا؟ لقد قاطعه ولداه لأنه سيتزوّجني وسادت الكراهية بينهما. وحتى الآن لا يأتي الولدان لزيارة والدهما في المستشفى على الرغم من أنهما مدينان له بكل شيء... منزلاهما وعملاهما وسياراتهما الفخمة وحساباتهما البنكية... لم يسامحاه... ربما كانت القسوة التي رآها في ولديه هي التي جعلته لا يرغب في طفلٍ آخر... من الصعب التأكد لكن تشاؤمه زاد في الآونة الأخيرة.

سأل علي:

- إذن أنتما التقيتما إنجين قبل أن يمرض زوجك؟ حينها كان إنجين... ما أقصده هو...

نظرت بازدراء إلى مساعدي.

- لا... لم يكن إنجين غير سوي ولم يقم أي علاقة مع رفعت.

احمرت وجنتا فتانا المخزي.

- ليس هذا ما عنيته.

- بلى، هذا ما قصدته بالضبط. لا تقلق فسأخبرك لو كان بينهما مثل هذه العلاقة... هذا ليس أمراً مخزياً أيها المحقّق علي فالناس يعيشون كما يريدون.

كان على رئيسه بالطبع أن يسحبه من الحفرة التي أوقع نفسه فيها فقلت متظاهراً بالتفهم:

- في كل الأحوال دعونا نترك رفعت بيك... إذن كانت علاقتك بإنجين لا تزال مستمرة بالنظر إلى أنك لم توقفي مساعدتك...

ظهر الحزن في عينيها مجدّداً.

- كان يأتي إليّ مرة في الأسبوع على الأقل لكنه كان يأتي أكثر قبل أن تعبث تلك الفتاة عزيزة برأسه. لا تظنّا أن المخدّرات مجرّد عذرٍ فقد كان يتعاطى الكوكايين... سواء أكان رجال نظام أو غيرهم من يزوده بها، لا أعرف...

ابتسمت كما لو أنها قرأت أفكارنا.

- لا... أنا لا أتعاطى المخدّرات. لقد جربتها مرةً لكن العروق في أنفي انفتحت وبذلنا جهداً هائلاً حتى أوقفنا النزف وبقي أنفي متورِّماً مدة يومين وانتشرت الكدمات تحت عينيّ وكنت خائفة للغاية. كان رفعت يدخّن المارجوانا ليسترخي لكنه لم يمس أي شيء كيميائي. أنا أخبركما بهذا لأنكما ستسمعانه من الآخرين لذا ينبغي أن تعرفا الحقيقة... أعلم أنه لا فائدة من إنكار أنني بدوت كالبلهاء حينها.

وتلاشى ذلك الوميض من عينيها نهائياً وانخفضت كتفاها، ثم أصبحت فجأةً امرأة عجوز على الرغم من أنها كانت أكثر صراحة:

- أنتما محقان... لم يكن إنجين يحبني كثيراً... أظن أنه كان يحبني بقدر عزيزة... ما المغزى؟ أليست الحياة ما نتخيّل أكثر مما نعيش؟ لكنني أتمنى لو أنني لم أُصدم بالواقع... كانت عزيزة ذلك الواقع.

مدّت يدها ووضعت المنديل على الطاولة وتمتمت:

- أفترض أنني لا أنتمي لهذه الفترة... الرجال لا يفهمونني... الوحيد الذي كان يفهمني هو رفعت وهو ليس هنا معي، فقد تركني في هذا العالم القاسي وذهب إلى عالمٍ مختلف تماماً. كنت أظن أنني ملأت الفراغ الذي تركه بإنجين لكنه كان أصغر مني كثيراً... الفرق بيننا خمس عشرة سنة... الفرق نفسه بيني وبين رفعت. كنت أظن الأمر ممكناً لكنني كنت مخطئة إذ لم أكن مليئة بالحب كرفعت ولم يكن إنجين ساذجاً مثلي. كنت أعلم أن إنجين سيتركني عما قريب لأنني سأكبر أسرع منه وسأصبح المرأة التي لا تُحتمل لكن إنجين الخائن تصرّف أبكر مما توقّعت. آسفة... ربما لهذا تلفّظت بتلك الشتائم وأزعجتك... ربما كانت تلك الفتاة المسكينة آخر شخص ينبغي لومه... عزيزة... جميلة بافيون... أي وجه بريء! أظن أن هذا ما جذب إنجين إليها... ما تركه وراءه قبل زمنٍ طويل... ربما منذ طفولته... تلك البراءة الزائدة.

إخبار الناس المخطئين عن خطئهم والاعتماد على أشخاصٍ يريدون أن نعتمد عليهم...



كانت الشوارع مغطاةً بالوحل. فإذا دستَ على أحد الحجارة غير الثابتة في شوارع بيه أوغلو أصاب الوحل ثيابك. كان هذا الجزء الأسوأ من الثلج: مرحلة الذوبان... كل شيء مبلل والثلج في كل مكان ومهما تحاول فلن تستطيع أن تبقى نظيفاً وجافاً.

أرسلت علي بالسيارة لإحضار زينب من المختبر الجنائي حتى نلتقي في منزل عزيزة بعد الظهيرة، ومشيت في الشوارع الخلفية باتجاه شارع الاستقلال وأنا أقفز من حجرٍ إلى حجرٍ وأفكر بجيل. بصراحة كنت متعاطفاً مع المرأة على الرغم من أنني كنت أعرف أنها تكذب... نعم... لم تكن علاقتها بإنجين مجرّد علاقة حب، وإنما قامت المرأة باستثمار من خلال شراء البيوت اليونانية في تارلاباسي دون علم نظام. لكن ما أحزنني هو عجزها، فقد عاشت حياةً كانت تعلم أنها ليست الحياة التي أرادتها، والأسوأ أن شبابها قد ولّى وهي تعيش الحياة التي أرادها لها غيرها، وعلى الرغم من أموالها وممتلكاتها فإنها لم تستطع استعادتها الآن.

– يا حضرة الضابط... يا حضرة الضابط!

رآني الفتيان عند زاوية شارع بويوك بارماكابي وشارع الاستقلال. كانوا يبدون وكأنهم عادوا للتو من الحرب... كيتو بأنفه المضمّد وبيرانا والعصبة التي على

عينه وماستي الذي انتفخت شفته السفلى من الضرب الذي يبدو أنه تلقاه في مركز الشرطة. لكنهم لم يكترثوا وإنما وقفوا أمامي مبتسمين ابتساماتٍ عريضة، فسعدت لرؤيتهم وقلت:

- أهلاً بالعصابة! ما الأخبار؟ ماذا تفعلون هنا؟

ضحك كيتو بمرح.

- الحقيقة أم الكذب؟

كان يحاول أن يكون صادقاً بطريقته.

فقلت بطريقة أبوية:

- الحقيقة الصادقة بالطبع. ليس هناك أي كذب بيننا.
- لقد جئنا لنعثر على مغفّل نسرقه. إننا نتضوّر جوعاً ونريد الاحتفال بهروب هذا الأحمق... لكنك ستفهم أننا مفلسون...

وابتسم ماستي لتظهر أسنانه القذرة.

- لقد شعرت بالأسف حين سمعت بالأمر. متى خرجت؟
- هذا الصباح يا حضرة الضابط. كان من المفترض أن يخرجوني قبل ذلك فأنا لم أسرق شيئاً وإنما استعرت تلك الأدوات فحسب. لقد حدث سوء تفاهم مع أصدقائنا الموسيقيين في المقهى وحين أدركوا خطأهم أسقطوا الدعوى.

نظرت إلى كيتو وبيرانا وسألت:

- وكيف أدرك أولئك الأصدقاء الموسيقيون خطأهم؟

تلألأت بفخرٍ العين الوحيدة للفتى المشرّد وقال:

- نحن أخبرناهم يا حضرة الضابط، فهذا عملنا... إخبار الناس المخطئين بخطئهم والاعتماد على أشخاص يريدون أن نعتمد عليهم. لقد ذهبنا إلى المقهى وتكلّمنا معهم فعاد الرجال الغجر إلى رشدهم مباشرة.

كان كيتو متباهياً كثيراً كصديقه.

- إصلاح الناس الذين بحاجة لإصلاح وضرب الناس الذين بحاجة للضرب. آسف يا حضرة الضابط... لكن لولا ذلك لما كانوا اقتنعوا بأي طريقة أخرى.

كل ما سأقوله سيكون سدًى إذ لو كان في الحياة حظّ، فهؤلاء الفتيان قد

تجاوزوه منذ زمن.

- وكيف سمح لك رجال الشرطة بالخروج؟ ألم يقولوا شيئاً حول الحق العام؟

نظر إليّ كيتو وكأنه يقول: "كم أنك ساذج!".

- عمّ تتكلّم يا حضرة الضابط؟ أي حقٍّ عام؟ هناك شاب أطلق النار على فتاة شابة مسكينة الليلة الماضية ولم يكترث أحد، وسيخلون سبيله هذا المساء... ذلك السافل.

كان يتكلم عن فيدان وهو يتميّز غضباً.

- أكنت تعرف الفتاة؟

ظهر الحزن على وجهه المتسخ.

- بالطبع... كانت فيدان فتاةً طيبة... وهذان يعرفانها أيضاً. لقد كان هذا الأحمق واقعاً في غرامها.

ونكز كتف بيرانا بقوة.

- تباً لك يا رجل. لم أكن واقعاً في غرام أحد... توقف عن الثرثرة.

ثم التفت إليّ وقال:

- لا تنصت إليهما يا حضرة الضابط... ليس الأمر كذلك... كل ما في الأمر هو أن فيدان كانت فتاة طيبة ولا تؤذي أحداً... لا يمكنها إيذاء أحد حتى لو أرادت ذلك. أتعرف تلك الحمامات التي تحوم حول ساحة تقسيم؟ لقد كانت مثلها... بريئةً وخائفةً وإن اقتربت منها فستهرب... لقد أفرغ ذلك النذل كل رصاصاته في جسدها، وهذان الأحمقان لا يزالان يحبان بلاك نظام... ليذهب إلى الجحيم... هو وابنا أخيه القاتلان.

من المذهل أن هذه هي المرة الأولى التي يطأطئ فيها كيتو وماستي رأسيهما... إذن موت فيدان أثّر فيهما أيضاً. لمست ذراع بيرانا بلطفٍ وقلت:

- تعالوا نمشِ قليلاً.

وأملاً في الحصول على بعض المال مني مشى ثلاثتهم معي دون أي اعتراض.

- من أين تعرفون الفتاة؟ من مركز نازلي هانم؟

أجاب ماستي عن سؤالي:

- المركز الثقافي؟ لا يا حضرة الضابط... لقد التقينا قبل ذلك... في متنزّه غيزي حيث كانت فيدان قائدة المجموعة التي ساعدتنا... فيدان والغوريلا سيفان.... أنا أتكلم عن فترة التظاهرات... في البداية كان أولئك الرجال والنسوة خائفين منا، ولم يكونوا مخطئين. فقد كنا نحمل القطن بأيدينا وزجاجات المخدرات في جيوبنا ووجوهنا مغطّاة بالقذارة... فقط فيدان والغوريلا سيفان كانا مرتاحين معنا وأخذانا تحت رعايتهما فأصبح الجميع يعاملوننا معاملةً حسنة وأعطونا الطعام واللباس والدواء... لا أحد يعارض كلام سيفان.

قال ماستي:

- ولا نحن لأن سيفان جريء، إذ كان يرمي نفسه وسط رجال الشرطة... لقد رأيت بعينيّ كم قنبلة غازٍ مسيّل للدموع التقط بيديه ورماها إلى الجانب الآخر... لم يكن خائفاً من أحد... وبالطبع أراد الجميع أن يكونوا في صفه.

كان صعباً معرفة مدى صحة ما يقول، وحجم المبالغات في كلامه. فقد كانوا منتشين كالمرة السابقة إنما أقل نشوة.

- لقد برحوا قدرت وأبناء أعمامه ضرباً في شارع ميس، وقد يكون ذلك السبب الذي جعل ذلك السافل يقتل فيدان... الانتقام.

أكان هذا القتال هو الذي تكلم عنه قدرت خلال التحقيق؟ ذلك الشجار الذي قال إنهم أنقذوا فيه حياة رجال الشرطة؟

- سمعت أن قدرت وأبناء عمه هم من أوسعوهم ضرباً.

صرخ كيتو:

- هذا كذب. لقد كنا هناك أيضاً يا حضرة الضابط. كان قدرت وأولئك الأوغاد يجولون حاملين السكاكين والعصي لكنهم كانوا خائفين من الخروج إلى المقدمة وظلوا مختبئين وراء رجال الشرطة. كانوا يهاجمون شبان وشابات الجامعة الذين يتمكنون من سحبهم إليهم، وحين انسحب رجال الشرطة وجد أولئك الحمقى أنفسهم وحيدين وسط شارع ميس، وكان الناس منزعجين، فسحبوا هؤلاء الشباب وضربوهم ضرباً مبرِّحاً، وكان سيفان في المقدمة بالطبع. لقد استطاع بعضهم الهرب لكن ذلك الكلب قدرت وقع وسط مجموعتنا وكنا

مستعدين لقتله، ويا ليتنا فعلنا، لكن سيفان تدخل وأنقذه، فقام فيما بعد بإطلاق النار على فيدان.

قال بيرانا:

- سينتقم منه سيفان...

أيده كيتو:

- ثم سيجعلون الحياة في بيه أوغلو لا تُحتَمل لأولئك المقيتين...

ولئلا يبقى وحيداً انضم ماستي إلى الكورس.

- أتمنى أن ينادونا أيضاً.

قاطعتهم:

- ماذا يحدث يا شباب؟ ينادونكم إلى أين؟

أدركوا خطأهم متأخّرين قليلاً.

قلت:

- هذا صحيح... لا تحاولوا التراجع أو إخفاء أي شيء... أخبروني... من سيناديكم وإلى أين؟

- لا أحد سينادينا إلى أي مكان.

بدا كيتو محرجاً وبدأ يمشي مجدّداً ليلحق به الآخران ما اضطرني للانضمام إليهم.

- ماذا سيفعلون بنا يا حضرة الضابط؟ انظر إلى حالتنا... إننا غير مفيدين حتى لأنفسنا.

- لو كنتم مفيدين فأين كنتم ستذهبون؟

جاء الرد من بيرانا الذي كان يمشي إلى يساري.

- إن خرج قدرت حراً طليقاً... ذلك النذل الذي قتل فيدان... فإن سيفان وأصدقاءه سيحرقون تارلاباسي ويهاجمون بلاك نظام وابني أخيه... لقد أخبرنا كريكيت بهذا... إنهم ينتظرون قرار النيابة بشأن قدرت.

أكان يردّد أسطورةً أم أن مجموعة الثلاثاء التي تكلمت عنها نازلي تخطِّط لعمليةٍ ضخمةٍ للانتقام لمقتل صديقتهم؟

- مَن كريكيت؟

ابتسم الثلاثة بخبثٍ ثم قال كيتو:

- صديقنا ميمو... كنّا نحن الأربعة متعوّدين على التسكّع سويةً... إنه أكبر منا ببضع سنوات كما تبين أنه أذكى أيضاً، فقد ترك المخدرات وبدأ يعمل مع أبله نازلي في المركز الثقافي حيث يقدم الشاي ويساعدهم.

- لماذا كريكيت؟

ضحكوا معاً.

- لأن بإمكانه القفز ككرة السلة، فهو يرتفع حتى مترين بقفزة واحدة. لقد كان يقفز إلى نوافذ المباني المهجورة حين كنا نبحث عن مكانٍ ننام فيه. لم نكن نستطيع الصعود، لكن ميمو كان يتمكّن من الوصول بقفزةٍ واحدةٍ ولا يتركنا في الخارج وإنما يسحبنا من أيدينا، وهكذا اكتسب اسم "كريكيت". لقد سمع أن هناك عملية بينما كان سيفان وأبله نازلي يتكلمان...

- هل حصلت هذه المحادثة في المركز الثقافي؟

- نعم. لقد مررنا عليهم للحصول على بعض الخبز والجبن، فقد كان كريكيت يساعدنا في العادة لكننا هذا الصباح عدنا بخفيّ حنين إذ كان هناك بعض المشاكل بعد موت فيدان، وحينها أخبرنا كريكيت بالأمر. لقد قال سيفان إذا أُطلِق سراح قدرت فسيحشرون نظام وأبناء أخيه في النادي ويشعلون النار فيهم. حاولت أبله نازلي تهدئته لكن ماذا بوسعها أن تفعل؟ حين يصمّم سيفان على فعل شيء فإنه لا يتراجع... وحظاً سعيداً لأولئك الأنذال.

مرةً أخرى تجاوز الفتى الغاضب حدوده في لغته.

- ماذا حصل لعدم استخدام الشتائم يا بيرانا؟ إنك تستمر بشتم الجميع...

رفع يديه للأعلى وضرب الأرض بقدمه.

- ماذا يمكنني أن أفعل غير هذا يا حضرة الضابط. إنهم يقتلون أصدقاءنا ويحطّموننا... إنهم لا يسمحون لنا بالمشي في الشوارع... هل من المفترض بنا أن نصمت ونتقبّل الأمر؟ ألا تظن أن من حقنا أن نشتمهم قليلاً؟

كان منفعلاً بشدة بحيث لم يكن هناك أي جدوى من الضغط عليه.

- إذن ماذا يعمل سيفان هذا؟ وأين يعيش؟

ظهرت نظرة غامضة على وجوه الثلاثة.

- الجميع يحاول التخمين يا حضرة الضابط... بعض الناس يقولون إنه مدرّس وبعضهم يقولون إنه شاعر وبعضهم يقولون إنه إرهابي... أحد أولئك الرجال من الجبال... ليس واضحاً أين يعيش لكن لديه عشرات الأصدقاء. فالجميع يحترمونه وبابه مفتوح لجميع الأكراد في تارلاباسي لئلا يضطروا للنوم في الشوارع.

بدا كأنه يتكلم عن بطل قصة.

- وكيف شكله؟

ازداد الإعجاب في عينيه.

- طويل وقوي البنية... عيناه كالنار يخاف الناس من النظر فيهما ولديه لكنة كردية كلكنة شيهمو من سعرد... ربما يكون هو أيضاً من سعرد... من يدري؟

قال بيرانا:

- كفاك عنصرية... كردي أو تركي أو مهما يكن... سيفان سيقضي على بلاك نظام... لقد انتهى زمانهم في بيه أوغلو... كلٌّ من ذلك القواد القبيح وابني أخيه.

إن كان ما يقوله صحيحاً فسنواجه وضعاً خطيراً... لكن كيف لي أن أثق بهؤلاء الفتيان المنتشين؟ عليّ أن أتكلّم مع نازلي، ما دامت تحاول إيقاف سيفان فلا بدّ أنها ضد هذا النوع من العنف. وبينما كنت أفكر في الأمر بدأ هاتفي بالرنين وظهر اسم إفجينيا على الشاشة. كان عليّ الابتعاد عن الفتيان قبل أن أجيب، فأخرجت عشرين ليرة أخرى كما فعلت في الليلة الماضية وقلت:

- خذوها... تناولوا بعض الطعام...

حاول كيتو أن يخطفها مجدّداً لكنني سحبتها وقلت:

- هذه المرة ليس أنت.

وناولتها لبيرانا وأكملت:

- اليوم أنت رئيس العصابة.

وقبل أن أتركها قلت:

- الجميع يأكل حتى يشبع.
- لا تقلق يا حضرة الضابط.

حذرته مرة أخيرة وأنا أناوله إياها.

- إن سمعت خلاف هذا فستواجه المشاكل.

للحظة نظر إلى النقود بين أصابعي نظرة تكبّر.

- عيب يا حضرة الضابط... هل أنا منحط حتى أسرق من أصدقائي حصتهم؟

هل سيرفض العشرين ليرة؟ بالطبع لا، فقد خطفها حين أنهى عبارته.

- لا تنسوا... إنها لكم أنتم الثلاثة...

أمسك كيتو بتلابيب صديقه وقال:

- لا تقلق يا حضرة الضابط... إن حاول خداعنا فسأخرج الطعام من بطنه.

حين تخلّصت من الفتيان كانت إفجينيا قد فقدت الأمل من أن أرد عليها، ما يعني أن عليّ الاتصال بها. فضغطت على زر الاتصال وبدأت المشي مجدّداً في شارع الاستقلال نحو شارع ميس. ينبغي أن يكون مطعم أوكاكباسي الذي سنلتقي فيه نظام بعد الظهيرة قريباً من هنا. وبينما كان هاتف إفجينيا يرن مشطت عيناي المتاجر على طرفي الشارع حتى وجدت في النهاية لافتته الضخمة... يين أوكاكباسي... تساءلت إن كان المقصود بكلمة "يين" كلمة "ابن أخ" كما في بعض لهجات الأناضول أو أنها مشتقة من كلمة "يأكل".

انقطعت أفكاري بصوت إفجينيا الجميل:

- مرحباً يا نيفزات... هل اتصلت بك في وقتٍ غير مناسب؟
- أوه لا... أنا متفرغ لكِ يا عزيزتي.
- ما وضعك الليلة؟ أنا مع عمتي فوفو لكنها تريد أن تلتقيك. ما رأيك؟

بدت غير مرتاحة... لا بدّ أن فوفو تضغط عليها لأجل هذا اللقاء. كان بإمكاني التملّص بسهولة إذا قلت إنني مشغول لكن بصراحة شعرت بفضول حول فوفو أيضاً كما أن إفجينيا ستشعر بالسعادة إذا التقيتهم.

- ذلك عظيم... إنني أرغب بلقائها.

وكما توقعت فقد فرحت:

- رائع! في تلك الحالة سننتظرك في تاتافلا. تعالَ حين تنتهي.
- هذا جيد. أتمنى ألاّ يحدث أي خطب. وحتى لو حدث فسأبذل قصارى جهدي، لكنني قد أتأخر قليلاً...
- حسناً... لكن لا تسمح بحدوث أي خطب... على الأقل الليلة.
- حسناً... حسناً... يا إفجينيا... لن أتأخر... أراك الليلة.

أعدت الهاتف إلى جيبي حين اقتربت من يين أوكاكباسي. كان المبنى الحجري من خمسة طوابق قد تم تحويله إلى مطعم... ربما يكون ملكاً لنظام. مما رأيت عبر الباب الزجاجي كان الجو هادئاً في الداخل... لا بدّ أن معظم زبائنه يأتون في المساء. وبينما كنت على وشك إكمال طريقي فُتِح الباب ووقف أمامي المشتبه به الذي استجوبناه الليلة الماضية... شعر قصير ولحية قصيرة وسترة خضراء بياقة من الفرو... كان هو بذاته يبتسم لي.

تمتمت:

- قدرت! متى خرجت؟

ضحك الرجل الواقف قبالتي ضحكةً مكبوتة.

- لست قدرت يا حضرة الضابط... أنا مدحت.

بالطبع كان توأمه... لقد كانا صورة طبق الأصل أحدهما عن الآخر بحيث كان من المستحيل التفريق بينهما.

قال وهو يخطو جانباً:

- تفضّل يا حضرة الضابط... اسمحْ لي أن أقدّم لك شيئاً.
- لا شكراً... عليّ الذهاب... في كل الأحوال سآتي إلى هنا الساعة الرابعة...

أردت أن أقطع المحادثة وأكمل طريقي لكنه لم يتركني.

- أعلم. أنا هنا لأحضر كل شيء. كيف حال أخي؟ أظن أنك أنت من استجوبه؟

لا... لا يبدو أنه يهدّدني.

- جيد. حين رأيته آخر مرة كان بحال جيدة.

ظهرت نظرة وقحة على وجهه.

- ما رأيك؟ هل سيعود قبل وقت العشاء؟

خطوت خطوةً باتجاهه ونظرت في عينيه وتمتمت:

- نعم... سيعود قبل وقت العشاء... لكنْ الليلة أو بعد عشر سنوات... هذا ما لا أعرفه.

أعظم إنجازات الطاغية أن يحوّل معارضيه طغاة



بينما كنت أمشي بين الأبنية التي تنتظر الهدم، وقد أُزيلت أبوابها وأُطر نوافذها، وتهاوت أسقفها، وتهدمت جدرانها، أحسست كأنني في مدينة متفجِّرة لا في قلب إسطنبول. لاحظت ثلاث نساء يتجوّلن أمام الأبنية... نظرت لأرى إن كانت بينهن، لكن لا... لم تكن زوجة سليمان بينهن... يبدو أن ناسية المسكينة لم تستطع الخروج للعمل بعد شجار البارحة، وأشك في أنها منزعجة، لكن سليمان قد ينزعج إن لم يعوّض النقود التي خسرها في القمار. وحتى لو خرجت ناسية للعمل في الشارع فأنا أشك في أنها ستجد أي زبائن في هذا المساء الشتوي، فالعمل راكد بالنسبة لبائعات الهوى الثلاث إذ إنهن وقفن عند ناصية الطريق يحملن كؤوس الشاي. لم تكن أي منهن قد بلغت الثلاثين من عمرها لكنهن مدمَّرات ومُنهَكات كالأبنية. حين مررت بجوارهن رمقنني بطرف أعينهن وحين أدركن أنهن لن يكسبن مني شيئاً عدنَ إلى حديثهن. وبينما كنت أشق طريقي نحو مركز فرحات سيراج الثقافي اضطررت للانتباه جديداً لئلا تدهسني إحدى السيارات التي تسير في الشارع المنحدر الضيّق.

ناداني صوت من ورائي وأنا أرن الجرس فوق الباب الخشبي الضخم:

- سيدي... سيدي...

لماذا لا يتوقّف هؤلاء عن اللحاق بي...؟ حين نظرت ورائي رأيت ديوجينز... الرجل العجوز الذي التقيته في كادين سيكمازي في الليلة السابقة، فقلت مبتسماً:

- أهلاً يا ديوجينز. أتتكلّم معي؟

توقف على بعد خطوات مني حاملاً بيده كأساً فارغةً كبيرةً ونظر إليّ بتعابير قلقة.

- أخبرني يا سيدي... هل أنت وطني اليوم أم شرطي؟

كان المسكين يهذي مجدّداً.

قلت:

- شرطي.

قال وهو يهزّ رأسه:

- لكن ليس هذا ما تقوله عيناك، كما أن نواياك سيئة... اليوم لن تساعد أحداً من شعبك ودينك... اليوم لن تحمي المواطنين وإنما أبناء أمتك.

ما الذي يعنيه هذا الرجل بهذا؟

- أنت واحد من أبناء أمتي.

قال وهو يتراجع للخلف خوفاً:

- كفاك كذباً... أنت لا تعتبرني أحد أبناء أمتك... لو كنت تعتبرنا لساعدتنا ذلك اليوم لكنك لم تفعل وقلت "أنا اليوم لست شرطياً"... لقد طرقنا بابك لكنك لم تفتحه. وألبست رجالك ملابس مدنية وأطلقتهم علينا لينهبوا بيوتنا ويرموا بممتلكاتنا إلى الشارع...

كان سيستمر لو لم يُفتح الباب الضخم ورائي مصدراً صوتاً مرتفعاً.

- حسناً... هل تناولتَ الشاي؟

حين أدرت رأسي وجدت نفسي وجهاً لوجهٍ أمام مراهق نحيل بساقين طويلتين... لا بدّ أنه ميمو "كريكيت" الذي تكلم عنه الفتيان. نظر إليّ بارتياب:

- هل رننت الجرس؟

كنت لا أزال أفكر بما قاله الرجل العجوز ولم أستطع أن أردّ فوراً.

- أعني أنك لست مع ديوجينز؟

لم تكن نبرته ودودة على الإطلاق.

- أنا هنا لأرى نازلي هانم... أهي هنا؟

لم يتكبّد عناء الإجابة عن سؤالي وإنما سألني بالنبرة نفسها:

- مَن أقول لها؟
- قل لها الضابط المحقّق نيفزات... إنها تعرفني.

ومباشرة تحوّل التوجُس في عينيه اللوزيّتين احتراماً.

- أوه، أنا آسف يا حضرة الضابط... لم أكن أعلم. تفضّل يا حضرة الضابط.

دخلت بصمتٍ وقبل أن يغلق الباب نادى على الرجل العجوز الذي لا يزال يقف هناك.

- هيا يا ديو؟ ألن تدخل؟
- لا... لن أدخل وهو هنا.

لم يصر الشاب.

- حسناً كما تريد... أراك لاحقاً...

وابتسم بخجل وهو يغلق الباب:

- آسف يا حضرة الضابط لكنه يخاف من الشرطة... من يعلم ماذا دار في رأسه حين رآك. من هنا الطريق من فضلك... أبله نازلي هنا.

كنت محظوظاً فقد كان من الممكن ألاّ أجدها لأنني جئت دون موعد مسبق، إذ إنني كنت أرغب بشنّ نوع من الغارة على هذا المركز الثقافي المزعوم لأرى ما يحصل هنا.

لم تظهر على نازلي علامات الاستغراب حين رأتني، بل على العكس وقفت بابتسامة ودودة كأنها كانت تنتظرني.

- أهلاً يا نيفزات بيك. كنت على وشك الاتصال بك.
- حقاً؟ ماذا هناك؟ هل حدثت أيّ تطورات؟

هزّت رأسها بالنفي وهي تمدّ يدها.

- سأشرح لك. لِمَ لا تخلع معطفك؟

فعلت كما قالت وتناوله مني ميمو الذي كان يقف خلفي مباشرة.

أشارت نازلي إلى المقعد الذي جلست عليه الليلة الماضية وقالت:

- تفضّل بالجلوس.

جلست عليه بينما بقيت هي واقفة تعطي الإرشادات للشاب الذي كان يحاول

تعليق معطفي على المشجب.

- أيمكنك يا ميمو أن تحضر لنا كوبين من الشاي؟ آسفة فرأسي يؤلمني... نسيت أن أسألِك إن كنت ترغب بشيء آخر.

فركت يديّ الباردتين إحداهما بالأخرى.

- لا... الشاي ممتاز. لقد أشرقت الشمس لكن الجو لا يزال بارداً.

التفتت إلى ميمو الذي علّق لي معطفي وكان يقف مستعداً.

- هل سمعت ما قلته يا عزيزي ميمو؟ كوبان من الشاي؟

ردّد ميمو بحماسة:

- كوبان من الشاي... لقد غليت إبريقاً للتو... سأحضره مباشرة...

حين خرج كريكيت واختفى جلست نازلي على المقعد المقابل لمقعدي، تحت رسمٍ لكلود مونيه يصوّر هدوء جدول محاط بالأزهار والنباتات الملونة. لكن نازلي لم تبدُ هادئة.

اشتكت مرة أخرى:

- اعذرني لكن رأسي يؤلمني... والأمور تتسارع.

- لا داعي للاعتذار... لو كنت مكانكِ لنسيت أيضاً.

أصبحت عيناها أكثر هدوءاً.

- لو كنتَ مكاني... لماذا أنتَ هنا يا نيفزات بيك؟

قلت مازحاً:

- يمكنني أن أغادر إن أحببت.

شعرت بالإحراج وأشاحت بنظرها للحظة.

- لا تكن سخيفاً... ليس الأمر هكذا... ما قصدته هو هل سمعت شيئاً جديداً؟

بالطبع سيكون من مصلحتي أن أكون صريحاً مع هذه المرأة لتكون صادقة معي.

- لنسمِّها شائعة... من الواضح أن هناك بعض الناس الذين يريدون الانتقام لفيدان... في الغالب مجموعة الثلاثاء. سيهاجمون نادي بلاك نظام ويشعلون النار بتارلاباسي، يقودهم رجل يدعى سيفان... الغوريلا سيفان...

بدأت تضحك بصمتٍ في البداية ثم أصدرت صوتاً مكبوتاً.

- سيفان؟ الغوريلا سيفان...
- ما المضحك في الأمر؟

بذلت جهداً لتهدئة نفسها.

- آسفة... إنه ليس مضحكاً... على الأقل ليس الجزء المتعلق بالهجوم على نادي نظام... لكن الجزء المتعلِّق بالغوريلا سيفان...

وكبتت نوبةً أخرى من الضحك.

- آسفةُ لكن يبدو أن رجالك المتخفّين لا يقومون بعملهم جيداً. سيفان هوكا مدرس هنا، وهو من أكثر الناس المسالمين على وجه الأرض... إن آذى نملةً بكى لأيام...

من الواضح أنها كانت تحاول أن تحمي الرجل لتربك الشرطي المتعاطف الجالس بهدوء أمامها، لكنها لن تنجح هذه المرة على الإطلاق.

سألتها بسخرية:

- أكثر الناس المسالمين على وجه الأرض كان على خط المواجهة خلال أحداث غيزي وهو يشتبك مع الشرطة؟ نحن نتكلم عن أحد قادة المتظاهرين هنا... شخص كان يلتقط القنابل المسيلة للدموع ويرميها على رجال الشرطة...

أعترف أن صوتي ارتفع أكثر من العادة، لكن نازلي بدأت تضحك كما لو أن الموضوع مضحك بصورة لا تُصدَّق.

قالت وهي تحاول السيطرة على نفسها مجدّداً:

- آسفة... آسفة... لا أعلم من أخبرك بهذا، لكنه خطأ. سيفان هوكا أستاذ موظف في المركز الثقافي. إنه يدرّس النساء الكرديات اللغة التركية، ومن غير الممكن أن يشتبك مع رجال الشرطة لأن إحدى قدميه صناعية. لكن حتى لو كانت سليمة فإنه ليس من النوع الذي يشتبك مع أحد.

أتسخر هذه المرأة مني؟

- ألم يكن الرجل متعوِّداً على تسلّق الجبال؟ أليس كردياً؟
- نعم... هذا صحيح. قبل عشرين سنة كان يصعد الجبال لكنه كان لطيفاً للغاية

ولم يقبل أن يحمل مسدساً. خلال غارته الأولى وأثناء المناوشات أصيب بالدوار... لا تفهمني خطأ... إنه ليس جباناً... فعلى سبيل المثال لم يعترف باسم صديق واحد حين عذّبوه، لكنه لم يستطع إيذاء أحد، فهو لا يستطيع ضرب أحد بوردة فما بالك بإطلاق النار. وقد تم إرساله إلى فريق الخدمات الصحية لكنه اعتُقِل أثناء تبادل لإطلاق النار بعد أن أصيبت قدمه، وحين أصيبت ساقه بالغرغرينا قطعوها، وبعد عشر سنوات قضاها في السجن أطلقوا سراحه. وخلال فترة سجنه تبلورت أفكاره حول السلبية التي اكتشفها في الجبال، وتوصّل إلى أنه لا يمكنك خلق مجتمعٍ مثالي بوسائل العنف لأن الأساليب التي تستخدمها ستؤذيك. هذا ما كان يقوله للفتيان أثناء مقاومة غيزي: "أعظم إنجازات الطاغية أن يحوّل معارضيه طغاة". وكان يتوسّلهم ألاّ يتخلّوا عن العصيان المدني ويلجؤوا للعنف: "لا ترموا الحجارة وقنابل المولوتوف فأكثر أنواع المقاومة فعالية هي المقاومة السلبية". لأنه كان يعلم أنه لا يمكنك أن تربح قضية إن خسرت عدالة هذه القضية... هذا هو الشخص الذي تسميه إرهابياً ملطّخ اليدين بالدماء. أظن أن من الأفضل أن تتكلم مجدّداً مع رجال الشرطة المتخفّين الذين أعطوك هذا التقرير، فهم يتكلّمون عن الشخص الخطأ أو أنهم يريدون توجيهك إلى الاتجاه الخطأ.

بدأت كلماتها تثير أعصابي.

- ليس هناك أي رجال شرطة متخفّين يا نازلي هانم، فهذه المعلومات حصلت عليها من أحد رجالك.

كان من الرائع أن أرى نظرة السعادة على وجهها تتلاشى.

- أحد رجالي؟ ميمو؟ ميمو أخبرك بكل هذا؟
- لم يخبرني وإنما أخبر أولئك الفتيان الآخرين...

قطّبت حاجبيها وتغضّنت جبهتها.

- أولاد الشارع الذين كانوا يقيمون هنا... كيتو وبيرانا وماستي...

نظرت إليّ نظرةً مضحكة.

- وتصدِّقهم؟ أرجوك يا نيفزات بيك... أولئك الفتيان يعيشون على كوكب

آخر بالكامل... حياتهم فظيعة... وهم يستخدمون أي مادة تقع عليها أيديهم للهروب منها... ثم تأتي الأحلام والكوابيس والأوهام...

أيمكن أن يكون ما تقوله صحيحاً؟ هل من الممكن أن يكون هؤلاء الفتيان قد شوّهوا الواقع كثيراً؟ سيكون من السهل معرفة ذلك ففتى الشاي سيخبرنا بالقصة الحقيقية، ولا بدّ أن الفكرة نفسها خطرت لنازلي لأنها نادت:

- ميمو! عزيزي ميمو! أيمكنك المجيء إلى هنا؟

جاء كريكيت مسرعاً وهو يحمل صينية الشاي.

- أنا هنا يا أبلة! والشاي جاهز.

حين أحس بالجو المتوتّر في الغرفة ورأى العبوس على وجه نازلي أدرك أن هناك خطباً ما وأبطأ من خطاه.

- تعالَ إلى هنا واترك الصينية على الطاولة.

نظر إليّ بعصبية وهو يتساءل إنْ كان هذا الشرطي قد أوقعه في مشاكل... هل نبش في الملفات القديمة واكتشف حادث سرقة منسيًا أو ربما نهباً؟ وضع الصينية على الطاولة ثم وضع كوبي الشاي أمامنا.

- أحضرت قطعتي سكّر يا حضرة الضابط... لا أدري إنْ كان هذا كافياً.

ابتسمت لأطمئنه.

- شكراً يا ميمو... لا أتناول السكّر.

كان الشاب على وشك الاسترخاء لكن نازلي لم تمنحه الفرصة.

- اجلسْ لو سمحت.

بلع ريقه وجلس على المقعد الذي أشارت إليه.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها كيتو وأصدقاءه؟

نظر إليّ ثم إلى نازلي.

- كيتو...

حدّقت نازلي إليه.

- نعم... كيتو وبيرانا وماستي...

فجأةً تلاشت علامات القلق وقال:

- أوه... مسألة السرقة تلك... لكن ماستي لم يسرق تلك الأدوات يا حضرة الضابط، وإنما أعطاه الغجر إياها كما تمت تسوية القضية وأُطلق سراحه...

كانت نازلي غاضبة جداً لأنه نظر إليّ وهو يشرح.

- ميمو... لماذا لا تجيب عن سؤالي؟ متى رأيت هؤلاء الفتيان؟

ضاقت عيناه البنّيتان وقال بسرعة:

- قبل ساعة. إنهم يمرون أحياناً في الصباح للحصول على شيء يأكلونه، فأعطيهم بقايا الإفطار...

قاطعته نازلي بصبر نافد.

- أعرف ذلك. عمّ تكلمتم؟ أخبرني هذا فقط.

ظهرت نظرة خرقاء على وجه كريكيت.

- عمّ تكلمنا؟ لا شيء... مجرّد تفاهات... لم يكن هناك شيء متبقٍّ ليأكلوه فذهب المساكين جوعى...

نفد صبر نازلي وسألت بأسلوب مباشر:

- أقلت لهم شيئاً عن سيفان هوكا؟

اتّسعت عيناه.

- لم أقلْ شيئاً سيّئاً... لقد قتلوا فيدان... أنت تعلمين أنكما كنتما تتحدثان أنه سيكون هناك احتجاج؟ وقد أخبرت أولئك الحمقى: "احذروا فقد تصبح الأمور فوضوية اليوم أو غداً". هذا كل ما في الأمر يا أبلة نازلي... أقسم...

لئلا أسمح للمرأة أن توجّهه قاطعته:

- ألم تذكر سيفان هوكا؟ وشرحت للفتيان وجهة نظره حول الموضوع؟

- لم أقل ذلك... أقسم إنني لم أفعل. فقط قلت إنني سمعت أبلة نازلي تتكلم معه... أقسم بذلك يا حضرة الضابط... أولئك الأوغاد... لقد كانوا منتشين وربما يكونون اختلقوا قصةً من نسج خيالهم... لقد قلت لهم إنني سأسدي لهم معروفاً لئلا يقعوا في مشاكل... أولئك الكلاب... فحياتهم معرضة للخطر.

هزت نازلي رأسها وكأنها تقول: ''ماذا عساي أن أفعل بك؟''.

- حسناً... عمّ كنت أتكلم أنا وسيفان هوكا؟ اشرح ذلك لنيفزات بيك ولا تخفي

شيئاً... أخبره بكل ما سمعت...

والتفتت إليّ وقالت:

يمكنني ترك الغرفة إن كنت تحب. يمكنك الحديث مع ميمو على انفراد.

- بالطبع لا يا نازلي هانم. هل هناك أي انعدام ثقة بيننا؟

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتيها لكنها لم تفتح الموضوع.

- لقد أحضرت القهوة هذا الصباح يا حضرة الضابط. كان سيفان هوكا يجلس على المقعد الذي تجلس عليه أنت الآن. إنه يشرب القهوة حلوةً أما نازلي فتشربها سادة. هنا سمعت أن أصدقاء فيدان كانوا غاضبين جداً، وفي حال تم إطلاق سراح قدرت فسيخرجون في مظاهرة ويقتحمون نادي بلاك نظام الوغد. كان سيفان هوكا يشرح كيف حاول أن يثنيهم ويقول: "إن لم يطلقوا سراح قدرت فسيهدأ الوضع لكن في حال تم إطلاق سراح ذلك القاتل فلا أدري ماذا سنفعل". وقالت أبلة نازلي: "أشك أن يطلقوا سراحه... لن يكونوا غير عادلين لهذه الدرجة". هذا ما سمعته... أليس هذا صحيحاً يا أبلة؟

هزّت رأسها وكأنها تقول: "لا تنظر إليّ".

- مهما يكن ما سمعته... أخبره فحسب.

- هذا ما سمعته وما قلته لأولئك الحمقى... أقسم بأمي الميتة التي لم أَرَها. أنا لا أكذب يا حضرة الضابط فهذا ما جرى...

كان الأمر واضحاً. كنت أدفع ثمن تصديقي لأولئك الفتيان، فمددت يدي وربّت ركبته وقلت:

- شكراً يا ميمو. لقد ساعدتنا كثيراً.

لكن رضاي لم يكن يهمه إذ نظر بخوفٍ إلى نازلي... ماذا لو كانت غاضبةً ورمت به خارجاً؟

فقالت بعبوس:

- حسناً يا ميمو. يمكنك الذهاب.

أمسك كريكيت بالصينية ونهض لكنه كان يحاول معرفة رد فعل نازلي:

- أتريدان شيئاً آخر؟ ماءً أو أيّ شيء آخر؟

- لا... يمكنك الذهاب الآن.

غادر الغرفة مليئاً بالشكوك، لكن نازلي كانت قد نسيته بالكامل.

- تفضّل الشاي يا نيفزات بيك. لا تدعْه يبرد.
- أدين لك باعتذار فالفتيان خدعوني حقاً.

لم تنتظر وإنما تناولت كوب الشاي وقالت مازحة:

- حسناً... لقد كنت أنا أيضاً متحيِّزة، فقد لمت رجال الشرطة في حين كان الخائن من الداخل.

تساءلت إن كانت ستطرد كريكيت.

- لم يكن الخطأ خطأه فقد كان يحاول مساعدة أصدقائه.

رشفت رشفةً من الشاي وأعادت الكوب إلى الطاولة.

- أنت شخص طيّب يا نيفزات بيك. أنا أتفهّم ذلك. لكنْ لديك أيضاً جانب سيئ، فأنت منخرط للغاية في عملك ومتشبّث برأيك. من تظنني بربك؟ عسكرية متوحِّشة وخالية من المشاعر؟ امرأة قاسية مستعدة لارتكاب جميع أنواع الشرور لأجل قضيتها؟

نازلي هذه لا تغضّ الطرف عن أيّ شيء، فأينما وجدت عيباً تصارحك به في وجهك.

قلت وأنا أتناول الكوب الذي أمامي:

- بالطبع لا... أعني أنني كنت قلقاً بعض الشيء بشأن ميمو... إن طردته فسأشعر أنني المسؤول.

ظهرت ابتسامة مطمئنة على شفتيها الشاحبتين مجدّداً.

- هل أخبرك الفتيان لماذا يعمل ميمو هنا؟
- لا... لقد أخبروني فقط كيف يستطيع الولد القفز وهم يشرحون لي لقبه.

وقبل أن تسألني إنْ كان لديّ متسع من الوقت، أو أريد سماع القصة، بدأت مباشرة تروي قصة كريكيت ميمو.

كانت الأشجار تهمس بالتأكيد...



- التقيت ميمو في الربيع... في منتصف الليل... حوالى الساعة الواحدة... كان لديّ بعض الأعمال التي أبقتني في المركز الثقافي حتى تلك الساعة، وكنت أعمل منذ الصباح، ومرهقة للغاية وعيناي تحرقانني وأصابعي تؤلمني. وحين لم أعد أحتمل أطفأت حاسوبي وكنت أنوي القفز في سيارة أجرة والتوجّه إلى المنزل مباشرةً، لكن الجو في الخارج كان رائعاً فالقمر بدر في السماء والجو بارد والهواء منعش.

بينما كانت تروي قصة ميمو أشرق وجه نازلي بفرح.

- كما تعرف يا نيفزات بيك... أيلول/ سبتمبر في إسطنبول من أجمل الأوقات وخاصة في تلك الأمسيات الحالمة... حسناً... لقد كانت واحدة من تلك الأمسيات. مشيت إلى تقسيم للاستمتاع وكانت الساعة أقل ازدحاماً لكن خفافيش الليل كانت لا تزال تتسكّع... فتيات وفتيان شباب تحت القمر البدر... عشاق مجتمعون... كان الجميع سكارى وبعضهم ينصتون لأغانٍ بهيجة. أبطأت وبدأت أشاهد كل أولئك الأولاد الملوّنين حولي... كان الأمر ممتعاً كما لو كنت في مهرجان. بعد ذلك مشيت نحو إلماداغ على أمل العثور على سيارة أجرة، وبينما كنت أمشي أمام متنزّه غيزي ركض من بين الأشجار شاب يصرخ "ساعديني! ساعديني!" ووقع أمامي.

كان جسده النحيل يرتعش كورقة شجرٍ وعيناه متسعتين وهو يتفحّص ظلال الأشجار. ظننته هجوماً أو محاولة سلبٍ فنظرت نحو المتنزّه أيضاً. وعلى الرغم

من أنه لم تكن لديّ أدنى فكرة كيف سأحمي نفسي حين يأتي الهجوم لكنني انتظرت وقد أحكمت إغلاق قبضتي بانتظار أن يقفز هذا اللص من بين الأشجار، لكن الثواني مرت ولم يخرج أحد... ربما يكون المهاجم رآني فخاف وغيّر رأيه. التفت إلى الصبي الذي لا يزال يستخدم جسدي ساتراً ويرتعش خوفاً، وقلت بثقة:

- أظن أنه خاف ولن يخرج من المتنزّه...

نظر إليّ نظرةً مضحكة كأنني قلت شيئاً غريباً ثم نظر في عينيّ وسأل:

- مَن الذي خاف؟

- الشخص الذي يلاحقك... أم أنه أكثر من شخصٍ واحد؟ ممّن تهرب؟

سألني دون أن يتلاشى الخوف من عينيه:

- أي شخص؟ إنه ليس شخصاً... إنني أهرب من الأشجار.

كان ذلك مثيراً للاهتمام فسألته:

- لماذا تهرب من الأشجار؟

انحنى على أذني وهمس:

- لأنها تهمس... إنها تستمر بالهمس...

هنا شممت رائحة الشراب الثقيلة وانتبهت لملابسه المهلهلة فأدركت أن الشاب الواقف بجانبي متشرد وثمل للغاية... ربما كان ينام في المتنزّه وفي تلك الليلة أفرط في الشراب فراودته الكوابيس لكنه أكمل قائلاً:

- إنها تهمس أسماء... كلما هبّت الريح يمتلئ المتنزّه بأصواتهم... إنها تهمس أسماءهم باستمرار كترنيمة...

فكّرت أن المسكين قد يكون مختلاً عقليًا فقلت:

- لا تهتم... دعها تهمس إذ ليس بإمكانها إيذاؤك.

فرفع يديه للأعلى بيأس وقال:

- بالطبع يمكنها، فهي تعرفني... ليس فقط تلك الشجرة الضخمة وإنما شجرة الكستناء العملاقة أيضاً وكذلك شُجَيْرات الورد الصغيرة تلك... نعم... كلما هب النسيم تبدأ بالثرثرة.

كنت أعلم أن كلامه مليء بالتّرهات لكنني لم أستطع منع نفسي من سؤاله:

- كيف تعرفك؟

فأجابني دون أي تردّد:

- من الصيف الماضي في حزيرن/يونيو.

وأشار إلى المتنزّه.

- كنت أعمل هنا.

قد يكون ثملاً لكن خياله خصب فسألته:

- هل تعتني بالحدائق؟

بدا وكأنني أهنته فوبّخني:

- أعتني بالحدائق؟ لقد كنت أطبّق القانون وأساعد رجال الشرطة.

أصبحت قصته ممتعةً أكثر فسألته لأبدو مهتمة:

- ماذا كانت وظيفتك؟

حدّق إليّ وقال:

- من أي كوكب أنت يا أبلة؟ قبل شهرين فقط كان هذا المكان ساحة حرب وكان المتنزّه جحيماً...

عندها خطر ببالي أنه كان يتكلم عن أحداث غيزي أي أن ما مر به هذا الصيف هو ما أثّر في عقله... المسكين... لكنني أعترف أنه كان هناك بعض الفحوى في كلامه ما أثار فضولي لأعرف حدود عالمه الخيالي وأتعمّق في المحادثة فسألته:

- ماذا كانت مهامك بالضبط؟

ابتسم ابتسامة خبيثة لتظهر أسنانه القذرة:

- كنت أخبر الشرطة بما يحدث داخل المتنزّه فقد كان الأمر جنونياً والمكان مكتظ بالناس من اليساريين واليمينيين ورجال الدين والمتمردين والنساء... أي نوع قد تتخيّلينه كان هنا، وقد ضربوا بعض رجال الشرطة المتخفّين لهذا كان رجال الشرطة خائفين من الدخول. وقد بحث عني المحقّق إيرول من مركز بيه أوغلو... إنه شخص طيب يعطينا بعض النقود أحياناً وإذا سُجِنّا فإنه يدعمنا... لقد وجدني في شارع الاستقلال فسألني:

- أما زلت تنام في المتنزّه يا ميمو؟

وحين أجبته بنعم وضع ورقة من فئة المائة ليرة في يدي وقال:

- إذن ستأتي إليّ كل ليلة وتخبرني بما يحصل في المتنزّه... أهو مزدحم؟ هل الجو هادئ؟ من هم قادة المجموعات؟ ستخبرني عن كل شخص.

وهكذا بدأ عملي هناك.

قلت له بلهجة ملؤها الاتهام:

- إذن كنتَ تشي بالمتظاهرين.

جمدت الابتسامة على وجهه وقال:

- ماذا عساي أفعل. لقد طلبت الحكومة مني هذه الخدمة، كما أن نوري القصير وكميل البدين كانا يفعلان ذلك. لقد كانا يلتقطان صوراً للمتظاهرين بواسطة الهواتف التي زودهما بها المحقّق إيرول أما أنا فلم أفعل. وكان ذلك بعد أن قام الأولاد في المتنزّه بمساعدة نوري كثيراً حيث أخذوا ذلك الخبيث لرؤية الطبيب لأنه كان يتبوّل دماً فقد كانت لديه حصوة في الكلية، وبفضل المتظاهرين تحسّن. كما ساعدوني أيضاً فكانوا يقدمون طعاماً ساخناً في المتنزّه كل ليلة دون طلب أي مال من أحد، فكل شيء مجاني لكن على الجميع العمل دون تكاسل... لقد كانوا شجعان بحق. وقد اقتلع رجال الشرطة عين شاب بجانبي حيث رموا قنبلةً مسيلة للدموع على وجهه عن عمد... كان الشاب وسيماً لكن الآن اختفت عينه اليسرى.

وحين سألته لماذا لم يساعد الولد قال:

- لقد فعلت... من قال إني لم أساعده؟ لقد حملته طوال الطريق إلى المستشفى على ظهري. ساعدت الشرطة والمتظاهرين إذ لم يكن لدينا خيار، فقد يبقى المتظاهرون هناك لأسبوع أو ربما لشهر ثم سنبقى وجهاً لوجه مع الشرطة مجدّداً. لو لم أعمل مخبراً فسيؤذيني المحقّق إيرول ويجعل حياتنا في الشارع جحيماً. أتفهمين؟

لم أعرف مدى صحة ما يرويه، إذ لم أصدق أن محقّقاً سيحتاج لمساعدة شخص مثله. لكنه كان بارعاً في رواية القصة لذا سألته:

- وماذا حصل بعدها؟ هل كان ما قلته للشرطة مفيداً؟

فأجابني بفخر:

- بالطبع... لقد كانوا يتلقون تقارير كل ساعة حول ما يحصل في المتنزّه وإلا لماذا يعطيني المحقّق إيرول مائتي ليرة أخريين؟

أومأت باتجاه الأشجار وقلت:

- لكن المتنزّه لا يزال هنا والمتظاهرون ربحوا، ولم تستطع الحكومة قطع الأشجار.

أضاء وجهه وقال بسعادة:

- هذا صحيح. إن سألتِني فهذا أفضل لأنهم لو بنوا مركز التسوّق لما سمحوا لنا بالاقتراب منه، ولقام حراس الأمن بمطاردتنا حين نقترب من الباب لكن... لكن الآن الأشجار تعذبني... حين أستلقي تحت تلك الشُجَيْرات وأغلق عينيّ يبدأ الهمس ثم ترتفع الأصوات تدريجاً... هذا يرعبني... أقسم إنني أكاد أفقد صوابي.

يبدو أن هذه الأحلام والأوهام من تأثير الشراب. قلت وأنا أحاول تهدئته:

- اذهب إلى متنزّه آخر. ألا يوجد مكان آخر؟ اذهب إلى متنزّه ماكا أو فينديكلي. سيكون الجو ألطف بالقرب من البحر.

فهزّ رأسه بحزن وقال:

- كيف يمكنني الذهاب إلى هناك يا أبلة؟ هذا المتنزّه منزلي ولا يمكنني النوم في متنزّه آخر. لقد بقيت أنام هنا خمس سنوات بالقرب من شُجَيْرةٍ مغنولية أعتبرها كحضن أمي. لقد بقيت أنام هناك بسلام كطفلٍ تحت تلك الرائحة الجميلة، وحتى لو ذهبت فهناك أشخاص آخرون حجزوا مناطقهم... أتظنينهم سيسمحون لي بالبقاء مكانهم؟

تعاطفتُ مع الفتى وكالمحقّق إيرول ناولته مائة ليرة وقلت:

- اذهبْ ونمْ في فندقٍ الليلة وتعال إليّ غداً. أنا في مركز فرحات سيراج الثقافي... أتعرف مكانه؟

فردّ بابتهاج:

- أعرف... أعرف... عند ناصية شارع ساكيزاغاكي.

وهكذا التقيت ميمو فقد جاء في اليوم التالي وانضم إلينا. وبالطبع لم يكن من السهل عليه التعوّد كما أنه هرب مرات عدة لكنني وجدته وأعدته أحياناً وعاد من تلقاء نفسه مرتين وهو يدّعي أن أشجار متنزّه غيزي تهمس...

يبدو أن نازلي أنهت قصتها فقد ظلت تراقبني كأنها تتوقّع تفهمي.

- أعني يا نيفزات بيك إن كسب هؤلاء الأولاد كتثبيت الهلام على الجدار، لذا فإنني لا أتخلص منهم بسهولة.

- فهمت الأمر يا نازلي هانم وأقدر لك جهودك، فأنت تقومين بعمل مهم لكنني أشعر ببعض الفضول. ألا يزال ميمو يسمع الأشجار تهمس؟ أفترض أنك أخذته إلى طبيب نفسي...

ظهرت نظرة غامضة في عينيها.

- الأمر معقّد. لقد أخذناه بالطبع لنساعده على التخلّص من إدمانه على الشراب والمخدّرات لكن قضية سماعه الأشجار تهمس معقّدة قليلاً.

وضحكت بارتباك.

- من الصعب شرح الأمر... ربما حين تسمع ستقول إنني مجنونة أيضاً...

رأت علامات الاستفهام على وجهي فاستسلمت:

- أفترض أنّ من الأفضل أن أشرح لك وأنت تقرّر.

رشفت رشفةً أخرى من الشاي وأنصتّ.

- تلك الليلة أخذ ميمو المائة ليرة التي أعطيته إياها ومشى بعيداً. بصراحة لم أستطع تجاهل ما قاله لي... بالطبع لم أصدق أن الأشجار تهمس، وإنما خطر ببالي أن الفتى قد اختلق الأمر كله ليخدعني ويأخذ المائة ليرة، لكنني لم أستطع منع نفسي من التحديق إلى المتنزّه الذي لا يبعد سوى بضعة أمتار عني. وهنا خطر ببالي أنني لم أذهب إلى هناك منذ أيام المقاومة التي كانت أياماً عصيبة، فقد قام رجال الشرطة بالهجوم دون أدنى رحمة، وتلوّث المكان بالغازات المسيلة للدموع ومدافع المياه المضغوطة وعربات مكافحة الشغب... لقد كانوا يضربون أولئك الفتية والفتيات بالهراوات والعصي الخشبية، لكن المتظاهرين ظلوا ثابتين وتحولت إسطنبول إلى نهرٍ بشريٍّ يتدفق إلى المساحة الخضراء

الصغيرة، ومع كل يوم يمر يزيد عدد الأشخاص الذين ينضمون للمقاومة... ألف... عشرة آلاف... مائة ألف... مليون... واستمرت المقاومة أكثر من أربعين يوماً، وفي النهاية استسلمت الحكومة. ولم يتركوا المساحة الخضراء وشأنها فحسب وإنما زرعوا أشجاراً جديدة في المنطقة. لكنني لم أَرَ المتنزّه من حينها فأحسست برغبة غريبة في الدخول وبدأت قدماي تسحبانني نحو الأشجار.

حين دخلت المتنزّه أحاطت بي برودة رطبة ورائحة التراب المحترق والعشب المتفسّخ... مشيت تحت الأشجار الكثيفة حيث لا ينفذ ضوء القمر لأتفاجأ بالمنطقة المشجّرة بين الأبنية كنوعٍ من المعابد... كآخر مكان مُبجّل في الطبيعة لم ندمره. نعق طائر في مكان ما... أظنها بومة... ربما كانت آخر بومة في المدينة... توقفتُ وأنصتُّ لكن الصوت لم يصدر مجدّداً فقد سكنت الريح. نزلت السلّم حتى وصلت إلى المساحة المفتوحة وسط المتنزّه، وللحظة وقفت أشاهد النافورة والمياه الفضية تحت ضوء البدر. كان المكان هادئاً لدرجة أنه كان بإمكاني الجلوس على أحد تلك المقاعد والتحديق إلى المياه الساكنة حتى الصباح دون أن أشعر بالملل، ثم لاحظت الريح مجدّداً... لا يمكنك أن تسميها ريحاً فقد كانت أشبه بنسيم عليل يتلاعب بجبهتي ويتخلّل شعري، وكما لو أن كل إرهاق اليوم ترك جسدي وعقلي وأحسست للحظة أنني أصبحت جزءاً من ذلك النسيم والبركة الفضية والأشجار الظليلة والقمر في السماء. وهنا سمعت صوتاً كدمدمة منبعثة من بين الأشجار... أهذا هو الصوت نفسه الذي سمعه الشاب؟ اقشعر جسدي لكنني علمت أن لا جدوى من الخوف وبدأ ذهني يبحث عن تفسير منطقي... إنها الريح... بالطبع إنها الريح... وهذه همهمة وليست صوتاً مفهوماً. ولكن في هذه الليلة الساحرة تشظّى تفسيري المنطقي، فقد أصبحت الهمهمة أكثر نقاءً وتحوّلت إلى صوت خافت لفتاة شابة يذكر الأسماء واحداً تلو آخر:

علي إسماعيل... عبد الله... محمد... إيثم... مصطفى.

شعرت بخوف شديد... ما الذي يحصل؟ أول ما خطر ببالي هو أن الفتى المشرّد محق ولا يتخيّل... كانت الأشجار تهمس بالتأكيد... بنبرةٍ يملؤها الحب

والاحترام والحنان كما لو أنها خائفة من إزعاجهم... ظلّت تردّد الأسماءَ... عليّ إسماعيل... عبد الله... محمد... إيثم... مصطفى.

حين نظرت حولي رأيتهم على الجانب الآخر من البركة... خمسة أشخاص أعينهم مثبتة عليّ... أنا أتكلّم عن المقبرة التذكارية... خمسة وجوه تحدّق إليّ من داخل أُطر... لكن لم تكن الصور وحدها على العشب الأخضر وإنما كانت هناك خمسة حجارة أضرحة رمزية، لكنها أكثر تأثيراً من حجارة الأضرحة الحقيقية، وهي تتلألأ تحت ضوء القمر الشاحب. توجّهت إليها ونظرت إلى الكتابة على الأضرحة: "عليّ إسماعيل كوركماز، وعبد الله كومرت، ومحمد أيفاليتاس، وإيثم ساريسولوك، ومصطفى ساري". أسماء الشباب الخمسة الذين خسروا حياتهم خلال المقاومة لحماية هذه الأشجار من القطع. وقفت هناك وأنا لا أدري ماذا أفعل لكن الأشجار المترجّحة بهدوء استمرت بذكر الأسماء نفسها: « عليّ إسماعيل... عبد الله... محمد... إيثم... مصطفى".

لم أكن خائفةً لكن شيئاً ما خنقني في حلقي فبدأت بالبكاء، وجلست على أحد المقاعد واستمررت بالبكاء. وحين غادرت المتنزّه كانت الريح قد توقفت وانتهى حفيف الأشجار...

نظرت إليّ وكأنها تحاول معرفة رد فعلي.

– ستظن أنني فقدت عقلي أيضاً.

– بالطبع لا...

– لا.. لا... أنت محق. كنت لأشعر الشعور نفسه لو أن أحداً أخبرني بتلك القصة. لا أعرف كيف أشرحها، لكن، صدقني أنني سمعت ذلك الصوت، وحين تهمس أشجار پيرا أشعر بالخزي من إنسانيتي.

قد يكون الأمر بسبب التعب أو ربما وخز الضمير لأنني لم أزر المتنزّه ولا مرة منذ أحداث المقاومة... قد تشعر بنوعٍ من الندم على أولئك الناس الذين فقدوا حياتهم، لكن ماذا يفترض بي أن أقول لتلك المرأة الآن؟

جاء صوت لنجدتي وقال:

– مرحباً... هل أنت مشغولة يا نازلي هانم؟

عند الباب وقف رجل أشقر نحيل متوسط الطول، وكان متردّداً في الدخول. كان يرتدي بذلة بنية داكنة وقميصاً فاتحاً لكن دون ربطة عنق. كان وجهه نحيلاً كجسده ونظّارته ذات الإطار المعدني كبيرة جداً على وجهه، وتحت أنفه النحيل كان شاربه الأخصف طويلاً حتى أنه يخفي شفتيه.

قالت نازلي بصوتٍ يملؤه المرح:

- أهلاً... لقد وصل الإرهابي. تفضّل يا سيفان هوكا... لقد كنا نتكلّم عنك.

لم يتخلَّ عن خجله مباشرة لكنه شارك في المزاح الخفيف.

- آمل ألاّ يكون سوءاً.

وحين تقدم نحونا لاحظت أنه يعرج على قدمه اليمنى.

- لقد تم تعريف نيفزات بيك إليك على أنك مخرب سيئ السمعة وربما إرهابي.

وقفت وصافحته:

- الضابط المحقّق نيفزات.

حدّقت إليَّ عيناه الخضراوان من وراء النظّارة السميكة وصافح يدي بودٍّ دون أن يكترث لكوني شرطياً.

- سررت بلقائك يا نيفزات بيك. أنا سيفان... سيفان عسكر...

نعم... لقد قال عسكر... أي جندي... كان الأمر أشبه بدعابة لكنني لم أضحك لئلا أكون فظًّا.

- كانت نازلي هانم تتكلم عنك هذا الصباح... شكراً على قدومك.

كان يظن أن نازلي دعتني إلى هنا ما أثبت لي صحة قصتها. جلس على المقعد الذي نهض عنه كريكيت وسحب ساقه إلى مكانها وقال بصوت يملؤه القلق:

- في حال تم إطلاق سراح قاتل فيدان سينزل الفتيان إلى الشوارع. إنهم غاضبون... موت صديقتهم أثار جنونهم.

بالنظر إلى صلته بهم كان بإمكان سيفان التأثير فيهم أيضاً لكن أولاً عليه أن يبدأ التفكير بشكلٍ مباشر.

- موت فيدان مأساة حقيقية والمشتبه به لا ينكر ذلك. لكن مهاجمة نادي تارلاباسي الأصيل بقنبلة مولوتوف جنحة، فقنابل المولوتوف تُعتبر سلاحاً

نارياً.

قطب جبينه وقال:

- هؤلاء الفتيان جهلة وكانوا يظنون أنه لا يوجد أحد في المبنى، فقد كان مكتوباً على الباب "مغلق بسبب الجنازة". لم تكن لديهم نية بإحراق أحد وإنما إخافة المقامرين. ولهذا هاجموا نادي تارلاباسي الأصيل في وقت مبكر صباحاً لئلا يؤذوا أحداً...

وحين رآني جالساً بهدوء افترض أنني أسأت فهمه.

- بالطبع أنا لا أبرّر هذه الأفعال، لكن حين لا تقوم الحكومة بعملها...

قاطعتنا نازلي:

- أياً يكن الأمر سنحلّل الوضع فيما بعد. ما رأيك يا نيفزات بيك؟ هل سيطلقون سراح قدرت؟

حاولت إيصال ما كنت أفكر به دون تجميل كلامي.

- لقد أنهينا الاستجواب وأرسلنا تقريرنا الرسمي إلى المدّعي العام، وأظن أن المدعي العام سيصر على الاعتقال، لكن القرار النهائي تتخذه المحكمة الجنائية. إن سألتماني عن رأيي الشخصي سأقول إنه لا ينبغي لهم إطلاق سراحه إذ لم يحاول أحد دخول المبنى... كما أن إدانات قدرت السابقة قد تكون عاملاً يمنع إطلاق سراحه بالإضافة إلى أنه أطلق النار على فيدان مرات عدة. لكنني لست القاضي، وفي النهاية المحكمة هي التي تقرر. بالطبع من الممكن إطلاق سراح قدرت فمحاميه يدعي أنه ارتكب الجريمة دفاعاً عن النفس، وسواء تم إطلاق سراحه أم لا، فهذا ما سيدّعيه، وعلينا أن نعترف أنها استراتيجية دفاع جيدة.

نفخت نازلي:

- أليس ساسيت الرخيص محاميه؟ لقد كان يتولّى قضايا والدي أيضاً فيما مضى. لو تم إحراق هذا الرجل في الجحيم لمئات السنين لما كفّر عن ذنوبه لكنه، لسوء الحظ، بارع للغاية... فهو يعرف كثيراً من الناس، من السياسيين ومن النظام القانوني. آمل ألاّ يتمكن من السماح بتحرير ذلك الجزار.

رددت:

- آمل ذلك أيضاً. لكن حتى لو تم إطلاق سراح قدرت فعليكم منع هؤلاء الفتيان من الخروج إلى الشوارع. أنتم تعرفون أكثر مني أن بلاك نظام رجل خطير وأبناء إخوته مجانين وكلّهم مسلحون...

قاطعني سيفان:

- هذا ما أقوله يا نيفزات بيك. ماذا لو تكلمت مع نظام؟ على الأقل يغلق ناديه ليومين ويضبط أعصابه...

بالتأكيد هؤلاء الفتيان لا يريدون القتال.

- يمكنني فعل ذلك. سألتقي نظام خلال بضع ساعات وسأشرح له الوضع، لكنني لا أعرف إلى أي مدى سينصت لي. لا يمكنك أن تثق بهؤلاء الرجال، لذا سيكون الأكثر ضماناً أن نوقف هؤلاء الفتيان.

قال وهو يرفع يديه:

- صدّقني... لقد كنت أحاول تهدئتهم منذ الليلة الماضية. لو كان الأمر متوقفاً عليهم لتصرّفوا منذ زمن. طلبت منهم أن ينتظروا نتيجة المحاكمة، لكن في حال تم إطلاق سراح قدرت فلا أدري ماذا سنفعل...

بدا صوته عاجزاً كصوتي.

هؤلاء الفتيات الشابات
اللواتي وقعن ضحيةً للذئاب...



اشتدت حرارة الشمس كما لو أنها نسيت أن الفصل شتاء، وكان صوت سيلان الماء يملأ المحيط فقد كان الثلج على الأسطح وأُطر النوافذ وعلى جميع الحواف في الشارع يذوب بسرعة، وإذا استمر ذوبانه على هذا المنوال فسيختفي الثوب الأبيض الذي ترتديه بيه أوغلو بحلول المساء. وبينما كنت أمشي نحو منزل عزيزة أصبح المعطف الذي أرتديه عبأً عليّ ما اضطرني لحل الوشاح الرمادي اللون الذي حاكته لي غوزيد، ومع ذلك فإنني حين وصلت إلى المبنى في شارع كورتولدو كنت أتصبّب عرقاً. كان منزل عزيزة كمنزل حبيبها المقتول بالضبط... إنه نموذج نمطي عن تارلاباسي: مبنى حجري من ثلاثة طوابق بنوافذ نائتة. التقطت أنفاسي عند الباب ثم قرعت الجرس ففتح لي سادري وعلى وجهه النظرة الخنوعة نفسها وعلى شفتيه الابتسامة الكئيبة الدائمة.

- تفضّل يا حضرة الضابط... صاحباك في الأعلى...

كنت أعلم ذلك فقد اتصلت بعلي وزينب حين وصلت إلى بيه أوغلو وأنا في مطعم ليدز أتناول الكابوسكا والكاسيك، وقد دعوتهما لكن ذينك المغفلين كانا قد تناولا طعامهما مسبقاً، فما إن سنحت الفرصة لتناول غداء رومانسي لوحدهما لم يعد العاشقان يكترثان لرئيسهما العجوز... كنت آمل أن يأخذها على الأقل إلى مكانٍ راقٍ... لكن ماذا لو لم يفعل؟ من يأبه للطعام حين يكون المهم أن يقضيا

الوقت سوياً؟ الحب هو كل ما تحتاج إليه، وفتانا ليس مغفلاً لهذه الدرجة وسيعرف إلى أين يأخذ زينب... آه... ألم يسألني الوغد عن مطاعم راقية ذلك اليوم؟ نعم قبل أسبوع واحد قال لي:

- أرجو يا حضرة الضابط أن تعرّفني إلى جميع المطاعم الراقية وحانات بيه أوغلو والمطاعم المطلة على البوسفور ومحلات السمك في سماطيا...

إذن لقد بدأت علاقتهما من قبل وسأكون كاذباً لو أنني قلت إن ذلك لم يجعلني أضحك قليلاً. لماذا أخفيا الأمر عني؟ شككت في أنهما ظنّا أنني لن أوافق... وربما يكونان خجلين فحسب... أياً يكن الأمر هذا شأنهما فأنا لست أباهما أو قريبهما ولو أنهما أرادا لأخبراني.

كان منزل عزيزة من الداخل كمنزل إنجين أيضاً... الباب مفتوح على المدخل، والأرضية الصفراء، والسلم الخشبي المؤدي إلى ردهة واسعة... صعدنا ذلك السلّم الذي كان يصرّ تحت وقع خطانا.

- لقد وصلنا. إنهما في الداخل.

وعبر الباب المفتوح بدت الغرفة كغرفة إنجين تماماً... يبدو أن ضحيتنا كان مهووساً قليلاً، فقد أعرب عن ذوقه الغريب نفسه هنا... سجادة صناعية بيضاء وحمراء عليها أشكال هندسية ممدودة على الأرضية الخشبية، وطاولة حمراء كبيرة أخرى في الوسط مع طاولتين جانبيتين باللون نفسه. الشيء المختلف كان الأريكة والمقاعد فقد كان لونهما في منزل إنجين قشدياً أما هنا فوردي فاتح، وهناك التلفاز الضخم نفسه المعلّق كبقعةٍ على الجدار.

نظرت إلى الشرطيين العاشقين الجالسين على الأريكة الوردية اللون يشربان الشاي مع الكعك، بينما جلست عزيزة على مقعد مقابلهما تراقبهما بعينين بائستين. حين دخلت وقف الثلاثة.

قلت مشيراً بيدي:

- لا تقفوا... أرجوكم. سأجلس هناك.

يبدو أن سادري كان جالساً على المقعد الفارغ الوحيد، وسيكون من غير اللائق أن أجلس مكانه، لذا فقد جلست على حافة الأريكة الوردية بجانب زينب

لأشمّ رائحة عطرٍ جميل. لم تكن زينب تضع عطراً من قبل كما أنها تضع بعض مساحيق التجميل... إنها تناسبها لكن...

- ماذا تريد أن تشرب يا حضرة الضابط؟
- لا شيء، شكراً يا سادري... لقد شربت للتو كوبي شاي.
- يمكنني تحضير القهوة فأنا بارع في ذلك.
- لا... شكراً.

التفت إلى عزيزة وقلت:

- كيف حالك يا عزيزة؟

خفضت رأسها وابتسمت فقلت محاولاً إسعادها:

- تبدين بحالٍ أفضل. هل أخذت قسطاً من الراحة؟

على الرغم من أنها كانت في منزلها لكنها لم تكن مرتاحةً فهناك شيء يدور في رأسها.

- لم أستطع النوم لكن ذلك لا يهم فأنا لا أعمل لذا...

نظرت إلى مساعديّ نظرةً ملؤها التلميح.

- لن أسألكما أنتما الاثنين لأنكما تبدوان بحالٍ جيدة...

ظهرت الريبة على وجه زينب وعيني علي، لكنني لم أكمل الموضوع وإنما أشرت إلى التلفاز.

- لدى إنجين التلفاز نفسه في منزله.

ازداد التوجُّس على وجه عزيزة وقالت:

- لقد اشترينا اثنين... واحداً له وواحداً لي...

وقفت ومشيت ببطء نحو التلفاز بينما كان الجميع يحدّقون إليّ ثم سحبت الجهاز حوالى قدم وانحنيت للداخل ونظرت إلى الجدار وراءه... وكما في منزل إنجين كان الجدار مغطّى بورق جدران فمددت يدي وبدأت أتحسّس ورق الجدران، وجاءني صوت عزيزة بسرعة.

- ما الأمر يا نيفزات بيك؟ عمّ تبحث؟

وكانت قد وقفت واتجهت نحوي.

- أنا أحاول العثور على الخزنة.

التفتُّ ونظرت إليها كما لو أنني أحذّرها من المراوغة فتحوّل القلق في عينيها ذعراً.

- هناك خزنة هنا يا عزيزة، وإن لم ترينا إياها فسنجدها وحدنا بعد أن نضيّع بعض الوقت، لكن إن أريتنا إياها...

- المفتاح ليس معي. كان إنجين يخفيه دائماً في قفل التعويذة المحيطة بعنقه.

إخبارها لنا بما نعرفه لم يكن لينجيها، لكنني سررت من صراحتها.

- لا تقلقي فالمفتاح معنا. إنه معك يا زينب... صحيح؟

أجابتني وهي تفتح الحقيبة الضخمة على حضنها.

- كما طلبت يا حضرة الضابط... إنه هنا.

التفتُّ إلى عزيزة.

- هل سترينا مكان الخزنة أم نعثر عليها من تلقاء أنفسنا؟

وبدلاً من أن تجيب تقبّلت الهزيمة وأقبلت لتضغط على ورق الجدران بقوة وتقول:

- هنا. إنه هنا.

وبلمسة من أصابعها الضعيفة انزلق الغطاء المعدني المكسو بورق الجدران وظهرت الخزنة. ارتدت زينب قفازيها واتّجهت نحونا.

- اسمح لي بفتحها يا حضرة الضابط.

ابتعدت أنا وعزيزة خطوتين عن التلفاز ووقف علي. كما راقبنا سادري من مكانه بذهول دون أن يفهم ما يحصل. أدارت زينب المفتاح مرتين فصدرت طقطقة وفتح الباب.

ظهرت علامات قلق شديد في عيني عزيزة.

- أتعرفين ماذا يوجد في الداخل؟

قالت وقد شحب وجهها:

- لا... أفترض أنها وثائق وصكوك ملكية وما شابه...

قد يساعدنا زيادة الضغط.

- أي نقود أو أسلحة أو كوكايين؟

كانت ترتعش كورقة شجر.

- لا... لا أعرف... لا يخبرني إنجين ماذا يخبئ هنا.

لا بدّ أنها تكذب. فتحت زينب الغطاء على مصراعيه ومدت يدها إلى الداخل وسحبت سبعة أو ثمانية ملفات زرقاء كتلك التي وجدناها في منزل إنجين. وبينما كانت تضعها على إحدى الطاولتين الصغيرتين انزلقتِ بضع صور ووقعت على السجادة الحمراء. انحنيت لألتقطها فوقعت عيناي على جسدين عاريين... واحد مغطّى بالشعر والآخر شاب وناعم. وضعت نظارتي فوجدت أن بلاك نظام هو المغطى بالشعر والفتاة الشابة تحته مغمضة عينيها لكن من غير الواضح إن كان بسبب المتعة أو الألم. كانت الصور الثلاث الأخرى للمشهد نفسه لكن من زوايا مختلفة. التفت إلى عزيزة التي طأطأت رأسها خزياً.

- هل هذه الفتاة هي سيليم؟

لم تعد تحتمل أكثر وأغمي عليها، ولولا أنني أمسكت بها من معصمها لسقطت. اندفع علي وعازف المزمار وحملناها إلى الأريكة.

ناديت:

- بعض الماء.

ركض سادري وأحضر الماء، ووضعت زينب جميع الملفات جانباً وبدأت تدلك معصمي عزيزة، بينما بلّلنا جبهة الفتاة وفمها. بدأت تصحو وفتحت عينيها لكنها حين رأتنا أغمضتهما مجدّداً.

قلت بصوتٍ أبوي:

- لا داعي لأن تخجلي فنحن نعلم ما جرى.

فتحت عينيها بجبن.

- نحن لا نلومك لأننا نعلم أنه تم الإيقاع بكِ.

خنعت وبدأت تبكي، لكن ذلك لم يطل. فقد استوت في جلستها على الأريكة وطأطأت رأسها.

سألها عازف المزمار وهو يمد يده بالكأس:

- أتريدين بعض الماء؟ خذي رشفة.

مسحت دموعها وقالت:

- لا أريد. لست أنا من تم الإيقاع بي وإنما سيليم... إنه خطأ نظام. فقد أجبر إنجين على ذلك وقال له: "إنني أحب سيليم وعليك أن تساعدني." ولم يستطع إنجين مقاومته ووافق في النهاية. وهكذا دعى سيليم إلى هنا... لم يكن لدى الفتاة المسكينة أدنى فكرة وجاءت، لكنني لم أكن أعلم أن نظام سيأتي أيضاً... أقسم بذلك. لو كنت أعلم لما شاركت في هذا العمل القذر لأنني أحب سيليم. لقد خرّب نظام حفلتنا لكن الأوان كان قد فات. في البداية حين رأت سيليم نظام انكمشت، لكن بعد كأس أو اثنتين من الشراب استرخت... وتعرفون البقية...

حذّرتها:

- أنت تخفين شيئاً. لم تكن تحت تأثير الشراب وحسب تلك الليلة، وإنما كانت قد تعاطت الكوكايين. جميعكم تعاطيتموه سوياً.

احمرّت وجنتاها الشاحبتان.

- لم أكن أريد ذلك لكن نظام ضغط علينا وهو من أحضره. لقد ظل يتبجّح بأنه من النوع الممتاز... أنا لا أحب الكوكايين لكن إنجين يتعاطاه، وهو يعطيني أحياناً حبوباً لأجل النشوة ما جعل الأمر يبدو وكأننا نتعاطاه للمرة الأولى تلك الليلة. سيليم أيضاً لم تكن تريده لكن حين أخذته أنا تقبّلت الفكرة ثم فقدنا السيطرة... أو أنني ثملت وكذلك سيليم. ذهبت إلى غرفة النوم لأنام فاستغل نظام فرصة ثمل سيليم... لم تكن المسكينة تعي ما تفعله.

أريتها الصورة.

- من التقط هذه الصور؟

هزت رأسها بخزي.

- إنجين... إنجين التقطها لأن نظام توسّل إليه وقال: "لا يمكنني العيش دون سيليم وأريد أن أتزوجها، ومع هذه الصور ستتمكن من إبعادها عن دايس لتصبح سيليم لي... ساعدني". وكان إنجين يريد إسداء خدمة لرئيسه وأخبرني

أن دايس لا يحبها في كل الأحوال، وسيستغلها ثم يتخلص منها؛ أما نظام فيحبها ويريد الزواج منها وهذا أفضل لها. وقد صدقته وتبين فيما بعد أن ذلك صحيح فهذا ما قلتموه أنتم... لقد تزوج نظام سيليم، وبالطبع كان ذلك من سوء حظ إحسان فقد جرح كبرياءه. لا أدري إن كان يحب سيليم أم لا، لكن أن تجد أن حبيبتك ذهبت مع شخص آخر وأنت في السجن وخاصة إن كان ذلك الشخص من ألد أعدائك... فذلك كثير جداً.

عزيزة هذه غريبة الأطوار... إنها تشعر بالأسف على دايس.

- وماذا كان موقف سيليم؟ هل كانت تحب إحسان؟

- تحبه؟ ما الذي تقوله يا نيفزات بيك؟ لقد كانت متيّمةً به! كانت مغرمةً به منذ صغرها فدايس إحسان كان رجل والد سيليم... أعني أن عيني سيليم تفتّحتا على إحسان من صغرها... إنه حبها الأول... وبعد تلك الليلة المقزّزة توسلت إليّ ألاّ أخبر أحداً بما جرى فأقسمت لها أنني لن أخبر أحداً، لكن نظام لم يتوقف عند ذلك إذ أرسل تلك الصور إلى إحسان الذي جُنّ جنونه وضربها ضرباً مبرِّحاً.

أحسست كأنني أتابع فيلماً سينمائياً... ميلودراما حقيقية... هؤلاء الفتيات الشابات اللاتي وقعن ضحية للذئاب، وحبهن البريء المستحيل... كما أن الرجال كانوا يبذلون قصارى جهدهم. فبلاك نظام خاطر بجميع أنواع الفضائح ليستحوذ على المرأة التي أحبها، أما دايس إحسان فكان أكثر حذراً... هل كان يحب سيليم حقاً؟ وتذكّرت حديثنا في اليوم السابق... كلما ذكرنا اسم الفتاة يخيّم الصمت... لا... من الواضح أنه أحبها أيضاً لكنه بعد رؤية هذه الصور تحطّم. الآن توضّح سبب رغبة سيليم برؤية دايس... لتسدد الدين للرجل الذي جُرِحت كبرياؤه ودُمِّرت سمعته، وفي تلك الحالة ليس للفتاة أي يد في دخول إحسان السجن.

قلت:

- حادث السلاح الناري... المسدس الذي أدخل دايس السجن... أليست سيليم هي التي وضعته في غرفته؟

نظرت إلى الباب كما لو أن هناك شخصاً يتنصّت علينا وقالت:

- لن يعلم نظام بما تكلمنا عنه... أليس كذلك؟

يا إلهي... كم أن الناس يخافون من نظام في حين أنه يجلس قبالتنا متظاهراً بالبراءة مثل قطٍّ أكل طائراً.

طمأنتها:

- لن يعلم بالطبع... كل شيء سيبقى بيننا.

التفتت إلى عازف المزمار وقالت:

- سادري... أنا أحبك، لكن أرجوك. إن علم أحد بما جرى فسيقتلونني.

نظر إليها سادري بانزعاج.

- هيا يا عزيزة... متى ثرثرتُ بشيء أخبرتِني به؟

خجلت كطفل واثق من أن أخطاءه ستُغفر له.

- لا يا سادري... لم أقل... كل ما أردته هو أن أحذّرك.

تلاشت تعابير الدفاع عن وجه الموسيقي الأسمر.

- لا داعي لذلك يا عزيزتي فأنا لن أؤذيك أبداً.

مدّت يدها ولامست أصابع الرجل النحاسية وقالت مبتسمة:

- أعلم ذلك.
- أحد الرجال الذين يعملون مع دايس كان رجل نظام... إنه الشخص الذي وضع المسدس في مكتب إحسان وليس لسيليم أيّ علاقة بالأمر، فقد بكت الفتاة المسكينة أياماً عدّة بعد دخول دايس السجن. نظام من خطّط للأمر كله حيث اقترح قبل سنة على إحسان إجراء شراكة بأن يعطيه نصف ناديه، لكن إحسان لم يقبل فخربت علاقتهما. وكان إنجين يقول: "لا يمكنك العبث مع نظام وإلا فستدفع ثمناً باهظاً". فجأة خطرت فكرة لعزيزة فنظرت إليّ برعب.
- هل نظام حقاً من قتل إنجين؟ بسبب المنازل اليونانية التي اشتراها من وراء ظهره؟
- سنعرف ذلك قريباً يا عزيزة، لكن ما أخبرتنا به مفيد للغاية. هل أخبرك إنجين باسم الرجل؟ أعني الشخص الذي أوقع بدايس.

هزّت كتفيها النحيلتين.

- لا، لم يتكلم... لم يكن يتكلم كثيراً عن الأمر وكان يقول: "كلما عرفت أقل كان أفضل". كان يحاول دائماً أن يحميني. لم يكن إنجين رجلاً سيئاً يا حضرة الضابط، لكن قدره كان سيئاً كقدري. كان يحبني. ولو سألتني كيف عرفتِ سأقول لك إن النساء يشعرن بهذه الأمور.

والتفتت إلى زينب وأكملت:

- أليس ذلك صحيحاً؟ النساء يشعرن...

جلست زينب في مكانها صامتةً دون أن تعرف بماذا تجيب، وقد خيّم سكون رهيب علينا جميعاً، ولم نعد نسمع سوى صوت ذوبان الثلج.

قد يكون الاستيلاء على الأراضي هو دافع الجريمة



لطالما كان أبي يقول لي: «لا تثق بشمس الشتاء»، فبعد أقل من ساعتين أصبح الطقس في غاية البرودة، وفي أقل من ساعة سيهبط الظلام وسيعاود الثلج تساقطه.

تمتم علي وهو يحمل حقيبة زينب بيده اليمنى:

- ثمانية صكوك ملكية أخرى وتسعة وجدناها في منزل إنجين أي أن الناتج سبعة عشر.

كنا نصعد طريق ساكيزاغاكي باتجاه شارع الاستقلال أي بعكس الاتجاه الذي مشيته في فترة الظهيرة... باستثناء الصور العارية لسيليم ونظام لم نجد في منزل عزيزة أي أدلة مهمة أخرى سوى صكوك الملكية الثمانية. وكان هناك مستندات لإنجين ورسائل غير مهمة وصور دوردو وغيرها... في الواقع كنت سعيداً لأننا لم نجد أي أسلحة أو كوكايين لأن ذلك كان سيتسبب للفتاة بعذاب كبير، إذ ستعود إلى مركز الشرطة ويتم التحقيق معها مجدّداً.

أكمل مساعدي:

- وهناك الصكوك التي اشتراها نظام... صحيح؟ كم عددها؟

ذكّرته زينب:

- اثنان وعشرون... من بينها ثلاثة صكوك لثلاث مباني شقق وصكّان لمبنيي مكاتب.

نظر علي إلى بقايا المنازل تحت أشعة شمس الشتاء الخافتة التي تمد ظلالها على الإسفلت وتمتم:

- كم أصبح هذا الحي مهجوراً!

ردت زينب:

- هذا الحي هو قلب المدينة... قيمة العقارات تتزايد في إسطنبول ومع ذلك لم تصل إلى مستوى مماثل.

لا بدّ أنها تعبت في التفكير بهذا... وأنا أيضاً لم أفهم تجارة العقارات هذه مطلقاً، وكان أمراً جيداً أنني لم أفهمها. ماذا أريد أكثر من منزلي القديم في بالات الذي ورثته عن أبي؟

لكن يبدو أن علياً لم يكن يوافقني الرأي لأنه قال دون تفكير:

- ما هو المستوى المماثل؟ ما الذي يحدّد أسعار هذه البيوت؟

على الرغم من أنها لم تضع الوثائق وصكوك الملكية التي وجدناها في الخزنة في حقيبتها الرمادية، لكن ما فيها جعل من الصعب حملها، فوضعتها تحت إبطها وأجابت:

- بالمقارنة مع أسعار المنازل في مدن كنيويورك وباريس ولندن... في تلك الأماكن يتم بيع المائة متر مربع في مركز المدينة بملايين الدولارات أما هنا فتباع بحدود ثلاثمائة ألف وربما خمسمائة ألف... قد نكون غافلين عن المدينة التي نعيش فيها لكن إسطنبول حاضرة العالم. ما رأيك يا حضرة الضابط؟ ما الذي تتميز به تلك المدن وتفتقده مدينتنا الجميلة؟

أجاب مساعدي بغضب:

- الناس.

أشار إلى الغسيل المعلّق على الحبال الممدودة بين المنازل:

- انظرا إلى هذا المنظر في وسط مركز المدينة. الناس يخافون القدوم إلى هذه الشوارع في الليل بسبب المخدرات والدعارة والسلب...

أضافت زينب:

- والفقر والجهل والجريمة... لكن الأمر لم يكن هكذا، فقد كان الناس يرتدون

أفضل ملابسهم للذهاب إلى شارع الاستقلال. من المفترض أن الناس الذين كانوا يقطنون هنا كانوا مختلفين كليًا... انظر إلى تلك المنازل الفخمة... حتى الآن من الواضح أن...

نظرت حولي إلى الأبنية المتداعية التي تنتظر إزالتها وفكرت بأبناء إسطنبول الذين كانوا يقطنون في هذه المنازل وما أضافوه إلى ثقافتنا... يبدو أن الحي ملعون. لقد تم العبث بنسيج المدينة... بالأبنية وحياة الناس... هذا الدمار المشؤوم... هذا الحي الفقير في وسط إسطنبول... إنه الثمن الذي تم دفعه لانتقام الحكومة والهيستريا الجماعية. لكنني إن حاولت شرح ذلك لمساعديّ فلن يفهما، كما أنه ما زال أمامنا جريمة قتل ينبغي حلها.

قلت محاولاً أن أنفض عنا التأثير الفظيع لتارلاباسي المتداعية:

- في كل الأحوال لنؤجلْ النقاش حول وضع مدينتنا لما بعد ونركّز على التحقيق. كيف قُتِل إنجين؟ هل اتضح ذلك؟

أومأت عالمة الجريمة بهدوء وقد تلألأت حبات صغيرة من العرق على جبهتها على الرغم من الطقس البارد.

- لم يكن شفيق مخطئاً يا حضرة الضابط... لقد لقي حتفه بسكين تم رميها عليه عن بعد بضربة واحدة إذ لا يبدو من الممكن أن تغوص السكين كل هذا العمق في حال تم رميها عن قرب. أظن أن القاتل كان بارعاً في رمي السكين... شخص عمل بجدٍّ ليتقن ذلك.

قال علي بذهول:

- قاتل مأجور يستخدم سكيناً... هذه ليست وسيلة عملية إلا إنْ كان الرجل مريضاً نفسياً... أعني ما لم يكن يجد متعة خاصة في القتل بتلك الطريقة...

- ربما كان رمي السكين مهنته.

التفتا ونظرا إليّ.

- لِمَ لا أيها الرفيقان؟ إنْ كان الرجل متعوِّداً على العمل في سيرك على سبيل المثال، ثم استقال وأصبح قاتلاً مأجوراً.

قال علي محاولاً التخمين:

- قد يكون الرجل تدرّب بنفسه... أعني أنه ليس بالضرورة أن يكون يعمل في السيرك. ربما يكون تدرّب يومياً حتى أصبح خبيراً، وإذا نظرنا إلى أولاد أخ نظام فينبغي أن نبقي ذلك في ذهننا.

هزّت زينب رأسها بيأس.

- لا أريد أن أحطم آمالكما، لكنني بحثت في الملفات الخاصة بأولاد إخوة نظام... كلهم تقريباً كانوا متورّطين في جرائم... بعضهم ارتكب جرائم قتل كقدرت، وبعضهم كانوا متورطين في جرائم سرقة واعتداء. لكن لم يكن هناك أي حوادث نجم عنها وفاة أو إصابة بسبب رمي سكين.

حيث يلتقي شارع ساكيزاغاكي بشارع تارلاباسي كانت هناك بائعتا هوى أخريان تنتظران زبائن، وحين رأيتهما خطر ببالي حريم سليمان.

- وماذا حصل يا زينب بالسكين التي أعطيناك إياها الليلة الماضية؟ نحن نعرف سليمان بالتأكيد، لكنّ لديه مشاكل مع الضحية أيضاً إذ فقد ثلاثاً من نسائه العاملات لصالح إنجين بالإضافة إلى الذل... ذلك وحده يشكّل سبباً كافياً لارتكاب جريمة. هل عثرتم على أي آثار دم؟

نظرت بطرف عينها إلى علي لأنه كان اعترض على تلك الفرضية الليلة الماضية، لكنه أبقى فمه مغلقاً الآن لسببٍ ما ثم قالت:

- لقد أرسلت السكين إلى المختبر الجنائي حيث سيقارنون قياساتها بالجرح، وسنعلم غداً إن كانت هناك أيّ آثار دم، أو إن كان هناك تطابق في القياسات.

انتهى صمت مساعدي وتمتم:

- مع كل هؤلاء المشتبه بهم ألسنا نغض الطرف عن واحد؟

كنا واقفين هناك عند ممر المشاة بانتظار اللون الأحمر ليقطع ذلك التدفّق المستمر من السيارات التي تمر بجوارنا، وكانت عيوننا معلّقة على علي لأننا لم نفهم ما يقصده حتى قال في النهاية:

- سادري. ما سبب اهتمام الرجل الشديد بعزيزة؟ إنه ليس أبوها ولا أخوها. لقد جاء هذا الصباح معها إلى مركز الشرطة ثم جاء أيضاً في المساء...

كان يتجاهل بعض التفاصيل فذكّرته:

- نحن طلبنا منه أن يحضر عزيزة إلى مركز الشرطة، ولا تنسَ أننا تكلمنا معه أيضاً عن تفتيش المنزل.
- حسناً يا حضرة الضابط. أعلم كل ذلك، لكنه بالطبع مقرب من الفتاة...

لم يكن مخطئاً في شكّه، ففي نيسي بافيون حين تكلم سادري للمرة الأولى عن عزيزة، خطر ببالي أن من الممكن أن يكون الرجل النحيل الأسمر هو القاتل. ثم نسيت ذلك الاحتمال لسبب لا أدريه... ربما أكون تأثّرت بسلوك الرجل الذي يتقبّل الهزيمة مباشرةً... نعم... أحياناً نتأثر بقصص الناس أكثر من تأثرنا بشخصهم فيصعب علينا أن نفرق بين المرء وتجاربه في الحياة. الحياة خارجنا، وحتى لو لم نكن هنا ستسير من تلقاء نفسها. بعض الناس يدّعون ذلك بالقدر... القدر... من وضع هذا التعبير قام بعمل جيد ومن غير المهم إن كان حقيقياً أو لا، ففكرة القدر تريحنا وتتيح لنا مواجهة الكوارث من دون أن نفقد صوابنا... من يمكنه مقاومة سيناريو مقدّس ومكتوب؟ الأجزاء التي يمكننا تغييرها في مصيرنا صغيرة للغاية، لذا فإننا نركّز فحسب على البقاء واقفين على أقدامنا في وسط ذلك النهر الهادر... إنه عمل شاق... لكنْ هناك أولئك الذين استطاعوا الوقوف بثبات على الرغم من الظروف الهائلة التي يعيشون فيها. كان سادري واحداً من أولئك الناس حيث قدم من بلغاريا وعمل في بافيون الرهيب ثم حاول مساعدة فتاة محاطة برجال يثيرون المتاعب... جريمة القتل لا تتناسب مع هذا السيناريو... لا... في هذه القصة دور الضحية يناسب سادري أكثر من دور القاتل. لكن ينبغي ألاّ أتجاهل مخاوف مساعدي.

فقلت بينما تحوّل اللون الأحمر إلى الأخضر:

- دعينا نتحقق من عازف المزمار أيضاً يا زينب، لنرَ إنْ كانت لديه أيّ سوابق.
- أنت محق يا حضرة الضابط. ينبغي ألاّ نستثني أحداً. سأسأل والديّ فقد قال إنه من دوبرودجا... ربما يعرفان شيئاً.

وحين وصلنا إلى الرصيف المقابل ناولني عليّ مفاتيح سيارتي القديمة الجديرة بالثقة.

- لقد تركت السيارة في مرأب سيارات تقسيم يا حضرة الضابط... دعنا نتوجّه

من هنا إلى شارع الاستقلال ونمر على فندق ريكات حيث كان يقيم تايدي طارق...

سيذهب إلى غرفة الرجل الذي أطلق عليه الرصاص ويلمس أشياءه.

قلت لأخلّصه من ذلك الوضع الصعب:

- تعالَ معي إذا أردت ودعْ زينب تتحقّق من غرفته.

فهم ما ألمح إليه فقال وقد لاحت ابتسامة خفيفة على وجهه:

- لا تقلق يا حضرة الضابط... أنا بخير. كما أنه لا يمكنك الهروب من هذه الأمور. ألست أنت من تقول دائماً إن علينا مواجهة الأمور.

- حسناً... لكن حينما تنتهي من عملك في الفندق عُدْ إلى المركز، فأنا أشعر بالفضول إزاء قرار المحكمة... هل سيتم إطلاق سراح قدرت أم لا... لا أريد أي جريمة قتل جديدة في هذا الحي المليء بالمشاكل.

- حسناً يا حضرة الضابط... سأتوجه إلى هناك حالما أنتهي.

لكن ذلك لم يكن كل شيء، فقد كانت هناك أمور كانت فتاتنا بحاجةٍ إلى القيام بها أيضاً، فذكّرتها مرةً أخرى:

- وأنتِ يا زينب... ركّزي على جيل... على الأغلب تلك المباني السبعة عشر تم شراؤها بأموالها أو، بدقةٍ أكبر، بأموال رفعت بيك. ما فهمته منها إنها لا تريد أن تتقاسم ثروة زوجها مع أبنائه، وقد تكون تخطّط لأن تضع يدها على قسم منها، وكان إنجين مستعداً للتواطؤ في ذلك الأمر. بالطبع كان في النهاية سيأخذ كل تلك المباني منها... قد يكون الاستيلاء على الأراضي هو دافع الجريمة، فكما قلت يا زينب هناك ملايين الدولارات هنا.

حدّقت زينب باهتمام بالغ إلى موقع التجديد المدني كما لو أن القاتل الذي نبحث عنه سيمد رأسه من إحدى النوافذ المهجورة لتلك المباني المتداعية.

- لا تقلق يا حضرة الضابط... لقد أرسلت شخصاً للتو. إننا نتحقّق من جميع العمليات في الحسابات المصرفية لجيل وعزيزة.

- حسناً... حظاً طيباً لنا جميعاً...

تركتهما وانعطفت إلى شارع سوسلو ساكسي بمطاعمه ومقاهيه على كلا

الجانبين. كانت الساعة في يدي 14:3 وسألتقي نظام في تمام الساعة الرابعة، ولم يكن هناك أي داعٍ للذهاب في وقت مبكر. وبينما كنت متوجِّهاً نحو شارع الاستقلال رأيته... إنه الكاتب. كان واقفاً يثرثر مع شخص أمام متجر كتب صغير، وكان مندمجاً في حديثه بحيث كان بإمكاني المرور أمام عينيه دون أن ينتبه لي. لكنني دخلت إلى فناء المقهى الذي على الزاوية وبدأت أراقبه... أي مصادفة هذه التي تجعلنا نلتقي دائماً؟ فكرت مرة أخرى إن كان يلاحقني... انتقاله إلى المنزل المجاور لمنزلي... اهتمامه بقضاياي... كنت قد قرأت قصة قبل سنتين... روائي بوليسي في السويد قام بقتل ثلاثة أشخاص ليثبت أنه من الممكن ارتكاب جريمةٍ مثالية... لكن كفاك! هذا رجل لديه عائلة! ولديه حفيد. لماذا يخاطر بهذا الشكل؟ لأنه يشعر بالنقص؟ مهما تكن كتاباته أخّاذة ومهما يكن الاهتمام الذي تجذبه لكنّها في النهاية مجرّد كتاب... هذا الرجل لم يحل أي جريمة... كل شيء من نسج خياله... لا شيء حقيقي. أليس بإمكانه الانخراط في مغامرة جنونية ليثبت نفسه؟ ليظهر للجميع أنه يعرف عمله أكثر من الشرطة ومن القاتل أيضاً؟ لكن لا... لا يمكن أن يكون بهذا الجنون. ماذا لو جلست وتكلمت معه وجهاً لوجه؟ لن يخبرني شيئاً ولن أستطيع التخلص منه بعد ذلك. إنه يتصرف من الآن وكأننا عائلة، وحينها لن يغادر منزلي أبداً... يبدو أنه سيأتي... نعم... لقد تصافحا ثم خرج من المتجر، بينما عاد الرجل الذي كان يتكلم معه إلى الداخل. تساءلت إن كان مالك المتجر... لم أكن سأتكلم مع الكاتب لكن بائع الكتب قد يكون لديه شيء مثير للاهتمام ليقوله عنه.

توجّهت إلى متجر الكتب وأنا أحاذر الانزلاق على الرصيف المبلّل الذي كان قد بدأ يتجمّد ببطء مجدّداً... وفوق نافذة العرض الضيّقة كانت هناك لافتة متواضعة مكتوب عليها مكتبة سمرقند. حين دفعت الباب وفتحته ودخلت صدمتني رائحة الكتب التي كنت أحبها كثيراً، لأنها ذكّرتني بغرفة الجلوس في الطابق الأرضي في المنزل الذي قضيت فيه طفولتي... رائحة مكتبة خشبية ضخمة عليها روايات أبي وأمي ومجلدات الشعر وكتب التاريخ. طنّ صوت مألوف في أذني... لويس آرمسترونغ يغني "وات وندرفول وورلد"... ربما لهذا لم يسمعني حين دخلت...

كان الرجل الذي كان يتكلم مع الكاتب جاثماً على الأرض يصفّ بعض الكتب على الرفوف السفلية. كان واضحاً أنه يحب عمله فهو يتعامل مع الكتب كأنها كائنات حيّة تتألّم وتتأذّى...

قلت لينتبه لي:

- مرحباً... أريد أن أسألك عن شيء.

حين رآني ظهرت ابتسامة واسعة على وجهه وقال:

- أهلاً يا حضرة الضابط!

لم أستطع إخفاء استغرابي.

- أتعرفني؟

اقترب مني وقال:

- بالطبع يا حضرة الضابط... ومن لا يعرفك؟ أنا كمال... تشرّفت بقدومك إلى هنا.

شككت في أنني شهير لكنني صافحت اليد الممدودة بالطبع.

- تشرّفت بقدومي إلى هنا يا كمال بيك. من أين تعرفني؟

يبدو أنه وجد السؤال سخيفاً لأنه هزّ كتفيه.

- من الجرائم التي حللتها والمغامرات التي خضتها... أنت بطل... الضابط المحقّق نيفزات.

يا إلهي... هل نشروا قصتنا في الصحف دون علمنا. كان ذلك ممكناً بالطبع... عليّ التحقّق من الأمر. نظرت إلى المكتبة ورأيته مرة أخرى... الكاتب... ابتسامة كقطة إنكليزية تظهر أسنانه البيضاء.

حين رآني كمال أنظر إلى الملصق قال:

- إنها للإصدار الإسباني لكتابه "باتاسانا"... يبدو أنهم أحبوها.

ما دمنا تطرقنا للموضوع فيمكنني أن أسأل بأمان:

- أيّ نوعٍ من الكتب هو؟

نظر إليّ وكأنه يقول: ''ألا تعلم؟''.

- أنا أسأل بصدق... أريد أن أقرأ كتبه لكنني لا أعرف شيئاً عن أسلوبه.

ابتسم غير مصدق.

- إن كان ذلك...

كان بائع الكتب غريباً كالكاتب.

- هذا صحيح... لا أعرف. أريد أن أعرف ما يكتب وعن أيّ شيء.

أومأ إلى طاولة مكتبٍ.

- تفضّل بالجلوس... سأقدم لك الشاي.

كنت أرغب بذلك لكن لم يكن هناك متسع من الوقت، لأنني أريد التحدث مع سيليم.

- شكراً، يمكن في وقت لاحق. لكنك لم تخبرني بعد أي نوع من الكُتّاب هو.

ظلّ صامتاً قليلاً وعلى شفتيه تلوح تلك الابتسامة المبهمة ثم قال:

- إنه صديقي... أتحب سليم إيليري؟

- ومن لا يحب سليم بيك؟ كانت أمي أول من عرّفني إلى كتبه كما أن صديقتي إفجينيا متيّمة به... لديها آخر رواياته. أظن أن اسمها "شيطاني".

- بل "إحساس شيطاني بالتمزق". حسناً... هذا الروائي البوليسي يحب سليم إيليري كما أنهما صديقان مقرّبان.

- أنت محق... سليم بيك مرجع جيد.

- إذا أردت يمكنني إعطاؤك أحد كتبه لتقرأه وتقرر بنفسك.

توجّه إلى صفٍّ من الكتب فيه رف يبدو أنه مخصّص للروائي البوليسي، لكنني أوقفته.

- شكراً، لكن لديّ اجتماع عليّ حضوره، وأنا لا أقبل الهدايا. سأمر مرةً أخرى لشراء واحد.

المجرمون يقتلون إحساسهم بالسلام مع ضحاياهم



أول ما استقبلني هو الرائحة القوية للكباب ثم ابتسامة نظام. ما إن فتحت الباب حتى ظهر وجه زعيم المافيا البغيض أمامي. كيف عرف أنني وصلت؟ هل كان يراقب من النافذة؟

- مرحباً يا حضرة الضابط...

سواء أكان ذلك لأنني صدّقت أنه غير صادق أم لسببٍ آخر فلم أعد أستطيع تقبّله أكثر.

رددت بابتسامة مصطنعة كابتسامته:

- شكراً. ما الأخبار؟ أكنت تنتظرني عند الباب يا نظام.

ضحك ضحكةً مكبوتة.

- لا يا حضرة الضابط، لكن الأولاد أخبروني أنهم رأوك قادماً من آخر الشارع...

كان هناك اثنان من أولاد إخوته يقفان وراءه مستعدين لخدمته. كانا ينظران إلى الأرض لئلا يبدوا وقحين. فجأة لاحظت أن الجميع وقف حين دخلت... أقصد بعبارة «الجميع» هؤلاء السفاحين من الشباب المولعين بالقتال. هل قام نظام بجمع كلّ أبناء إخوته؟ أظن أنه كان يحاول أخذ احتياطاته من هجوم وشيك من أصدقاء فيدان... يبدو أن أحداً ما أعلمه بالهجوم المحتمل، أو أنه مجرّد عمل كالمعتاد لهؤلاء الرجال الساديين، فالمجرمون يقتلون إحساسهم بالسلام مع ضحاياهم.

- تفضّل إلى هنا يا حضرة الضابط.

وأشار إلى طاولة طويلة وعريضة بمحاذاة حوضٍ من الفحم الأسود الذي تضطرم النار تحته، وعلى يمين النار كانت هناك صينية مملوءة بالكباب بانتظار الشوي مع الباذنجان والطماطم والبصل على طريقة أضنة وأورفه مع قطع صغيرة من اللحم وشيش الدجاج وجميع أنواع الكباب التي يمكن تخيّلها... كنت آمل أن لا يكون ذلك كله لي حين لاحظت طاولة أخرى مقابل النار عليها أنواع السلطات بالبندورة والمكسرات ودبس الرمان والخيار والبصل والنعنع والجرجير وغيرها من الخضار المتنوعة وأطباق الباذنجان المشوي والجبن واللبن مع الخيار...

قال نظام مؤكّداً مخاوفي:

- ليس هناك شيء خاص لكن الأولاد أعدوا بعض الأطعمة لك.
- شكراً لك... لقد تكبّدت كثيراً من العناء، لكنني لست جائعاً على الإطلاق فقد تناولت الغداء للتو.

ابتسم بجرأة.

- هناك دائماً متسع للمزيد يا حضرة الضابط. أنت شخص شجاع وليس هناك ما ستخسره.

هززت رأسي بتصميم:

- لا يمكنني يا نظام...

بدت عليه خيبة الأمل لكنه لم يستسلم مباشرة.

- اسمعني. لا تقل أنني لم أخبرك... لن تأكل كباباً كهذا في أي مكان آخر...

ألقيت نظرة إعجابٍ أخرى على صينية الكباب.

- يبدو شهياً لكنني أقسم إنه ليس لديّ أيّ متّسعٍ في معدتي.

أحس بهزيمةٍ كبرى، فهو لم يكن يسعى لإثارة إعجابي فحسب، وإنما يُفترض بالرجال الأقوياء أن يطعموا الناس.

قلت لأطيِّب خاطره:

- مرةً أخرى... لننهِ عملنا أولاً.

سُرّ من الطريقة التي تكلمت بها وكأننا طرف واحد.

- أنت محق يا حضرة الضابط. لننهِ عملنا أولاً فهناك غمامة سوداء تلوح فوق رؤوسنا.

ألقيت نظرةً على الطاولات الفارغة في الصالة التي كانت تتّسع كلما كانت في مكان أعمق من الصالة.

- أليست هاسر هانم هنا؟

ما إن سمع اسم زوجته حتى لاحت اللطافة والكياسة على وجهه القاسي.

- ستصل إلى هنا في غضون دقائق. أنت تعرف النساء يا حضرة الضابط فهي عروس جديدة، لذا فإنها تهتم للغاية بلباسها، بالإضافة إلى أنها شابة. أنا لا أتدخّل ففي هذا الزمن ينبغي أن تتمتع النساء بالحرية. لقد خرجت للتسوّق وزيارة مصفّف الشعر وغير ذلك؛ لكن لا تقلق فقد اتصلت بي للتو وأخبرتني أنها على وشك الوصول.

هنا خطر ببالي أن زوجة نظام قادمة من عند دايس إحسان، إذ من المفترض بهما اللقاء اليوم. وتساءلت ماذا سيكون رد فعله لو علم. أشار زوجها الجديد الغافل عمّا يحصل إلى السلّم المظلم على اليسار.

- إذن ما دمت لن تتناول أيّ طعام تفضّل إلى الأعلى لنتكلم في المكتب.

- حسناً...

تظاهر أنه ينتظرني باحترامٍ لأصعد أولاً ثم تبعني ونادى للطاهي الذي يعمل على الشوي:

- اترك الكباب واطلب من صدقي أن يبدأ بإعداد شرائح اللحم.

ما إن صعدت الدرجة الأولى حتى أضيئت الأنوار تلقائياً، وأصبح ممكناً سماع الموسيقى المنبعثة من مكبرات صوتٍ مخفيّة وراء ألواح الجص. صعدت السلّم لأرى صوراً لأطعمة ملوّنة معلّقة في صفوف على الجدران... بيتزا... متبل الباذنجان... شرائح اللحم الحارة... سلطة الطماطم بدبس الرمان... بابا غنوج... لبن بالثوم... لحم مفروم مبهر مع البرغل... أطباق صيفية وشتوية من كل أصناف الكباب... ينبغي الاعتراف ببراعة المصور لأن الصور كانت جميلة ويسيل لها اللعاب. ربما أكون اتخذت القرار الخطأ برفض الطعام، ولحسن الحظ لم يستمر

العرض كثيراً، فحين وصلت إلى أعلى السلّم وجدت أمامي صالة أصغر من الصالة في الأسفل.

التفت نظام إلى الباب الخشبي على اليمين وقال:

- اسمح لي يا حضرة الضابط.

ومدّ يده إلى مقبض الباب بالقرب من السلّم وسحبه نحوه فظهر أمامنا رجل برأسٍ حليق يجلس على طاولة المكتب. حين رأى رئيسه حاول القفز وكأننا أمسكنا به متلبّساً.

- نعم يا نظام بيك...

كان الرجل المسكين بديناً فلم يستطع النهوض بسرعة، وحين وقف على قدميه كنا قد وصلنا إلى وسط الغرفة.

وبّخه نظام:

- هيّا يا حلمي... بسرعة... خُذْ معطف الضابط.

ترنّح حلمي نحوي وتناول السترة التي ناولته إياها فعلّقها على مشجب وراء الباب، وفي الوقت نفسه أشار لي نظام إلى المقعد الكبير الذي قام عنه حلمي.

- تفضّلْ.

قلت وأنا أتجه إلى المقعد الصغير أمامي:

- لا... دعني أجلس هنا... سأكون مرتاحاً أكثر.

في النهاية تظاهر أنه فقد أعصابه.

- هذا ليس لائقاً... نعدّ لك طعاماً لكنك لا تقبل أن تأكل، ثم نحاول أن نحترمك لكنك لا تسمح لنا... أكثر من هذا سيصبح الأمر إهانةً يا حضرة الضابط.

كان من المفترض بي أن أبتسم وأمازحه، لكنني أشرت بوقار إلى المقعد المقابل لمقعدي.

- تفضّل بالجلوس يا نظام.

توقّف عن تظاهره بالإهانة مباشرةً وظهرت في عينيه نظرة كأن لديه عملاً مع هذا الشرطي اللعين. لكن بعد لحظات اختفت تلك النظرة وجلس على المقعد بخنوع ثم نظر إلى المدير البدين الذي كان يقف عند الباب.

- ماذا تنتظر يا حلمي؟ كفاك تحديقاً واذهب وأحضر لنا بعض الشاي... بسرعة...

رفعتِ يدي وقلت:

- شكراً لكنني لا أريد الشاي أيضاً.

نظر إليّ نظام بخيبة أمل.

- ولا حتى كوب من الشاي يا حضرة الضابط؟

- لم أعد أستطيع عدّ الأكواب التي تناولتها منذ الصباح... سيسبِّب لي ذلك خفقاناً في القلب.

أحس بتصميمي فالتفت إلى الرجل وقال:

- حسناً... اذهب وأغلق الباب وراءك.

قلت بجدّية:

- شكراً على التحضيرات وعلى اللباقة التي أظهرتها، لكن وقتي ضيق...

- لكن يا حضرة الضابط...

- آسف لكن لا... متأكد من أن الكباب لذيذ لكن كما قلت دعنا ننهِ عملنا ويوماً ما ربما سنتناول الطعام. كما أنني سأدفع الفاتورة وإلا فلن آكل.

نظر إليّ نظرةً ملؤها الإعجاب وهو يفكر في ما يريده هذا الشرطي.

قال وهو يجمع ذراعيه عند صدره:

- لا بأس إن لم تتناول الطعام الذي يحاول كمال أن يقدمه لك، فلن أشعر بالإهانة. لكن إن كنت تعاملنا بأسلوب مختلف فهذا سيزعجني.

كان يغيّر أسلوبه ويحاول وضع أوراقه على الطاولة.

- إن كانت لدينا أي عيوب فيمكننا إصلاحها... لا تفهمني خطأ من فضلك... ما قصدته هو أنني أرغب أيضاً أن أكون صديقك ككمال بيك. مهما كان دورنا في الصفقة فأنا مستعد لتنفيذه.

كان يحاول تقديم عرض رشوة مخفيًّا بحجة أنه سيحمي مصالحي إن دعمته أو غضضت الطرف عما فعله؛ لكن لم يكن من مصلحتي أن أرفض مباشرة فجعلت الأمر يبدو وكأنني أوافقه.

- لا تكنْ سخيفاً... لماذا أفهم ذلك خطأ؟ بالطبع يمكننا أن نكون أصدقاء... لِمَ

لا؟

كان نظام متعوّداً هذا النوع من العلاقات لدرجة أنه انخدع وظن أننا بدأنا مفاوضات سرّية، فلم يتردّد في التعبير عن حنقه.

– أنت تقول هذا يا حضرة الضابط، لكن الأمور التي فعلتها لقدرت في الداخل...

كان يعاتبني بشدة ويضطرم الغضب في عينيه، ما يعني أن ابن أخيه القاتل كان غالياً عليه، وربما كان اعتبر ما فعلناه لقدرت إهانةً شخصيةً له.

سألته متظاهراً بالجهل:

– لماذا؟ ماذا فعلنا؟ لقد كان محاميه معه.

أعاد رأسه للوراء وقال:

– مساعدك الشرطي يبصق في فمه... أهذه طريقة للتعامل مع رجلٍ شاب.

ظلت تعابير وجهي هادئة.

– وماذا ستفعل إن شتم أحد ما أمك.

شحب وجهه.

– قدرت شتم؟

– ولماذا يبصق علي في فمه؟ ينبغي أن يحمد الله على وجودي هناك لحسن حظه، فلو لم أكن...

لم يعد يريد أن يسمع أكثر.

– حسناً... فهمت... لقد أساء كلبنا التصرّف... ونحن لدينا احترام لامتناهٍ لموظفي الدولة والشرطة لكنك قسوت عليه... الوضع واضح... لقد كان دفاعاً عن النفس، وسيطلقون سراحه حين يذهب إلى المحكمة في كل الأحوال...

ثم صمت وكأن لسانه زلّ بشيء ما كان ينبغي له قوله.

– أعني أن هذا ما يقوله محاميه ساسيت.

هززت رأسي وكأنه لا يعلم شيئاً:

– إن كنتَ محظوظاً فلن يفعلوا ذلك، ويبقى في السجن لبضعة أشهر على الأقل. إن خرج قدرت اليوم فلن يكون ذلك جيداً له أو لك.

– ماذا تعني بذلك؟

نظرت إليه بسخرية:

- كفاك يا بلاك نظام... لا تتظاهر أنك لا تعلم. لقد حصلت على تلك المعلومة منذ وقت طويل... أصدقاء تلك الفتاة التي قتلتموها البارحة لن يهدأ لهم بال، وكل واحد منهم قنبلة موقوتة ستنفجر في حال تم إطلاق سراح قدرت و...

اصفرّ وجهه الأسمر بقلقٍ لكنه حافظ على هدوء أعصابه.

- أتظن أننا سنخاف من ثلاثة أو أربعة مخربين؟

ابتسمت ابتسامة ساخرة.

- هذا ما لا أعرفه. لكن الصيف الماضي في تقسيم أجبر هؤلاء الرجال، الذين تدعوهم ثلاثة أو أربعة مخربين، الحكومة على التراجع. لقد انتشر المئات من رجال الشرطة هنا ومع ذلك لم يستطيعوا قمعهم.

حدّق إليّ بنظرةٍ فارغة.

- متنزّه غيزي... أنا أقول فقط ما حدث هناك... على الرغم من قوة الدولة ومدافع الماء والغاز المسيل للدموع... من الذي ربح؟

- هل هناك كثير من أولئك الأشخاص المؤذين؟

لويت شفتي بعجز وقلت:

- ومن يدري كم عددهم؟ إنهم ينشرون الأخبار عبر الإنترنت وخلال ساعة يجتمع آلاف الناس. كما أن لديهم حقد مسبق عليك من أحداث متنزّه غيزي وقد رشّ قاتل فيدان الملح على الجرح. والأسوأ من ذلك أن الفتيان في غيزي كانوا مسالمين لكن إذا دخلت المجموعات المسلّحة المعادلة...

تلاشى الدم من وجه نظام وتساءل:

- الأكراد في تارلاباسي؟

حاولت أن أخفي رضاي لأنه انخدع بفبركاتي وتمتمت:

- هذا ما لا أعرفه... قد يكونون من الأكراد أو الأتراك، فهناك كثير من المجموعات المسلحة في إسطنبول... يمكن لفرق مكافحة الإرهاب تنظيم جميع العمليات التي يريدون لكنهم لا يستطيعون القضاء عليهم.

ظهر شكٌّ حالك السواد في عينيه الصغيرتين.

أضفت:

- وأنت متزوج حديثاً ولم تستمتع بشهر العسل مع هاسر هانم... والآن تظهر هذه المشكلة. ما الذي سيحصل إن قتلتم الناشطين؟ هذه المرة ستكسب عداوة الجميع...

فجأة سيطر عليه اليأس وسأل بغضبٍ بينما كانت يداه ترتعشان:

- إذن ماذا يفترض بنا أن نفعل؟ سنخسر إن تصرّفنا وإن لم نتصرّف.

انحنيت للأمام وكأنني أشاركه سراً وقلت:

- أغلقوا متاجركم لبضعة أيام... مطاعمكم... مقاهيكم... نواديكم... مرأب السيارات... كل ما لديكم، واطلب من أبناء إخوتك أن يختبئوا وخُذْ هاسر هانم واذهب في إجازة... اذهب إلى روسيا لبضعة أسابيع على سبيل المثال إذ ما من حاجة لتأشيرة دخول أو أي شيء... لا بدّ أن موسكو جميلة الآن.

ارتبك. فما قلته صحيح لكنه ما زال لا يثق بي... هل أخدعه كرجل كمال؟ أم أنني أخطّط لشيء بالنيابة عن دايس إحسان؟ في هذه اللحظة فُتح الباب وفاحت رائحة عطرة ثم ظهرت امرأة شقراء طويلة عند الباب... كانت ترتدي الفرو الذهبي مع بعض اللون الأسود وشعرها الأشقر الأفتح بقليل من الفرو قد تم تصفيفه للتو. نظرت بعينيها الخضراوين بجرأة من تحت حاجبيها البنيين الكثيفين، أما شفتاها فكانتا مطليتان بأحمر الشفاه... ربما يكون أنفها عريضاً لكن بصراحة هذا العيب أضاف مزيداً من الجاذبية إلى وجهها... لقد كانت امرأةً جميلةً بحق... سيليم المعروفة مسبقاً باسم هاسر.

ما إن رأى زوجته حتى نسي الخطر المحدق، والجريمة التي ارتكبها ابن أخيه، والشرطي غير الموثوق الجالس مقابله، وتلألأت عيناه وانتشرت ابتسامة على وجهه القبيح.

قال بلهجةٍ تظهر مدى حبّه لها... هذه المرأة التي قد تكون تكرهه حتى الموت:

- هاسر... تفضلي يا هاسر.

ظلت عيناه معلّقتين بزوجته الشابة وكأنه لم يشبع منها. لكن هاسر لم تكترث إطلاقاً له.

- حسناً... جيّد... الجو دافئ هنا.

خلعت معطفها الفرو لتظهر كنزة بنية فاتحة ملتصقة بنهديها الممتلئين وتنورة بلون القرفة تغطّي نصف فخذيها. كانت مدركة تماماً مدى تأثير جمالها لكنها لم تكترث لذلك حيث التفتت ونظرت إليّ بعينيها الجميلتين.

- أهلاً يا نيفزات بيك... أنت الضابط المحقّق نيفزات... أليس كذلك؟

وقفت ومددت يدي.

- أهلاً يا هاسر هانم.

صافحتني بهدوء بأصابعها الباردة كنظراتها.

- أفضل أن تستخدم اسم سيليم.

ابتسمت بصدق... النساء الجميلات يثرن المشاعر الجميلة في المرء بغض النظر عما يقوله الناس.

- إذن كيف حالك يا سيليم هانم؟

- أنا بخير.

كان واضحاً أنها لا تكترث لي أكثر من زوجها. يبدو أن دايس لم يذكرني مما يعني أنه ما زال لا يثق بالمرأة... كانت تلك أخباراً جيدة على الرغم من أنها ستمنع سيليم من أن تكون صريحة معي. لكنني أيضاً لست واثقاً لأي مدى يمكنني أن أثق بهذه المرأة الجذابة. فمن الواضح أنها لا تحب نظام لكنها لا تمانع أن ترتدي الفرو الذي أنفق ثروة صغيرة عليه.

ربت نظام المقعد المجاور لمقعده وقال:

- تفضّلي بالجلوس.

أخذت وقتها في تعليق الفرو الباهظ الثمن إلى جانب معطفي الزهيد قبل أن تتجه إلى المقعد الذي طلب منها نظام أن تجلس عليه ثم حدّقت إليّ وكأنها تقول... أنا هنا.

قلت:

- شكراً على موافقتك أن تقابليني... أنت أيضاً كنت تعرفين إنجين.

كانت تنصت لي بتحفّظٍ دون أن تظهر أي تعابير على وجهها.

- كيف التقيتِه؟

ملست أطراف كنزتها وقالت:

- التقينا في نادي تارلاباسي حيث كان إنجين يأتي إلى هناك دائماً.

قلت مديراً النقاش إلى جوانب أكثر خطورة:

- لقد كنتِ تعملين هناك مع إحسان بيك؟ صحيح؟

قالت دون أي اكتراث وهي تلتقط شعرة عن تنورتها:

- بسبب أبي. كان أبي يعمل مع إحسان بيك. إنهما صديقان مقربان أكثر من كونهما شريكين، وقد عملت أيضاً لفترة في نادي إحسان بيك.

قلت بسرعةٍ منهياً قصتها:

- أظن أنك بقيتِ هناك حتى دخل إحسان بيك السجن...

- لم يكن للأمر علاقة بدخول إحسان بيك السجن، فقد كنت أخطّط لترك النادي مسبقاً فأنا لم أحب المكان.

قاطعها نظام وقد ظهرت ابتسامة عريضة على وجهه:

- وهكذا التقينا. وبعد ذلك لم تعد بحاجة إلى العمل إذ أصبحت هاسر هانم سيدة المنزل.

أكدت المرأة ذلك بابتسامةٍ مكرهة لكنها سحبت يدها بعيداً.

سألتها:

- ماذا حدث بينهما؟ أعني إحسان وإنجين، فقد كانا صديقين مقرّبين حتى دخل إحسان السجن.

بدأ نظام يقول:

- لم يكونا صديقين مقربين...

- دع سيليم هانم تجيبني لو سمحت، فقد أدليت أنت بأقوالك.

نظر بعيداً ولفّ ساقاً على ساق بعصبية.

- حسناً يا حضرة الضابط... كما تريد.

أظن أن سيليم سرّت من مقاطعتي لنظام، فقد تلاشى البرود في عينيها الخضراوين.

- حمّل إحسان بيك إنجين مسؤولية المسدس الذي تم العثور عليه في ناديه، فقد كان يعتقد أن إنجين هو الذي دسّه، وأخبرني أنه هو من وضع المسدس ثم أخبر الشرطة.

تدخّل نظام:

- إنه وغد كاذب!

تجاهلته وأكملت حديثي مع سيليم.

- حسناً... وماذا تقولين؟ هل إنجين هو من دسّ المسدس هناك؟

ظهرت في عينيها نظرة يملؤها الشك.

- في الحقيقة لم يمر إنجين على النادي أي أنه كان من المستحيل أن يضعه هناك.

سألتها بنبرة اتهامٍ مقنّع:

- أكان من الممكن أن يكلّف شخصاً بذلك؟ شخصاً يعمل هناك على سبيل المثال؟

من المفاجئ أنها لم تظهر أي رد فعل.

- هذا ممكن لكن من قد يفعل ذلك؟ كل من في نادي تارلاباسي يحب إحسان بيك.
- لكن ينبغي أن يكون هناك أحد وضعه هناك لأن إحسان يقول إن المسدس ليس مسدسه.
- هذا صحيح...
- إذن نظراً إلى وجود هذه المشكلة بينهما، هل يمكن أن يقوم إحسان بقتل إنجين؟

أشاحت بنظرها بعيداً محاولةً بلغة جسدها أن تقول «لا»، لكنها حين لاحظت عيني زوجها تحدّقان إليها باستمرار فضّلت أن تجيب:

- لا أدري يا نيفزات بيك. نعم... كانت هناك بعض المشاكل بينهما. لكن هل سيقوم إحسان بيك بقتله؟ هذا ما لا أعرفه.

قال نظام بصوتٍ مرتفع غاضب:

- وما الذي تعرفينه؟ بالطبع إحسان هو من قتل إنجين وإلا فمن سيفعل ذلك؟

قلت مباشرة:

- وماذا عن القاتل المأجور الذي وجدناه في منزله؟ إذن من الذي استخدم تايدي طارق؟

أنزل ساقه اليمنى عن ساقه اليسرى بغضب:

- وكيف لنا أن نعرف من الذي استخدمه؟

لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه وصوته... هل سيختار الشقاق على الوفاق؟

- لا تغضب يا نظام... أنا أحاول فقط أن أعرف ما جرى.
- أعلم ذلك يا حضرة الضابط، لكننا تكلمنا عن ذلك من قبل. ما الجدوى من السؤال مرة أخرى؟
- لقد تكلمنا عن ذلك معك وليس مع سيليم هانم.

والتفت إلى المرأة وقلت:

- لقد كنتِ في جبل أولوداغ ليلة وقوع الجريمة...

كانت تنصت بعصبيةٍ وتفكّر إلى أين سيؤدي كل هذا.

- أظن أنك تزوجت ذلك اليوم...

وقبل أن يمنح سيليم الفرصة للإجابة، سحب نظام ملفاً من داخل جيبه وناولني إياه.

- ها هو... ألقِ نظرة... تاريخ زواجنا مكتوب هنا بوضوح... الواحد والثلاثون من كانون الأول/ ديسمبر 2013... هذا يكفي يا حضرة الضابط... كفاك تدخلاً في شؤوننا... أتظن أننا سنكذب عليك؟

احمرّ وجهه الأسمر غضباً وبدأ عرق في جبهته ينبض بشدة.

قالت سيليم محاولة تهدئته:

- اهدأ يا نظام... نيفزات بيك يؤدي عمله فحسب.

تغضّن حاجباه وظننت أنه سيقول إن الحديث ينتهي هنا وإن علينا الحديث بوجود محاميه في الغد. لكنه مدّ يده إلى جيبه وأخرج علبة سجائر.

- اعذرني لكنني سأدخن.

كنت أرغب في أن أقول له أن يخرج ويدخّن في الخارج، لكنني لم أكن مستعداً لحرق كل الجسور معه. لذا تجاهلته وسألت المرأة:

– هل تفاجأتِ من مقتل إنجين.

أشاحت نظرها بعيداً مجدّداً وقالت:

– حزنت أكثر مما تفاجأت...

لكنني لم أكن واثقاً من صدقها إذ إنني أشك في أنها ستحزن على رجل جعل حياتها بائسة.

أضافت:

– كنت أعرفه وأمضينا وقتاً ممتعاً. كما أنه لم يكن شخصاً سيّئاً.

نفث نظام الدخان الذي تنشّقه.

أكّدت:

– لقد كان شخصاً طيباً... رجلاً شجاعاً بقلب كبير...

كان ذلك الوقت المناسب للتلميح إلى الموضوع.

– هو من عرّفكما أحدكما إلى الآخر، أليس كذلك؟

أدركت سيليم أنني كنت ألمح إلى الصور العارية فاحمرّ وجهها الشاحب. لكن نظام لم يظهر عليه أيّ خزيٍ وإنما نظر إليّ بحقد:

– نعم... هذا صحيح... إنجين هو سبب تعارفنا... رحمه الله.

كنا على وشك الشجار حين رنّ هاتفي لينقذني فقلت وأنا أخرجه:

– آسف... ألو؟

– مرحباً يا حضرة الضابط... أنا إحسان... لقد تكلّمت مع سيليم وأعرف من هو القاتل...

نظرت إلى نظام بطرف عيني. كان ينفث دخان سيجارته، أما سيليم فلم تكن قد تخلّصت بعد من تأثير حديثها مع حبيبها السابق قبل ساعة، وكانت تحدّق إلى الفضاء.

قلت عبر الهاتف للشخص الثالث في هذا المثلّث:

– عظيم... أين أنت الآن؟

- في النادي.
- حسناً... سآتي إليك بعد قليل ونتكلّم في التفاصيل.

فهم أنني لم أكن متفرّغاً فلم يضغط عليّ وقال قبل أن يغلق الخط:

- سأنتظرك يا حضرة الضابط.

حان الوقت لأنهي هذا الحديث وإلا فسأتشاجر أنا ونظام... ابتسمت ابتسامة صادقة للزوجين الحديثين وقلت:

- عليّ الذهاب فالشباب يريدونني...

والتفتّ إلى نظام وقلت:

- أظن أنك كنت تتكلم عن إنجين؟
- نعم... كنت أقول إنه هو سبب تعارفنا... باركه الله.

كان هناك مغزى من صمت سيليم لكنني تظاهرت أنني لا أكترث وقلت وأنا أفرك يديّ إحداهما بالأخرى:

- لقد فعل خيراً... يبدو أنه ما من شيء يمكنني فعله سوى أن أتمنى لكما سعادةً دائمة.

تجمّد نظام في مكانه بحيرةٍ، وحين رأى أنني مستمر في صمتي سأل بتفاؤل حذر:

- هل انتهينا إذن؟ هل هذا كل شيء؟

ضربت يديّ على ركبتيّ وقلت:

- هذا كل شيء من طرفي، لكن إن كان لديكما أي شيء تضيفانه...

أخذ نَفَساً أخيراً من سيجارته وقال:

- لا... ليس لديّ ما أقوله. ماذا عنكِ يا هاسر؟

أغمضت عينيها الخضراوين وفتحتهما ثم قالت بصوت بارد:

- لا... ماذا يمكنني أن أقول؟

ما الذي لن يفعله الرجل العاشق؟



- كان اسم الرجل لوتفو وقد جاء من ميلان، وكما قد تظنون فإن العصابات الإيطالية هي التي أرسلته، فقد التقوا به في الفندق في أولوداغ. أيمكنكم تخيّل دناءة هذا الرجل... يلتقي المافيا الإيطالية في جناح شهر العسل في فندقهم؟ قد يكون نظام رتّب عمداً للقائه خارج إسطنبول... انظر إلى نباهة ذلك السافل يا حضرة الضابط... يتزوّج ويرتّب شؤونه في الوقت نفسه. لقد كان خائفاً من أن يرى إنجين لوتفو في إسطنبول لأن لوتفو كان أحد رجال إنجين...

كان دايس إحسان يشرح بحيوية وهي يجلس وراء الطاولة تحت صورة الكلبة المستلقية على ظهرها وقد فتحت ساقيها لتقدم أثداءها المليئة بالحليب لجرائها الخمسة الصغار. لكن السبب الحقيقي لهذه الحماسة لم يكن المعلومات المهمة التي حصل عليها بقدر ما كان اللقاء مع سيليم. يبدو أنها أقنعته ببراءتها وكان مستعداً لقبوله في كل الأحوال... "ما الذي لن يفعله الرجل العاشق؟" هذا جعلني أتأكد تماماً أن إحسان كان يحب المرأة الشقراء بقدر حب نظام لها.

أكمل وهو يلعق شفتيه:

- لقد كانوا يتكلمون في غرفة الجلوس في الجناح الملكي... لوتفو ونظام فحسب... لوحدهما... كان قد أحضر معه أربعة من أبناء إخوته لحمايته لكنه لم يسمح لأحد منهم بالبقاء إلى جانبه، وأرسل سيليم إلى الغرفة المجاورة. لكن الجدران كانت رقيقة للغاية فاستطاعت أن تسمع كل ما قالاه. كان الإيطاليون يريدون العمل مع نظام لأنه حين مات دوردو عم إنجين توقفت

شحنات الهيروين من تركيا، ما يعني أن الرجال بحاجة إلى مزوّدٍ موثوق. في البداية رفض نظام ذلك لكن لوتفو ذكر له كيف تم القبض عليه قبل ثلاث سنوات... أتعلم أنه قبل ثلاث سنوات تم القبض على نظام بسبب سفينة محملة بشحنة هائلة من المخدرات؟ لقد كان الهيروين مخفياً في حجر كلس لكن الشرطة عثرت عليه مباشرة كما لو أنهم أخفوه بأيديهم... أعني أن أحداً ما قد وشى بهم ليتبين فيما بعد أن ذلك الواشي هو إنجين بناء على طلب عمه دوردو بالطبع، إذ لم يكن دوردو يرغب بوجود أي مزوّدين غيره على طريق إيطاليا سويسرا، وبالطبع لم يقتنع نظام بشرح لوتفو مباشرة وسأله:

- أيمكنك إثبات ذلك؟

ناوله لوتفو التقرير السري للشرطة الإيطالية ليفقد نظام سيطرته... هذا طبعه دائماً... في البداية ينصت دون أن يقول شيئاً لكنه ما إن يفقد أعصابه حتى يعميه الغضب ولا يكترث حتى لو اشتعل العالم. صرخ:

- سألقن إنجين درساً! إذن العم وابن أخيه يخدعانني... أقسم باسمي أنه سيدفع الثمن غالياً.

وبعد أن ذهب لوتفو لم يستعد هدوءه لفترة. خرج وتكلم مع أبناء إخوته، وربما يكون اتصل بإسطنبول ليتم التخلص من إنجين...

ما كان يخبرني به كان في غاية الأهمية. وقد يتصدر نظام قائمة المشتبه بهم، لكنني بذلت قصارى جهدي لئلا أتسرّع.

- متى بدأ هذا الحديث؟ قبل الزفاف أم بعده؟

انزعج من سؤالي عن الزفاف أكثر من انزعاجه من انعدام حماستي لما أخبرني به.

- بعد الزفاف وقبل العشاء...

- في الواحد والثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر؟

- نعم. أعني قبل ست أو سبع ساعات من قتل إنجين.

كان يحدّق إليّ بصبر نافد وكأنه يسأل لماذا أشكّك في الأمر على الرغم مما أخبرني به، وحين يكون كل شيء واضحاً كضوء النهار.

- لا تسئ فهمي يا إحسان... أنا أصدقك. وليس لدى سيليم أي سبب لتكذب. لكنني التقيت نظام وهو ليس من النوع الذي يقتل رجله المقرب بسبب تقرير كهذا... إنه لا يجازف وإنما يتأكّد أولاً.
- لقد كان متأكّداً، وإلا لماذا غضب هكذا؟ كان لينتظر ليتكلم مع إنجين نفسه قبل أن يقفز إلى النتائج.
- لديّ شكوكي. لكن دعنا نقلْ إن هذا ما حصل وإنه صدق أن إنجين كان يخدعه. لكن نظام ليس من النوع الذي يأمر بقتل شخص خانه هكذا، وخاصة الشخص الذي يثق به أكثر من أي شخصٍ آخر... من المستحيل أن يتصرف نظام هكذا... على الأرجح كان ليقتل إنجين بيديه أو يواجهه أولاً... كان ليرغب أن يرى الرجل الذي باعه يعاني أو يسمع منه لماذا خانه... ولهذا فمن غير المرجّح أنه خطّط لقتل إنجين.
- وما الذي يجعلك متأكّداً إلى هذه الدرجة؟

لقد فهمته. فهو قد اقترب من ضرب عصفورين بحجرٍ واحد. فبتلك المعلومات سيتم إرسال نظام إلى السجن ويعود هو إلى حبيبته التي سُرِقت منه. لكن هذا المحقّق مهتم بالتفاصيل وقد حطّم كل آماله بالإصرار على أنه ليس لنظام أي يد في قتل إنجين.

أجبته:

- أنا لست متأكّداً، فنظام لا يزال على قائمة المشتبه بهم ولا يزال الاحتمال قائماً مهما كان ضئيلاً أن افتراضاتك صحيحة. فالرجال كنظام من حثالة المجتمع ويأتون من القاع، وهو قبيح المنظر وقد أمضى جزءاً من حياته معرّضاً للازدراء مما غذّى رغبته بالانتقام. لقد قلتَ أنتَ إنه كان قاسياً وغاضباً، كما يمكنك رؤية ذلك في شغفه بسيليم فقد لجأ إلى كل أساليب الخداع القذرة ليحصل عليها.

ضربت على وتر حسّاس، وبدأ وجهه يتغير فوراً من الخزي إلى الغضب ومن الحماسة إلى الهزيمة كما لو أنه يشعر بكل التقلبات العاطفية التي يمر بها العاشق.

- نعم... أعلم كل ذلك يا إحسان. لقد التقيت سيليم قبل قليل في مطعم

أوكاباسي الذي يملكه نظام، وقد اتصلت بي حينها، كما تكلمت قبل ذلك مع عزيزة التي أخبرتني بكل شيء... كيف نصب الرجال ذلك الفخ المقيت. لكنك ارتكبت خطأ فادحاً أيضاً...

عرف ما قصدته فالتفت إلى هرقل القزم الذي كان واقفاً أمام الباب... فلي نيسمي الذي لم يتركنا منذ أن وطأت قدماي نادي تارلاباسي... لا بدّ أنهما ذهبا سويةً لرؤية سيليم أيضاً.

- انتظرنا في الخارج يا نيسمي لو سمحت.

لم يظهر الرجل القصير أي علامة على شعوره بالإهانة.

- كما ترغب.

- أي خطأ؟ كيف ارتكبت خطأ؟

قلت وكأنني أنتقد صديقاً كنت واثقاً من أنه سيفهمني:

- لقد ارتكبت خطأ بطرد سيليم وإرسالها إليهم... ألا تفهم أن مشكلة نظام ليست السيطرة على ناديك؟ إنه ليس بحاجة إلى ذلك فهو يملك ما يكفيه من المال. ماذا كان بإمكانه أن يفعل بناديك؟ لقد كان يسعى وراء حبيبتك... نعم... سيليم... من الواضح أنه وقع في غرامها من النظرة الأولى، ولهذا أراد أن يصبح شريكك ليقيم علاقة معها أو يكون بالقرب منها.

ظهر الشك على وجهه.

- هل أخبرك نظام بكل هذا؟

يبدو أن جميع الرجال في عالمه يعانون من جنون الارتياب، وقد بدأ هذا الأحمق يشك في أنني متواطئ مع نظام فرددت عليه:

- الرجال كنظام لا يشاركون أحداً أسرارهم، وسيليم هي نقطة ضعفه... إنه يعلم أن المرأة لا تحبه على الرغم من أنه لم يمض على زواجهما سوى بضعة أيام. لكنه لم يفقد الأمل، ولهذا يرفض الكلام عن علاقته بها إذ ما من حاجة لذلك، فالفتاة معه في أي مناسبة وقد حصل على ما يريد... لقد حصل على سيليم. لماذا يتكلم؟ أنت لم تصر على الاحتفاظ بها...

جاءت كلماتي صفعةً على وجهه.

- حسناً لكن...
- أعرف... ستقول ماذا عن الصور. لكنهم أعطوا سيليم المخدرات... لقد أخبرتني عزيزة بكل شيء. إنجين دبّر لكلّ شيء ليكسب نظام لأنه كان يعلم أن الرجل واقع في غرامها... وقد خدعوا عزيزة أيضاً... إنها نادمة... كان الفخ منصوباً لك وقد وقعت فيه... ألم تخبرك سيليم بكل هذا؟

تلَوى في مقعده.

- أخبرتني بالطبع... لماذا لا تخبرني؟ لكنني لم أصدقها... لا أدري... إنني لا أستطيع تقبُّل أن ترتكب سيليم خطأ كهذا. وأنا لست مخطئاً بالكامل، فحين دخلت السجن حذرتها وطلبت إليها أن تحذر من ذلك السافل إنجين وتبقى بعيدةً عن نظام...

أردت أن أحافظ على صورةٍ طيبةٍ لي لدى إحسان فقلت لأهدئه:

- الفتاة صغيرة... بالطبع كانت متهورة بذهابها إلى منزل عزيزة. ولم يكن من اللائق أن تبقى هناك بعد وصول نظام بالطبع. لكنْ في تلك الفترة لم تكن العداوة بينك وبين نظام مكشوفة. ربما تكون رأته أخاً كبيراً.

هزّ رأسه بهدوء وحزن.

- نعم... هكذا كانت تراه. كانت تدعوه "أخ نظام" في حين كان ذلك القذر يدعوها "ابنتي"... أتصدّق ذلك؟ لقد رأيتها أنت... إنها صغيرة بما يكفي لتكون ابنته، لكن كانت لدى النذل المخادع نوايا أخرى... كيف لي أن أعرف؟
- كان يجب أن تعرف، فالرجل يمكنه أن يشعر بذلك... كان يجب عليك أن تحميها.

قال بندم:

- كنت لأفعل لو لم أدخل السجن... لقد كان فخاً... وقد وقعت فيه سيليم. مهما كان ما حصل تلك الليلة...
- انسَ أمر تلك الليلة.
- كيف يمكنني ذلك؟ لا أستطيع نسيانها... لا أستطيع إخراج أحداث تلك الليلة من رأسي...

بالطبع الغيرة تقضي على عقلانية المرء وتعمي بصيرته.

- مهما فعلت لا يمكنني نسيانها. أتظن أن قلبي لم ينفطر؟ اليوم حين التقينا عند صالون حلاقة تيبيرنوس كانت سيليم تبكي وأمسكت بيديّ... هنا أدركت أنني سلمتها لذلك القواد بيديّ هاتين... كانت هذه المرة الأولى التي ألعن فيها نفسي...

- وهل اعتذرت منها؟

نظر إليّ نظرةً غريبة وتحوّل حزنه غضباً.

- ولماذا أعتذر؟ لست أنا المجرم الحقيقي. أما كان ينبغي بسيليم حماية نفسها؟ لقد كانت ضعيفة ولم تستطع... وربما تكون مرتبكة... وربما تكون معجبة بثروة نظام... وربما كان ذلك من تأثير المخدرات... لا أدري... وماذا يهم الآن؟ كما أن سيليم لا تنتظر أي اعتذار وإنما كانت تريدني أن أسامحها ولهذا جاءت تشي بنظام.

حدّقت إلى الرجل المسكين الذي لم يفهم كم كان يعني عندها.

- أتدرك كيف خاطرت بنفسها بفعلتها هذه؟

تلألأت عيناه وقطب حاجبيه.

- أعلم... لكن بينما كنت في السجن...

بدأ غباؤه يثير أعصابي.

- انسَ أمر السجن! أتحب الفتاة؟

لم يستطع أن يجيبني مباشرة فقد كان مرتبكاً ثم قال:

- لقد كنت أحبها... أنا أعرف سيليم منذ طفولتها، فقد كانت أصغر مني بتسعة أعوام وكنت الفتى الأول الذي تقبّله. لقد كانت تحبني منذ ذلك الحين ولم تكن لتفكّر بأيّ شخصٍ آخر... أنا مهم للغاية عندها.

لم أعد أستطيع تحمل ذلك.

- وماذا عنها؟ هل هي مهمة عندك؟

أشاح بنظره بعيداً... بالطبع كانت مهمة لكنه لم يستطع تجاهل كبرياءه وقول ذلك.

قلت بتلطف:

- لقد كنتُ مخطئاً بشأنك... لقد ظننت أنك شجاع لكنك لستَ كذلك...
- من السهل عليك قول ذلك. ماذا كنت لتفعل لو كنت مكاني؟ لقد أطلع نظام كل الناس على الصور، وأخبر كل من في تارلاباسي كيف كان يحتفل مع حبيبتي... لا يا حضرة الضابط... الأمر ليس بسيطاً... مهما أحببت سيليم فلن أستطيع قبول ذلك.

أجبته:

- لكن نظام كان سيقبل لأنه يحب سيليم أكثر منك، وهو أشجع منك ومشاعره أقوى.

بدأت عيناه تدوران في محجريهما ذعراً... ذلك الطفل الخائف الذي يلاحقه ظل والده ويسيطر عليه كان قد قال إنه لم يلمس النرد في حياته... نعم... لم يكن إحسان ليعمل في هذا المجال، كما أن عقله وقلبه لا يميلان للتعامل مع هذه الأمور المتعبة، فقد كان شخصاً محباً يعلق صوراً لعائلات الحيوانات على جدران مكتبه... من غير الصائب أن نقارن بينه وبين نظام... لم يكن يدير العمل الذي ورثه عن والده لأنه يحبه... أكان يعمل هكذا لأنه يشعر بالخزي من عدم إجادة أي مهنة أخرى؟ ربما لو استطاع الاعتراف بالأمر ومواجهة نفسه لأصبح كل شيء أسهل عليه، لكن آمالي ذهبت سدًى فإحسان سيستمر يعيش حياة شخص آخر بدلاً من الحياة التي يريدها.

قال بأسى:

- لقد اخترتَ أن تكون في طرف نظام منذ البداية ولم تثق بي.
- أنت تعرف أنني لست في طرف أحد. لا تلمْ الآخرين لتغطي على يأسك.

وحين نهضت من مقعدي استمررت بتحذيره بالنبرة نفسها.

- لا تغادر دون إعلامي فما أخبرتني به لا يستثنيك كمشتبه به. نحن نشتبه بك بقدر اشتباهنا بنظام.

حدّق إليّ بعينين عدائيتين فحذّرته قبل أن أرتدي معطفي:

- لا تهدر طاقتك يا إحسان... لا يمكنك أن تربح. لو كنت مكانك لأغلقت

النادي لبضعة أيام، فأصدقاء الفتاة التي أطلق عليها ابن أخ نظام الرصاص سيشنون حرباً، وقد يحاولون إحراق ناديك مجدّداً ومن الأفضل ألاّ تكونوا في الداخل.

الريح تغني الآن أغانينا القديمة في تلك الأماكن



ركنت السيارة في شارع تاتافلا أمام متجر فاس بيك... ربما يكون آخر خياط بقي في كورتولوس. كان المتجر مغلقاً وفاس بيك قد ذهب إلى منزله. ماذا كان يفترض به أن يفعل وهو لا يزال يدفئ متجره بموقد؟ وبينما كنت أغلق السيارة القديمة الموثوقة حطت أولى ندف الثلج على وجنتي... هل سيبدأ مجدّداً؟ نظرت إلى السماء في الأعلى... لا... كانت الغيوم تتلاشى والقمر بدأ يهيمن على سماء الليل. تذكرت ابنتي أيسون حين قالت مرة وهي تنظر إلى البدر في الأعلى: "يبدو ككرة ثلجٍ ضخمة"... هكذا كان تفكير الأطفال حيث يجدون الجمال في كل الصور. في الواقع كان هناك جانب مثير في الأمر حيث يتوهّج الجو ببرود في تلك الأبدية العميقة... جانب أثار الأسف والهجران والموت... بدأ هاتفي يرنّ فحوّلت عينيّ من السماء إلى الأرض لأقرأ اسم مساعدي على الشاشة.

- نعم يا علي... كلي آذان صاغية.

قال بصوت يملؤه الغضب:

- لقد أطلقوا سراح قدرت. صدّق القاضي كل ما قاله ذلك السافل. ظننت أنهم على الأقل سيبقونه في السجن لبضعة أشهر لكنهم أطلقوا سراح الفتى... اقتلْ فتاة شابة اليوم تخرجْ طليقاً في الغد... أيّ بلدٍ عظيمٍ هذا؟

لم أكن أتوقّع أن يطلقوا سراحه أيضاً، لكنني لم أتفاجأ. فمحامي نظام العريس ساسيت لديه معارف كُثُر. وعلى الرغم من وصمة العار التي على جبينه فهو يعرف أناساً كثيرين، وقد تكفّل زعيم المافيا الأسمر بكل التكاليف...

- في كل الأحوال يا علي جرى ما جرى... دعنا نخبر الشرطة ونتّخذ الإجراءات في تارلاباسي، فلن يستطيع أحد أن يثني أصدقاء فيدان، فهم سيهاجمون نادي نظام... على الأقل اطلبْ منهم السيطرة على ذلك المكان.
- حسناً يا حضرة الضابط... لم نجد أيّ شيء يساعدنا في فندق ريكات... لا سكين ولا أيّ شيء آخر...

كان يتكلم عن المكان الذي كان يقيم فيه تايدي طارق.

- إنه يقيم هناك منذ شهر. الأسبوع الماضي عاد مع رجل وامرأة وتناول ثلاثتهم طعام الإفطار سوية. لم أستطع معرفة مَن هو الرجل، لكن المرأة تنطبق عليها صفات جيل... غداً سنري صورتها لموظف الاستقبال.

جيل... تخيّلت صاحبة الجمال التي تتظاهر بالكبرياء الزائفة لإخفاء يأسها... نعم... من الممكن أن تكون جيل قد استخدمت القاتل. لماذا لم نفكر بذلك من قبل؟ ربما يكون إنجين خدع المرأة، فبعد أن اشترى البيوت وسجّلها باسمه قد يكون أخبرها بإنهاء العلاقة وطردها. وهكذا ستكون جيل علقت دون أي وثائق أو ذخيرة ولم يتبقّ لها سوى الثقة الفارغة التي شعرت بها تجاه الرجل الذي أحبته، وسيكون مستحيلاً أن تشرح ما حصل، إذ لا يمكنها قول إنها أرادت أن تضع يديها على قسم من ميراث زوجها قبل موته، وإلا فسيدمرها ابنا رفعت بيك. ربما تكون استخدمت قاتلاً مأجوراً لتتخلّص من المشكلة أو أن أحداً ما قد حرّضها... أحداً ما؟ دايس إحسان مثلاً؟ بالطبع دايس إحسان. ألم يقل إن طارق كان يزور ناديه دائماً؟ قد يكون دفعها لفعل ذلك ليتخلّص من رجل بلاك نظام الموثوق دون أن يلوّث يديه.

- حين تعود إلى الفندق غداً خذْ صورة دايس إحسان معك ودعْ موظف الاستقبال يراها أيضاً ودعنا نرَ إن كان سيتعرف إليه.
- أتظن أن دايس هو الرجل الذي كان مع جيل؟
- هذا ممكن يا علي. دعنا نسمعْ ما سيقوله موظف الاستقبال...
- فهمت يا حضرة الضابط... تصبح على خير. سأخبرك إنْ حصل شيء في كل الأحوال.

- شكراً... تصبح على خير يا علي.

حين أغلقت الخط ومشيت في الشارع نحو تاتافلا أحسست كأنني واحد من تلك المباني المتداعية في تارلاباسي. كان أحد الشعراء قد قال: «الناس يشبهون المكان الذي يقيمون فيه» ونظامنا القانوني كالأماكن التي عشنا فيها، تقدّم بالسن، وتوقّف عن العمل، وبدأ يتعفّن وأوشك على الانهيار. أيمكن للعدالة أن تتبلور في هذا المجتمع؟ بالطبع فيدان وأصدقاؤها ارتكبوا خطأً لكنهم لم يحاولوا حتى أن يدخلوا المبنى... ولم يكن هدفهم قتل الأشخاص في الداخل وإنما أن يخيفوهم فحسب. ورداً على ذلك تم إطلاق سبع رصاصات على الفتاة ثم خرج قاتلها حراً طليقاً. أيمكن للمرء في مثل هذا المجتمع أن يأمل بالأفضل؟ أيمكنه أن يؤمن بالعدالة؟

قبل أن أصل إلى باب تاتافلا رنّ هاتفي مجدّداً. كان المتصل نظام الذي كان الذعر يملؤه.

- أسمعت يا حضرة الضابط؟ لقد أطلقوا سراح قدرت.
- تهانينا... وماذا تريد أكثر من هذا؟

لم يجبني مباشرة.

- لقد اتصل شرطيك.

ارتبكت... لماذا يقوم علي بالاتصال بنظام؟

- مساعدي؟
- لا يا حضرة الضابط... شرطي بيه أوغلو الغبي... سامي...

فجأة أصبح أكبر المتآمرين معه شرطيي أنا... المخادع يحاول حماية الرجل الآن.

- لقد حصلوا على معلومات بأن المخربين يتجمعون وطلب مني توخّي الحذر.

أخيراً أحسن ذلك الشرطي القصير التافه التصرف.

- لقد أخبرتك أنكم في خطرٍ محدق. لا تفكر بالاشتباك مع أولئك الفتيان فأنتم لن تنتصروا وستكون تلك نهايتكم. أغلقوا متاجركم واخرجوا من تارلاباسي قبل أن يفوت الأوان، وحذّرْ أبناء إخوتك أن يختبئوا الليلة.

- لقد فعلنا كل ذلك... لقد تكلمت معهم جميعاً...

ماذا كان ما قاله حين التقينا؟ إذا كنت لا تريد أن تعطي ملاك الموت ذخيرةً فعليك أن تحدّ من عدد أحبابك في هذا العالم. لكنه الآن لديه زوجة، لذا فإنه بدلاً من أن يقلّص من عدد أحبابه ارتبط بشخص جديد يحبه بشدة، وعارض جميع أفراد عائلته وأولاد إخوته وجميع القواعد المكتوبة وغير المكتوبة للعالم السفلي. ولهذا سحب رجاله من تارلاباسي دون أي تردّد.

قلت داعماً إياه:

- أحسنت يا نظام لكن عليك الابتعاد عن تارلاباسي أيضاً حالما تستطيع.
- لا تقلق فأنا الآن في أتاشهر... لديّ منزل هناك...
- أحسنت... أعلمني إن حصل أي شيء. سأبقي هاتفي مفتوحاً.
- شكراً يا حضرة الضابط.

كان صوته مليئاً بالامتنان كما أنني ارتحت، ولو قليلاً، إذ يمكن لأبناء إخوة نظام أن يتشجّعوا من إطلاق سراح قدرت ويقوموا بمجزرة صغيرة هذه المرة. أما الآن فلن يكون هناك أي قتلى على الأقل، وإن قام الناشطون بكسر النوافذ أو الأبواب فلن يتأذى أحد. مشيت نحو مطعم إفجينيا.

كانت تاتافلا هادئة. حين فتحت الباب سمعت الكلمات المألوفة "الريح تغني الآن أغانينا القديمة في تلك الأماكن..." كان زكي مورين يغني أغنية رائعة لشكيب أيهان أوزيسيك على الطراز الكردي. أحسست براحةٍ تامّة من الطقس المتوتّر وغير الموثوق، فهذا المكان بنوافذه يشكل بوابة تطهير بين شناعة الحياة وجمال الحب. كنت كلما خطوت إلى داخله وتجاوزت عتبته أمتلئ بهدوء تام وصفاء عميق. لو سأل أحد عن آخر بقعة على الأرض تثبت أن العالم مكان جميل لأجبت على الفور تاتافلا. كان فارغاً في الداخل وجميع الطاولات شاغرة كما لم يظهر أمامي أي نادل، وبينما كنت أتساءل أين ذهبت إفجينيا لاحظت المرأة العجوز التي كانت تجلس على طاولة مطلّة على الحديقة وتحدّق بعينيها إلى شجرة دراق. كان شعرها القصير مصبوغاً باللون الكستنائي، وكانت ترتدي سترة صوف وردية اللون. خطوت بضع خطوات قبل أن تنتبه لي وتلتفت.

قلت وأنا أتوجّه نحوها:

- مساء الخير.

وقفت باحترام ورمقتني بنظرة بعينيها الزرقاوين ثم ابتسمت وكأننا أصدقاء منذ سنوات:

- مساء الخير. لا بدّ أنك نيفزات.

- ولا بدّ أنك العمة فوفو.

تغضّن حاجباها بانزعاج وقالت:

- فوفو فحسب... لا تقل "عمة" لو سمحت. لا أحب أيّا من هذه الألقاب.

أحنيت رأسي وقلت:

- حسناً، كما تشائين يا فوفو.

- أحب هذا لأنه أكثر ودية. أنا لا أحب الرسميات مع الرجل الذي استحوذ على إفجينيا.

- أوافقك الرأي في هذا إذ لا يمكنني معاملة أعز عمة على قلب إفجينيا كغريبة.

ضحكت بفرح وقالت وهي تمد لي يدها المعرورقة:

- أنت رجل طيب يا نيفزات... يمكنني أن أرى ذلك في عينيك. الحمد لله أن إفجينيا اتخذت أخيراً القرار الصائب.

انحنيت وتناولت يدها الممدودة وقبّلتها بلطفٍ فابتهجت وأمسكت بيدي في يدها وقالت:

- أترى! إنك رجل نبيل بحق... سعيدة بلقائك يا نيفزات.

- وأنا أيضاً يا فوفو.

نظرت حولها وقالت:

- لماذا نحن واقفان؟ دعنا نجلسْ.

جلسنا ونظرت مجدّداً إلى شجرة الدراق بعينيها المليئتين بالمشاعر وكأنها واقعة في غرام تلك الشجرة، وحين أحست بنظراتي عليها تمتمت وهي لا تزال تحدّق إلى الشجرة:

- إنها كبيرة... لقد تقدمت بالسن مثلنا. زرع نيكو شجرة الدراق هذه قبل أن

نغادر. أتعلم أن نيكو كان شريكاً هنا؟

كانت هذه للمرة الأولى التي أسمع بذلك.

- هذا صحيح... لقد أشركه يورغو... رحمه الله... لقد كان نيكو صالحاً ولم يكن يورغو سيئاً... أنت لم تلتقِه... أليس كذلك؟

- للأسف لا.

غطّت الجانب الأيمن من وجهها بيدها كأنها لم ترغب أن يراها أحد وهمست:

- هذا جيد. لم يكن شخصاً سيّئاً لكنه كان غريب الأطوار ووضع نيكو في مواقف... نعم... لن أكذب لأنه ميت... رحمه الله لكنكما كنتما ستمران بظروف صعبة لو كان يورغو على قيد الحياة... أعني أنت وإفجينيا. لم يكن نيكو هكذا وإنما كان منفتح الفكر وكبير القلب... هذه شجرة دراق... لقد هاجرنا إلى أثينا في خريف السنة التي زرعناها فيها... تشرين الأول/ أكتوبر 1964. ظننت أنها ستجف فيورغو لا يهتم بالأشجار أو الأزهار ولا يعتني بها أو يسقيها، لذا توقعت ألاّ تنمو لكنني كنت مخطئة بحقه، فقد اعتنى بها عنايةً فائقةً، ولم تجف الشجرة وإنما نمت، لكنها لم تزهر لثلاثين عاماً حتى زيارتنا الأولى إلى إسطنبول... بقينا بعيدين عن إسطنبول لثلاثين عاماً، لا لأننا كنا خائفين، وإنما لأن مشاعرنا كانت مجروحة. حينها أزهرت الشجرة للمرة الأولى وأنتجت أولى ثمارها فقال لنا يورغو بغيرة:

- انظروا إلى هذه الفاجرة الصغيرة... انظروا كم أصبحت مليئة بالألوان حين رأتكم.

بدت لي حزينة وعاطفية فسألتها:

- أكنت تقيمين في كورتولوس؟ أعني قبل أن تذهبوا إلى أثينا...

- لا يا عزيزي... لقد كان منزلنا في شارع كاليونكوكولوغو... في تارلاباسي... أتعرفه؟ في شارع جانبي بالقرب من طريق پيرا، ينعطف بالقرب من جسر بريست.

تارلاباسي مجدّداً... يبدو ألاّ مهرب منها هذه الأيام... إن لم أذهب إليها تأتي هي إليّ.

- أنا أعرف كاليونكوكولوغو جيداً فقد خدمت هناك سبع سنوات...

للمرة الأولى ظهرت تعابير غريبة على وجهها.

- هل تعرف سيزجين؟ المحقّق سيزجين غوشيرلي؟

تغيّر مزاجها وكان من الجلي أن هذه القصة لن تنتهي نهايةً جيدة... ربما لم يكن ينبغي لي أن أسأل لكن فضولي سيطر عليّ.

- لا... لم ألتقِه... أكان سيزجين معيّناً في بيه أوغلو؟

كانت تحاول كبت مشاعرها.

- في تارلاباسي... في المبنى نفسه الذي كنت تخدم فيه. لقد كان صديقاً جيداً وقد اعتنى والدي بأولاده فهو لديه أحلى ابنتين في العالم... واحدة تدعى عائشة والأخرى نيسي... لقد كان والدي طبيب أطفال وعيادته في الشارع نفسه حيث كنا نقطن سوية... أتراك... يونان... أرمن... وغيرنا... أحياناً تكون هناك عداوات وإزعاجات لكن المحقّق سيزجين كان يحمينا دائماً ويظهر صداقته لنا حيث يسارع لمساعدتنا كلما وقعنا في متاعب ويجد حلولاً لمشاكلنا، حتى ذلك الخريف الفظيع... أسمعت بتلك الأيام؟

يبدو أنها تتكلم عن الأحداث الجنونية للسادس والسابع من أيلول/ سبتمبر... أكثر الأيام المخزية في تاريخ المدينة.

قلت وأنا أشيح بنظري بعيداً:

- لقد سمعت... كان ذلك مروِّعاً.

- مروِّعاً... نعم مروِّعاً... إنها الكلمة الأنسب. كنا قد قضينا صيفاً رائعاً حيث كنت في العشرين من العمر وعاشقة حديثاً إذ خطبت في شهر تموز/ يوليو لنيكو... في حديقة عمي تيو على جزيرة بويوك. لقد كنا سعداء للغاية... في قمة الابتهاج... دمروا أجمل أيام حياتنا.

- هل نهب منزلكم؟

- لقد تم تخريبه بالكامل. قتلوا الناس، واغتصبوا، ونبشوا الجثث من قبورها، وهاجمونا أيضاً بالطبع كما لو أننا أعداؤهم. لقد كسروا أبوابنا واقتحموا بيوتنا وقلبوا الغرف رأساً على عقب... ثم رموا ممتلكاتنا إلى الشارع لتزيّن ملابسنا

الأرصفة لأيام... لقد كانوا أشراراً ومليئين بالكراهية...

لم أعرف ماذا أقول فقد سيطر الشعور بالذنب عليّ كما لو أنني كنت أخدم في مركز الشرطة نفسه في ذلك الحين وفشلت في القيام بواجباتي.

- الحمد لله أنهم لم يؤذوك.

ومضت عيناها الزرقاوان بعصبية كما لو أنها تعيش تلك اللحظات مرة أخرى:

- نعم... كان من الممكن أن يؤذونا... ذلك الخوف هو ما دفع والدي إلى سيزجين ليطلب منه أن يساعدنا، فقد نُهِبت المتاجر في شارع الاستقلال وتحوّلت الجموع حيواناتٍ ضاريةً وبدؤوا يهاجمون الناس في كل الشوارع. لقد رسموا رمزاً دينياً أسود على أبواب منازلنا وأصبحت حياتنا في خطر، لكن سيزجين لم يكترث.

أيمكن أن تكون المرأة مبالغة.

تمتمت:

- كيف يمكن ذلك؟ هل تظاهرت الشرطة بعدم الملاحظة مع أن الجحيم فتحت أبوابها؟

ظهرت المرارة على وجهها:

- أنت شخص طيب حقًّا يا نيفزات... نعم... حتى التظاهر بعدم الملاحظة يظهر تعاطفاً إنسانياً. لكن سيزجين لم يتظاهر بعدم الرؤية، وإنما رأى كل شيء وقال إنه لن يتدخّل. أخبرني والدي ذلك فيما بعد حين دُمِّرت المنازل والمتاجر وضُرِب الناس ثم هدأت الأمور. لقد تصرّف كأنه لا يعرف أبي، ولم يطرق بابنا في منتصف الليل حين كانت ابنته الصغيرة عائشة تحترق من الحمى... تصرّف ببرود، وحين قال له والدي:

- سيقتلوننا يا سيزجين... شرفنا وبيوتنا وحياتنا في خطر.

لم يكترث المحقّق موافيني وقال:

- آسف يا سيد ليونيداس... أنا اليوم لست شرطياً وإنما أنا وطني بضميرٍ وطنيٍّ ولا يمكنني مساعدة أيّ يوناني.

لقد دمعت عينا والدي وهو يخبرني بتلك القصة، فقد كان مواطناً في هذا

البلد، ويدفع الضرائب، وأدى الخدمة العسكرية والتزم بجميع واجباته. لكن ذلك الشرطي، المكلف بحماية جميع المواطنين، كان ينظر إلى الشخص الواقف أمامه كأنه ليس إنساناً وقال:

- أنا لا أقوم بعملي اليوم لأنك لست تركياً.

هنا خطر ديوجينز ببالي... لقد سألني السؤال نفسه:

- هل أنت وطني اليوم أم شرطي؟

تساءلت إن كان المسكين قد عانى الكراهية نفسها ووقع ضحية للهمجية نفسها.

أكملت فوفو الإفصاح عن مكنونات قلبها:

- كان والدي يعتبر نفسه دائماً تركياً، وكان في جوقة الكنيسة حين كان صغيراً، ولهذا كان ينشد النشيد الوطني بصوت جميل لدرجة أن قائده في الجيش منحه مكافأة على ذلك. وكان يتباهى بتلك المكافأة حتى يوم وفاته على الرغم من كل ما جرى.

كنت قد سمعت كثيراً من القصص عن الفظائع التي تم ارتكابها على هذه الأرض، وكل واحدة منها كانت أسوأ من الأخرى... كان الناس يذبحون بعضهم بعضاً بسبب الاختلافات في اللغة والدين والعرق، لكنني حين سمعت عن هذه الكراهية من شخص عاناها بدأ جسدي يقشعر.

- أنا آسف. هناك رجل يدعى ديوجينز في تارلاباسي أظن أنه مرّ بالتجربة نفسها...

- ديوجينز؟ لا أعِرفه... لم أسمع به.

- لقد آوته دار العبادة سانت قسطنطين، وحين التقيت به الليلة الماضية كان يتحدث عن امرأةٍ وفتاة.

قالت بأسى:

- أوه! لا بدّ أنك تعني أندونيس... أندونيس المسكين... مآسيه لا تعادل مآسي أي شخصٍ آخر... إنها مأساة ضخمة يا نيفزات. أدعو الله ألاّ يحدث ذلك مع أي شخصٍ آخر... لقد قامت زوجته كاترينا وابنته نانا بالانتحار سويةً بعد أن تم اغتصاب كاترينا في 7 أيلول/ سبتمبر في قبو شقتهم لتكتشف فيما بعد أنها

حامل. لم يكن واضحاً إن كان الحمل من زوجها أو نتيجة للاغتصاب. كان بإمكانهم التخلّص منه لو أرادوا، لكن لم تكن لدى أي منهما الشجاعة. وظنّا أن حبهما سيجعلهما يتجاوزان هذه المحنة إلا أن ذلك لم يحصل. فقد بدأ أندونيس يلمح للأمر ولم تستطع كاترينا إلقاء اللوم عليها لأكثر من خمس سنوات إذ كانت حساسةً للغاية... أنا أعرفها منذ طفولتها فهي من حينا، وقد حاولت جاهدة إصلاح الوضع وأصرت على أن يغادروا المنطقة إذ كانت تظن أنهم إذا ابتعدوا عن تارلاباسي ستتبدّد شكوك زوجها لكن أندونيس لم يوافق، فلدى عائلته كثير من الممتلكات ولم يستطع تركها. وبدأت تلك الشكوك التي ظلت مخيّمة على عقل زوجها وقلبه تدفعها للجنون... وكشجرةٍ تتعفّن من الداخل بدأت تدمّر المرأة دون أن يلاحظ أحد. وفي أحد الأيام أرادت وضع حدٍّ لهذا الجحيم الذي تعيشه لكنها لم ترغب أن تمر ابنتها نانا بما مرّت به، فوضعت حبوباً منومة في حسائها ثم بلعت حفنة من الحبوب نفسها ليعثروا عليهما في إحدى الأمسيات تحتضن إحداهما الأخرى على السرير...

لم تعد تستطيع الاستمرار بالكلام فغطت فمها بيدها لتسيل دمعة على خدها.

جلست متجمّداً في كرسيي... يا لغبائي... لماذا سألت عن ذلك الرجل؟

قلت بندم:

- آسف. لم أكن أقصد أن أزعجك.

فأمسكت بمعصمي وضغطت عليه بود وقالت:

- هذا ليس خطأك.

احتججت:

- كيف أمكنهم فعل مثل هذا الأمر؟ لماذا قام جيرانكم وأصدقاؤكم في الحي بتعريضكم لكل هذا؟
- لم يكن سكان حينا من فعل ذلك يا نيفزات... لا ينبغي أن نلومهم... وإنما أشخاص من أحياء أخرى... واحدة من جيراننا أنقذتنا... ياديغار هانم... كان ابنها الصغير بهجت مصاباً بذات الرئة وكان يتعالج لدى والدي. وحالما سمعا بما حصل طرقوا باب العيادة وقالوا:

- لماذا بقيت هنا يا سيد ليونيداس. أحضرْ زوجتك وابنتك وتعالوا إلى منزلنا.

لقد استضافتنا باديغار هانم أسبوعاً كاملاً وشاركتنا آلامنا وأحزاننا وواستنا. ولم تكن هي الوحيدة فقد كان هناك أتراك ومسلمون آخرون حموا جيرانهم من اليونانيين. لكن كان لدينا جيران أتراك آخرون وخاصة من الفقراء والجهلة لم يترددوا في حمل السكاكين لطرد اليونانيين من أحيائهم... لا يا نيفزات... ليسوا هم من يتحملون اللوم وإنما الحكومة التي حرّضتهم وأطلقتهم علينا. لو كان الأمر عائداً لجيراننا لما سمحوا بإلحاق أي أذى بنا... وقد يكون بينهم بعض السيئين لكن الغالبية جيدة... أنا لا أقول هذا مجرّد كلام وإنما كنا نعيش معاً كأخوة...

مسحت خدها بالمنديل.

- اسمعني... سأخبرك بقصة... قصة حقيقية... في الفصح كنا متعوّدين على حمل الشموع المضاءة من مركز سانت قسطنطين إلى منازلنا لنشكل رمزاً دينياً من الشمع الذائب عند مداخل منازلنا... هذا أحد طقوسنا المقدسة. وبينما كنا نحاول أخذ الشموع المحترقة إلى منازلنا كان الأولاد من الشوارع الأخرى يحاولون إطفاءها لكن أصدقاءنا الأتراك المسلمين كانوا يساعدوننا. وما إن يوصلونا إلى منازلنا حتى يقوم هؤلاء الجيران أنفسهم بالعودة مباشرة ليحاولوا إطفاء شموع اليونانيين في الأحياء الأخرى.

أنا لا أعتقد أن الناس سيئون يا نيفزات، فقد تجاوزت الثمانين من العمر وهذه هي الخلاصة التي توصّلت إليها... الناس ليسوا سيئين أو طيبين إذ إن هناك شيطاناً وملاكاً داخلنا، لكن من يسيطر على روحنا هو الذي نوقظه ونغذيه. لو أن حكومة ذلك الوقت لم تبث الكراهية في مواطنيها لما حصلت هذه الفظاعات، ولما خرج الشيطان إلى الشارع ولبقينا كأخوة على هذه الأرض. إلا أنهم أثاروا القلاقل مستخدمين الدين والعرق عذراً وأدخلوا الكراهية إلى حياتنا. لقد بدأ ذلك بفرض الجزية على غير المسلمين ثم قضية سيبريس عام 4691 حيث طردونا من أراضينا. لقد كانت بيوتنا وقبور آبائنا وأجدادنا هنا، ومع ذلك تم نفينا... نفينا نهائياً... لقد طردونا لكن ماذا جنوا من ذلك؟ هل كانوا سعداء للغاية؟ هل تقدم البلد وازدهرت المدينة؟ على العكس... لقد سقطت في الهاوية... أترى المأساة في تارلاباسي؟

جميع أنواع الفقر والفساد والحرمان المتنوّع... فظاعة وسط المدينة لتبدو منطقة وسط المدينة الجميلة وكأنها ملعونة. لكن هذا ما يحصل للمكان إذا اقتلعت سكانه الذين لم يرتكبوا أي خطأ. أيمكن بناء السعادة على مآسي الآخرين؟

- من الذي يبني السعادة على مآسي الآخرين؟

رنّ صوت إفجينيا المبتهج في آذاننا... يبدو أنها ظنت أننا نناقش شيئاً ساراً فأكملت دون أن تنتظر رداً:

- أوه... أرى أنكما منسجمان. هيا... أخبراني من هم أولئك الناس القساة الذين يسرقون سعادة الآخرين؟

لم أعرف كيف أجيبها، ففكرة إزعاج إفجينيا بهذا الموضوع المؤلم أزعجتني. لكن فوفو الحكيمة أصلحت الوضع مباشرة وقالت بتهكّم:

- سيدات هذه الأيام... وهل هناك غيرهن؟ نعم... أنا أتكلم عنكن أيتها النساء العصريات.

هي أيضاً لم تكن ترغب بإزعاج إفجينيا التي حدّقت إلى فوفو غير قادرة على معرفة ما يجري.

يصبح الناس أكثر استقلالاً حين يتعوّدون على الفقدان



كانت فوفو امرأة رائعة... واحدة من أولئك الناس غير العاديين الذين لا تندم على لقائهم. لكن ابنتها أنجيليكي تقول إنها لم تكن هكذا من قبل، وإنما كانت أكثر انطواءً وحزناً لكنها تغيّرت مع تقدمها في السن فقد قالت:

- يصبح الناس أكثر استقلالاً حين يتعوّدون على الفقدان.

كان ذلك التعليق ثقيلاً لكنني لم أؤمن به بالكامل، فقد عرفت كثيراً من الناس يصبحون أكثر أنانية حين يتقدمون بالسن.

نعم... كانت ابنة عم إفجينيا تتكلم التركية لكن، بالمقارنة مع فوفو، لديها لكنة ثقيلة. هي نسخة سمراء عن إفجينيا، شعرها أسود متموّج وعيناها واسعتان ومستغرقتان في التفكير وشفتاها رقيقتان، كما أنها أنحف قليلاً... كان جمالها مختلفاً قليلاً فصفاء البحر المتوسط ظاهر في بشرتها لكن لم يكن لديها دفء إفجينيا وإنما كانت هادئة وأكثر وقاراً، وحين تسمعها تتكلم لن تدرك أبداً أنها ابنة أمها، فضحكة فوفو المدوية تختلف عن ابتسامة أنجيليكي الهادئة... كانت أنجيليكي تنادي ابنتها كولا وكانت قد تزوّجت وتطلّقت دون أن تنجب أطفالاً، لكنها تنوي أن تتبنى طفلاً حين تعود إلى أثينا. كنت متأكداً من أنها أحبتني على الرغم من أنها لم تظهر ذلك. فطوال المساء كانت تبحث عن أعذار للحديث معي، لكن ذلك كان شبه مستحيل بوجود فوفو التي كانت تسعى جاهدة لمسح آثار القصة

التي روتها لي في بداية الأمسية، حيث تخلت عن حزنها وبدأت باللهو والغناء والرقص. وبتشجيع من الموسيقيين الرومانيين من دولابدير قامت ورقصت وكانت بارعة بالرقص الشرقي بالنسبة إلى عمرها.

سمعت أنجيليكي تقول وهي تصفّق بابتهاج:

- يوماً ما ستموت هكذا حتى دون أن تنتبه...

لم تكن تنتقدها وإنما بدا الأمر وكأنها تتساءل ماذا ستفعل حين ترحل أمها.

قلت مواسياً إياها:

- سيكون هذا جيداً. ألسنا جميعاً سنموت بطريقة أو بأخرى؟ أدعو الله أن يتفضّل علينا بمثل هذه الميتة.

ابتسمت:

- نعم... ليتفضّل الله علينا كلنا بمثل هذه الميتة بعد أن يطيل بعمر والدتي قدر الإمكان...

استمر المرح حتى غادرت تاتافلا حيث عزفوا أغاني شعبية قديمة من تراث إسطنبول وداعاً لي... كانت الأغنية عن بالات حيث أقطن وحيث سأعود لأنام. ما كنت لأترك إفجينيا في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل لو لم يكن لديها زوار، لكن لا يزال أمامنا أيام من الفراق حيث سيغادر ضيوف شرف إفجينيا بعد يومين. حين غادرت أصرّتا علينا أن نزورهما في أثينا، وطبعت فوفو قبلتين بصوت مرتفع على وجنتي ثم التفتت وأعطتنا إنذاراً صارماً:

- اسمعي يا إفجينيا. لا تأتي إلى أثينا دون هذا الرجل وقد أُعذر من أنذر.

لم تنزعج حبيبتي بل قالت:

- لا تقلقي يا فوفو سأحضره معي. ماذا سأفعل هناك بدونه؟

حين غادرتُ كنتُ متعباً قليلاً من ثرثرة النساء الجميلات، وكان الطريق قد بدأ يكتسي بالثلج، لكن سيارتي القديمة الموثوقة شقّت طريقها نحو منزلي المتواضع بسلامة. وما إن دخلت من الباب حتى رن هاتفي، وكان المتصل علي. لم يكن هناك أي مشاكل في تارلاباسي وإنما اجتمع حشد كبير أمام مدرسة غلطة سراي الابتدائية في المساء احتجاجاً على موت فيدان. لكن شرطة مكافحة الشغب لم

تسمح لهم بالتقدم نحو تقسيم، لذا تم عقد مؤتمر صحفيٍّ ثم تفرّقت الجموع دون شنّ أيّ هجوم أو مناوشات أو كسر أي نوافذ... أظن أن ذلك يعني أن نازلي وسيفان قد تمكّنا من إقناع المتظاهرين.

قال مساعدي بقلق:

- ربما ينتظرون الجنازة يا حضرة الضابط.. علينا أن نبقى حذرين غداً.

قد يكون محقّاً لكنني ارتحت أكثر الآن لأن نظام قد ابتعد، فربما يتضاءل ألم منافسيهم وغضبهم إن لم يظهروا في تارلاباسي لبضعة أيام أخرى.

كان علي قد احتفظ بالقنبلة الأكبر للنهاية حيث قال:

- بالنسبة لموضوع جيل أظن أن الأمر محسوم.

توقّفت على السلّم:

- كيف هو محسوم؟

- يوم إيداع المائتي ألف ليرة في حساب تايدي تم سحب المبلغ نفسه من حسابها...

نعم... لقد بدأت القطع تتجمّع في أماكنها، لكنني تساءلت لماذا وصلته هذه المعلومة في هذا الوقت المتأخر من الليل.

- كيف عرفتم ذلك؟ هل هذا من مصدر موثوق؟

- حصلنا عليه من البنك حيث أوكلت زينب العمل لسوها الذي كتبه في تقريره...

هل أنا من لم يفهم جيداً لأنني كنت ثملاً أم أن ذهني المشوّش غير قادر على التفسير؟

- أين زينب؟

رد بعد صمت قصير:

- هنا معي... لقد تسكّعنا سوية في بيه أوغلو قليلاً خوفاً من أن تحصل أي مشاكل ثم عدنا...

وصلتني الصورة... لم يستطع الحبيبان الابتعاد أحدهما عن الآخر واستخدما التهديد بحصول مشاكل عذراً بالطبع. للحظة أزعجني ذلك... أنهما متوافقان من وراء ظهري لكنني تذكرت فيما بعد أنني أيضاً كنت أزور حبيبتي وأقاربها في مطعم

حتى منتصف الليل، وهنا تفاجأت بمدى سوء تفكيري. لقد كنا من الشرطة وعلينا أن نحافظ على السيطرة.

قلت بصوت تملؤه السلطة:

- أعطني زينب لتخبرني، فلكل شخص مهمة منفصلة.

لا بدّ أنها كانت تتصبّب عرقاً أو أنها قلقة من أن أوبّخها على خطئها.

- أتريد زينب يا حضرة الضابط؟ أعني أنك تريد الحديث معها؟

- نعم يا علي؟ أليست معك؟ أعطِها الهاتف فأنا أريد أن أسألها عن عملية البنك لأنها هي التي تتحقق منها... ألا تظن أن من الأفضل أن تشرح هي؟

- بالطبع... أنت محق يا حضرة الضابط... ها هي.

بعد صمت سمعت صوت زينب المتوتّر.

- نعم يا حضرة الضابط.

شعرت بالأسف لأنني أحرجتها.

- مرحباً يا عزيزتي زينب... كيف حالك؟

- بخير... شكراً لك. لحسن الحظ لم تقع أي مشاكل لكننا انتظرنا لنتأكد.

لم تكن لديها الجرأة لتخبرني أنهما جلسا في مقهى بيه أوغلو يتبادلان الحديث كالطيور ولم يكن هناك أي جدوى من فتح للموضوع.

- بالنسبة للمائتي ألف التي سحبتها جيل... هل علمت بها للتوّ؟

- في الواقع علمت بالأمر في وقت أبكر هذا المساء من ذلك الشاب الجديد سيفا... أما بالنسبة إلى الجريمة الأخرى لذلك الشاب غير السوي جنسياً المدعو سيلان، والذي قُتِل في كاديكوي فكان قد أعطانا معلومات ناقصة حول موعد الجريمة، ما أوقعنا في مشاكل مع المدّعي العام، فطلبت منهم، منذ ذلك الحين، أن يعلموني شفهياً وعبر البريد الإلكتروني. لقد اتصل بي في وقت لاحق ثم أرسل لي بريداً إلكترونياً قبل قليل، لكنني لم أستطع الاتصال بالإنترنت قبل منتصف الليل ولهذا تأخرت. لكن المعلومات صحيحة فقد حصل سوها على جميع السجلات من البنك... سُحِبت النقود في اليوم نفسه الذي قام فيه تايدي بإيداع المبلغ... في الواقع الحساب يعود لزوجها رفعت

غوموشوفا، ولأنه غير سليم العقل فقد حصلت جيل على حق الوصاية، وظلت تستخدم الحساب طوال السنة الماضية.

كانت أخباراً جيدة، لكنها لن تفيدنا لوحدها. إذ من الضروري أن يقوم موظفو الفندق، حيث كان يقيم طارق، بالتعرف إلى جيل.

- شكراً يا زينب... أيمكنك إعطاء الهاتف لعلي مجدّداً؟
- بالطبع يا حضرة الضابط.

نسيت الفتاة المسكينة أن تتمنى لي ليلة سعيدة فقد كانت متوترة ومرتبكة.

جاءني صوت روميو مجدّداً:

- نعم يا حضرة الضابط... ماذا يمكنني أن أفعل؟

كان يتعامل بشكل رسميٍّ جداً فقلت لأخفّف عنه:

- حسناً يا علي... أول شيء في الصباح قُمْ بزيارة الفندق الذي كان يقيم فيه طارق مجدّداً... مع الصور، فمن الضروري أن يتعرّف الرجل إلى جيل، وإذا تعرّف إلى إحسان أيضاً ستصبح مهمتنا أسهل بكثير.
- أعلم يا حضرة الضابط... لا تقلق... سأنجز المهمة قبل أن تصل أنت إلى مركز الشرطة.
- سيكون ذلك عظيماً... هيا اذهبْ وخُذْ قسطاً من الراحة الآن. يبدو أن الغد سيكون يوماً شاقاً آخر، لذا تصبح على خير...
- تصبح على خير.

كدت أقفل الخط حين همست حبيبته بشيء له فقال:

- وزينب تتمنى لك ليلة سعيدة أيضاً يا حضرة الضابط.

بذلت قصارى جهدي لئلا أضحك وقلت:

- حسناً... حسناً... تصبحان على خير.

وبينما كنت أصعد السلم فكّرت بجيل... نعم... ربما كانت هي التي استخدمت طارق، لكن هل السبب هو الغيرة أم لأنه سرقها؟ أي حالة ذهنية تلك التي دفعتها لتطلب قتل شخص ما؟ شخص كانت واقعة في غرامه... لا بدّ أن جيل أحست بالعجز والإهانة على نحو لا يوصف... ولا بدّ أن إنجين لم يحطم قلبها

فحسب وإنما سرق أموالها أيضاً. هل هناك رجل يستحق كل هذا؟ تذكّرتُ حواراً دار بين أمي وخالتي في طفولتي حيث قالت خالتي نيهان بعد أن تركت زوجها وذهبت مع أستاذ شاب:

- الحب يجعل النساء جميلات.

لترد عليها أمي وهي تهز رأسها:

- هذا خطأ... الحب يجعل النساء غبيّات.

لا أدري إن كان ما تقوله أمي صحيحاً دائماً لكنه في حالة خالتي نيهان صحيح تماماً، فبعد ثلاث سنوات وقع الأستاذ، الذي طلّقت زوجها لأجله، في حب امرأة أصغر سناً وقال لها:

- ماذا يُفترض بي أن أفعل يا نيهان؟ أنا أحبها.

وما جرى مع جيل ذكّرني قليلاً بقصة خالتي نيهان، وهناك أيضاً عزيزة... الجزء الثالث من مثلّث الحب هذا وبطلة القصة الأخرى... أو أقول الضحية؟ من كان إنجين يحب؟ هل علاقته بعزيزة كانت حقيقية أم أنه كان سيتخلّى عنها حين يحين الوقت المناسب كما فعل بجيل؟ نعم... لقد كان إنجين وصمة عار، لكن هل كان يستحق القتل؟ هذا ما لم أكن واثقاً منه. كما أننا لم نجد قاتله بعد إذ إن من الواضح أن القاتل المأجور لم يفعل ذلك وإنما سبقه شخص آخر، وتأخيره هو ما أدى إلى مقتله. لو أنه تمكّن من قتل إنجين أولاً لكان الآن مستلقياً في سرير فندقي دافئ يحلم كيف سينفق النقود التي حصل عليها من جيل بدلاً من دولاب متجمّد في المشرحة.

نحن العالقون في الذكريات



- إلامَ تنظر يا بابا؟

كانت تقف مقابلي عند حافة النافذة، والستارة البنية الداكنة تداعب شعرها الكستنائي، بينما بدت عيناها الواسعتان حزينتين كما لو أنها تسأل: «متى ستنتهي مشاكلكم أيها الأحياء؟».

- أيسون... أيسون يا ابنتي.

يبدو وكأنها لم تسمع.

قالت بصراحة:

- ما تبحث عنه ليس هنا... لا تنتظر العدم... إنه هناك... في الشارع.

وفجأة سحبت الستارة للوراء ليتدفّق الليل إلى الداخل... ليلة رأس السنة... ظننت أنها أصوات العربدة لكنها لم تكن كذلك... هل هي صلاة من ألف شخص أم تنهيدة جماعية؟ أو ربما استغاثة... طلب جماعي للرحمة.

قالت ابنتي:

- تعالَ... انظر... ما تبحث عنه موجود بينهم.

ودون أن ألاحظ وجدت نفسي هناك أمام النافذة التي دعتني إليها... غريب... كانت أيسون في وسط الغرفة في مكاني... أحسست بدوار وتمسّكت بالستارة، وفي هذه اللحظة رأيت الحشد... كان المنحدر الشاهق في الشارع مكتظاً بالناس الذين يمكنك رؤية تعاستهم وعجزهم ويأسهم من النظرة الأولى... نساء شابات وعجائز وأطفال... كانوا يصعدون المنحدر مطأطئي رؤوسهم ويتمتمون بشفاههم

على بعد مائة متر من المبنى الذي كنا فيه. فجأة أدركت أننا في تارلاباسي لا في بالات، أي أن هذا ليس منزلنا.. إذن أين نحن؟ نظرت مجدّداً إلى أيسون التي كانت تحافظ على التعابير نفسها على وجهها... تعابير التعاطف والحزن.

سألتها:

- من هؤلاء يا أيسون؟ لماذا ينبغي أن أكون مع هؤلاء الذين أنظر إليهم؟

نظرت إليّ باعتذار.

- ستعرف ذلك يا بابا... عليّ الذهاب.

تملّكني الذعر وقلت وأنا أعرف أن شيئاً سيئاً سيحصل:

- لا... لا تذهبي إلى هناك...فالفوضى تعم.

ظهرت ابتسامة خافتة على شفتيها الشاحبتين.

- عليّ الذهاب يا بابا... أنت تعرف أنه لا يمكنني البقاء هنا وأصدقائي ينتظرونني عند الباب.

نظرت إلى الشارع مجدّداً... كانوا واقفين هناك أمام مبنانا... ثلاثة منهم... ثلاثة فتيان... واحد يحمل كماناً والآخر يحمل طبلاً وكبيرهم ترك يديه في جيبَي سترته الجلدية الحمراء... كيتو وماستي وبيرانا. استطعت تمييز العصبة على عين بيرانا اليمنى والضمادة البيضاء على أنف كيتو في ظلام الليل... كانوا مجتمعين سوية وينظرون حولهم بعدم اكتراثهم المعهود.

كدت أسألها:

- كيف تعرفينهم؟

لكن أيسون كانت قد رحلت... نعم... لقد اختفت ابنتي... تفحّصت الغرفة بنظراتي لكنها كانت فارغة... نظرت مجدّداً إلى الشارع لأجدها هناك مع الفتيان الثلاثة يمشون بخطى ثقيلة لكنها مصممة نحو الحشود المقتربة... إذا انخرطوا في الحشد فلن أجد ابنتي مجدّداً، لذا أسرعت عبر السلم الخشبي وحين خرجت من الباب وخزتني رائحة قوية... ربما رائحة طحالب متعفنة... رائحة كريهة لأشنيات متفسخة منذ آلاف السنين في مياه القرن الذهبي... رائحة قديمة للغاية ذكرتني بالعصور القديمة... رائحة حادّة كما لو أن هناك جداراً خفياً وقع في الشارع.

تجاهلتها وأسرعت لأمسك بابنتي التي كانت على وشك الانضمام إلى الحشد... كان بإمكاني رؤية كتفيها المستقيمتين وهي تمشي بثقة والفتيان على جانبيها. بعد بضع خطوات سأفقدها في الحشد الضخم، لذا ركضت وراءهم، وكلما ركضت زادت الرائحة ووجدت صعوبة في التنفّس. بدأ صدغاي ينبضان ورأسي يدور وسيطر عليّ شعور بالغثيان، لكنني تجاهلت كل ذلك فأنا لن أدع ابنتي تبتعد. حاولت أن أزيد من سرعتي فتعثّرت ووقعت على وجهي على الشارع المبلل.

رأيت قدمين حافيتين وحين رفعت نظري وجدت رجلاً بلونٍ أبيض يقف أمامي ويمد لي يده المعرورقة بأصابعها النحيلة والطويلة، فتناولتها ووقفت. كان وجهه شاحباً وعيناه واسعتين وشعره طويلاً ولحيته خفيفة.

قلت وقد التقت عيناي عينيه:

- ابنتي... أين هي؟

ابتسم ليضيء الليل.

- لا تقلق... أيسون معنا.

وهنا لاحظت ذلك الحشد الغريب وراءنا... أطفال ونساء صغار وكبار عاجزون ومتروكون، وكأن فناناً من العصور الوسطى قد رسمهم.

قلت وأنا أنظر إلى الرجل:

- من أنتَ؟ إلى أين ستذهب مع هؤلاء الناس؟

لم يكترث لإثارتي على الإطلاق وإنما وضع يده على كتفي وقال:

- نحن من لم يرقدوا بسلام.

كان يتكلم همساً... ظننت أنه كان خائفاً من أن يسمعه أحد لكن عينيه قالتا العكس، فلم يكن هناك أي ذرة خوف في وجهه.

قال بصوت هادئ كشخص تقبّل مصيره:

- نحن من قُتِلنا... نحن من سُرِقنا وسُلِبنا وطُرِدنا إلى المنفى... نحن العالقين في الذكريات... من خسرنا كل شيء... سنذهب سوية إلى حيث ننتمي.

لم أفهم ما قصده ولم أكترث... لقد أردت أيسون فحسب. صرخت وأنا أنظر إلى الحشد وراءه:

- أين ابنتي؟ ماذا فعلتم بها؟

قال مبتسماً بخجل:

- إنها واحدة منّا... إنها أيضاً واحدة من الأغنيات غير المكتملة...

انزعجت من حديثه عن أيسون وكأنه يحكم عليها، فصرخت وأنا أبعد يدي وكتفي عنه:

- هذا سخيف! ليس لك علاقة بابنتي. أين هي؟ أين أيسون؟

ظل وجهه هادئاً لكنه لم يعطِ أيّ تفسير ولم يقلْ أيّ كلمة تهدئني، وإنما حدّق بلطف وتعاطف وألم، فتجاهلته لأنني كنت أهدر وقتي وابنتي تبتعد عني مع كل لحظة تمر، وإذا انتظرت أكثر سيصبح مصيرها كمصير أولئك الفتيان الثلاثة، وستقع في شرك مباني هذا الحي القديم المليء بالآلام، في هذه الشوارع المظلمة والطرق المسدودة ذات الرائحة النتنة، وسأفقدها إلى الأبد. دفعت الرجل الذي لم يبدِ أيّ مقاومة وشققت طريقي باندفاع نحو الحشود التي أفسحت لي الطريق كما فعل الرجل الملتحي، فمشيت بينهم... وكالرجل الملتحي ذي اللون الأبيض ظهرت في أعينهم نظرة ملؤها الألم والتعاطف وحب الخير والحزن... لم أفهم إن كانوا مشفقين عليّ أم على أنفسهم، ما زاد من غضبي.

صرخت وأنا أدفعهم:

- ابتعدوا عن طريقي!

لكن لم تكن هناك أي حاجة لذلك فقبل أن ألمسهم كانوا يفترقون باحترام لينفتح أمامي طريق ضيّق يحفّه الناس على الجانبين. شعرت بالاختناق وعادت رائحة الجص الثقيلة فتقلص صدري بذلك الضغط المألوف وأسرعت للخروج من هذا الممر الضيّق بعيداً عن هذه الرائحة، وركضت لأعثر على ابنتي لكن الشيء نفسه حصل، فكلما ركضت كانت الرائحة تصبح أقوى ولم أعدْ أستطيع التنفّس وبدأ صدغاي ينبضان ورأسي يدور بينما كانت العيون من حولي تراقبني بشفقة حتى سقطت في البئر المظلمة مجدّداً.

صحوتُ على ندف الثلج المتساقطة على وجنتي، وحين فتحت عيناي استطعت رؤية الثلج على أهدابي فهمست بابتهاج:

- ثلج... إنها تثلج.

لكن فرحتي لم تستمر فقد تذكّرت أيسون التي لم أعثر عليها بعد. وحين وقفت اكتشفت أن الحشد اختفى وكذلك كيتو وماستي وبيرانا وابنتي لأبقى وحيداً في الشارع المنحدر. وبينما كنت أحدّق إلى السلالم المتداعية والطوب المتعفّن والخشب المحترق والنوافذ المظلمة سمعت صوتاً... ما هذا؟ الريح؟ لا... إنه يبدو كالماء... خرير نهر، وأخيراً رأيت أن المياه ترتفع في الشارع، حيث كان الناس، لتملأ الطوابق المنخفضة بالأمواج التي اندفعت محاولة ابتلاع المباني كلها... لقد فاض القرن الذهبي على دولابدير، وإذا استمر الأمر على هذا المنوال فستصبح تارلاباسي تحت الماء أيضاً وربما شارع الاستقلال وحتى تقسيم... هنا خطر ببالي السؤال نفسه... أين أيسون؟ هل انجرفت مع الطوفان؟ وبينما كنت أفكّر في الأمر لاحظت أن المياه تنصبغ باللون الأحمر... ربما يكون ذلك من التراب والصدأ في الشارع. كدت أتنهّد لكنني لاحظت النقاط الحمر على وجهي... هل هناك خطب في عينيّ؟ رمشت، لكن شيئاً لم يتغير وكأن هناك فراشات حمراً تغطي السماء لكنها لم تكن فراشات، وإنما ندف ثلج.

أحسست بذعري يتزايد لكنني استجمعت قواي وأقنعت نفسي أنه لا بد أن يكون هناك تفسير منطقي... إنها تمطر وحلاً... بسبب تأثير الريح على الوحل والرمال من حولنا... لا بد أن هذا هو السبب. فتحت راحة يدي للسماء محاولاً فهم الأمر، وحين سقطت الندف على يدي ذابت مخلفةً بقعاً حمراً... لم يكن احمرار الوحل وإنما أغمق... نوع مختلف من الاحمرار... اجتاحتني نوبة من الخوف... دم؟ تحوّل الثلج مطراً لتبدأ قطرات ضخمة بالتساقط عليّ بغزارة لكنها باللون نفسه... أحمر قانٍ. عيناي وشعري وملابسي كلها اغتسلت بالدم... جاهدت للابتعاد عن المادة الحمراء والهرب إلى أحد المباني القديمة لكنني لم أستطع الحركة، فقد كنت عالقاً في مكاني وكأنني واقف على قطران. نظرت إلى قدميّ ورأيت المياه ترتفع بسرعة فحاولت مجدّداً أن أهرب من المياه التي تبلّل أطراف أصابعي... لكن ذلك كان مستحيلاً ولم أستطع تحريك أطرافي. ارتفعت المياه إلى حنجرتي وذقني وحين وصلت إلى شفتيّ فاحت رائحة الجص مجدّداً من جسدي

ووجهي وشعري ونَفَسي وحتى أفكاري... فجأة أدركت أنني أصبحت ذلك النتن الفظيع فقد ملأت المياه الحمراء أنفي ولم يعد لديّ أي خيار سوى أن أصرخ رعباً.

استيقظت على صوت صراخي فجلست في السرير وشهقت طلباً للهواء... لقد كان واحداً من تلك الكوابيس التي تراودني أحياناً.. جلست بسكون حتى رجعت أتنفّس كالمعتاد، وحين استعدت اتزاني التفتّ لأنهض من السرير فرأيتها... الصورة المعلقة على الجدار في إطارها البني... كانت عينا أيسون البنيتان تحدّقان إليّ كما في الحلم وكأنها تسأل: "متى ستنتهي مشاكلكم أيها الأحياء؟".

خيال الروائي يستحق من ينصت إليه دائماً



سقط ظل الرجل الذي ينقر بلطف على نافذة السيارة على وجهي، وحين التفتُّ لأنظر إليه تجمد الدم في عروقي فقد وجدت انعكاس وجهي... ماذا يحدث؟ هل عاودتني كوابيس اليقظة؟ لم أستغرق كثيراً من الوقت قبل أن أدرك أنني كنت مخطئاً فقد كان الكاتب الغريب الأطوار واقفاً عند نافذة السيارة، فانزعجت من نفسي... لو أنني تناولت طعام الإفطار في البيت بدلاً من شطيرة الجبن والشاي في المركز لما التقيت هذا الفضولي.

قلت بتجهّم:

- نعم؟ ماذا يمكنني أن أفعل لك؟

أشار إلى النافذة ثم بدأ يبرم إصبعه وقال:

- افتح النافذة.

إذ لم يكن يسمعني. أظن أن هذا يعني أنه على الرغم من الحمام الدافئ والقهوة الثقيلة فإنني لم أصحُ بالكامل بعد، وهكذا أنزلت النافذة حتى نصفها.

- نعم... ما الأمر؟

وعلى الرغم من نكدي لم يبدُ عليه الانزعاج وقال بلباقة:

- أردت أن أسأل عن لقاحات باهتيار... ما هي اللقاحات التي أخذها؟

هنا شعرت بالخزي.

- لا أدري في الواقع... لا أظن أنه أخذ أي لقاحات. لقد كان ديمير يعتني به قبل أن يموت، ولم نأخذه إلى الطبيب البيطري منذ ذلك الحين.

هزّ رأسه وقال:

- حسناً... إن معرفة ذلك شيء جيد... في تلك الحالة سيبدؤون برنامجاً لكل شيء نقصه.

هنا سمعت نخير باهتيار حيث كان ينبح بصبر نافد وكأنه يقول: "أنا هنا أيضاً". فأنزلت الزجاج حتى النهاية.

- باهتيار! ماذا تفعل هنا؟

حيّاني بنباح أعلى فمددت يدي لأربت رأسه... كان وبره ناعماً وذيله يهتز بسرور... يبدو أن هذا الجار الذي أمقته قد اعتنى به جيداً.

قلت وأنا ألتفت إلى الكاتب:

- شكراً جزيلاً. لن أنسى لك هذا المعروف.

ومباشرة بدأ يتصرف كرجل عظيم.

- لا شيء يُذكر يا نيفزات بيك. ليس عليك شكري فكما قلت باهتيار صديقنا جميعاً. كنت أريد أن أزورك هذا المساء لكنك لم تكن هنا... أظن أنك كنت عند إفجينيا هانم...

حدّقت إلى الرجل الواقف أمامي على الرصيف وقلت:

- أنا آسف، لكن ماذا يهمك أين أمضي أمسياتي؟ سواء ذهبت إلى إفجينيا أو إلى صديق آخر... ما الفرق عندك؟

خطا للوراء بسرعة.

- أنا آسف... أرجوك، لا تفسر الأمور هكذا... لقد كنت أخمّن فحسب... بالطبع لا يوجد فرق عندي.

دائماً الأسلوب نفسه... أولاً يتدخّل وإن واجهه رد فعل قوي يتراجع، وإذا لم أبدِ أي رد فعل يغوص أعمق.

قلت بهدوء:

- اسمع... أنا لا أعرفك... ولم أقرأ أيّاً من كتبك... لا لأنني غير مهتم، فأنا أحب القصص البوليسية وأفكر بقراءة قصة بعد حلّ هذه القضية التي أعمل عليها، لكنني سأقدر لك إن ابتعدت عني قليلاً. أعلم أن نواياك طيبة وربما تكون بصدد

البحث عن مادة لكتاب أو الاهتمام بي لتخلق شخصية يمكن تصديقها، لكن هذا يزعجني. عليك أن تفهم أنني لا أحب هذا النوع من التصرّفات وأُفضّل العيش بهدوء وسلام...

أنصت باهتمام ثم قال بالكياسة نفسها:

- أنت محق في ما تقوله بالطبع... نعم... أنا مهتم بك من الناحية المهنية... لن أخفي عليك الأمر. لكنني أتعقبك لأجل روايتي... اهتمام أدبي بحت... لكن إنْ كان سيزعجك ذلك إلى هذه الدرجة فأعدك أن أدعك وشأنك... أياً يكن الأمر سننتقل من هنا عما قريب ونعود إلى شيشلي.

رأى في عينيّ نظرة الشك فقال:

- لا تقلق... لديّ هدية لك لأصلح ما فات... ستحصل عليها اليوم أو غداً.

بصراحة لم أكن أريد أن أسامحه ولم أكن أريد هدية، وإنما يكفيني أن يتركني وشأني. لكنني قلت لئلا أبدو فظّاً:

- شكراً... وأتمنى لك كل الخير.

ثم رفعت زجاج نافذة سيارتي القديمة المخلصة، وأدرت المفتاح، وضغطت على دواسة الوقود. لكنه طرق على الزجاج مجدّداً ففتحت النافذة قبل أن يومئ لي بإصبعه.

انحنى للداخل وهمس:

- آسف... قد تنزعج مجدّداً لكن هذا آخر شيء سأقوله... في مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير حذّره عرّاف قائلاً: "احذرْ من أفكار مارس أيها القيصر". وكما تعلم فقد مات القيصر طعناً في مجلس الشيوخ في 15 آذار/ مارس... حسناً... أشعر برغبة ملحة في أن أقول لك: «احذر من الثالث من كانون الثاني/ يناير».

كان ما قاله في قمة السخف لدرجة أنني انفجرت ضاحكاً.

- ومتى يكون الثالث من كانون الثاني/ يناير؟

- اليوم لسوء الحظ.

لا... لم يكن يمزح... لقد كان يعني ما يقول.

- احذر من الثالث من كانون الثاني/ يناير يا نيفزات بيك... أرجوك لا تسألني ما

أعنيه بذلك ولا تهتم بمصدر معلوماتي لكن لا تتجاهل التحذير، فخيال الروائي يستحق من ينصت إليه دائماً.

وحين أنهى كلامه مشى مبتعداً مع باهتيار دون أن ينتظر ردّي.

لا بدّ أنه مجنون... ربما يسعى وراء لعبة جديدة ليقوي علاقته بي... لا... هذا الكاتب لن يتركني وشأني... كان عليّ أن أكون أشدّ قسوة... كان ينبغي لي أن أحذّره بصراحة... "احذر الثالث من كانون الثاني/ يناير"... ساعدني يا الله.

ضغطت على دوّاسة الوقود فانطلقت صديقتي العجوز المتعبة، وفجأة اكفهرّ الجو، وتلبّدت السماء المليئة بضوء الشمس منذ أن فتحت عينيّ بغيوم سوداء قاتمة كما لو أنها تنذر بكارثة محدقة. تذكرت مسرحيات شكسبير... كيف تضرب عاصفة دون أي سبب منذرة بمصيبة وشيكة... ارتعشت ثم شتمت نفسي لأنني سمحت لذلك الكاتب غريب الأطوار أن يؤثر فيّ. لا بدّ أن الرجل بدأ يفقد صوابه ببطء. انعطفت من الشوارع الخلفية لبالات إلى الطريق الرئيسي على القرن الذهبي ثم انحنيت للأمام ونظرت إلى السماء عبر الزجاج الأمامي مجدّداً... لم يكن هناك أي مطر لكن الشمس شبه المخفية وراء الغيوم الزرقاء القاتمة قد فقدت لونها الذهبي وأصبحت نقطة حمراء كبيرة... من أين جاءني هذا الكاتب منذ الصباح الباكر؟ لقد دمّر الرجل هدوء فكري... لا... لن أستطيع الاسترخاء... أخرجت هاتفي وضغطت على رقم علي.

- صباح الخير يا حضرة الضابط.
- صباح الخير يا علي... ما الأخبار؟
- إننا نوضّب أغراضنا وسنغادر خلال دقيقة... لقد كنّا نقرأ نتائج الفحص لسكين حريم سليمان... لحظة يا حضرة الضابط. ماذا قلتِ يا زينب؟ لا... لا يوجد على النصل أي آثار من دم الضحية أو غيره... لقد كانت نظيفة...

بصراحة... كنت سعيداً لسماعي أن سليمان لم يكن القاتل... قد لا يكون منه أي نفع في المجتمع لكنني لا أريد أن أراه يتعفّن في السجن.

- جيّد... ما الوضع في تارلاباسي؟ هل من أخبار؟
- إنه هادئ... حتى الآن لم تصلنا أي تقارير عن مشاجرات أو إزعاجات.

شكرت نازلي وسيفان في قلبي كما أن ابتعاد بلاك نظام وأبناء إخوته سيساعد على عودة الأمور إلى وضعها الطبيعي.

سأل علي:

- بعد أن نمر بالفندق هل ينبغي لنا اعتقال جيل يا حضرة الضابط؟ المرأة مشتبه بها.
- هذا صحيح... وحتى لو لم يتعرّف إليها موظف الاستقبال فما زال عليها تفسير قضية المائتي ألف ليرة. لكن المرأة كانت في طريقها إلى أنقرة البارحة... أنسيت؟
- أوه... هذا صحيح. كان من المفترض أن تعود إلى إسطنبول في وقت متأخّر اليوم، أي أنه ينبغي لها القدوم إلى هنا هذا المساء أو في وقت مبكر غداً...
- لا تقلق بهذا الشأن... اذهب إلى الفندق لنرى ماذا سيقول الرجل ثم سنلتقي في المركز بعد ذلك... هل أخذت معك صورة إحسان ليراها موظف الاستقبال؟
- نعم يا حضرة الضابط... لقد سحبناها من ملفه... الصورة حديثة أي إن كان هو من تكلّم مع طارق فسيتعرف إليه الموظف فوراً.
- حسناً... حظّاً موفقاً.
- شكراً يا حضرة الضابط...

مهما تكفهر السماء فلن يحدث أي سوء مما حذّر منه الكاتب نذير الشؤوم. وضعت هاتفي في جيبي وشغلت المذياع لتمتلئ السيارة بموسيقى بهيجة ويتبدّد كل تشاؤم. نقرت على مقود السيارة وبدأت أنسجم مع الموسيقى... كانت الأغاني لموسيقيين عظماء من الأقليات... لا بدّ أن البرنامج مخصّص للملحّنين من الأقليات... الأقليات... تذكرت ما أخبرتني به فوفو الليلة الماضية: "لقد طردونا لكن ماذا جنوا من ذلك؟ هل كانوا سعداء للغاية؟ هل تقدم البلد وازدهرت المدينة؟ على العكس... لقد أصبحت أسوأ، فقد أطفأت الإمبراطورية العظيمة الألوان الثقافية واحداً تلو آخر... موسيقانا... أدبنا... مطابخنا... عماراتنا... ملابسنا... كلماتنا... لقد تهاوت جميع مكونات حياتنا وأصبحت حياتنا أكثر فقراً... يونانيو بالات... جيراننا اليهود... صداقاتنا المتبادلة... محادثاتنا... وذلك الظل الذي

يظهر أحياناً على وجوههم... كل ذلك بسبب مشاعر رجال كالمحقّق الذي قال: "أنا اليوم لست شرطياً وإنما أنا وطني بضمير وطني". ربما كان من الخطأ لومه فهو قد تأثّر بالسم العنصري للسياسيين ورؤساء الحكومة...». بدأت أغنية أخرى... وبينما كنت أنصت منطرباً بدأ هاتفي يرنّ بتطفّل... كان كمال المتصل. كنت قد ظننت أنه انزعج مني فسعدت حين اكتشفت أنه لا يزال يتصل بي.

- أهلاً يا كمال!
- الحمد لله أني وصلت إليك يا نيفزات.

كانت تبدو عليه العجلة ولم يمنحني فرصة لأسأله قبل أن أبدأ.

- سيكون هناك قتال... سيقتل أحدهما الآخر.

كان يتكلم بسرعة كبيرة فلم أفهم ما يقوله.

- أين القتال؟ من سيقتل من؟
- إحسان وبلاك نظام. لقد اكتشف المجنون أن زوجته التقت إحسان فاتصل بإحسان وهو بحالة جنونية.

سألته متفاجئاً:

- كيف علم أنهما التقيا؟
- ربما يكون مصفّف الشعر تيبيرنوس هو من أخبره فقد التقت سيليم إحسان عنده البارحة... تيبيرنوس ثرثار ووغد وهو مقرّب من نظام. حين سمع نظام أن زوجته الجديدة وعدوه القديم التقيا جن جنونه واتصل بإحسان مباشرة وقال له:
- إن كانت لديك ذرّة رجولة سأنتظرك في المقهى في تارلاباسي.

لقد حاول إحسان التملّص لكن خصمه لم يدعه وإنما وبّخه وقال:

- إن لم تأتِ إلى هنا فسألبسك تنورة وأعانقك بدلاً من سيليم الليلة.

لا بدّ أن الغضب أعمى نظام ولم يعد يكترث لشيء... لا لأصدقاء فيدان ولا لتحذيراتي.

سألته:

- وهل وافق إحسان على الذهاب إلى هناك؟

- وكيف يمكنه ألاّ يذهب؟ إن لم يذهب فلن يعود بإمكانه إظهار وجهه مجدّداً... كما أن نظام لن يتركه وشأنه بعد اليوم وسيظل يلاحقه حتى يسويا مشاكلهما، وهكذا سيفقد إحسان شرفه وحياته.

يا إلهي... كنا منشغلين بالناشطين الشباب فبدأ زعماء المافيا الشجار بعضهم مع بعض.

- إذن متى يفترض بهما أن يلتقيا؟
- كان إحسان على وشك مغادرة النادي... سيبدأ إطلاق النار خلال أقل من نصف ساعة. لقد طلبت من بعض الرجال ذوي النفوذ الذهاب إلى هناك فنظام سيستمع لهم لكنهم لن يصلوا فوراً... إذن الموضوع متوقف عليّ وعليك يا نيفزات. إن استطعت تأجيل هذه المواجهة فسنوقف سَفك الدماء أيضاً.

كان يتوسّل إليّ.

- حسناً... أنا قريب من هناك في كل الأحوال... سأصل إلى تارلاباسي خلال خمس دقائق.
- الحمد لله. سيتوقّفا إن وصلتَ إلى هناك كما أنني سأتدخل لنمنع وقوع أي قتلى.
- موافق... أنا في طريقي.

وأغلقت الخط.

وبينما كنت أتّصل بعلي مجدّداً نظرت إلى السماء فوجدت الشمس حمراء كالدم والغيوم داكنة كأنها تحذرني من الكارثة الوشيكة.

لقد ختم الشيطان على تارلاباسي



بينما كنت أنعطف عند الزاوية رأيت دايس إحسان وقد فتح سترته البنيّة ووضع يده اليمنى في جيبه. كان يمشي بتصميم إلى جانب أكثر رجاله الموثوقين... فلي نيسمي في حين تبعه الحراس الشخصيون الثلاثة الذين التقيتهم في نادي تارلاباسي على بعد خطوتين وقد فتحوا ستراتهم ووضع كل واحد منهم يده اليمنى في جيبه. لستَ بحاجة لأن تكون مريضاً نفسياً حتى تفهم ماذا يحملون في أيديهم. حمدت الله أنني وصلت إلى هناك قبل نشوب القتال فقد علقت في أزمة السير في تيبيباسي وفقدت الأمل، لكن لحسن الحظ وبمعجزة خلا الشارع فجأة. لم يكن مرجّحاً أن يصل علي وزينب قبلي فقد وصلا إلى إلماداغ ثم اتصلا بي وأخبراني بذلك، كما أنه لا يمكنني الاعتماد على فرق الشرطة التي أبلغناها للتوّ فهي ستصل في النهاية لكن من المهم أن يصلوا قبل أن تنطلق المسدسات ويهدر الدم. كل دقيقة تمر كانت تقوّي يد ملك الموت...

ضغطت بقوة على دوّاسة الوقود واتجهت إلى شارع كاليونكوكولوغو من وراء القنصلية البريطانية وتجاهلت اعتراضات بائع الخضار في الشارع وتركت سيارتي أمام متجره. وبينما كان الرجل يتذمّر أبرزت شارتي وقلت: «اهدأ... سأعود على الفور.» واندفعت إلى الشارع المجاور لدار العبادة سانت قسطنطين. كنت آمل أن أصل إلى مقهى نظام قبل أن تنطلق المسدسات فكل ثانية تمر مهمة. وصلت إلى الشارع فوراً لأجد أن الأمور سارت كما خطّطت لها. كنت أدخل الشارع المفتوح على الساحة، وفجأة وقف أمامي ذلك الرجل المخبول المسكين... نعم...

ديوجينز... الذي كان اسمه الحقيقي أندونيس. حين رآني مدّ ذراعيه وحاول منعي من المرور وقال مذعوراً:

- لا تذهب! لا تذهب. سيقتلونك. لقد قتلوهم وسيقتلونك.

كان شعره أشعث وعيناه يملؤهما الرعب... هل تأخرت؟ هل بدأ القتال وعلق العجوز المسكين في الوسط؟ لكنني كنت لأسمع أصوات إطلاق الرصاص في تلك الحالة.

- من؟ من سيقتلني؟

ودون أن يرفع رأسه أشار إلى الساحة بعينيه.

- ذلك الشيطان... ذلك الشيطان المطرود من الجنة... إنه ينتظرك في قلب الشارع... ألا تفهم؟ لقد جاء الشيطان إلى الشارع وتحرّر الشر... الذنوب محيطة بنا... اهربْ... لا تدخل الساحة مهما يحصل.

أمسكت بذراعيه وسحبتهما للأسْفل ليهدأ وقلت مبتسماً لأطمئنه:

- لن يحدث أي سوء. اليوم أنا مجرّد شرطي... أتفهم؟ شرطي أخدم المواطنين.

نظر إليّ بيأس وقال:

- لم يعد يهم. سواء أكنتَ شرطياً أو شخصاً عادياً لقد فات الأوان... هذه المنطقة ملعونة... لقد ختم الشيطان على تارلاباسي... مهما يحصل لا تذهب إلى هناك...

تساءلت أيّ مالك متجر متطفل أو مراهق كريه أخاف المسكين، لكن لم يكن لديّ وقت للتعامل مع ذلك الأمر، فقلت محاولاً تهدئته:

- لا تقلق... لا أحد سيقتلني. معي مسدس وسيصل رجال الشرطة الآخرون إلى هنا... هيّا... اذهبْ إلى دار العبادة الآن يا أندونيس... سنجلس ونتكلم فيما بعد...

تردّد وكأنه وجد ما قلته غريباً.

- أندونيس؟ لا... لقد رحل أندونيس. أخذ أندونيس زوجته وابنته ورحل إلى أثينا... أنا لست أندونيس... أنا ديوجينز... أبحث عن النور...

ومشى ببطء وهو يقول:

- أنت مخطئ... أنا لست أندونيس. كانت لديه زوجة وابنة، وقد شهّروا بزوجته. لكن أندونيس كان رجلاً طيباً ولم ينصت لكل الشائعات، وأخذ زوجته وابنته وذهب إلى أثينا. كان أندونيس صديقي وعشنا في المنزل نفسه وذهبنا إلى المدرسة نفسها. إنه يرسل لي أحياناً رسائل من أثينا... لا... أنا لست أندونيس... لم يكن لديّ قط زوجة أو طفل. لقد رحلوا ثلاثتهم...

تركت الرجل المسكين مع تعذيب الضمير وانطلقت، وحين انعطفت عند الزاوية ظهرت الساحة أمامي، وهنا أدركت أن جميع وجوه التحقيق بهذه الجريمة هنا... منزل إنجين على يميني في كادين سيكمازي، ومقهى نظام على بعد مائة متر في آخر الطريق، ومركز فرحات سيراج الثقافي في أعلى الشارع المؤدي إلى الساحة. وقد يكون لإحسان بيت أو مبنى اشتراه هنا وتساءلت إن كنت سأكشف عن غموض الأحداث هنا... كان مستحيلاً فهم ذلك من وجه إحسان وهو يقترب من عدوه خطوة تلو أخرى... أعترف أنه كان يتمتع بشجاعة أكثر مما تخيلت... ربما يكون لكلماتي تأثير عليه «نظام يحب سيليم أكثر منك وهو أشجع منك ومشاعره أقوى» لكن لا أحد يذهب إلى حتفه بقدميه لأجل مشاعر ضابط محقّق تعرف عليه للتوّ... الكلام عن سيليم منحه الجرأة ولم يحتمل فكرة أن يكون جباناً في عيني المرأة التي أحبته. كانت مشيته جريئة ورأسه مرفوعاً وعيناه مثبتتين على نقطة أمامه، ثم رأيت نظام واقفاً في المكان الذي يحدق إليه إحسان أمام المقهى لكنه لم يرني لأن عينيه كانتا مركزتين على أعدائه، وكان ابنا أخيه المفضّلان إلى جانبه... قدرت الذي تم إطلاق سراحه الليلة الماضية، ومدحت... غريب... ألم يحضر أحد من أبناء إخوته الآخرين؟ أكان ذلك لأنه أراد قتالاً عادلاً؟ شككت في ذلك، فوفقاً لمعرفتي بنظام كان لا يكترث سوى بالانتصار دون أن يهتم بالكيفية. للحظة فكّرت بإيجابية أنه لا يريد القتال على الإطلاق وإنما كان يحاول إخافة إحسان ويطلب منه أن يبقى بعيداً عن زوجته، لكنني سرعان ما تخطّيت تلك الفكرة الغبية، فهذه الساحة لن تشهد أي مصالحة دون تدخّل خارجي. ووجدت من الغريب أنني لم أَرَ كمال. أما كان ينبغي له القدوم إلى هنا قبلي بوقت طويل؟ وهنا أدركت أنه لا يوجد أحد في الأرجاء سوى هؤلاء الأشخاص الثمانية الذين لن يشعروا بأي تأنيب

للضمير إن قطّعوا بعضهم بعضاً إرباً.

كانت أنوار السوق مطفأة ومتجر الخردوات عند الزاوية ترك بضائعه معروضة في الخارج وأغلق القضبان الحديدية، أما النجّار فقد أغلق بوابته، وتلاشى الحلاّق في الهواء، ويبدو أن بائع تذاكر حافلة المدينة لم يفتح اليوم على الإطلاق. ولم يكن هناك سوى مقهى نظام مفتوحاً حيث دعا إحسان إليه، لكنه اختار أن ينتظر عدوه في الخارج لسبب من الأسباب.

كان ينتظر خصمه بثقة وثبات ويداه مشبوكين وراء ظهره وساقاه متباعدين، ولم يكن بينهما أكثر من عشرين متراً في حين أن هناك سبعين أو ثمانين متراً بيني وبين المقهى. أخرجت مسدسي وحشوته ثم أدخلت يدي اليمنى في جيب سترتي كدايس إحسان... في البداية سيكون هناك مقدمة "أنت فعلت كذا وأنا فعلت كذا" ومثل هذه الأمور، وبعد تلك المشاحنة سيتوضّح إن كانت العداوة ستنتهي بمصالحة أو معركة، وحينها علينا التدخُّل. لكن كمال لم يكن ظاهراً! لو لم أكن أعرفه لقلت إنه جبن بعد أن اتصل بي لكنه لا يتصرّف بهذا الجبن مطلقاً ولا يهرب من أي قتال حتى ولو كانت نهايته الموت... ماذا عساي أن أفعل؟ بدونه يبدو أنني سأحل كل هذه المسألة بنفسي. سرّعت خطاي لكن إحسان ونظام كانا قد أصبحا وجهاً لوجه وعلى بعد ثلاثة أو أربعة أمتار أحدهما من الآخر في حين وقف رجالهما وراءهما. خطا إحسان خطوة للأمام ويده اليمنى لا تزال في جيبه وقال بصوت جهوري:

- لقد طلبتَ مني أن آتي... ها أنا ذا... أنا هنا أمامك... قُلْ ما لديك.

تفحّص نظام دايس بعناية كأنه يراه للمرة الأولى... كما في فيلم بطيء... لكن يديه ظلتا وراءه ولم يكن مكترثاً لوقوف خصمه أمامه بل سأل بهدوء وثقة:

- ألا تخجل من نفسك أنك تعبث بشرف رجل آخر؟ كيف التقيت زوجتي؟ أهكذا يتصرّف الرجال... أو حتى البشر؟

لم يبعد إحسان ناظريه عن عدوه لحظة وأجاب بصوت تملؤه الرغبة بالانتقام:

- زوجتك تحبني... أنا حبّها الأول...

كانت هذه الكلمات التي قضت على هدوء أعصاب نظام فصرخ وهو يشير

بإصبعه للأعلى:

- اخرسْ. أنت قذر كاذب، لا تشوّه سمعة زوجتي.

أقلقت حركة نظام إحسان أيضاً، فقد تلاشى التصميم في عينيه لكنه لم يتراجع وإنما صرخ:

- في الواقع أنت الكاذب. لقد خدعتها وأغويتها حتى وقعت في شباكك... سيليم لم ترغب بك مطلقاً.

لم يكترث نظام وإنما خطا خطوة أخرى نحو إحسان وقال:

- إنها زوجتي وستظل زوجتي في هذا العالم وفي العالم الآخر، لكنك ارتكبت جريمة وذنباً وعبثت بشرف غيرك وستدفع الثمن باهظاً... ستدفع ثمن ذنوبك الآن ولن أسامحك في العالم الآخر. لا أدري متى سيحصل ذلك، لكنني حين أصل إلى هناك سأراك تحترق في أسفل مكان في الجحيم.

نظر إحسان إليه بنقمة.

- بالتأكيد سنلتقي هناك لكنك ستصل قبلي.

وأخرج يده من جيبه وأشهر مسدساً كبيراً في وجه نظام وقال:

- هيا... أكمل.

بدأت الأمور تخرج عن السيطرة فسحبت مسدسي وصرخت:

- توقفْ! توقفْ يا إحسان! إياك أن تفعل!

التفت المتحاربان لينظرا إليّ وقد بدت نظرة الصدمة نفسها في عينيهما كما وقف الجميع جامدين ثم تكلّم نظام أولاً:

- ماذا تفعل هنا يا حضرة الضابط؟

لم يبدُ قلقاً من المسدس المصوّب نحوه وإنما كان يشتكي من أن وجودي هنا قد قطع عمله.

- حسناً يا نظام... حسناً... اهدؤوا يا أصدقاء. ضَعْ مسدسك جانباً يا إحسان ودعنا نجلس ونتناقش بإنسانية.

أشار إحسان إلى نظام بمسدسه وقال:

- هذا الرجل لا يفهم شيئاً عن الإنسانية يا حضرة الضابط... ينبغي أن تبقى بعيداً

فاليوم سنحل المشكلة... إما أنا وإما هو...

استمر نظام بالتحديق إليّ وكأنه لم يسمعه.

- ذلك المغفل كمال اتصل بك... أليس كذلك؟

لماذا نظام منزعج للغاية من وجودي هنا؟ فهناك خمسة رجال مقابله ولن يحتمل الأمر أكثر من ثوانٍ قبل أن يضغط إحسان على الزناد. لكن لم يكن هناك أي أثر للخوف على وجهه وإنما اكتفى بهز رأسه بيأس وقال:

- ذلك الكلب محقّ... سنحل الموضوع اليوم... إما هو وإما أنا.

وأشار بإصبعه. وحينها انطلق المسدس بطلقتين متتابعتين، وشاهدت جسد إحسان الطويل والنحيل يهتز... لا، لم يكن مسدسه الذي انطلق إذ لم تسنح له الفرصة، وحين سقط على ركبتيه التفت لينظر إلى أقرب رجل إليه... فلي نيسمي... في هذه اللحظة رأيت المسدس في يد ذلك القزم. وما صدمني أكثر هم الحراس الشخصيون الثلاثة الآخرون الذين وقفوا هناك بصمت يشاهدونه ينهار على الأرض وكأنه ليس رئيسهم الذي أُطلِق الرصاص عليه. لقد كان إحسان ضحية مخططٍ شنيع... شرك قذر نصبه رجاله... لا شك في أنهم هم الذين وضعوا المسدس غير المرخّص أيضاً وربما يكون فلي نيسمي نفسه، وقد يكون هو من أخبر نظام في اليوم السابق لأنه كان يعلم بشأن لقاء رئيسه سيليم في صالون تيبيرنوس للحلاقة... دايس المسكين... النظرة التي نظر بها إلى نيسمي الذي وثق به كأخيه وهو يشتمه مع اقتراب الموت، وبينما كان ينظر إليه فهم كل القصة... كان بلاك نظام قد اشترى كل رجاله.

قلت مصوِّباً مسدسي إلى نيسمي:

- أنزل مسدسك... ألقِهِ.

لم يعرف الخائن ماذا يفعل فالتفت ونظر إلى رئيسه ليفعل ما سيطلبه منه نظام لكن الأمور لم تسر على هذا المنوال فقد صدر صوت قوي إذ إن إحسان فاجأنا وضغط على الزناد مجدّداً ومجدّداً بكل ما تبقى لديه من قوة وغضب ليطير جسد فلي نيسمي الصغير إلى الوراء تحت تأثير وابل الرصاص الذي يصيبه. اندفع نظام إلى الأمام وركل ظهر دايس فصرخت:

- توقفْ! توقفْ يا نظام!

التفت ونظر إليّ بكراهية ثم مد يده وأخرج مسدسه. لن تسنح لي أي فرصة أخرى لأطلق النار عليه. وكنت مستعداً للضغط على الزناد حين شعرت وكأن سيارة صدمتني، فانحنيت إلى الأمام وقد بدأ كل شيء حولي يدور، وأظلم العالم ثم سقطت على ركبتيّ كإحسان. لكنني كنت أعاني صعوبة في إبقاء رأسي مرفوعاً ولم أستطع البقاء هكذا لمدة طويلة، فتهاويت على الأرض وفتحت عينيّ وبقيت قادراً على رؤية ما يحدث. لم يعد نظام يهدر مزيداً من وقته عليّ وإنما خطا خطوتين نحو إحسان وانحنى على خصمه ونظر في عينيه وقال:

- لقد عشت بشرف بلاك نظام وستموت.

وضغط على الزناد ثلاث مرات أخرى فرأيت جمجمة إحسان تتهشّم والدم يتناثر على يد نظام الممسكة بالمسدس ويلونها بالأحمر. حاولت النهوض لكن قدماً كبيرة داست على وجهي... حذاء ضخم ملطخ أسفله بالوحل ضرب بخدي الأيمن، فنظرت بازدراء إلى الوجه... كان الشاب واقفاً بابتسامة قذرة... إنه واحد من أبناء إخوة نظام القذرين الذين شاهدتهم الليلة الماضية في أوكاكباسي. يبدو أنه رآني حين دخلت الساحة للمرة الأولى. وفجأة أعاق وجه نظام المقيت منظر الشاب الذي استدرجني إلى هذا الفخ حيث انحنى على ركبتيه ووضع وجهه القبيح فوق وجهي وقال:

- ما كان يفترض بك القدوم إلى هنا... لماذا جئت يا حضرة الضابط؟

طغت رائحة السجائر المنبعثة من فم نظام على رائحة الدم وقال:

- صدقني أنني أحببتك، ففيك شيء لم أره لدى رجال الشرطة الآخرين.

لم أكترث لشهادته فقد أصبح الحذاء أثقل تدريجاً.

- لكنني مضطر لقتلك، فقد رأيتني أطلق النار على إحسان. كنت لأتركك لو كنت أعلم أنني سأحل هذه المشكلة برشوة...

نقل مسدسه إلى يده اليسرى وأخرج علبة السجائر الفضية وسحب منها سيجارة، فانحنى ابن أخيه وأشعلها له وهو يضغط بقوة أكبر على وجهي لأشعر بعظامي تتكسر. أخذ نظام نَفَساً عميقاً من سيجارته وسأل بينما كان ينفث الدخان

من أنفه:

- ما رأيك يا حضرة الضابط؟ المال ليس كافياً ليجعلك ترى بطريقة مختلفة... أليس كذلك؟ لن تنسى ما رأيت... أليس كذلك؟ لا، لن تنسى ولن تتنازل وتكذب...

أخذ نَفَساً آخر من سيجارته وتراقص الدخان في الساحة الصغيرة مجدّداً ثم نظر إليّ بندم وأعاد سيجارته إلى فمه وأمسك بالمسدس بيده اليمنى لترن كلمات ذلك الكاتب الغريب الأطوار في أذنيّ:

- احذر من الثالث من كانون الثاني/يناير يا نيفزات بيك!

هل كان محقاً؟ أيمكن أن يكون علم أنني سأموت؟ لم أكترث بشأن الموت بقدر ما كنت منزعجاً من كون ذلك الكاتب اللعين محقّاً.

أكمل الرجل المتوحش:

- ما من مغزى من فضح الأمر يا حضرة الضابط... الوداع...

وفي محاولةٍ أخيرة نظرت إلى مسدسي المرمي على بعد متر مني. لم يكن من الممكن أن أصل إليه وذلك الرجل الضخم واقف فوقي، وفي تلك اللحظة رأيت ظلالاً قادمة من الشارع الذي جئت منه للتوّ.

- أليس ذلك الضابط المحقّق نيفزات يا رجل؟

هل المتكلم كيتو أم بيرانا؟ كان رأسي مشوّشاً فلم أستطع معرفة ذلك.

- تباً! ماذا تفعلان يا شباب؟

رأى نظام الصبية أيضاً فالتفت إلى أبناء إخوته وقال:

- ماذا يفعل أولئك الأوغاد الصغار هنا؟ أهكذا تراقبون الشارع؟

كان أبناء إخوته يتنحنحون ويتلعثمون ليصلوا إلى تفسير. لكن بيرانا لم يمنحهم الفرصة وصرخ:

- دعوا الضابط وشأنه!

جاء صوته حادّاً. وعلى الرغم من أنه لم يكن لديّ أيّ أمل في النجاة لكنني سمعت فجأة صوت صفير في الساحة وانطلق طائر صغير في السماء ليحطّ على شعر نظام ثم فاحت رائحة المخدّرات وبعدها ظهر وميض قوي ليشتعل زعيم

المافيا أمام عيني ويمتلئ الجو برائحة حريق القماش واللحم والشعر... نعم... لقد انتشرت النار التي بدأت في شعره إلى جسده كله بطرفة عين. نظرت ورأيت بيرانا وقد وضع سترته الحمراء على ظهره وأطبق يده اليمنى وهو يركض نحوي لإنقاذي ووراءه كيتو، أما ماستي فكان في النهاية كالمعتاد. لكن الفتيان لم يتمكّنوا من الاقتراب سوى بضع خطوات لأن هذا ما استغرقه التوأم ليتخطّيا صدمة رؤية عمهما يشتعل، فقد أشهر قدرت ومدحت مسدسيهما وبدأا يطلقان النار بغضب... كان بيرانا أول من وقع ثم تلاه كيتو، لكن ماستي استطاع أن يرمي نفسه وراء باب المبنى المجاور له. ولحسن الحظ عاد ابن الأخ الواقف فوقي إلى رشده وأزال قدمه عن وجهي وخلع سترته وركض ليطفئ عمه فتناولت مسدسي بسرعة وضغطت على الزناد دون سابق إنذار، فسقط قدرت أولاً ثم مدحت. وحين رأى ابن الأخ الثالث خطأه ترك عمه وحاول الوصول إلى مسدسه، لكنني هززت رأسي من مكاني على الأرض وقلت:

- لا تفكرْ في الأمر!

وحين لم يعرف ماذا يفعل نظر إلى عمه الذي سقط على الأرض مشتعلاً فصرخت:

- انزلْ إلى الأرض! انزلْ بسرعة!

لم أكن أتكلّم معهم لكن حراس إحسان الشخصيين الثلاثة الذين كانت الصدمة مسيطرة عليهم رموا مسدساتهم وانبطحوا مع ابن الأخ الثالث، فنهضت متّكئاً على يدي اليسرى.

حين انبطح الحراس الثلاثة ظهر جسد نازلي الضخم وهي تحمل عصا بيدها وسيفان وراءها وقد رفع المقعد الذي كان يجلس عليه في المركز في الهواء وكأنه سيلقيه فوق رأس شخص ما. أما صبي الشاي ميمو فقد وقف على بعد بضع خطوات وراءهما حاملاً سكيناً.

سألتني نازلي وهي تقترب:

- هل أنت بخير يا نيفزات بيك؟

كان رأسي يدور وشعرت بالغثيان لكنني تجاهلت الأمر.

- أنا بخير... أنا بخير يا نازلي هانم.

والتفتُّ إلى حيث سقط بيرانا وكيتو وقلت:

- لكن الفتيان...

تبعت نازلي نظراتي وانقبض وجهها ثم سقطت العصا من يدها وقالت:

- أوه! أوه لا! الفتيان...

كان مشهداً مثيراً للشفقة فقد سقط بيرانا على جانبه الأيسر وكأن سترته الجلدية الحمراء تحولت إلى دم انتشر ببطء على رصيف الساحة الصغيرة. لا بدّ أنه مات قبل أن يقع على الأرض وربما من الرصاصة الأولى. أما كيتو فلم يبدُ منه سوى شعره المتجعّد وقد استلقى جسده فوق جسد صديقه... على ساق بيرانا اليمنى وكأنه وجد لنفسه وسادة مريحة وغطّ في النوم. أما وضعية ماستي فكانت الأكثر إثارة للحزن... لا... لم يكن مصاباً بالرصاص، ولله الحمد، وإنما وقف هناك يحدق بذهول إلى جثتي صديقيه.

سأترك لكم أيها الرجال أن تربطوا بين الموت والحب



تحت الضوء الخافت لغرفة الاستجواب كان رأسي لا يزال يدور حين جلست جيل على مقعد قبالتي. كان الولدان يخافان أن يكون الوضع أسوأ، فقد رأت زينب أنني ما زلت متعباً وخافت من أن أكون مصاباً بنزيف داخلي في الدماغ، وأصرّت على أن أبقى تلك الليلة تحت المراقبة. في حين ألقى علي اللوم على نفسه في ما حصل لدرجة أنني كدت أقتنع أنه الملام، ولحسن الحظ تلاشى الغثيان بحلول الظلام وإلا كانوا سيضعونني في السرير المجاور لسرير كمال... نعم... الرجل القوي الأنيق كان شجاعاً... لقد تصرّف كما توقعت ولم يهرب، لكن جرمه الوحيد هو أنه وصل إلى المقهى قبلي، وكان نظام مستعداً لحل مشكلة دايس من جذورها. حين رأى كمال خشي منه وأطلق عليه ابنَي أخيه التوأم، ولم تتسنّ للرجل العجوز الفرصة ليسحب مسدسه إذ هاجمه الشابان بعنف على الرغم من كونه بعمر والدهما ولم يتركاه حتى فقد وعيه. لقد وجدنا كمال في الخزانة بعد أن انتهى كل شيء وقد انكسرت اثنتان من أسنانه وثلاثة أضلاع على الجانب الأيمن، وحين رأى الطبيب أن وضعه خطير طلب صورة شعاعية طبقية محورية جاءت نتيجتها سليمة لحسن الحظ، فأعلن الطبيب أن حالته ليست حرجة وأنه بمجرّد الراحة في السرير سيتعافى خلال أسبوع. لكن ما أثّر فيّ حقاً هو كلمات كمال حين استيقظ:

– لقد تأخرتَ كثيراً يا نيفزات.

وبالطبع لم أكن الوحيد الذي تأخّر فعلي وزينب وصلا بعد دقائق من توقف إطلاق النار وتبعهما رجال فرق الشرطة ومن بينهم سامي وزينال اللذان رأيناهما يرشونهما ليلة رأس السنة. كانا يحدّقان إلى الجثث على الأرض في ذعر فاثنان من الرجال الذين يرشوهم بانتظام قد رحلا. كان القلق يعلو وجهَي الشرطيين وخاصة عند رؤية جسد نظام المحترق، وكانا غارقَين في التفكير إن كان ذلك سيجلب لهما المتاعب، لكنهما لم يجرؤا على الاقتراب مني.

كان نظام قد وزّع أبناء إخوته بدهاء على جميع مداخل الشوارع وتمكّنا من القبض على تسعة عشر شخصاً منهم دفعة واحدة. فبعد أن اشترى فلي نيسمي ورجال دايس الثلاثة الآخرين وثق بنفسه حتى أنه لم يطلب منهم أن يبقوا معه وفكر أنه سيدعوهم في حال حدوث أمر طارئ، وقد كنت أنا الأمر الطارئ، لكنه لم يكترث للضابط المحقّق المتوسط العمر. كما أنني لم أنزعج لموت نظام ودايس ونيسمي والشابين المجنونين اللذين لقيا حتفهما من رصاصات مسدسي. كان من الأفضل لو أنهم لم يموتوا، لكن المسدسات انطلقت ولم يكن بوسعي منع الأمر. إلا أن الفتيان... تلك الأشباح المجهولة في الشارع... أولئك الأطفال الذين نتحمل جميعنا اللوم بشأنهم... بيرانا وكيتو... كان اسم بيرانا الحقيقي عمر... عمر غوزيلسوز واسم كيتو كريم كانر. وكان لكليهما قصص متشابهة... قصص فتيان ضائعين... وهو أمر كانت رد فعلنا تجاهه "كم هو محزن!" ثم ننساه. كانت والدتا الاثنين تعملان في ماخور وربما لهذا كان بيرانا يتسكّع مع كيتو... وكان والد بيرانا قد لقي حتفه في اشتباك دموي أما والد كيتو فقد ترك زوجته وابنه قبل سنوات. وكان كلا الولدين قد هجرهما أقرب المقربين إليهما ونبذهما المجتمع فلجآ إلى الشارع وظنّا أن لديهما فرصة في هذه المنازل حيث تخيّم الذكريات المشؤومة في هذا الحي المهجور مثلهما. لكن هذه الشوارع والمباني المتداعية لم تحمهما إلا حتى هذا الصباح... لم أستطع نسيان كلمات نازلي حين ركعت إلى جانب كيتو وربّتت خصلات شعره المتموّجة وقالت والدموع تنهمر على خديها:

- لم نستطع فعل ذلك يا نيفزات بيك... لقد خذلناهم مجدّداً.

لكن الحياة استمرت. وقد أمضيت الليلة أعاني من الصداع، وفي الصباح

التالي أحضرنا جيل هانم ومحاميها باتوهان، إذ كنا لا نزال نحاول معرفة قاتل إنجين.

قلت محاولاً تجاهل الألم في عنقي:

- لقد سحبتِ مائتي ألف ليرة من حساب زوجك رفعت بيك...

قاطعني المحامي الشاب الجالس مقابل علي والمنزعج من حملقة مساعدي:

- الحساب لجيل هانم أيضاً. نعم يا نيفزات بيك... لا يوجد أي شيء غير قانوني في سحبها لتلك النقود.

أدخلت يداي في الظرف الأصفر أمامي وقلت:

- أنا واثق من ذلك. لكن ما يقلقني ليس سحب جيل هانم النقود، وإنما إيداع المبلغ نفسه في اليوم نفسه في أحد حسابات طارق سيبيركي.

أومضت عينا جيل البنيّتان.

- ماذا؟ إذن أنتم أحضرتموني إلى هنا بناء على مجرّد مصادفة؟

أجبتها بهدوء:

- لا... لقد أحضرتك إلى هنا لإلقاء بعض الضوء على سلسلة الأحداث التي أدّت إلى موت عشرة أشخاص.

تحرّكت في كرسيّها.

- حسناً... وما علاقة ذلك بي؟ جريمتي الوحيدة سحب مائتي ألف ليرة... هل أنا الوحيدة في مدينة إسطنبول التي سحبت مائتي ألف ليرة ذلك اليوم؟

قال علي مشاركاً في الحديث:

- لا... أنا متأكد من أن عشرات الناس سحبوا هذا المبلغ نفسه لكنك الوحيدة، في هذه المدينة الضخمة، الحاقدة على إنجين وتعرفين تايدي طارق وسحبت مائتي ألف ليرة.

سارع المحامي لنجدتها قائلاً:

- لنقل إن كل هذه الافتراضات صحيحة يا نيفزات بيك. لكن لم يتم إثبات أن طارق سيبيركي هو الذين قتل إنجين آكا... أليس ذلك صحيحاً؟ أنتم لم تجدوا قاتله بعد.

كان محقاً فهناك عشرة أشخاص لقوا حتفهم لكننا لم نعرف بعد من الذي بدأ السلسلة بقتل إنجين... ربما يكون بلاك نظام، كما أخبرت سيليم إحسان، أو ربما دايس إحسان نفسه. لم يكن لدينا سوى احتمالات وكثير من السيناريوهات المفترضة...

فتحت الظرف أمامي وأخرجت ثلاث أوراق سلمتها لجيل التي كانت عيناها وعينا محاميها مليئتين بنظرات عصبية وهما يتساءلان ماذا يمكن أن تكون الأوراق.

- أرسلان يانكي... أنت لا تعرفينه يا جيل هانم... في الواقع كنت قد رأيته لكنك لم تعيريه أيّ اهتمام. أنا أتكلم عن موظف الاستقبال في فندق ريكات حيث ذهبتِ إلى هناك مرتين لمقابلة طارق... مرة في الردهة ومرة في قاعة الإفطار، وفي كل من هذين اللقائين كان هناك شخص ثالث معكِ...

تحوّلت الثقة في عينيها إلى ذعرٍ فأكملت بحماسة:

- إحسان يلديزيلي المعروف بلقب دايس إحسان... الرجل الذي قُتِل الليلة الماضية على يد أحد رجاله... فلي نيسمي... إحسان مالك نادي تارلاباسي حيث تقامرين... وربما يكون من تأتمنينه على أسرارك.

فكّر المحامي إن كان عليه الاعتراض أم لا، لكن حين بقيت موكلته صامته قرر ألاّ يعارض.

- نعم... كان إحسان صديقاً مقرباً لدرجة أنك كنت تتكلمين معه عن شؤونك الخاصة، والأهم من ذلك أنه كان عدو إنجين اللدود، وعلى الأرجح هو من أقنعك أن تستخدمي طارق ليقتل إنجين.

حدّقت جيل دون أن تدري ما تقول لكن محاميها استفاق من الصدمة بسرعة وقال:

- ألا يمكن أن يكون أرسلان يانكي مخطئا؟ عشرات الناس يدخلون من باب الفندق يومياً... لماذا هو متأكد لهذه الدرجة من أن جيل هانم وطارق التقيا هناك؟

سحب علي ظرفاً صغيراً من جيب سترته.

- كانت لدينا التحفظات نفسها يا سيدي. فقد ظننا أن الرجل مخطئ، لذا سحبنا

الصور من كاميرات المراقبة في الفندق.

وناول قرصاً مضغوطاً للمحامي:

- شاهده وسترى أيضاً.

ثم التفت إلى جيل وابتسم لها موددأ:

- تبدين أنيقة للغاية في معطفك الأخضر ووشاحك الذهبي... كنجمة سينمائية.

بدت نظرة الهزيمة على وجه جيل أسوأ... في الغالب ستتمكّن من القضاء عليها على الرغم من وجود محاميها البارع بجوارها الذي قال وكأنه يقرأ أفكاري:

- لكن هذه مجرّد تكهّنات. كما قلت... موكلتي تعرف إنجين آكا وهي لم تكن تقامر لكنها كانت تذهب إلى نادي تارلاباسي والكل يعرف ذلك. لقاؤها بطارق لا يجعلها محرّضة، ولسنا متأكدين من أن طارق أراد قتل إنجين... لقد وجدتموه ينتظر في منزل إنجين... قد يكونان صديقين أو ربما كان إنجين خائفاً من هجوم فاستخدم طارق سيبيركي ليحميه.

ونظر إلى مساعدي بسخرية:

- لو أنكم أمسكتم به على قيد الحياة لعرفنا ما حصل.

لقد كان باتوهان ذكياً للغاية وهو يلمّح، فقد رأيت علي يحملق به. لكن من الأفضل أن لا نعبث مع هذا المحامي الشاب الذي يدافع عن الأغنياء القذرين، فقلت خائفاً من أن يتصرّف مساعدي بطيش:

- هذا صحيح. لكن لو أن هذا القاتل أطلق الرصاص على شرطي، فمن استخدمه لن ينجو من قبضتنا.

خيّم صمت ثقيل على الغرفة، وبدأت جيل بقضم شفتها، في حين كان المحامي يعبث بقلمه الذهبي بيده اليمنى، وكان الشرطي الغريب الأطوار يراقبهما بعصبية.

ثم سأل عليّ كاسراً حاجز الصمت:

- لماذا التقيت طارق؟ لا تقولي إنك كنت تطلبين أزهاراً لبيتك.

لم تضحك جيل ولا حتى محاميها وإنما قالت وهي ترفع يدها اليمنى إلى أذنها بطريقة مبالغ فيها:

- عفواً؟ لم أسمع ما قلته.

وضع المحامي قلمه على الطاولة وقال:

- لستِ مضطرة للإجابة عن هذا السؤال يا جيل هانم... يمكنك استخدام حقك بالبقاء صامتة.

كان هناك بعض الاستسلام في سلوكه لكن المرأة نظرت إلى باتوهان بازدراء وقالت:

- أعلم.

ثم التفتت بعينيها البنيّتين إلى علي وقالت:

- عمّ تظن أنني تكلّمت مع طارق بيك؟

يبدو أنها استعادت ثقتها. لكن مساعدي ردّ عليها وهو على وشك الانفجار:

- نحن الذين نطرح الأسئلة هنا.

فقلت مهدّئاً إياه على أمل أن نتمكّن من جعل جيل تعترف:

- لا بأس يا علي... إن سمحت لي فيمكنني تخمين ما تكلّمتما عنه.

- تفضّل يا نيفزات بيك... أشعر بفضول حول ما ستقوله... في الواقع...

- في الواقع أنت تعرفين ما سأقوله. فقد تناقشتما بشأن النقود التي ستدفعينها لقاء قتل إنجين، وعلى الأغلب وافقت على أربعمائة ألف... مائتا ألف دفعة أولى ومائتا ألف بعد إنجاز العمل... هذا مبلغ ضخم... لقد خدعك طارق ولا بدّ أن إحسان كان متواطئاً معه. أفترض أنه حين ساءت الأمور مع نظام فكر باستخدام طارق. كان طارق سيقبل بمائة ألف أو ربما مائتي ألف بأفضل حال... آسف... لقد نصبا عليك. لكن كيف وقعت في هذا الفخ يا جيل هانم؟ ما عملك مع هؤلاء الناس؟

لم تحاول التملّص وإنما قالت بجرأة:

- الناس يقومون باختياراتهم يا نيفزات بيك، وفي معظم الأحيان خياراتنا هي التي تحدد حياتنا.

هزّ علي رأسه بغضب.

- لكن إن اتّخذت قراراً فعليك دفع الثمن.

ظهرت ابتسامة جذابة على شفتيها المطليتين وقالت:

- إذا ارتكبت جريمة فسأدفع الثمن بالطبع لكنني بريئة. لقد التقيت طارق بيك ثلاث مرات وليس مرتين... مرتين في فندق ريكات ومرة في شرفة فندق مرمرة. أترى كيف فوّتم المرة الثالثة؟ ولقد كان إحسان معنا في المرات الثلاث لأننا كنا نفكّر في افتتاح مقهى غجري... شيء جديد في كل شيء... الطعام والموسيقى والديكور والجو... كل شيء مخصّص للثقافة الغجرية... وفي تارلاباسي، فقسم كبير من المواطنين الغجر يعيشون في دولابدير كما تعرفون...

وبينما كنت أشاهد المرأة تحيك هذا السيناريو أعترف أنني أعجبت بها، فهي ذكية وأكثر نباهة من محاميها.

- أنت تعلم بأمر مشروع التجديد المدني في تارلاباسي حيث ستتم إزالة تلك الزرائب بأكملها لتحل محلها حياة جديدة بالقرب من مركز المدينة... حياة عصرية... وستنتقل العائلات المرموقة إلى هناك وستزداد الحاجة لشكل جديد من التسلية. لذا وضعنا ذلك المشروع استجابة لذلك الطلب.

سخر منها علي:

- وماذا كان دور طارق في المشروع؟ سيدير أوركسترا الغجر؟ ربما بمسدسه الضخم؟

ضحكت وقالت:

- أنت مضحك... بالطبع لم أستخدمه لأجل الموسيقى وإنما كان طارق سيتولى أو الزمن والحراسة، فتارلاباسي لا تزال مليئة بالمحتالين كما تعلم، وسيستغرق الأمر بعض الوقت حتى تصبح مكاناً آمناً، وهنا يكمن مجال خبرة طارق وفقاً لما قاله إحسان بيك، وقد صدّقته.

استمر علي بالسخرية.

- أتعنين أنك دفعت مائتي ألف ليرة لتضمني الأمن في حانة لم تُفتح بعد.

نظرت إليه بإعجاب وقالت:

- لا... أنت مخطئ يا سيدي. أنا لم أدفع قرشاً واحداً لطارق وإنما أعطيت النقود

لإحسان ولا أعلم إن كان أعطاها لطارق أم لا، فقد كان إحسان بحاجة إلى المال، ولم تكن تلك المرة الأولى التي أقرضه فيها المال. في إحدى المرات قبل ثلاث سنوات أرسل له زوجي رفعت بيك مليون ليرة... ابحثوا في حسابه المصرفي وستجدون تلك العملية.

- لكنك ناولته المائتي ألف ليرة نقداً. ألم يكن من الصعب عليك حمل هذا المبلغ؟

كانت تؤدي دور المرأة البريئة ببراعة لدرجة أنها صدقت كذبتها كأيّ ممثلة بارعة.

- لا... ولماذا يكون صعباً؟ كما ترى أنا الآن أحمل معي حقيبة.

كانت تكذب وهي تنظر في عينيّ لكن لم يكن لدينا أي شيء ضدها لدحض ما قالته فسألتها لأعكّرها:

- هل كان إنجين يبتزّك؟

بدت ثقتها وكأنها اهتزت قليلاً. كنت أتوقّع أن تغضب أو ربما تنهار لكنها كانت بارعة وقالت:

- ولماذا يفعل ذلك؟ لقد أعطيته ما يكفي من المال.

ابتسمت ببرود وقلت:

- ليس هناك شيء اسمه «ما يكفي من المال» يا جيل هانم، وأنت تعرفين ذلك أكثر مني.

يبدو أن كلماتي ضربت على الوتر الحساس فقد ظهرت الكراهية في عينيها البنيتين.

- وكيف يمكنني معرفة ذلك؟

- لقد ورثتِ ميراثاً ضخماً يكفيك طوال عمرك لكنك لن تتوقفي عن طلب مزيد.

عرفت ما قصدت لكن ذلك لم يزعجها.

- أنت مخطئ، فأنا لست مهتمة بالمال إلى هذه الدرجة، وكما قلت أنت فإنّ لديّ أموالاً تكفي لإطعام سبعة أجيال.

أكمل علي دون رحمة:

- لكنك لن تستعيدي شبابك ولهذا فقدت إنجين، ولهذا أردته أن يموت لأن تلك الفتاة الشابة أخذته منك. إن كنت لن تحصلي عليه فلن يحصل عليه أحد.

حافظت جيل على هدوء أعصابها وتمتمت وهي تنظر إلى مساعدي:

- أيها المسكين... سأترك لكما أيها المحققان أن تربطا بين الموت والحب، إذ لا يوجد مكان للموت في الحب الذي أشعر به.

- وماذا لو انتهى ذلك الحب؟

أربكها سؤالي وفقدت تركيزها.

- نعم... لقد انتهى حبك لإنجين منذ زمن. أنا أختلف مع مساعدي. فأنا أظن أنه مضى زمن طويل على تخليك عن إنجين لكنه هو لم يتخلّ عنك أو بالأحرى عن نقودك، وبدأ يبتزّك وهدد بإخبار ابنَي زوجك بأمر المباني التي اشتريتماها في تارلاباسي، فخفتِ أن يجرّدك ابنا زوجك من ثروتك. هيا يا جيل... أخبرينا كم المبلغ الذي طلبه إنجين منك... مليون؟ اثنان؟ أكثر؟

التقت نظراتنا للحظة ولبرهة تخلّت عن سلاح كبريائها البارد وظننتها ستخبرنا بالحقيقة لكنها عادت إلى المماطلة، إلاّ أن العناد في عينيها البنيتين تضاءل.

- لا... لم يبتزّني أحد لكنك محقّ بشأن أمر واحد... لقد انتهى حبي لإنجين. لكن بالنسبة إلى قتله فلم تخطر ببالي هذه الفكرة، فالقتل كلمة مخيفة. أنا لا أتمنى الموت لأحد وخاصة لشخص أعرفه كإنجين.

على الرغم من أن باتوهان لم يبذل كثيراً من الجهد لكنه بدا مسروراً من مسار الحديث. إلا أنه خشي أن تقول موكلته كلمة خطأً في اللحظة الأخيرة وتدمر كل شيء فقال بانتصار:

- هل ننهي هذا الموضوع يا نيفزات بيك؟ يبدو أننا ناقشنا كل شيء.

كان محقاً وانهزمنا هذه المرة، فمهما فعلنا لن تعترف لنا جيل. أخذت نفساً عميقاً وقلت:

- يبدو أننا انتهينا... يمكنكِ الذهاب متى شئت لكننا سنقدم المعلومات التي جمعناها للمحكمة... ليس فقط المائتي ألف ليرة التي دفعتها لطارق سيبيركي وإنما أيضاً المبالغ الضخمة التي أرسلتها لإنجين آكا أيضاً وضحايا جرائم

القتل العشرة الأخرى بالطبع. سنسلّم كل التفاصيل للمحكمة والقاضي هو من سيقرّر إن كانت محاولة للقضاء على حياة الرجل أم لا.

لم تكترث جيل وإنما بدأت بتوضيب أغراضها بثقة وقالت:

- كان أبي العزيز رحمه الله يقول: "القصاص لا يؤلم".

لم يحتمل علي فكرة أن تفلت المرأة من بين أيدينا وقال:

- هذا البلد لا تحكمه الشريعة يا جيل هانم، فالقصاص يتم بطريقة مختلفة هنا. على السبيل المثال أتظِنين أن ابنَي زوجك رفعت بيك حين يكتشفان أنك وأولئك الرجال الحمقى تلتهمون ثروة والدهما سيظلان صامتين؟ هل سيقفان مكتوفَي الأيدي بينما يتلاشى الميراث المتبقي لهما ولأمهما الحلوة العزيزة؟

ارتعش وجه المرأة وحدّقت إليَ بكراهية. كانت تريد الرد عليه لكنها لم تعرف كيف فالتفتت إلى محاميها وقالت:

- هل انتهينا يا باتوهان بيك؟ أيمكننا الذهاب؟

هل هو القاتل الذي كنتم تبحثون عنه؟



طوال سنوات حياتي المهنية، وباستثناء مقتل زوجتي وابنتي، كانت هذه المرة الأولى التي أغلق فيها ملف قضية دون العثور على الجاني، فقد استجوبنا أبناء إخوة بلاك نظام التسعة عشر والمحامي العريس ساسيت وحراس دايس إحسان الشخصيين، كما تكلّمنا مع سيليم وعزيزة ونازلي وكمال وحريم سليمان، إلا أن التحقيق لم يتقدم خطوة واحدة وإنما ظل يدور في الحلقة المفرغة نفسها. وبدافع اليأس عدنا إلى السيناريو السابق نفسه... احتمال أن يكون قاتل مأجور قد قتل إنجين... كانت تلك فكرة علي حيث قال:

- تايدي طارق قتل إنجين أمام نادي تارلاباسي ليلصق التهمة بإحسان، ثم توجّه إلى قاسم باشا ورمى السكين في المياه المظلمة للقرن الذهبي وذهب إلى منزل إنجين ومعه المفتاح الذي حصل عليه من جيل لأنه أراد صكوك الملكية، فتلك الوثائق تربط جيل بالضحية. وجدناه يبحث عن الصكوك وكانت نهايته، أي أن القاتل المجنون تايدي طارق هو الذي بدأ سلسلة القتل، وما دام قد لقي حتفه فقد انتهى الصراع ويمكنني إغلاق الملف.

بدا الأمر منطقياً لكنني لم أقتنع فقد بدا لي كأن هناك شيئاً ناقصاً... تفصيلاً بسيطاً لم نره على الرغم من وجوده أمام أعيننا. لكن هذا ما أراد مساعدي أن يصدقه، لا لأنه أطلق النار على طارق، وإنما لأنه لم يكن هناك أي خيار آخر، فالرغبة في الوصول إلى نتيجة سريعة بسبب نفاد الصبر كانت تلح عليه. أما زينب فكانت أكثر حذراً، لكننا إن لم نجد أي دليل آخر فستقبل بنظريته أيضاً. أما أنا فقد

ماشيتهما على الرغم من شكوكي لكننا بقينا نكرر نقاشاتنا حول قاتل إنجين كثيراً لدرجة أنني قبل أن نذهب إلى منزل زينب لتلبية دعوة عائلتها حذّرت مساعديّ.

- اسمعا... الموضوع يثقل على كاهلنا لكننا سنتجاهله خلال العشاء، إذ سيبدو الأمر فظّاً بالنسبة لفيلي بيك وسكينة هانم.

بدت زينب غير مكترثة.

- لن ينزعج والداي يا حضرة الضابط لكنك محق فإفجينيا هانم ستكون هناك أيضاً، والكلام عن جرائم القتل على العشاء لن يكون جيداً.

في الواقع لم أفترض أن إفجينيا ستنزعج أيضاً، فقد كنت أعلم أنها مهما حزنت على قصة كادر التي رويتها لها ذلك الصباح لكنها تموت من الفضول حول عملي. وكنت متأكّداً من أنها ستهتم اهتماماً بالغاً بنقاشنا لكنها لن تكتفي بالإنصات وإنما ستناقش أفكارها حول هوية القاتل، وقد ينضم إلينا والدا زينب، وهكذا فإننا جميعاً سنناقش موضوع الجريمة على العشاء. لكن الأمر لم يكن كما خشيت، فلا أحد طرح موضوع الموت أو القتل إذ كانت المجموعة أميل إلى مواضيع الزفاف من مواضيع الموت.

في طريقي إلى منزل زينب مررت بإفجينيا التي كانت تنتظرني خارج مبنى الشقق في كورتولوس حيث تقع شقتها في الطابق الثالث. كانت ترتدي معطفاً أزرق ولفّت وشاحاً أزرق طويلاً حول عنقها، ما أبرز لون عينيها، كما حملت باقةً من أزهار السوسن والنرجس البيضاء والصفراء لتمتزج رائحتها برائحة الخزامى. كانت سعيدة ومتحمسة وكأنها المرة الأولى التي نذهب فيها إلى عشاء عائلي سوية.

انضم إلينا علي على الطريق، فالشرطي الشجاع لم تكن لديه الجرأة للذهاب وحده إلى منزل الفتاة التي أحبها. في الواقع كان يعرف فيلي بيك وسكينة هانم لكنه كان متوتّراً هذه المرة لسبب من الأسباب، فصديقنا الذي لم يتكبّد عناء التأنّق لحفل رجال الشرطة يرتدي الآن بذلة زرقاء أنيقة ويضع ربطة عنق حمراء. وجدناه ينتظرنا خارج شقته في بشكطاش حاملاً صينيةً كبيرةً من البقلاوة، وما إن جلس في المقعد الخلفي حتى بدأت إفجينيا تعاكسه:

- متى ستطلب يد الفتاة للزواج من والديها يا علي؟

احمرّ وجهه كفتى مراهق وسألها متصنّعاً البراءة:

- أي فتاة يا إفجينيا هانم؟
- ماذا؟ هل هناك فتاة أخرى غير زينب؟

قلتُ مبتسماً:

- دعيه وشأنه يا إفجينيا. سنذهب معه حين يحين الوقت.

لم يؤكد عليّ الأمر أو ينكره، لكن ذلك الوميض الجميل في عينيه أظهر لنا أن ذلك لن يكون بعيداً.

كان منزل زينب المتواضع من طابق واحد يقع في غازي عثمان باشا، عند ناصية شارع ضيق حيث تفوح رائحة الفحم المحترق. كانت هناك شجرة توت ملتوية وشجرة حور طويلة متروكتان لصقيع الشتاء في الحديقة الصغيرة، وإن لم تخدعني أذناي فإني أسمع هديل الحمام... أفترض أن واحداً من إخوتها مهتم بالطيور. كانت زينب قد أخبرتني أن أقاربها من بلغاريا بنوا فور وصولهم مبنى من ثلاثة أو أربعة طوابق، لكن والدها كان مهتماً أكثر بالحدائق فترك المنزل كما هو. رحبت بنا العائلة بكامل أفرادها الخمسة عند الباب ووضعوا أزهار إفجينيا في إناء بينما أخذوا الحلويات التي أحضرتها أنا وعلي إلى المطبخ. اصطففنا بالقرب من الأرائك والمقاعد في غرفة الجلوس الصغيرة، وبعد أن خلعنا معاطفنا جلسنا بسرعة في أماكننا وجلس علي بيننا لنبدو زوجاً وزوجة وبينهما ابنهما نطلب يد الفتاة. ولا بدّ أن إفجينيا كانت تفكر بالشيء نفسه لأنها كانت تنظر إليّ بين الفينة والأخرى وتبتسم لي بخبث.

بقي فيلي وابناه أوزكان وسيركان معنا بينما كانت سكينة وزينب تتنقلان جيئة وذهاباً بين المطبخ وغرفة الجلوس للاهتمام بنا، وكان أوزكان وسيركان ينظران إلى علي. كان من المفترض أن أكون أنا قائد الفريق لكن يبدو أن مساعدي كان مثيراً للإعجاب أكثر من الرئيس الكهل حتى وإن كان خجلاً ويضع يديه بين ركبتيه محاولاً أن يخفي توتّره ويبدو ودوداً مع الجميع. وبعد أن رحّبوا بنا في منزلهم أحضروا ماء الزهر لتعطير أيدينا... قد يبدو الأمر سخيفاً لكن التقاليد كهذه التي تتلاشى تدريجاً تسعدني من قلبي، وقد ملأت رائحة ماء زهر الليمون الزكية غرفة الجلوس الصغيرة. وحين رفعت يديّ إلى وجهي لاحظت أن فيلي بيك يحاول ألاّ ننتبه له وهو يتفحّص علي... لا أظن أن زينب فاتحتهم بالموضوع لكن أباها

كان نبيهاً وسريع الملاحظة. وبعد ماء زهر خيّم الصمت فسأل الابن الكبير عليّ عن مسدسه... من أي نوع؟ هل هو 83 كالمسدس الذي تحمله أخته الكبيرة أم أن لديه مسدساً أكبر؟ في الواقع كان من الممكن لمساعدي أن يستفيض حول هذا الموضوع قدر ما يشاء، لكنه فاجأني وقال كرجل حكيم:

- المسدس ليس شيئاً نتباهى به يا سيركان... لا ألمسه ما لم أكن مضطرّاً.

سررت من قوله فالفتى الذي سأل لا يزال في السادسة عشرة من العمر واهتمامه بالمسدسات سببه عروض المافيا الرخيصة التي رآها على التلفاز، وهنا سارعت زينب لتحذير أخيها.

- أتسمع هذا يا سيركان؟ لطالما قلت لك إن المسدسات والقتال وتكسير الأشياء لا تجعل الرجل قوياً...

لم ينزعج سيركان من كلمات أخته وإنما من توبيخ علي الذي كان ينظر إليه كأخ كبير ومثل أعلى فتذمّر:

- نعم... لكن... أنت لا تعرف من في الشارع... يمكن لأيّ رجل أن يشهر مسدساً ويفرغه في رأسك لمجرّد أنك اصطدمت به بكتفك، فماذا تفعل؟

قاطعته زينب من آخر الطاولة حيث كانت ترتّب الأطباق.

- كن أكثر حذراً ولا تصطدم بأحد بكتفك، وإن فعلت فاعتذر... ابق بعيداً عن أولئك القذرين... هل هناك حاجة لأن أقول مزيداً؟

قال الصهر المستقبلي:

- أختك محقة... لنفترض أن معك مسدساً أيضاً... ما الذي سيحصل إن أشهرته؟ إما أن تطلق الرصاص على الرجل وينتهي بك الأمر في السجن، وإما، لا سمح الله، يطلق الرجل النار عليك وتقع على الأرض.

لو علمت أن علياً يصدّق ما كان يقوله لترقرقت الدموع في عينيّ، فالصهر المستقبلي يكرّر حرفياً ما كنت أخبره به منذ سنوات.

- لا يا سيركان... أخشى أن المسدسات لا تناسب الرجل القوي. لن تصدق المسلحين الذين رأيناهم في ذلك العالم وما حصل لهم؟ كل واحد منهم يموت بطريقة مختلفة.

مدحه الحمو المستقبلي قائلاً:

- أحسنت القول يا بنيّ يا علي... لا نستطيع إقناع الفتى فهو يظن العنف رجولةً في حين أن الرجولة تأتي من كون الإنسان لطيفاً... أليس ذلك صحيحاً يا حضرة الضابط؟

اضطررت لأن أكسر صمتي.

- بالضبط يا فيلي بيك. إن كنتَ مهتماً إلى هذه الدرجة بالمسدسات دعنا نذهبْ إلى ميدان رماية يوماً ما، فوالدك محق... الرجولة الحقيقية تأتي من كونك شخصاً صالحاً، فضرب شخص شتمك وخاصة بمسدس فعل لا يقوم به الرجال الشجعان.

تلألأت عيناه البنيّتان بحماس وكأنه لم يسمع سوى القسم الأول من كلامي.

- حسناً يا نيفزات بيك... متى نذهب إلى ميدان الرماية؟

رمقتني إفجينيا بنظرة لكنني كنت أعرف ما أفعله.

- نحن نعمل على قضية الآن. وما إن نغلقها حتى أتّصل بك، وربما يأتي علي معنا أيضاً...

كنت قد جرّبت هذه الطريقة ثلاث مرات من قبل وحصلت على نتيجة إيجابية في كل مرة، فهؤلاء الأولاد الذين يحبون المسدسات، حين يشمون رائحة البارود ويسمعون صوت انفجار الطلقات في ميدان الرماية - إذ كنت ماكراً ولم أعطهم سدادات للأذنين - فإنهم يرتعشون ويجبنون ويتوقفون عن هذه الرغبة.

- هيا... دعونا نتناول الطعام.

وبصوت سكينة هانم البهيج وقفنا جميعنا. كانت المائدة الضيّقة الطويلة مغطاة بأطباق الطعام الشهية... سلطة شتوية شهية... طبقان من الخضار المكبوسة... طبقان صغيران من اللبن المصنوع منزلياً... ورق العنب الملفوف... الفلفل الأخضر المحشي... في البداية قدموا لنا حساء العدس، ولمّا كنا قد تناولنا الشراب فكرت أن من الحكمة ألاّ أتناول الكثير. بعد ذلك جاءت الفاصولياء البيضاء بمرق اللحم والأرز الزكي الرائحة مع الشعيرية. لقد كانت أفضل فاصولياء بيضاء أتذوقها دون أي مبالغة.

قالت إفجينيا:

- شهي! هل طهوتم هذا في قدرٍ من الفخار؟

أشرقت عينا سكينة هانم وقالت:

- الماهر ينتبه للتفاصيل... هذا صحيح يا إفجينيا هانم... في قدر من الفخار على نار هادئة.

لكنني أظن أن علياً لم يشعر مثلنا، فبعد تناوله ملعقتين من الفاصولياء تجرّع كأساً مليئة بالماء، فانتبهت سكينة هانم لوضع صهرها المحتمل وسألت محرجة:

- هل هو حار؟ هل وضعت كثيراً من الفلفل فيه؟

هل سيجرؤ على قول الحقيقة؟

- لا... أنا فقط غير متعوّد على الطعام الحار.

قلت وأنا ألوّح بإصبعي:

- لا... إنها شهية!

- سيتضوّر الولد جوعاً إن طهت زينب الطعام حاراً هكذا.

لحسن الحظ أن مساعدي كان مشغولاً بتبريد فمه المحترق ولم يفهم.

- ماذا قلت يا إفجينيا هانم؟

ردت إفجينيا:

- لا شيء... هذا ليس مهماً.

لكن زينب سمعته وضحكت ضحكة مكبوتة. ويبدو أن أباها لم يفهم الموضوع أيضاً فقد قال:

- إنها طريقة الطعام في المنطقة التي أتينا منها... هكذا نطهو الفاصولياء في دوبرودجا.

وبينما كنت أتذوّق الأرز سألتْ زينب عن عازف المزمار مع أنني لست واثقاً ما الذي جعلها تفكّر به.

- بابا... هناك رجل يدعى سادري... مهاجر بلغاري... أتعرفه؟ إنه من دوبرودجا... عازف مزمار من الغجر...

- كثير منهم موسيقيون فهم فنانون... هل هو من قرية ساري محمود؟

مدت زينب يدها إلى سلّة الخبز وقالت:

- لم يقل من أي قرية وإنما من دوبرودجا فقط وأن اسمه سادري...

ردّدت سكينة هانم وهي تملأ كأس علي بالماء:

- سادري... لا أعرف هذا الاسم.
- لقد أسماه البلغاريون سيرغييه فهم لا يستخدمون أسماءهم الحقيقية.

رفعت سكينة هانم حاجبها.

- لقد كان هناك غجري يدعى سيرغييه... لكن لا... لا يمكن أن يكون هو... أتذكره يا فيلي؟ لقد كتبت عنه الصحف؟ قتل أخته...

نظر فيلي إلى زوجته نظرة فارغة لكنني تذكرت أن عازف المزمار قال إن أخته ماتت في حادث.

نسي مساعدي فمه الملتهب وقال:

- أخت سادري ماتت أيضاً في حادث.
- كذلك أخت سيرغييه ماتت في حادث.

أصبحت قصة سادري أكثر إثارة للاهتمام فسأل علي:

- لكنه لم يقتلها أليس كذلك؟
- بلى... لكن ليس عن قصد بالطبع... كان حادثاً كما قلت. لكنني لا أظن أنه سادري الذي تعرفونه، فهو لم يكن موسيقياً وإنما كان يرمي السكاكين.

كدت أسقط أنا وعلي عن مقاعدنا.

- يرمي السكاكين؟

قاطع فيلي زوجته ظناً منه أنها شرحت لنا الموضوع خطأً.

- ليس كما تظن يا نيفزات بيك... في السيرك... تذكرته الآن... لقد تكلم الجميع عنه لأيام عدة... لكن ذلك منذ زمن بعيد... قبل أن نأتي إلى تركيا ببضع سنين... أليس ذلك صحيحاً يا سكينة؟
- بل قبل سنة واحدة، فقد ذهبنا إلى أدرنة السنة التالية في أيار/ مايو... أتذكر؟

قال فيلي وهو يضرب جبهته بلطف:

- هذا صحيح... لقد نسيت... في كل الأحوال كان سيرغييه رامي سكاكين... كانت عيناه حادتين كعيني الصقر وذراعاه قويتين وأصابعه طويلة... لقد كانوا من القرية المجاورة لقريتنا وكانت أمه تصنع السلال. كانت جميع نساء القرية يصنعن السلال وجميع الرجال موسيقيين... من الآباء والأبناء والأحفاد... لكن سيرغييه كان مختلفاً عنهم، فقد عمل في السيرك لأنهم يدفعون أجوراً

أعلى...

صدمنا الأمر للغاية... أن تأتينا هذه المعلومة في حين لم نكن نتوقّعها. إن كان ما يدور في أذهاننا صحيحاً فهذا يعني أننا عثرنا على القاتل.

سألت:

- ماذا كان يعمل في السيرك بالضبط؟ أعني كيف كان يرمي السكاكين؟

أكمل فيلي مستمتعاً باسترجاع ذكريات الماضي.

- أنت تعرف الروتين... يقف شخص على لوح خشبي ويقف الآخر قبالته ويرمي السكاكين. لقد شاهدت العرض مرتين... يمكنه إصابة ذبابة عن بعد خمسة أمتار، فالبلغاريون ما كانوا ليسمحوا له بالعمل في السيرك إن لم يكن ماهراً، وقد كان سيرغييه بارعاً والسكين سلاح كأي سلاح آخر... إنه ليس لعبة. في أحد الأيام ارتجفت يده وضلّت السكين طريقها وغاصت في قلب الفتاة المسكينة...

قالت إفجينيا ذات القلب الرقيق:

- أوه لا! يا للهول!

ظهرت الحقيقة لكنني أردت أن أتأكد.

- هل كان اسم الفتاة جينيا؟

أكدت سكينة الأمر بحزن.

- نعم... جينيا. لقد كانت فتاة بريئة في السابعة عشرة من العمر... فتاة جميلة للغاية... لقد دفنوها بثوب زفاف. لماذا أنتم صامتون؟ ولماذا هذه النظرات الغريبة؟

لم يستطع أيّ منا أن يقول كلمة، وبقيت أنا وزينب وعلي جالسين متجمّدين على الطاولة حتى قالت إفجينيا.

- هل هو القاتل الذي كنتم تبحثون عنه؟

ليس للحب علاقة بالصلاح



أحياناً تكون الحياة هكذا... تحصل على طرف خيط من لا شيء ويُفتح لك باب لا تنتظر فتحه، ليظهر من خلاله حل لكل الغموض الكامن وراء الجريمة، وهذا ما حصل معنا حينذاك. فَما بدأ دعوة على طعام شهي انتهى إلى شكر حارٍّ على المعلومات التي حصلنا عليها بالصدفة المحضة. وبالطبع فإن الدعوة تعكّرت وقدّمت الاعتذار وغادرت المنزل، في حين عادت إفجينيا إلى تاتافلا ورافقني علي وزينب إلى نيسي بافيون. حين مررنا تحت الأضواء الحمراء ونزلنا السلالم القصيرة سمعت أغنية قديمة أثارت مشاعري، وحين دخلت من الباب أصبح الصوت أعلى. على المنصة تحت كرات الضوء الدوّارة كانت هناك امرأة ترتدي ملابس فاضحة وتغني أغنية غجرية، وعلى الرغم من أن صوتها لم يكن جميلاً كان المثير للإعجاب أنها تغني من صميم قلبها.

لم يكن هناك كثير من الزبائن في بافيون... ثلاث طاولات مشغولة وعليها سبعة رجال ثملين، لا يكترثون بالأغنية وإنما يرمقون المضيفة بنظرات إعجاب بانتظار فرصتهم ليلمسوها، في حين انتظرت النساء الخمس الجالسات على الطاولات المقابلة للجدار مزيداً من الزبائن. ولم تكن عزيزة بين طاولات الرجال أو المضيفات، ما يعني أنها لم تعد للعمل بعد. ما إن دخلنا حتى بدأت النساء يرمقننا بنظراتهن لكنهن حين رأين زينب معنا ارتبكن وتوقّفن عن الإشارة إلينا. وبينما كنت أنظر حولي ظهر نادل شاب أمامنا لم تكن لديه أي مشكلة مع زينب بعكس النساء.

أشار إلى طاولة أمام المنصة قائلاً:

- من هنا لو سمحتم... يمكنكم الجلوس بالقرب من المنصة.

قال علي بنبرة مستبدّة:

- لا نريد طاولة... نحن من الشرطة.

تغيّرت ملامح وجه النادل. وبعد أن تلاشت الصدمة بدأ يبحث عن أحد في الظلام حتى رأى سادري الذي كان جالساً وسط مجموعة من خمسة رجال موسيقيين وراء المغنية، وكان يرتدي بذلة سوداء وقد بدا قميصه الأبيض كأنه بنفسجي فاتح تحت النور الأزرق وقد ارتخت كتفاه وظلت تعابير وجهه حزينة. فجأة وقف رجل ضخم في طريقنا يرتدي بذلة سوداء، وقد قصّ شعره قصيراً وأطال شاربه الداكن، وراقبنا بترقّبٍ كذئب يشم رائحة الخطر.

تمتم النادل الخبير:

- هؤلاء السادة من الشرطة... لا يريدون طاولة.

تحول التوتّر في عيني هذا الرجل الضخم إلى قلق على الرغم من أنه حاول إخفاء الأمر وهو يمد يده مصافحاً.

- أهلاً وسهلاً. اسمي مسلم... أنا المالك.

قلت ببرود مصافحاً اليد الممدودة:

- وأنا الضابط المحقّق نيفزات... نحن هنا كجزء من تحقيق.

ردّ بصوت ملؤه الإثارة:

- الأخ نيفزات! إذن هذا أنت يا حضرة الضابط! آسف لكنني لم أتعرف إليك في الظلام...

كان الرجل يعرفني لكنني لا أذكره... ألقيت نظرة أخرى على الوجه في الظل لكن بلا جدوى حتى أدرك المأزق الذي كنت فيه.

- هيّا يا حضرة الضابط... هل نسيت؟ مسلم من كريستال بافيون... لقد أطلقوا النار على شريكي شوكرو...

تذكّرتهما... كان ناديهما في تيبيباسي. في إحدى الليالي، بعد منتصف الليل، حصل هجوم على بافيون وكان مسلم الشاهد الوحيد. كان صبري ذو الأسنان الناتئة من ارتكب الجريمة، وقد كان واحداً من أكثر الكلاب الشريرة في المنطقة، لكن

مسلم لم يكن خائفاً وإنما وقف بثبات وأدلى بشهادته. وبالطبع قد يكون سبب هذا الفعل الشجاع أن له يداً في قتل شوكرو...

قلت وأنا أربت كتفه بودّ:

- واو يا مسلم! لم أتعرف إليك في هذا الظلام.

تلاشى قلقه وبدا سعيداً للقائي.

- دعونا نعدْ إلى مكتبي.

نظرت إلى المنصة حيث جلس سادري المسكين غير مدرك ما يجري ومستمراً في العزف.

شككت في أنه سيعتبر جلوسنا في مكتب الرئيس فرصة له ليهرب، ورأيت أن من الحكمة الاحتياط فأشرت إلى إحدى الطاولات الشاغرة.

- أفضّل الجلوس هناك.

نظر مسلم من المنصة إليّ وقد فهم أن هناك خطباً. ومع ذلك لم يعترض والتفت بسرعة إلى النادل الشاب:

- كما تشاء... لنذهب إلى تلك الطاولة على اليسار فالضجة هناك أقل... حضّر لنا الطاولة وحضرة الضابط سيتناول الشراب...

لمست ذراعه بلطف وقلت:

- ليس الليلة يا مسلم... لنبدأ عملنا.

توقّف مجدّداً فهو لم يكن يرغب في الكلام أمام النادل لذا قال بتعاطف:

- أتعني أنك في مهمة؟ حسناً لكن أفترض أن بإمكانك احتساء الشاي.

- أفضّل القهوة.

قال مساعدي:

- نعم... قهوة سريعة التحضير. أليس كذلك يا زينب؟ سريعة التحضير؟

يبدو أن الأمور تتطوّر في علاقتهما، فعلي يختار المشروب لزينب.

كانت الطاولة التي أجلسنا عليها مسلم وراء دعامة ضخمة... أفترض أنه كان يضع أكثر زبائنه فقراً هنا. لكنها بالنسبة إلينا كانت مثالية لأن الصوت الذي كان يصل إلى هنا ضئيل للغاية، وما إن جلس حتى بدأ مالك المكان بمحاولة إرضاء فضوله.

- إذن ما الذي جاء بك إلى هنا يا حضرة الضابط؟ آمل أن يكون كل شيء على ما يُرام.
- ألا تعلم؟ لماذا تظن أننا هنا؟
- بسبب إنجين؟
- لقد كان هنا ليلة مقتله وتشاجر مع عزيزة... لقد شاركت أنت في الشجار أيضاً.

هزّ رأسه وكأنه يسترجع ذكرى غير سارّة وقال:

- نعم... لقد كان هنا، لكن لم يكن هناك أي شجار... لقد هاجم الفتاة... لم تكن مشكلته معي وإنما مع عزيزة... ذلك الرجل مريض نفسياً، وقد كان مهووساً بالفتاة لكنه كان يلتقي نساءً أخرياتٍ في الوقت نفسه.

قاطعه علي:

- جيل؟ هل تعرفها؟

كشّر مسلم:

- هؤلاء الناس في غاية السوء... المرأة طمّاعة وزوجها غريب الأطوار... في كل الأحوال أُصيب الرجل بسكتة واختفى وبدأت هي تأتي وحدها. أحياناً كانت تأتي مع إنجين الذي كان يستولي على أموالها كما قد تتخيّلون.

طغى صوت التصفيق على صوت مسلم فقد انتهى عرض المغنية وبدأت المضيفات يصفّقن لها بدلاً من الزبائن. انحنت المرأة الناهد لرجال لم يتنازلوا وينصتوا إليها، وبينما كانت تنزل عن المنصة بدأ الموسيقيون ينهضون... يبدو أنهم يأخذون استراحة قصيرة.

حين لاحظ مسلم أن عينيّ مسمّرتان على عازف المزمار سأل ببراءة:

- هل أنتم هنا من أجل سادري؟

وبدلاً من أن أجيبه، نظرت إليه متأسّفاً بحيث لم يعد هناك مجال للنقاش.

- ماذا تقصد؟ سادري...؟ الغجري هو من قتل إنجين؟

لم يجبه أحد منّا فقال:

- لقد خطر الأمر ببالي لكنني لم أستطع تصوّره يفعل ذلك. طلبت إليه أن ينسى أمر الفتاة... أظن أن هذا يعني أنه لم ينصت إليّ... يا للأسف.... سيموت

ذلك الرجل في السجن.

رآنا سادري لكنه لم يتأكد منّا فأمعن النظر حتى تعرف عليّ أولاً.

- حضرة الضابط...

وبينما كان يحاول الابتسام لاحظ علي وزينب فشق طريقه نحونا وهو يجرّ قدميه:

- أهلاً...

نهض مسلم بصمت عن مقعده وقال مخفياً حزنه:

- تعالَ يا سادري... تفضّل بالجلوس... لديّ عمل أقوم به.

نظر إلى رئيسه شاكراً وقال:

- شكراً لك يا مسلم بيك.

لم يتكلّم أحد من الحضور لبرهة ولا حتى علي.

- لقد جئتم لأجلي... أليس كذلك؟

نعم... كان سادري هو من كسر حاجز الصمت، فأجبته بصوت حزين:

- لقد جئنا لأجلك... جئنا لنأخذك.

لم ينزعج أو ينكر شيئاً.

- كيف عرفتم؟

- أنت من فضحت نفسك. لقد قلت أنك مهاجر بلغاري من دوبرودجا... أمها وأبوها يعرفانك... أو بدقة أكبر سمعا بما جرى معك... أعني مع جينيا... الحادث الذي تعرّضت له أختك.

سحب يده اليمنى عن الطاولة كما لو أنه لم يرغب أن نراها ووضعها في حضنه المظلم.

- إذن هكذا عرفتم...

- نعم... هكذا عرفنا.

ساد الصمت مجدّداً وعلا صوت ضحك الزبائن الثملين حتى أصبح الصمت على طاولتنا غير محتمل.

- تلك الليلة... أعني ليلة الحادث... قلت إنك تشاجرت مع إنجين وهاجم

عزيزة هنا... أليس كذلك؟

هزّ رأسه بهدوء وكأن الحادث لا يخصه.

- هذا صحيح... هذا ما رأيت... لقد فعل هذا من قبل، لكنني لم أره غاضباً كذلك اليوم... أظن أنه كان منتشياً من المخدّرات فقد ضرب الفتاة بوحشية دون أي تفكير بالعواقب، كما شتمنا. لم أكترث لشتائمه لكن بينما كنت أغادر الغرفة هدّد عزيزة قائلاً: "لن ينتهي الموضوع هنا... لن أدعك وشأنك أيتها الساقطة!".

لقد ذُعرت... لا لأجل نفسي وإنما لأجل عزيزة، فقد ظننت أنه سيقتلها حقاً إذ إنه لم يتكلم هكذا من قبل، وتصوّرت عزيزة ميتةً أمام عينيّ... الكفن... القبر... دفنها في ثوب زفاف كبيمبي... لا... لن أسمح بحصول هذا. تركت عزيزة وحيدةً في مكتب مسلم وتوجّهت إلى المطبخ حيث أخذت السكين الأكثر حدّة... كان الموسيقيون في استراحة، فأسرعت إلى الشارع، ولم تكن قد مضت سوى بضع دقائق على مغادرة إنجين. وبعد أن ركضت لبضع مئات من الأمتار انقطعت أنفاسي وكنت على وشك فقدان الأمل حين رأيته...

كان يمشي بسرعة وغضب فتبعته محاولاً ألاّ يتنبّه لي، ومع كل خطوة كنت أقترب منه أكثر حتى تنبّه لي... عرفت ذلك من الطريقة التي أبطأ بها وتلاشي طموحه كما عرفت أن معه مسدساً ما يعني أن أمامي فرصة واحدة وإن لم أستطع قتله فسيقتلني، وحين رأيت كتفه اليمنى تتحرك عرفت أنه يمد يده إلى مسدسه ليلتفت ويطلق النار عليّ، فتوقفت ورفعت السكين في يدي وانتظرت، وبعد خطوتين توقف هو أيضاً والتفت إليّ مصوباً مسدسه فرميت السكين... عندها سقط المسدس وابتسم لي قبل أن يقع على ظهره أرضاً. اتجهت نحوه فوجدته ميتاً لكن عينيه كانتا مفتوحتين، فأخذت السكين وأسرعت إلى هنا حيث غسلتها وأعدتها إلى مكانها. كانت الموسيقى على وشك أن تبدأ فصعدت المنصة وجلست في مقعدي وأمسكت بمزماري... ربما ما كان ينبغي لي فعل ذلك أو بالأحرى ما كنت لأستطيع فعل ذلك لأنني كنت سأفهم أن إنجين لن يقتل عزيزة، فقد كان يحبها أيضاً... نعم... على الرغم من أنه لم يعرف كيف يحبها.

- وأنت؟ هل كنت تحب عزيزة؟

طرح علي السؤال بدافع الفضول والحزن، لا كشرطيٍّ وإنما كشاب تأثّر بالقصة التي سمعها.

- الحب! الحب؟ ما هو الحب يا حضرة الضابط؟
- لا أدري... الاهتمام بشخص دون القدرة على الوصول إليه؟ الرغبة بشخص لا يمكنك الحصول عليه؟ لا أدري... ربما الحاجة لشخص إلى جانبك... لكن لكل امرئ تعريفه الخاص للحب. أليس ذلك صحيحاً؟ الأمر يختلف من شخص لآخر. الحب...

تمتم سادري:

- كانت تذكّرني بأختي... لا بمظهرها وإنما بنظرة عينيها وطريقة كلامها... كان فيها شيء يذكّرني بأختي الميتة... بطريقتها التي كانت تواجه بها العالم وحدها... كيف كانت تحدّق ببراءة إلى وجهي... لا أدري... لا أظن أن ذلك كان حباً... ما فعلته لم يكن الصواب... لقد قتلت رجلاً، لكن الحب ليس له علاقة بالفضيلة، فلو كان الحب مرتبطاً بالفضيلة لتركت عزيزة إنجين منذ زمن ولما ذهبت ورمت بنفسها أمام منزله قائلة: "أرجوك لا تتركني!" في المرة الأولى التي ضربها فيها... لا... الحب ليس بالأمر الجيد... إن سألتني ما هو الحب فلن أعرف بماذا أجيبك لكنه ليس جيداً. في الواقع كنت سآتي لتسليم نفسي... أقسم بذلك يا حضرة الضابط.. لأشرح كل ما فعلته كما فعلت الآن... لقد قررت أن آتي في تلك الليلة، إذ ما كان هناك فرق بالنسبة إليّ، إن كنت سأعيش داخل السجن أو خارجه. لكنني حين رأيت النظرة على وجه عزيزة، حين علمتْ بمقتل إنجين، أصابني الخوف، فقد كانت لا تزال تحبه بجنون، فخفت إن علمت أنني من قتله أن تكرهني. عزيزة هي الإنسانة الوحيدة التي أقدّرها... لا أريدها أن تكرهني... حسناً... قد تكون طريقة تفكيري في غاية الغباء... لأنها ستظل تكرهني... حسناً... فلتكرهْني... وماذا عساي أن أفعل؟ كما قلت لك يا حضرة الضابط... الحب لا يتوقّف على الفضيلة... ليس للحب علاقة بالطيبة.

أفضل أخٍ كبيرٍ في بيه أوغلو



بدأ الثلج يتساقط مجدّداً بهدوء لتتناثر ندف الثلج فوق بيه أوغلو. تركت منزلي للذهاب إلى مركز الشرطة ومشيت قليلاً في شوارع تارلاباسي. سيتم أخذ سادري اليوم إلى مكتب المدّعي العام وأريد أن أذهب معه. وربما يرسل مديره الحكيم مسلم أحد رجاله ليضع بعض الليرات في جيبه... لا... عزيزة لم تقبل أن ترى سادري، وقد كان القاتل محقاً. فحين علمت أنه قتل حبها الوحيد صُدمت في البداية ثم شتمته وقالت إنها لن تسامحه ما دامت على قيد الحياة، ربما ستفهم يوماً ما، وهي تنظف الحمّامات في ماخور في إحدى المدن الصغيرة، أن سادري كان الوحيد الذي أحبها بصدق... وربما لن تفهم مطلقاً وستظل تكرهه حتى تلفظ أنفاسها... ذلك الموسيقي الذي قضى على حياة الرجل الذي أحبت. ولا أخفي أنني أقرب لأولئك الذين يخسرون من أولئك الذين يربحون، فهناك كثير من التعاطف معهم لما مروا به من الألم، ولفهم هذا لسنا بحاجة سوى للنظر إلى مأساة سادري... نعم... إنه قتل إنجين لكنه الضحية الحقيقية في القصة. وبالإضافة إلى براءته فإن نقاء عزيزة لن يكون أكثر من زجاج النوافذ في تلك المباني المهجورة... نعم... تلك المباني المتروكة... تلك المنطقة السيئة السمعة التي أسأنا لها بكراهيتنا والهيستريا الجماعية... تلك الجرائم... ذلك الشر... تلك السوق حيث يُباع اللحم البشري... أفترض أنني لذلك انعطفت بصديقتي الكهلة المخلصة إلى أحد الشوارع الجانبية لرؤية هذا الحي المتهاوي في قلب المدينة وسبر أعماقه والإحساس بلعنته.

ركنت سيارتي أمام نادي تارلاباسي حيث قُتِل إنجين وحيث بهتت بقعة

الدم على الرصيف منذ زمن، ثم توجّهت نحو كادين سيكمازي حيث أهرق علي دم طارق وتمشيت قليلاً في الساحة الصغيرة التي نشبت فيها المعركة. كان قلبي يعتصر ألماً وأنا أفكر ببيرانا وكيتو كما فكرت بدايس ونظام وفلي نيسمي وابني الأخ الشابين، والذين قتلوا بالرصاص... لقد ولدوا ليعيشوا حياة خطأ... كأشخاص خطأ... لم أمر بمركز فرحات سيراج الثقافي الذي تولى رعاية ماستي إذ لم تكن لديّ الجرأة للنظر في عيني نازلي اللتين يملؤهما الحزن. وحين وصلت إلى شارع نادي تارلاباسي الأصيل نظرت إلى الأرض حيث كان جسد فيدان النحيل ملقى، لكن لم يكن هناك أي أثر للجريمة أيضاً. فسرّعت خطاي إذ كنت أريد الابتعاد عن كل ما جرى... وكأن بوسعي الهرب...

– يا حضرة الضابط! يا حضرة الضابط...

كنت قد تعوّدت على ذلك الآن فدائماً هناك أحد يناديني في هذه الشوارع... التفتُّ ورأيتُ بائع الكتب... صديق ذلك الروائي الغريب الأطوار... كان واقفاً على باب المتجر يلوّح لي بود. كان الرجل مؤدّباً للغاية لكن لم يكن لديّ الصبر للدردشة معه الآن.

قلت من بعيد:

– أهلاً يا كمال بيك... كيف حالك؟

كنت أحاول الهروب بلباقة لكنه لم يسمح لي.

– لديّ شيء لك... شخص ما تركه لك.

من أين أتى هذا؟ لن أستطيع الهرب لذا فقد اتجهت نحو المكتبة ونفضت الثلج عن معطفي أمام المتجر ودخلت.

– ما هو؟

وبابتسامة غامضة على شفتيه ناولني كتاباً.

– آخر روايات جارك... لقد صدرت اليوم.

إذن كانت هذه آخر محاولات الكاتب المزعج لإنشاء علاقة معي... تمتمت بانزعاج:

– كان بإمكانه إحضارها إلى منزلي فأنا أعيش بجواره.

رد مدافعاً عن صديقه:

- كان سيفعل ذلك لكنني أصررت. أتذكر أنك قلت أنك ستمر بي؟ لقد طلبت منه أن يتركها عندي فلبّى لي طلبي.

تناولت الكتاب.

- في كل الأحوال، شكراً لك.

أشار إلى الكتاب.

- لقد وقّعه لك.

أوه... يا له من شرف... وكأنني أكترث لتوقيعه... لكنني قلت ببرود:

- يا للروعة.

ووضعت الكتاب تحت إبطي دون أن أنظر إلى الغلاف، ثم مددت يدي لبائع الكتب الذي كان يحدّق إليّ بتعابير وجهه الغامضة.

- آسف يا كمال بيك لكن عليّ الذهاب فأنا في عجلة من أمري.

هذه المرة لم يصرّ وإنما قال:

- أتفهّم ذلك. حين لا تكون لديك مشاغل تفضّل بزيارتي.

سارعت في الخروج من المتجر وانعطفت إلى شارع ميس، حيث توقفت وأخرجت الكتاب من تحت إبطي، وألقيت نظرة سريعة على الغلاف ليظهر أمامي عنوان الرواية... حين تهمس أشجار بيرا...أخرجت نظّارتي من جيب معطفي ووضعتها على طرف أنفي ثم قلبت الصفحة بسرعة:

يبدو كأن القاتل تصرف بسرعة أكبر



كانت ليلة رأس السنة كابوساً بالنسبة إلى رجال الشرطة، فحين يكون الجميع يضحكون في تلك الليلة ويستمتعون بحفلات الرقص فإننا نقضي ساعات رهيبة... كابوس مظلم لعين لا ينتهي، يبدأ بعد الظهيرة ويستمر حتى بزوغ نور اليوم الأول من السنة. تقع حوادث دائماً في هذا الوقت إذ يقوم أحدٌ ما بإطلاق الرصاص أو الطعن بسكين أو قتل أحدٍ ما. حتى الآن كان الأمر دائماً على هذا النحو وسيستمر ذلك إلى الأبد، ولهذا يتم رفض الإجازات ويتأهب كل رجال الشرطة، ففي حين يقوم بعض الناس بالاستمتاع والخروج إلى المطاعم الراقية والنوادي الليلية، أو يمضي الآخرون الوقت في بيوتهم مع عائلاتهم وأحبّتهم نقوم نحن رجال الشرطة باستقبال السنة الجديدة باحتفالاتنا البسيطة المزعومة في مراكزنا المملّة بمزاج سيئ وجميعنا متيقظون بانتظار الإعلان الذي سيصلنا عبر الإذاعة. لكن الليلة مر الوقت دون أي حوادث تُذكر باستثناء الأذيّات البسيطة والإزعاجات المخزية التي تحدث كل رأس سنة في تقسيم. ربما ستكون الليلة حالة استثنائية، ولن يقوم أحد بقتل أحد وسيؤجل القَتَلَة عملهم الليلة. وبينما كانت آمالنا تتزايد وصلنا الإعلان حيث كان علي واقفاً يتناول آخر فتات كعكته بالتوت البري وكنت أحتسي قهوتي... في تلك اللحظة أعلن جهاز البث عن جريمة القتل الأولى في السنة الجديدة حيث تم العثور على جثة رجل في تارلاباسي.

الظلام... تشتدُّ وطأته بسبب البرد. ومن البعيد، تصل إلى مسمعه ترددات أغانٍ، وصيحات نساء جذلة، وعويل سكارى. أحدهم يشتم، وقد يكون غيره ينوح، وربما هناك ثالث يصارع الموت وسط نشاز الضوضاء. ولكنه لا يكترث لشيء، ولا شيء في صدره سوى الغضب... يسير من دون أن يعرف إلى أين تدفعه الكراهية؛ بعد أن أحكم وحش الغيرة الأخضر العينين قبضته الفولاذية على قلبه، وما زال يعصره. النساء... يصرخ صوت من أعماقه... النساء لا يمكنك العبث معهن. قد تظن أنك تتسلّى معهن لتكتشف لاحقاً أنك أصبحت الدمية بين أيديهن. في الشارع، تبدو وجوه النساء اللواتي عرفهن في حياته. تسقط صورهن عند قدميه واحدةً تلو الأخرى. رؤوسهن مطأطأة، وعيونهن يملؤها الحزن... جميعهن محطّمات القلوب. يزيحهنّ عن كاهله، ويتخطّاهنّ ويدوسهنّ، ولكن الصور تعود وتسقط على الأرض ثانية. النساء... يصدح الصوت ثانية. لا يمكنك الهرب منهن، فأرواحهن ستطاردك ما بقيت حياً.



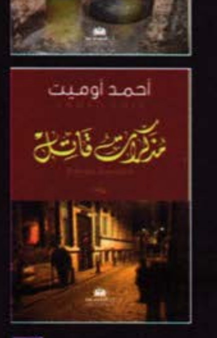


ولد أحمد أوميت في العام 1960 في مدينة غازي عينتاب جنوبي تركيا، وانتقل إلى اسطنبول في العام 1978 ليلتحق بالجامعة. في العام 1983 تخرّج من كلية الإدارة العامّة في جامعة مرمرة، وكتب أول قصصه. كان أوميت عضواً فاعلاً في الحزب الشيوعي التركي بين عامي 1974 و1989، وشارك في «الحركة السرية من أجل الديمقراطية» حين كانت تركيا ترزح تحت وطأة الديكتاتورية العسكرية بين 1980-1990. منذ العام 1989، كان أوميت قد نشر ديوان شعر واحداً، وثلاثة مجلدات قصص قصيرة، وكتاب حكايات شعبية، وحكاية قصيرة، وستّ روايات طويلة. يُعدّ أوميت أحد أشهر الكتّاب المعاصرين في تركيا.

صدر للمؤلف أيضاً:

أحمد أوميت
AHMET UMIT
صروح أسطنبول
Istanbul Hatirasi

أحمد أوميت
AHMET UMIT
باب الأسرار
Bab-ı Esrar
رواية



facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
ISBN 978-614-01-1552-1
9 786140 115521



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

